الحلل السندسية

في

الاخبار التونسية

تاليف

الشيخ العالم العلامة الاديب البارع الفاضل

ابي عبد الله محمد بن محمد الاندلسي

شهر

الوزير

تغمده الله برحمته

طبعة اولى

في مطبعة الدولة التونسية بحاضرتها المحمية

سنة ١٢٨٧

الحلل السندسية

في

الاخبار التونسية

تاليف

الشيخ العالم العلامة الاديب البارع الفاضل

ابي عبد الله محمد بن محمد الاندلسي

شهر

الوزير

تغمده الله برحمته

طبعة اولى

في مطبعة الدولة التونسية بحاضرتها المحمية

سنة ١٢٨٧

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي جعل في حوادث الايام والسنين * اعظم عبرة للعقلاء المعتبرين * وندب لتقييد اخبار سير الماضين * جهابذة من الفضلاء نقادين * ففحصوا عن ابناء امم تلك القرون الماضية * وتصاريفهم في سيرتهم الحميدة والعادية * فنظموا جواهر سير المحسنين في سلك الاحسان قلائد * وزوجوا بصلاتهم في الدفاتر بما اغنى عن الصلة والعائد * وادغموا الضد بعظيم ما اجترى من المفاسد وخرق من متعارف العوائد * في امهال ذي القدرة الباهرة على العتاة والتمكين * القائل جل ذكره واملي لهم ان كيدي متين * والشكر له سبحانه على الهام الفضلاء لاثبات تلك الوقائع في الكتب والدفاتر * والتنبيه على حال من تقدم او تاخر في تلك المآثر * حتى صار النظر فيها والتمتع باخبارها اليهم احب من الآنسة * ويرى الناظر فيها القرون الماضية حاضرة وَاعْظُمُهُمْ دارسة * فسبحان من وفق من شاء بفضله لاقتناء الخصال الحميدة * وحسن تصريفه في سيرته المرضية الرشيدة * احيى بها ذكره على ممر الايام وتعاقب الدهور * ولا شك ان تخليد فضائل الفضلاء في الكتب حياة الى يوم النشور * فهم وان بانوا عن الدنيا بالاجسام وفاتوا * فيما تركوا فيها من المآثر الحسنة احياء ما ماتوا — شعر —

انما المرء

انما المرء حديث بعده فكن حديثا حسنا لمن وعى

افاد سبحانه من شكر منهم لاحسان من عوائد كرمه النعم الوافرة * واباد بعدله من كفره من الطغاة والجبابرة * فاصبح الكل وقد دار عليهم كاس الحمام احاديث * تسامر بها الفضلاء في القديم والحديث * ولله در اشعر الانس والجن ابو العتاهية * حيث يقول فيهم وفي امثالهم ما تعيه كل اذن واعية * —

شعر —

حدث حديث القوم من فارس ومن بني قبط ويونان
ومن بني الاصفر اعجب بهم وسيد الاتراك خاقان
والاقدمين الاعظمين الالى من حمير ابناء قحطان
من تبع العرب ومن قيصر الروم وكسرى آل ساسان
من كل قرم شامخ انفه وكل فرعون وهامان
وان نسيت اليوم شيئا فلا تنسى قبيطا اخت كلدان
واذكر ملوك الارض من بعدهم من عرب صيد وعجمان
من كل منصور اللوى اروع شديد اطواق وتيجان
مجتمع الشمل على عزة شدت باساس واركان
قد زلزل الارض وراع الورى من جيشه الضخم بطوفان
وذلل الخلق بسلطانه كانه رب لهم ثان
انظر اليهم هل ترى منهم غير احاديث بافنان
وانظر الى الموت واعماله فيهم ترى الملك ببرهان
وتبصر القوم وما ذا لقوا بالموت من ذل وخسران
قد صفعتهم يده صفعة خروا للاذقان وللاذقان
ودك في الارض بتيجانهم والبسوا تيجان صمان
من حجر صلد ورخو ومن ترب وحصباء وميدان
وانزلوا بطن الثرى بعد ما كانوا قعودا فوق كيوان
واطعم الديدان لحمانهم يا لك من لحم وديدان

فكم هناكم من فتى ناعم ومن فتاة ذات اردان
ومن هزبر مسرح في الوغى وظبية تسرح في بان
كانوا كذا ثم غدوا عبرة للنازح الدار وللدان
ولم يدافع عنهم جحفل قد طبق الارض بفرسان
ولا بيوت ملئت كلها من لولو بحت وعقيان
بل مر ذاكم كله مسرعا كالريح مرت بين قضبان
واصبح الملك لمن ملكه باق وكل غيره فان

واشهد ان لا اله الّا الله وحده * شهادة من الهم رشده * وعول في جميع المطالب عليه * وصرف همته في سيرته الى ما يقربه اليه * ويهيئ له من الجزاء على الاحسان لديه * ليكون من الفائزين بين يديه * والصلاة والسلام على من عمت بعثته سائر الامم * وقص عليه اخبارها في كتابه المنزل عليه ذي الحكم * وكانت امته خير امة اخرجت للناس * ومنحت من الفضائل على غيرها ما لا يدخل تحت قياس * صلى الله عليه وعلى ءاله واصحابه ما اتصلت بالاجسام الانفاس * ودامت شريعته المطهرة داحضة للشرور والارجاس * وبعد فلما كان علم التاريخ مما ترغب فيه النفوس الزكية * وتطرب لسماع ما احتوى عليه من الاخبار افكارهم الالمعية * اذ به تتضح احوال من تقدم من الملوك في سيرتهم وتصرفاتهم * وتضبط به صفات علماء زمانهم من هداتهم * وتعلم به الهداة منهم القادة * والسالكون في مناهج الاخلاص في العبادة * ويتميز به صحة الاسناد في العلوم * ويعلم به الصحيح في ذلك والموهوم * اذ ببيان سير وفيات من تقدم في الازمان * يعلم صحة اخذ المتاخر عن المسند اليه من الاعيان * ولولاه لاندرست الاخبار * واشتبه وضع الاشرار على الاخيار * اردت ان اولف في هذا القطر الافريقي كتابا محيطا بحقيقته ومن كانت له فيه دولة * مبينا لفضلاء ملوكه من ذوي الهيبة والصولة * مميزا لمتعبداته المباركة بما وجد بها من الاسرار * ولعلماء كل

دولة وما احتوت عليه من السادات الاخيار * ذاكرا لعلومهم ومصنفاتهم * مبينا لتاريخ ولادتهم ووفاتهم * ممن كانوا فيه وبانوا من العرب * وحل فيه بعدهم من العجم حين عم الفساد من عربانه ولحمايته منه انتدب * ولما لم اجد له تاريخا لمن تقدم من الافاضل * جامعا لحلي من ملك فيه من الاوائل * اجعل الاعتماد عليه * واعول في الوقائع والقضايا على التحقيق بالاستناد اليه * بعد تطلبي ذلك اشد الطلب * وجدي وسوالي عن ذلك من نسل من كل حدب * اقتطعت هذه الاخبار فيه من رحلات افاضل سيمر بك ذكرهم في خلال هذا الكتاب * ونتف من مجموعات ذكرت فيها بعض اخباره استطرادا من فضلائها الانجاب * ومسموعات من بعض الاخوان والاصحاب * وخبيات افكار امتلا بها الوطاب * فجاء بحمد الله نسجا ولا اقول انه بديع ولكل عويصة ذلل * بل هو بحسب قريحتي الجامدة وقصوري في العلوم نسج مهلهل * ورحم الله الشاطبي — نظم

اخي ايها المجتاز نظمي ببابه ينادي عليه كاسد السوق اجملا

وظن به خيرا وسامح نسيجه بالاغضاء والحسنى وان كان هلهلا

والقصد من هذا المبارك ان شاء الله ذكر ما مضى من زمن فتحها * اذ تلك مقدمة لا محيد عن شرحها * ثم ذكر ملوكها قبل الدولة العثمانية ثم ذكر حكامها بعد الفتح العثماني خلد الله لاعلاء كلمة الدين نصره * وشد بمنطقة اليقين في الحق ازره * ثم تفصيل ما حدث من سنة اثنتين وتسعين والف لان وقائع اخبارها ابكار قضايا لم يفك ختامها * ونجائب هدايا لم ينحطم زمامها * واسال الله من فضله ان يجعله خالصا لوجهه الكريم * وسببا للفوز بجنات النعيم * اذ مقصدي الاهم والله به اعلم اداء واجب شكر ما انعم الله به علينا من منن هذا الملك الذي قلدنا في المضيق قلائد جوده الوافر * وازال ظما ازماننا بفياض احسانه الزاخر * ووشى صفحات الايام * بمآثر العلماء الاعلام * والله المستعان * وعليه التكلان * ورتبته على ثمانية ابواب وخاتمة الباب الاول في التاريخ

وفيه ثمانية فصول الفصل الاول في حد التاريخ الفصل الثاني في ذكر مبادي التاريخ قبل الاسلام الفصل الثالث في سبب وضع التاريخ الاسلامي الفصل الرابع في مبدا التاريخ الاسلامي الفصل الخامس في ذكر الاسوة فيه بنص القرءان العظيم والسنة المحمدية على صاحبها الصلاة والسلام الفصل السادس في ذكر فوائده وما ينشا عن الجهل به والرد على من يرد عليه الفصل السابع في ذكر اسماء الاشهر والايام اذ لا ينضبط التاريخ إلّا بمعرفتها وذكر مصطلح الامم الاول عليها وما جرت عادة الله في بعضها الفصل الثامن ذكر مدة العالم البـــاب الثاني في ذكر المغرب وفيه فصلان الفصل الاول في فضل المغرب عموما الفصل الثاني في حده البـــاب الثالث في ذكر افريقية وفيه اربعة فصول الفصل الاول في فضل افريقية الفصل الثاني في حد افريقية وما اشتهر من مدنها وبلادها حسبما وقفت عليه الفصل الثالث في سبب تسميتها بلفظ افريقية الفصل الرابع في فتحها البـــاب الرابع في ذكر قرطاجنة وفيه ثلثة فصول الفصل الاول فيمن بنى قرطاجنة الفصل الثاني في القناة التي بها الفصل الثالث في فتحها البـــاب الخامس في تونس وفيه ثلاثة فصول الفصل الاول في فتحها الفصل الثاني في مسجدها الاعظم جامع الزيتونة وبعض ايمته ومدرسيه الفصل الثالث في ذكر اماكن تشرفت مدينة تونس بها حرسها الله تعالى البـــاب السادس في ملوكها قبل الدولة العثمانية وفيه خمسة فصول الفصل الاول في ملوك الاغالبة الفصل الثاني في الملوك العبيديين الفاطميين الفصل الثالث في الملوك الصنهاجية الفصل الرابع في ملوك بني عبد المومن بن علي الفصـــل الخامس في الملوك الحفصيين وهم ختام الجزء الاول البـــاب السابع في الامراء الذين تولوها تحت طاعة ءال عثمان خلد الله للاســـلام نصرهم * وادام على العداة الكافرين ظفرهم * الى دولة الشريف ابراهيم باي وفيه ختام الجزء الثاني والخاتمة في نظم سيرة حسين باي الامير الذي هو السر الجامع

لمفصل

لمفصل هذا الكتاب * والسبب الداعي للشرب من هذا المنهل المستطاب *
وان كانت مزاياه يحكم القياس بتقديمها فان عظماء الملوك يقدمها توابعها
والامور بخواتمها وختامه عند سنة سبع وثلاثين ومائة والف وهو ءاخر
الجزء الثالث الباب الثامن في استطراد اخبار منفصلة اولها من سنة
اثنين وتسعين والف سائرا بها على ترتيب السنين ومهما عرضت ترجمة
بعض الاولياء او العلماء ندخلها في سنته حسب الامكان والله الموفق للصواب
واليه المرجع والمآب والله يحفظنا فيه من النفس الامارة انه على ذلك قدير
وبالاجابة جدير وسميته — الحلل السندسية * في الاخبار التونسية — *

الباب الاول في التاريخ وفيه ثمانية فصول

الفصل الاول في حد التاريخ

قال في التوقيف على مهمات التعريف التاريخ ذكر ابتداء مدة
الشي ليعرف به مقدار ما بين ذلك الابتداء وبين اي وقت اريد .
قال في سمط اللآل ومنه قيل فلان تاريخ قومه اي الذي ينتهي اليه
شرفهم . وقال في القاموس ارخ الكتاب وارخه قال في سمط اللآل
وهو افصحها كما في ءاداب الكتاب وآرخه وقته . وقال ابو محمد محمود
العيني التاريخ تعريف الوقت وكذلك التوريخ . وقال الصيداوي اخذ
التاريخ من الارخ كانه شي حدث كما يحدث الولد وقال الصاغاني
قال ابن شميل يقال للانثى من بقر الوحش ارخ بالفتح وجمعه اراخ
كفرخ وفراخ وقال الصيداوي هو الارخ بالكسر وضعف الازهري قوله .
وقال الشيخ الامام ابو نصر اسماعيل بن حماد الجوهري في كتابه الصحاح
ارخت الكتاب يوم كذا وورخته بمعنى . قال العيني فرق الاصمعي بين
اللغتين فقال بنو تميم يقولون ورخت الكتاب بالواو توريخا وعلى كل من
المضعف وغير المضعف سواء كان مهموزا او واويا فانما اوتي به لتعرف
المدة كما سبق غير ان لغة بني تميم قال في سمط اللآل وهي اقل اللغات
وقيس تقول ارخته تاريخا . وقيل التاريخ معرب ماه روز وكلاهما بالفارسي

ومعناه حساب الايام والشهور . وقال ابو الفرج قدامة بن جعفر الكاتب في كتاب الحذا له ان تاريخ كل شيء ءاخره فيورخون بالوقت الذي فيه حوادث مشهورة وقال الصاغاني قيل ان التاريخ ليس بعربي محض وانما المسلمون اخذوه من اهل الكتاب .

الفصل الثاني من الباب الاول في ذكر
مبادي التاريخ قبل الاسلام

واختلف في مبدا التاريخ اول الدنيا قال الحافظ المحقق جلال الدين السيوطي رحمه الله تعالى رواية عن محمد بن صالح عن الشعبي قال لما اهبط الله ءادم الى الارض وانتشر ولده ارخ بنوه من هبوط ءادم فكان ذلك التاريخ حتى بعث الله نوحا فارخوا من بعث نوح حتى كان الغرق فهلك كل من كان على وجه الارض . فلما نزل سيدنا نوح وكل من كان في السفينة قسم الارض بين اولاده اثلاثا فجعل لسام وسطا من الارض ففيها بيت المقدس والنيل . وجعل قسم يافث مما وراءه الى منحر ريح الصبا والفرات ودجلة وسيحان وجيحان ونواحي ذلك الى الشرق من النيل وما بين منحر ريح الجنوب الى منحر ريح الشمال . وجعل لحام قسم غربي النيل الى ما وراءه الى منحر الدبور فكان التاريخ من الطوفان الى نار ابراهيم عليه السلام . قال ابن الجوزي باسناده الى الشعبي قال لما كثر بنو ءادم في الارض وانتشروا ارخوا من هبوط ءادم عليه السلام وكان التاريخ الى الطوفان ثم الى نار الخليل وهو ابراهيم بن تارح وهو ءازر بن ناحور ابن ساروح . وقد اختلف في معنى الصحف التي انزلت على ابراهيم الخليل فقد روى ابو ذر عن النبي صلى الله عليه وسلم انها امثال فمنها ايها المسلط المغرور لم ابعثك لتجمع الدنيا بعضها على بعض ولكنني بعثتك لترد عني دعوة المظلوم فاني لا اردها ولا من كافر وعلى العاقل ان يكون بصيرا بزمانه مقبلا على شانه حافظا للسانه ومن عد كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه . وابراهيم اول من اختتن واضاف الضيف

وليس

ولبس السراويل . ثم استمر التاريخ منه الى يوسف عليه السلام ثم الى خروج موسى عليه السلام من مصر ببني اسرائيل ثم الى زمن داوود عليه السلام ثم الى زمن سليمان عليه السلام ثم الى زمن عيسى عليه السلام . ورواه ايضا ابن اسحاق عن ابن عباس رضي الله عنهما . قال ابن العربي رحمه الله تعالى ونفعنا به فاول تاريخ كان بهبوط ءادم عليه السلام ثم ببعثة نوح عليه السلام ثم بالطوفان ثم بنار ابراهيم ثم ارخ بموت ءادم ثم ببعث ادريس ثم ان بني اسحاق بن ابراهيم ارخوا بنار ابراهيم الى يوسف عليهما السلام ومن يوسف الى بعث موسى عليهما السلام ومن موسى الى داوود وسليمان عليهم السلام ثم ارخوا بما كان من الكوائن وكان منهم من ارخ بوفاة يعقوب ثم بخروج موسى من مصر ببني اسرائيل ثم بخراب بيت المقدس . واما بنو اسماعيل فمن بناء الكعبة ثم بكل يوم اخرجوا من تهامة ثم بعام الفيل . وقال صاحب المختصر في اخبار البشر ينبغي لمتامل التواريخ القديمة ان يعلم ان الاختلاف فيها بين المورخين كثير جدا . قال ابن الاثير في ذكر ولادة المسيح ان ولادة المسيح عليه السلام كانت بعد خمس وستين سنة من غلبة الاسكندر عند المجوس واما عند النصارى فكانت ولادته بعد ثلاث وستين وثلاثمائة سنة من غلبة الاسكندر وهذا تفاوت فاحش . وكذلك عند ابي معشر وكوشيار وغيرهما من المنجمين ان بين الطوفان وبين الهجرة ثلاثة آلاف وسبعمائة وخمسا وعشرين سنة وهو الثابت في الزيجات مثل الزيج الماموني وغيره واما المحققون من المورخين فيقولون ان بين الطوفان وبين الهجرة ثلاثة آلاف وتسعمائة واربعا وسبعين سنة فيكون التفاوت بينهما مائتين وتسعا واربعين سنة وسبب هذا الاختلاف ان من هبوط ءادم الى وفاة موسى عليهما السلام لا يعلم الا من التوراة والتوراة مختلفة على ثلاث نسخ . واما ما بين وفاة موسى عليه السلام وابتداء ملك بختنصر فيعلم من المنجمين . قال ابو عيسى ويعلم من قرانات زحل والمشتري في المثلثات وهم ايضا مختلفون في ذلك . ونسخ

التوراة ثلاث سامرية وعبرانية ويونانية ففي السامرية ان من هبوط ءادم الى الطوفان الفا وثلاثمائة وسبعا وستين سنة وان الطوفان لستمائة سنة خلت من عمر نوح وعاش آدم تسعمائة وثلاثين سنة باتفاق فيكون نوح على حكم هذه التوراة قد ادرك من عمر ءادم فوق مائتي سنة وانه ادرك جميع ءابائه الى ءادم وهذا غاية المنكر وقد ظهر فسادها من كونها تقتضي ادراك نوح آدم وعيشه معه المدة الطويلة . واما التوراة العبرانية فهي ايضا فاسدة وذلك لانها تنبي ان بين هبوط ءادم وبين الطوفان الفا وخمسمائة سنة وستا وخمسين سنة وبين الطوفان وبين ولادة ابراهيم مائتان واثنتان وتسعون سنة وعاش نوح بعد الطوفان ثلاثمائة وخمس سنين باتفاق . فالتوراة العبرانية تنبي ان نوحا ادرك من عمر ابراهيم الخليل ثمانيا وخمسين سنة وهذا ايضا غاية المنكر فان نوحا لم يدرك ابراهيم اصلا . واما التوراة اليونانية فهي التي اختارها المحققون من المورخين وليس فيها ما يقتضي الانكار من جهة الماضي من عمر الزمان وهي توراة نقلها اثنان وسبعون حبرا من قبل ولادة المسيح بقريب ثلاثمائة سنة لبطليموس اليوناني الذي كان بعد الاسكندر ببطليموس واحد والذي تنبي به هذه التوراة اليونانية ان ما بين هبوط ءادم والطوفان الفان ومائتان واثنتان واربعون سنة وما بين الطوفان — وكان لستمائة سنة مضت من عمر نوح عليه السلام — وبين مولد ابراهيم الخليل الف واحدى وثمانون سنة وبين مولد ابراهيم ووفاة موسى خمسمائة وخمس واربعون سنة باتفاق نسخ التوراة جميعها وبين وفاة موسى وبين ملك بختنصر فيه خلاف بين المنجمين والمورخين واما بين ابتداء ملك بختنصر وبين الهجرة فهو الف وثلاثمائة وتسع وستون سنة وسبعة عشر يوما وليس فيه خلاف لان بطليموس اثبته وارخ به رصده فيكون بين الهجرة وبين هبوط ءادم ستة آلاف سنة ومائتان وست عشرة سنة . وهذا القدر هو المختار وعليه المبنى حسبما اعتمده المويد وبنى عليه كتابه . واما الذي اختاره المنجمون واثبتوه في الزيجات

من

من المدة بين وفاة موسى وبين بختنصر فانه ينقص عما ذكرناه مائتين وتسعا واربعين سنة * انتهى من المختصر * وقال الواقدي رحمه الله ان التاريخ كان من ءادم عليه السلام الى الطوفان ثم الى نار الخليل ثم ارخ بنو اسماعيل من بناء البيت ثم الى معد بن عدنان ثم الى كعب بن لوي ثم من كعب الى عام الفيل . وحكى محمد بن سعد عن ابن الكلبي ان حمير كانت تورخ بالتتابعة وغسان بالسد واهل صنعاء بظهور الحبشة على اليمن ثم بغلبة الفرس . ثم ارخت العرب بالايام المشهورة كحرب البسوس وفي الصحاح والبسوس اسم امراة وهي خالة جساس بن مرة الشيباني كانت لها ناقة يقال لها سراب فرءاها كليب وائل في حماه وقد كسرت بيض طير كان اجاره فرمى ضرعها بسهم فوثب جساس على كليب فقتله فهاجت حرب بكر وتَغْلِب ابني وائل بسببها اربعين سنة حتى ضربت بها العرب المثل في الشوم وبها سميت حرب البسوس . وارخوا بداحس والغبراء وداحس اسم فرس مشهور لقيس بن زهير بن جذيفة العبسي ومنه حرب داحس وذلك ان قيسا وحذيفة ابن بدر الذبياني ثم الفزاري تراهنا على خطر عشرين بعيرا وجعلا الغاية مائة غلوة والمضمار اربعين ليلة والمجرى من ذات الاصاد فاجرى قيس داحسا والغبراء واجرى حذيفة الخطار والحنفاء فوضعت بنو فزارة رهط حذيفة كمينا على الطريق فردوا الغبراء ولطموها وكانت سابقة فهاجت الحرب بين عبس وذبيان اربعين سنة . وارخوا بيوم ذي قار وهو يوم لبني شيبان وكان ابرويز غزاهم فظفر بنو شيبان وهو اول يوم انتصرت فيه العرب على العجم . وارخت العرب بالفجارات ونحوها وهو بكسر الفا بعدها جيم وآخره راء ككتاب وهو يوم من ايام العرب وهي اربعة افجرة كانت بين قريش ومن معها من كنانة وبين قيس عيلان في الجاهلية وكانت الدائرة على قيس . وانما سمت قريش هذه الحرب فجارا لانها كانت في الاشهر الحرم فلما قاتلوا فيها قالوا قد فجرنا . وبين عام الفيل والفجار المذكورة عشرون سنة وبين الفجار وبناء الكعبة خمس

عشرة سنة وبين بناء الكعبة ومبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم خمس سنين . وكان حرب الفجار في شوال كما قاله الواقدي وقيل في شعبان كما في الروض لما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم اربع عشرة سنة او خمس عشرة سنة فيما قال ابن هشام وقال ابن اسحاق عشرين سنة . وكان قبل المبعث بعشرين سنة هاجت حرب الفجار بين قريش ومن معها على كنانة وبين قيس عَيْلانَ وكان الذي هاجها ان عُرْوَةَ الرحّال اجار لطيمة للنعمان ابن المنذر فقال البرّاض ابن قيس احد بني ضَمْرَةَ أتجيرها على كنانة قال نعم وعلى الخلق فخرج فيها عروة الرحال وخرج البراض يطلب غفلته حتى اذا كان بتيمن ذي طِلال بالعالية غفل عروة فوثب عليه البراض فقتله في الشهر الحرام فلذلك سمي الفجار . فاتى آت قريشا فقال ان البراض قد قتل عروة وهم في الشهر الحرام بعكاظ فارتحلوا وهوازن لا تشعر بهم ثم بلغهم الخبر فاتبعوهم فادركوهم قبل ان يدخلوا الحرم فاقتتلوا حتى جاء الليل ودخلوا الحرم فامسكت عنهم هوازن ثم التقوا بعد هذا اليوم اياما . وكان لكنانة وقيس ستة ايام فيه مذكورة يوم شمطة - ويوم العبلاء وهما عند عكاظ - ويوم الشرب وهو اعظمها يوما وفيه قيد ابو سفيان - وحرب ابناء امية بن عبد شمس الستة حرب وسفيان وابو سفيان وعمرو وابو عمرو قلت ذكر ستة وفي تسميتهم لم ار سوى خمسة - ويوم الحريرة عند نخلة انهزمت فيه قيس إلّا بنو نصر منهم فانهم ثبتوا . وشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض ايامهم اخرجه اعمامه معهم . وروى ابن سعد ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال قد حضرته يعني حرب الفجار مع عمومتي ورميت فيهم باسهم وما احب اني لم اكن فعلت وكنت انبل على اعمامي . قال جامعه رحمه الله ورايت لابي عبد الله محمد بن شاكر صلاح الدين ابي عبد الله بن احمد الداراني الاصل الكتبي الصوفي المورخ المتوفي في شهر رمضان يوم السبت حادي عشر منه بدمشق سنة اربع وستين وسبعمائة كما نقل ذلك من تكملة ابن كثير لابي العباس احمد ابن ابي بكر بن خليل بن علي ابن عبد الله الطبراني الكاملي رحمه الله

رحمه الله تعالى قال اعني ابن شاكر المترجم له وهو صاحب عيون التواريخ في الجزء الاول منه ما نصه ذكر الحوادث في سنة اربع عشرة من مولده صلى الله عليه وسلم منها الفجار الثاني وكان بين هوازن وقريش وحضره رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال كنت انبل على اعمامي يعني يناولهم النبل . وقد روي ان هذا الحرب كان ولرسول الله صلى الله عليه وسلم عشرون سنة وانما سمي الفجار لان بني كنانة وهوازن استحلوا الحرم ففجروا وكان سببه ان النعمان بن المنذر بعث بلطيمة الى سوق عكاظ للتجارة واجارها له الرحال عروة بن عتبة بن جعفر ابن كلاب فنزلوا على ماء يقال له اوراه فوثب البراض بن قيس احد بني بكر بن مناة بن كنانة وكان حليفا فاتكا على عروة فقتله وهرب الى خيبر بعد ما استاق العير ولقي بشر بن ابي حازم الشاعر المشهور فاخبره الخبر وامر ان يعلم بذلك عبد الله ابن جدعان وهاشم بن المغيرة وحرب بن امية بالخبر فاتى اليهم واخبرهم فتشاوروا فيما بينهم وقالوا نخشى من قيس ان يطلبوا ثار صاحبهم منا فانهم لا يرضون ان يقتلوا به حليفا من بني ضمرة وكان البراض حليفا لقريش فاتفق رايهم ان ياتوا ابا براء عامر بن مالك بن جعفر بن كلاب ملاعب الاسنة وهو يومئذ سيد قيس وشريفها فيقولون له انه كان حدث حادث بين ارض نجد وتهامة وانه لم ياتنا علمه فاتوه وقالوا له ذلك فاجار بين الناس واعلم قومه ما قيل له ثم قام نفر من قريش فقالوا يا اهل عكاظ انه قد حدث من قومنا بمكة حادث اتانا خبره ونخاف ان تخلفنا عنه ان يتفاقم الامر فلا يروعنكم تحملنا ثم ركبوا على الصعب والذلول الى مكة فلما كان آخر اليوم اتى ابا براء الخبر فقال غدرت قريش وخدعني حرب ابن ابي امية ثم ركب في طلبهم حتى ادركهم بنخلة فاقتتل القوم وكانت الدائرة لقريش وكنانة على قيس فقتلوهم قتلا ذريعا ونادى عتبة بن ربيعة يومئذ وهو شاب الى الصلح فاصطلحوا وانصرفت قريش . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكر الفجار فقال حضرته مع عمومتي ورميت فيهم

باسمهم وما احب اني لم اكن فعلت انتهى . وكان آخر امر الفجار ان هوازن وكنانة تواعدوا للعام المقبل بعكاظ فجاءوا للموعد وكان حرب بن امية رئيس قريش وكنانة وكان عتبة بن ربيعة يتيما في حجره فضن به واشفق من خروجه معه فخرج عتبة بغير اذنه فلم يشعر الا وهو على بعيره بين الصفين ينادي يا معشر مضر عَلامَ تقاتلون فقالت هوازن ما تدعو اليه قال الصلح على ان ادفع لكم دية قتلاكم وتعفوا عن دمائنا قالوا كيف ذلك قال ندفع اليكم رهنا منا قالوا ومن لنا بهذا قال انا قالوا ومن انت قال انا عتبة بن ربيعة بن عبد شمس فرضوا ورضيت كنانة ودفعوا الى هوازن اربعين رجلا فيهم حكيم بن حزام . ولما رات بنو عامر بن صعصعة الرهن في ايديهم عفوا عن الدماء واطلقوهم وانقضت حرب الفجار . وكان يقال لم يَسُدْ من قريش مملق يعني فقيرا غير عتبة وابي طالب فانهما سادا بغير مال . وبين حرب البسوس ومبعث نبينا صلى الله عليه وسلم ستون سنة . وقيل ان الفرس ارخت باربع طبقات من ملوكها فالاول بكيومرث وقيل طهمورث ويقال كلّ شاه ومعناه ملك الصين ويعتقدون انه ءادم . والثاني بيزدجرد . وقال في مسالك الممالك اول الفرس الثانية ازدشير بن بابك بن ساسان ابي اربعة الى ساسان بن بهمن . والثالث بازدشير ابن بابك وهو الذي جمع ملوك الفرس بعد ان كانت طوائف طوائف . والرابع بانوشروان العادل . فمن عدله لما بنى الايوان ووفدت اليه رسل الملوك بالهدايا كان في جملتهم رسول قيصر فنظر الى الايوان وحسن بنائه واعجاز صنعته وراى بموضع منه اعوجاجا فسال عن معنى ذلك فقيل له ان عجوزا لها منزل في جانب الاعوجاج وان الملك راودها على بيعه ورغبها فابت فلم يكرهها فقال الرومي هذا الاعوجاج احسن من الاستواء . وذكر القرطبي في مسالك الممالك عن بعضهم انه قال رايت من انوشروان خصلتين متباينتين جلس يوما للناس فدخل رجل من خاصة الملك فتعدى مرتبته فامر ان يحجب سنة ثم رايته يوما ونحن عنده في سر من تدبير المملكة وخدمه

خلف

خلف سرير ملكه يتحدثون فارتفعت اصواتهم حتى شغلونا عن بعض ما كنا
فيه فقلت له في ذلك وسالته واخبرته بتفاوت الحالين. فقال لي لا
تعجب فنحن ملوك على رعيتنا وحرمنا وخدامنا ملوك علينا يلون منا في خلواتنا
ما لا حيلة لنا في التحرز معهم . وولد رسول الله صلى الله عليه وسلم لاثنتين
واربعين سنة من ملكه ولما كانت الليلة التي ولد فيها رسول الله صلى الله
عليه وسلم ارتج ايوان كسرى فسقطت منه اربع عشرة شرافة وخمدت
نار فارس ولم تخمد قبل ذلك بالف عام وغاضت بحيرة ساوة وراى
الموبذان وهو القائم بامر دينهم ابلا صعابا تقود خيلا عرابا حتى قطعت دجلة
فافزع ذلك كسرى وقص عليه الموبذان ما راى فزاده ذلك ذعرا . فكتب
انوشروان الى النعمان بن المنذر وقد ولاه امر العرب ان يوجه اليه رجلا
من مشاهير العرب يسأله عما يريده فبعث اليه عبد المسيح بن عمرو بن
حسان بن نفيلة الغساني . فلما قدم اليه اخبره بما راى فقال له ايها
الملك لا علم لي بذلك ولكن جهزني الى خال لي بالشام يقال له سطيح
فقال جهزوه فسار فاتاه وقد اشفى على الموت فسلم عليه وحياه فلم يُحِرْ
جوابا فانشد عبد المسيح يقول —

اصمٌ ام يسمع غطريف اليمن   يا فاصل الخطة اعيت من ومن
اتاك شيخ الحي من ءال يزن   ابيض فضفاض الرداء والبدن
رسول قيل العجم يهوي للوثن   لا يرهب الموت ولا صرف الزمن

فلما سمع سطيح قوله رفع اليه راسه وقال عبد المسيح على جمل مشيح
جاء الى سطيح وقد اوفى على الضريح بعثك ملك بني ساسان لارتجاج
الايوان وخمود النيران ورويا الموبذان راى ابلا صعابا تقود خيلا عرابا حتى
اقتحمت في الواد وانتشرت في البلاد عبد المسيح اذا ظهرت التلاوة وبعث
صاحب الهراوة وفاض وادي السماوة وغاضت بحيرة ساوة فليس الشام لسطيح
شاما ويملك منهم ملوك وملكات على عدد سقوط الشرافات وكل ما هو ءات
ءات . ثم قضى سطيح نحبه وقدم عبد المسيح على كسرى فاخبره فقال الى

ان يملك اربعة عشر ملكا تكون امور . تنبيه . انما ملت الى استطراد هذه القطعة الشريفة والنجمة المنيفة التي برزت فيها بتصديق بعثة نبينا سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم العدا اذ ـ الحق ما شهدت به الاعداء ـ استلذاذا بمرور سماعها واستجلاءً بالحث على استماعها اذ هي من قوت قلوب المومنين وسراج افئدة المخلصين اذ هو العروة الوثقى والذروة العظمى والملجا الاحمى والكهف اذا ضاقت المذاهب على المذنبين والسلسال الفياض اذا اشتد الظما بالعصاة المنهمكين . ولقد جذبني المغناطيس الايماني الى حضرة التفكر بضبط اسماء آبائه صلى الله عليه وسلم الطاهرين ـ

محمد بن عبد الله ـ قال صاحب الصلة معنى عبد الله الخاضع لله الذليل له ـ ابن عبد المطلب ـ مفتعل من الطلب واسمه عند ابن قتيبة عامر . قال ابو عمرو بن عبد البر لا يصح وقال ابن اسحاق والجمهور اسمه شيبة وهو الاشهر والاصح . قال ابو عمرو لا نخالف انه يكنى ابا الحارث بابنه الاكبر . ـ ابن هاشم ـ اسمه عمرو شريف المنصب فائض الجود مطعام في الشدائد وسمي عمرو العلاء وعليه قول المادح له ـ

عمرو العلا هشم الثريد لاهله　　قوم بمكة مسنتين عجاف

ـ ابن عبد مناف ـ اسمه المغيرة وقال مالك لا ادري ما اسمه قال ابو عمرو يكنى ابا عبد شمس قال الاستاذ ابو ذر الخشني مناف اسم صنم اضيف عبد اليه كما في عبد يغوث وعبد العزى ـ ابن قصي ـ اسمه عند الاكثر فيما يحكى ابو عمرو زيد مصدر زاد الشي يزيد زيدا وقيل يزيد وسمي مُجَمِّعًا ايضا لجمعه قريشا . قال الشاعر ـ

قصي لعمري كان يدعى مجمعا　　به جمع الله القبائل من فهر

قال السهيلي وهو تصغير قصي يعني بالفتح اي بعيد ـ ابن كلاب ـ جمع كلب لانهم يريدون الكثرة كسباع ونمار او هو منقول من مصدر كالبت لعدو مكالبة وكلابا . وقد سئل بعضهم لم تسمون ابناءكم بشر الاسماء كذئب وكلب وعبيدكم باحسنها كرباح ومرزوق فقال ابناونا لاعدائنا

وعبيدنا

وعبيدنا لانفسنا اي الابناء عدة للعدو وسهام في نحورهم وكان يدعى ذا العزة لنور كان في وجهه يشرق يتعجب منه ـ ابن مرة ـ قال ابن دريد المرة شجرة قال السهيلي هو منقول من وصف الحنظلة والعلقمة وكثيرا ما يسمون بهما ـ ابن كعب ـ منقول من الكعب الذي هو قطعة من السمن او من كعب القدم ورجحه السهيلي لقولهم ثبت ثبوت الكعب وهو الذي سمى يوم العروبة الجمعة ـ ابن لوي ـ قيل اصلها من تصغير لاي وهو البطء وفي صحيح اللغة اللاي اسم رجل وتصغيره لوي ومنه لوي بن غالب وغالب قال صاحب الاعلام كان صاحب عصره في كرم فخاره وجميل آثاره له مآثر ظاهرة واخبار شائعة سائرة ـ ابن فهر ـ قال صاحب الاعلام هو جماع قريش وليس احد منهم إلّا من ولده ومنه افترقت البطاح وقريش الظواهر وقاله السهيلي في كتاب التعريف لكنه استحسن انهم بنو النظر ابن كنانة على ما ياتي والفهر بكسر الفاء الحجر الاملس يملأ الكف وهو مونث وتصغيره فهيرة قاله ابن دريد . وفي الصحاح يذكر ويونث والجمع افهار ـ ابن مالك ـ قال ابن باديس لم اقف على شرحه ـ ابن النضر ـ النضر الذهب وكذلك النضارة والنضير وقيل النضار الخالص من كل شيء والنضر كلها استحسن وسمي بذلك لحسنه وجماله فنضار منقول منه . قال القضاعي في عيون المعارف اسمه عامر وهو ابو قريش كلها ونحوه عن ابن دريد وان من لم يكن من ولده ليس بقرشي . وقد تقدم ان فهرا هو جماع قريش والخلاف ظاهر بينهما فلا نطيل بذكره هنا ـ ابن كنانة ـ قال صاحب الصلة الكنانة جعبة السهام . قال ابن دريد ان كانت من ادم فهي كنانة ومن خشب فهي جفير ـ ابن خزيمة ـ الخزم مثل الدوم تصغير خزمة بالفتح او بالسكون واحدة الخزم . قال ابو حنيفة الخزم مثل الدوم يتخذ منه سعف الحبال ويصنع من اسافله خلايا النحل وله ثمر لا ياكله إلّا الغراب ويستطيبه ـ ابن مدركة ـ قال صاحب الاعلام ذو فخر ظاهر وشرف باهر وذكر سائر وله مآثر قيل هو اسم فاعل من ادرك والهاء

للمبالغة كعلامة ونسابة واسمه عامر واخوه عمر ابن الياس قال صاحب الاعلام هو اول من اهدى البدن الى البيت قال ابن الانباري وهو بكسر الهمزة مثل اسم الياس النبي عليه السلام ويقال انما سمي السل داء الياس وداء ياس لان الياس بن مضر مات به وانشد في ذلك —

بي الياس او داء الهيام اصابني فاياك عني لا يكن بك ما بيا

وذكر انه كان يسمع في صلبه تلبية نبينا سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بالحج - ابن مضر - قال صاحب الاعلام كان له من الشرف ونباهة الذكر وقدم المجد وسمو العز ما يستغني عن التنبيه وهو لا ينصرف للعدل والمعرفة كعمر وسمي به لبياضه وهو اول من سن حداء الابل وكان احسنهم صوتا سقط عن بعيره يوما فوثيت يده فكان يمشي خلف الابل ويقول بصوت حنين وايداه يترنم بذلك فاعنقت الابل وذهب كلالها فمن ذلك اتخذته العرب تنشيطا لها فيما زعموا - ابن نزار - بكسر النون من النزر وهو القليل التافه . قال السهيلي كان ابوه معد نظر الى نزار حين ولد فشاهد نور النبوءة بين عينيه وهو الذي كان ينتقل في الاصلاب ففرح ونحر واطعم وقال ان هذا كله نزر لحق هذا المولود فسمي نزار لذلك - ابن معد - مفعل من العد فالميم زائدة والتمعدد تمام الشدة والقوة تمعدد الشي اذا غلظ — قال الشاعر —

ربيته حتى اذا تمعددا وصار نهدا كالحصان اجردا
كان جزائي بالعصا ان اجلدا

- ابن عدنان - فعلان من عدن بالمكان بالفتح يعدن بالكسر اذا اقام به ومنه جنات عدن ومنه سمي المعدن بكسر الدال لانه يقام فيه الشتاء والصيف على طلب جواهره . وقال ابن قتيبة لعدون الذهب والفضة وغيرهما فيه وعدن بلد . قال صاحب الاعلام وقد ذخر الله لعدنان بنيه اوفر حظوظ الشرف واسناها وارفع مراتب المجد واعلاها . وقد اجاد ابن الرومي في قوله —

كم من اب قد علا بابن له شرف   كما علا برسول الله عدنان

ويقال انه اول من كسى الكعبة انطاع الاديم . انتهى اتفق على صحته اجماع الامة . واما ما وقع فيه الاختلاف بين العلماء فاولهم - ادد ابو عدنان - وهو بضم الهمزة فعل كصرد من الود والهمزة بدل من الواو ويجوز ان يكون من الاد بالكسر وهو الامر العظيم ومنه - لقد جئتم شيئا ادا وقد ضبطه بعضهم غير مصروف - ابن مقوم - بكسر الواو ويضبط بفتحها - ابن ناحور - فاعول من النحر كجاروف من الجرف وضبطه بعضهم بالميم مكان النون وعزاه لرواية الخشني في السيرة - ابن تيرح - فيعل من الترحة وهو الحزن - ابن يعرب - بضم الراء المهملة بعد العين المهملة قيل من اعرب في كلامه اذا افصح فيه اي من اعرب عن نفسه اذا ابان عنها - ابن يشجب - بضم الجيم من الشجب محركا وهو الهلاك او الحزن للاعداء - ابن نابت - بنون ثم باء موحدة مكسورة بينهما الف ءاخره تاء مثناة من فوق اسم فاعل من نبت - ابن اسماعيل - قيل معناه مطيع الله - ابن ابراهيم - قيل معناه اب راحم - ابن تارح - بتاء مثناة فوق وراء مفتوحة وحاء مهملتين وهو ءازر كما جاء في القرءان - ابن ناحور - بنون وحاء مهملة كلفظ الاول المتقدم - ابن ساروح - بسين وراء وحاء كلها مهملة - ابن راعو - براء وعين مهملتين وضبطه بعضهم بالمعجمة وقال معا - ابن فالخ - بفاء ولام مفتوحة وخاء معجمة وكسر بعضهم اللام ومعناه القسام - ابن عيبر - وزن خيبر بعين مهملة وياء ساكنة مثناة ثم باء موحدة ويقال عابر - ابن شالخ - بشين معجمة ولام مفتوحة وخاء معجمة وكسر بعضهم اللام قال السهيلي ومعناه الوكيل الرسول - ابن ارفخشذ - براء مهملة ساكنة بعد الهمزة ثم فاء مفتوحة ثم خاء معجمة ساكنة ثم شين معجمة مفتوحة ثم ذال معجمة قال السهيلي تفسيره مصباح - ابن سام - بسين مهملة وهو شهير - ابن نوح - عليه السلام واسمه عبد الغفار قيل وسمي نوحا لنوحه على نفسه والله اعلم - ابن لامك - بكسر الميم وفتحها ويقال لمك قال السهيلي وهو اول من اتخذ عود

الغناء واتخذ مصانع الماء - ابن متوشلخ - بفتح الميم وضم التاء المشددة وفتح الشين المعجمة وبعدها لام ساكنة وقد تفتح ثم خاء معجمة وقد تضم الميم وتخفف التاء وتفتح هي والواو معا وتسكن الشين واللام مفتوحة وتفسيره مات الرسول لان اباه كان رسولا وهو خنوخ بخائين معجمتين الاولى مفتوحة بعدها نون مضمومة قال ابن اسحاق هو ادريس . وذكر عن ابي ذر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اول من كتب بالقلم ادريس وعنه اول من كتب بالعبرانية اسماعيل - ابن يرد - بياء مثناة من اسفل مفتوحة ثم راء ساكنة بعدها دال مهملتين ويقال يارد بفتح الراء وتفسيره الضابط - ابن مهلايل - بفتح الميم وسكون الهاء يهمز ويسهل ومعناه الممدح وفي زمانه كان بدء عبادة الاصنام - ابن قينن - بفتح القاف وياء مثناة من اسفل ساكنة ثم نونين الاولى مفتوحة وقد يقال قينان بالف وتفسيره المستوي - ابن يانش - بياء مثناة من تحت ثم نون مفتوحة بعد الالف ثم شين معجمة قال السهيلي وهو اول من غرس النخلة وبوب الكعبة وبذر الحبة - ابن شيث - بكسر الشين المعجمة بعدها ياء ساكنة مثناة من اسفل ءاخره ثاء مثلثة وتفسيره عطية الله - ابن ءادم عليه السلام وهو ابو البشر . هذا ما ادركناه من ذكر السلسلة التي طابت اصلا وزكت فصلا اه من حاشية ابن باديس على شرح الشريف للجرومية . وكانت وفاة ابن باديس المذكور رحمه الله في الثلث الاخير من ليلة الاحد ثاني المحرم سنة اربع ومائة والف كذا نقلته من خط ابنه . ومن كتاب الانوار في ءايات النبي المختار تاليف العلامة ابي زيد عبد الرحمن بن محمد الثعالبي رحمه الله في باب بعثه صلى الله عليه وسلم الى كسرى انوشروان ما نصه روى ابو سعيد النيسابوري بسنده الى عبد القادر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قام ذات يوم على المنبر خطيبا فحمد الله واثنى عليه وتشهد ثم قال اما بعد فاني اريد ان ابعث بعضكم الى ملوك الاعاجم فلا تختلفوا علي كما اختلفت بنو اسرائيل على عيسى فقال المهاجرون يا رسول الله لا

فيختلف عليك ابدا فمرنا وابعثنا فبعث شجاع بن وهب الى كسرى فخرج
حتى قدم على كسرى وهو بالمداين فاستاذن على كسرى فامر كسرى بايوانه
ان يزين ثم اذن لعظماء فارس ثم اذن لشجاع فلما دخل عليه امر كسرى
بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يقبض منه قال شجاع لا حتى
ادفعه انا كما امرني رسول الله صلى الله عليه وسلم قال كسرى ادن
فدنى فناوله الكتاب ثم دعا كاتبا له من اهل الحيرة فقراه فاذا فيه
بسم الله الرحمن الرحيم من محمد عبد الله ورسوله الى كسرى عظيم فارس
فاغضبه حيث بدا رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه وصاح وغضب
ومزق الكتاب قبل ان يعلم ما فيه وامر شجاع ابن وهب يخرج فلما راى
ذلك قعد على راحلته ثم سار وقال والله ما ابالي اذ اديت كتاب رسول
الله صلى الله عليه وسلم فلما ذهبت عن كسرى سورة الغضب بعث الى
شجاع ان يدخل عليه فلم يجده فطلب الى الحيرة فلما قدم شجاع على النبي
صلى الله عليه وسلم اخبره بما كان من كسرى وتمزيقه الكتاب فقال صلى
الله عليه وسلم مزق كسرى ملكه . وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما
قال فلما قراه كسرى مزقه قال فدعا عليهم النبي صلى الله عليه وسلم ان
يمزقوا كل ممزق . قال ابو سعيد النيسابوري وروي في بعض الكتب
ان كسرى كان في مسير له ليلا فتهوم على مركبه وطال حتى استثقل فمال
فخاف من وراءه السقوط فاتى رجل منهم فايقظه فانتبه مذعورا لرويا
رءاها قطعها عليه الموقظ له وقال رايت قائلا يقول لي انكم غيرتم فغير
ما بكم ونقل الملك الى احد . ورايت هذه الرويا في موضع ءاخر وان
كسرى عرض على الله تعالى فقال له سلم ما بيدك لصاحب الهراوة فكان
يتوقع حادثة تحدث حتى كتب النعمان بن المنذر اليه بظهور رسول الله
صلى الله عليه وسلم . وروي ان كسرى خلا يوما للذاته ولهوه وامر ان لا
يبلغ اليه خبر يسوءه ولا يوصل اليه كتاب من احد من عماله ليامن على
سروره قالوا فبينما هو كذلك اذ سمع صوت البريد فسال عنه فقالوا كتاب

عامل السواد فتعلق قلبه به وقال لهم ما ادري إلّا ان قلبي متعلق بما ورد به حتى اعلمه هذا اعظم علي مما انا فيه فاوصلوا الكتاب فقراه فاذا الكتاب يخبره فيه العامل ان الفرات اتى بمد لم يسمع بمثله وانه فاض وغرق زروع الناس ومنازلهم وافسد ثمارهم فغمه ما نال رعيته من الضرر في اموالهم وما نال جنوده بذهاب الخراج الذي كان يجبى من السواد فسهل عليه وزراؤه ذلك وتسببوا للجنود في اموال كثيرة من وجوه ثم عاد للهوه . ثم سمع صوت بريد آخر فسال عنه فقالوا كتاب العامل على ارمينية فتعلق به قلبه ثم امر بايصال الكتاب اليه فاذا فيه ان الجنود شغبوا على عاملهم فقتلوه واستباحوا ما قبله من المال وجاهروا بالمعصية فغمه ذلك ايضا ثم سهل عليه وزراؤه وتضمنوا له اصلاح تلك الناحية بغير جند ينفذ حتى يعود الجند الى الطاعة وعاد الى لهوه . ثم سمع صوت بريد آخر فسال عنه فقالوا كتاب العامل على بعض ارمينية فتعلق به قلبه وامر بايصال الكتاب اليه فاذا هو كتاب النعمان بن المنذر يخبره بانه خرج رجل من ارض تهامة يخبر بانه رسول الى اهل السماء والارض كافة فافظعه ذلك واكبره وعلم انه ذلك الذي يتوقعه ويراه في منامه . قال الثعالبي رحمه الله تعالى قلت وكسرى هذا الذي مزق كتاب النبي صلى الله عليه وسلم هو الذي اخبر النبي صلى الله عليه وسلم به بان الله وعده ان يقتل كسرى فكان الامر كذلك فقتله ولده شيرويه ومزق الله ملك فارس على ايدي اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وايضاح ذلك كما في اول كتاب الانوار في ذكر حديث باذان وما تضمنه من كرامة نبينا صلى الله عليه وسلم ما نصه — وذكر ابن اسحاق وغيره ان اهل اليمن لما طال البلاء عليهم بتغلب الحبشة خرج سيف بن ذي يزن يطلب الصرخة فقدم على قيصر فشكى اليه امر الحبشة وسار حتى اتى النعمان بن المنذر وهو عامل كسرى على الحيرة وما والاها فشكى اليه امر الحبشة فادخله على كسرى وقال ايها الملك غلبنا على بلادنا الاغربة فقال كسرى واي الاغربة الحبشة

او السد

او السد فقال بل الحبشة فجئتك لتنصرني ويكون ملك بلادي لك قال بعدت منا بلادك مع قلة خيرها فلم اكن لاورط جيشا من فارس بارض العرب لا حاجة لي بذلك ثم اجازه بعشرة آلاف درهم وكساه كسوة حسنة فلما قبض ذلك سيف خرج فجعل ينثر تلك الوراق للناس . فبلغ ذلك الملك فقال ان لهذا لشانا فبعث اليه فقال له عمدت الى حباء الملك تنثره للناس . فقال وما اصنع بهذا ما جبال ارضي التي جئت منها إلّا ذهب وفضة فرغبه فيها . فجمع كسرى مرازبته فقال ما ترون في هذا الرجل وما جاء له . فقال قائل ايها الملك ان في سجونك رجالا للقتل فلو انك بعثتهم معه فان يهلكوا كان الذي اردت بهم وان يظفروا كان ملكا ازددته . فبعث كسرى معه من كان في سجونه واستعمل عليهم وهرز وكان ذا شرف فيهم ومن افضلهم حسبا وبيتا فخرجوا في السفن ووصلوا ساحل عدن فخرج سيف الى وهرز من استطاع من قومه وقال له رجلي مع رجلك حتى نموت جميعا او نظفر فقال له وهرز انصفت ثم تقاتلوا مع الحبشة وملكهم يومئذ مسروق بن ابرهة . فلما تواقف الناس على مصافهم قال لهم وهرز اروني ملكهم فقالوا اترى رجلا عاقدا على راسه تاجا بين عينيه ياقوتة حمراء قال نعم قالوا ذلك ملكهم قال اني سارميه فان رايتم اصحابه لم يتحركوا فاثبتوا حتى اآذنكم فاني قد اخطات الرجل وان رايتم القوم قد استداروا ولاثوا به فقد اصبت الرجل فاحملوا عليهم ثم اوتر قوسه وكانت فيما يزعمون لا يوترها غيره لشدتها وامر بحاجبيه فعصبا له ثم رماه فصك الياقوتة التي بين عينيه فتغلغلت النشابة بين عينيه حتى خرجت من قفاه ونكس عن دابته واستدارت الحبشة ولاثت به وحملت عليهم الفرس فانهزموا وقتلوا وهربوا في كل وجه واقبل وهرز فدخل صنعاء . قال ابن اسحاق فاقام وهرز والفرس باليمن فمن بقية ذلك الجيش من الفرس الابناء الذين باليمن اليوم . ثم مات وهرز فامر كسرى ابنه على اليمن ثم امر بعده ابن ابنه باذان . فلم يزل على اليمن حتى بعث الله سيد المرسلين وخاتم

النبيئين سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم . قال ابن اسحاق بلغني عن الزهري انه قال كتب كسرى الى باذان انه بلغني ان رجلا من قريش خرج بمكة يزعم انه نبي فسر اليه فاستتبه فان تاب والّا فابعث الي براسه فبعث باذان بكتاب كسرى الى النبي صلى الله عليه وسلم فكتب اليه النبي صلى الله عليه وسلم ان الله وعدني ان يقتل كسرى في يوم كذا من شهر كذا فلما اتى باذان الكتاب توقف لينظر وقال ان كان نبيئا فسيكون ما قال فقتل الله كسرى في اليوم الذي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال . قال ابن هشام قتل على يد ابنه شيرويه وقال خالد بن حق ــ

وكسرى اذ تقسمه بنوه   باسياف كما اقتسم اللحام
تمخضت المنون له بيوم   انى ولكل حاملة تمام

قال الزهري فلما بلغ ذلك باذان بعث باسلامه واسلام من معه من الفرس الى رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال السهيلي وكسرى هذا هو ابن هرمز وهو الذي غلب الروم حين انزل الله تعالى ـ الٓمٓ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ . وكان مقتل كسرى حين قتله ابنه ليلة الثلاثاء العشرين من جمادى الاولى سنة تسع من الهجرة وكسرى هو الذي عرض في المنام على الله فقال له سلم ما في يدك الى صاحب الهراوة فلم يزل مذكورا مذعورا من ذلك حتى كتب اليه النعمان بن المنذر بظهور النبي صلى الله عليه وسلم بتهامة فعلم ان الامر سيصير اليه حتى كان من امر الله ما كان وهو الذي كتب اليه النبي صلى الله عليه وسلم . قال السهيلي واسلم باذان باليمن في سنة عشر وفيها بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الابناء يدعوهم الى الاسلام فمن الابناء وهب بن منبه وطاووس وداذويه وفيروز الذين قتلوا الاسود العنسي وقول خالد بن حق تمخضت المنون له بيوم ان المنون المنية وهو ايضا من اسماء الدهر قوله اني اي حان . قال الثعالبي وفي بعض النسخ لابن اسحاق اتى بالتاء المثناة فوق ومعناه صحيح . وذكر ابو

سعيد

سعيد النيسابوري في كتابه شرف المصطفى صلى الله عليه وسلم ان النبي صلى الله عليه وسلم بعث عبد الله بن حذافة الى كسرى بن هرمز وكتب اليه ـ بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله الى كسرى عظيم فارس سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله وشهد ان لا اله إلّا الله وحده لا شريك له وان محمدا عبده ورسوله وادعوك بداعية الله عز وجل فاني انا رسول الله عز وجل الى الناس كافة لانذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين اسلم تسلم فان ابيت فعليك اثم المجوس ـ فلما قراه نسفه وقال يكتب الي بمثل هذا الكتاب . قال محمد بن اسحاق بن سار حدثني الزهري من ابي سلمة بن عبد الرحمن ان عبد الله بن حذافة قدم بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على كسرى فشقه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم مزق الله ملكه حين بلغه انه شق كتابه . ثم كتب كسرى الى باذان وهو باليمن ان ابعث الى هذا الرجل الذي بالحجاز رجلين من عندك جلدين فلياتياني به فبعث باذان قهرمانه وهو بانويه وكان حاسبا كاتبا بكتاب فارس وبعث معه رجلا من الفرس وكتب معهما الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يامره ان ينصرف الى كسرى وقال لبانويه انظر ما الرجل وكلمه واتتني بخبره فخرجا حتى قدما الطائف فوجدا رجالا من قريش تجارا فسالاهم فقالوا هو بالمدينة واستبشروا بهما وفرحوا وقال بعضهم لبعض ابشروا فقد نصب له كسرى ملك الملوك كفيتم الرجل . فخرجا حتى قدما على رسول الله صلى الله عليه وسلم فكلمه بانويه فقال ان شهنشاه ملك الملوك كسرى قد كتب الى الملك باذان يامره ان يبعث اليك من ياتيه بك وقد بعثني اليك لتنطلق معي فان فعلت كتب فيك الى ملك الملوك بكتاب ينفعك ويكف عنك به وان ابيت فهو من قد علمت وهو مهلكك ومهلك قومك ومخرب بلادك . وقد دخلا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد حلقا لحاهما واعفيا شواربهما فكره النظر اليهما وقال ويلكما من امركما بهذا قالا ربنا يعنيان كسرى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لكن ربي عز وجل

قد امرني باعفاء لحيتي وقص شواربي ثم قال ارجعا حتى تاتياني غدا • فاتى رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر من السماء ان الله تعالى قد سلط على كسرى ابنه شيرويه في شهر كذا وكذا في ليلة كذا وكذا لكذا وكذا من الليل فلما عادا اليه من الغد اخبرهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالا هل تدري ما تقول انا قد نقمنا عليك ما هو ايسر فنكتب هذا عنك ونخبر به الملك قال نعم اخبراه بذلك عني وقولا له ان سلطاني سيبلغ ما بلغ ملك كسرى وينتهي الى منتهى الخف والحافر وقولا له ان اسلمت اعطيتك ما تحت يديك وملكتك على قومك من الابناء • ثم اعطى خرخسره منطقة فيها ذهب وفضة كان اهداها له بعض الملوك فخرجا من عنده حتى قدما على باذان فاخبراه الخبر فقال والله ما هذا بكلام ملك واني لارى الرجل نبيا كما يقول ولننظرن ما قد قال فلئن كان هذا حقا ما فيه كلام وانه لنبي مرسل وان لم يكن فسنرى فيه راينا • فلم يلبث باذان ان قدم عليه كتاب شيرويه — اما بعد فاني قد قتلت كسرى ولم اقتله الا غضبا لفارس لما كان يستحل من قوم اشرافهم فاذا جاءك كتابي هذا فخذ لي الطاعة من قبلك وانظر الرجل الذي كان كسرى كتب اليك فيه فلا تهجه حتى ياتيك امري فيه - فلما انتهى كتاب شيرويه الى باذان قال - ان هذا الرجل لرسول - فاسلم باذان واسلمت الابناء من فارس من كان منهم باليمن • وقد قال بانويه لباذان ما كلمت قط اهيب منه عندي فقال باذان هل معه شرط قال لا • وروي عن الحسن البصري رضي الله عنه ان اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما حجة الله على كسرى فيك قال بعث الله عز وجل اليه ملكا فاخرج يده من سور جدار بيته الذي هو فيه تتلالا نورا فلما رءاها فزع فقال لم ترع يا كسرى ان الله قد بعث رسولا وانزل عليه كتابا فاتبعه تسلم لك دنياك وءاخرتك قال سانظر في ذلك • وروى الزهري عن ابي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف قال بعث الله سبحانه وتعالى

الى

الى كسرى ملكا وهو في بيت ايوانه الذي لا يدخل عليه فيه فلم يرعه
إلّا وهو قائم على راسه وفي يده عصا بالهاجرة في الساعة التي كان يقيل فيها
فقال يا كسرى اتسلم او اكسر هذه العصا فقال بهل بهل قال فانصرف
عنه قال ثم دعى حرسه وحجابه فتغيظ عليهم وقال من ادخل علي هذا
الرجل قالوا ما دخل عليك ولا رايناه حتى اذا كان العام القابل اتاه في
الساعة التي اتاه فيها وقال له كما قال المرة الاولى اتسلم او اكسر هذه العصا
قال بهل بهل قال فانصرف عنه قال ثم دعى حرسه وحجابه وتغيظ عليهم
وقال لهم كما قال اول مرة فقالوا ما راينا احدا دخل عليك حتى اذا كان
العام الثالث اتاه في الساعة التي جاءه فيها فقال له كما قال في الاولى
والثانية ثم قال له اتسلم او اكسر هذه العصا قال بهل بهل قال فكسر
العصا ثم خرج فلم يكن إلّا تهور ملكه وانبعاث ابناء فارس حتى قتلوه .
قال عبد الله ابن ابي بكر فقال لي الزهري حدثنا عمر بن عبد العزيز
هذا الحديث عن ابي سلمة بن عبد الرحمن فقال لي ذكر ان الملك انما
دخل عليه بقارورتين قال اتسلم فلم يفعل فضرب احداهما على الاخرى
فرضهما ثم خرج فكان من هلاكه ما كان . وقد ذكر ابو الربيع الكلاعي
حديث العصا من رواية الواقدي وفيه انه في المرة الاخيرة ضربه بالعصا
على راسه فكسرها وخرج من عنده قال فيقال ان ابنه قتله في تلك
الليلة والله اعلم . قال الثعالبي وقد مزق الله ملك فارس على ايدي
اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم . وروى مسلم في صحيحه عن انس
رضي الله عنه ان نبي الله صلى الله عليه وسلم كتب الى كسرى والى
قيصر والى النجاشي والى كل جبار يدعوهم الى الله تعالى الحديث . وفي
صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما ان رسول الله صلى الله عليه
وسلم بعث بكتاب الى كسرى مع عبد الله بن حذافة السهمي فامره ان
يدفعه الى عظيم البحرين فدفعه عظيم البحرين الى كسرى فلما قراه مزقه
فحسبت ان ابن المسيب قال فدعى عليهم رسول الله صلى الله عليه

وسلم ان يمزقوا كل ممزق . ورواه ايضا ابو داوود والنساءي ـ انتهى من كتاب الانوار . وقد تقدم ما انشد عبد المسيح بين يدي سطيح بقوله اصم ام يسمع غطريف اليمن الخ فقد رواها ابو العباس احمد بن محمد بن عبد الرحمن الازدي الاندلسي من طريق ءاخر وهي —

اصم ام يسمع غطريف اليمن ام فاد فازلم به شاوي العنن
يا فاصل الخطبة اعيت من ومن اتاك شيخ الحي من ءال سنن
وامه من ءال ذئب بن حجن ابيض فضفاض الرداء والبدن
رسول قيل العجم يهوي للوثن لا يرهب الرعد ولا ريب الزمن
تجوب في الارض علنداة شدن ترفعني وجن وتهوي بي وجن
حتى اتى عاري الجآجي والقطن تلفه الرمح بوغاء الدمن
كانما حثحث من حضني شكن

الغطريف هو السيد الشريف ـ فاد اي مات يقال منه فاد يفود ـ وازلم به اي قبض ويحتمل ان يكون بمنى ولى يقال ازلام القوم اي ولوا فيكون مقصورا منه ـ وقوله شاوي العنن يريد الموت وما عن منه ـ الفضفاض الواسع ـ القيل الملك واصله قيل مثل سيد وهو الذي له قول نافذ ـ العلنداة الناقة الشديدة والبعيرة علندى ـ شدن اي غليظ ـ الوجن المتن من الارض ـ الجآجي جمع جوجو وهو الصدر فجعل كل موضع من الصدر جوجوا كما قال شابت مفارقه ـ البوغاء التراب الهابي ـ الدمن جمع دمنة وهي الموضع القريب من الدار التي بليت ـ حثه على الشيء اي حضه عليه واستحثه وحثحثه بمعناه ـ شكن اسم جبل . قال الازدي وكان سطيح جسدا ملقى لا جوارح له ووجهه في صدره ولم يكن له راس ولا عنق ولا يقدر على الجلوس إلّا اذا غضب انتفخ فجلس . وذكر عن وهب بن منبه انه قيل له انى لك هذا العلم فقال لي صاحب من الجن استمع اخبار السماء من طور سيناء حين كلم الله موسى فهو يودي الي من ذلك ما يودي ـ والله اعلم . ولنرجع لكمال الفصل ـ وروى هشام بن الكلبي عن ابيه اما الروم

فارخت

فارخت بقتل دارا الى ظهور الفرس عليهم والقبط ببختنصر الى قلاوبطرة صاحبة مصر واليهود ببيت المقدس والنصارى برفع عيسى . قال العيني واليونان بملك شلم بن فريدون ثم بظهور الاسكندر والمجوس بكيومورث ثم بظهور افريدون ثم بظهور ازدشير ثم بيزدجرد .

الفصل الثالث في سبب وضع التاريخ في الاسلام

قال السيوطي رحمه الله والمحفوظ ان الامر بالتاريخ من عمر بن الخطاب رضي الله عنه اخرجه البخاري في الباب المفرد والحاكم عن مكحول بن مهران رفع الى سيدنا عمر رضي الله عنه ورقة فيها شعبان فقال شعبان الذي نحن فيه او الذي مضى او الاتي قال قال سيدنا عمر رضي الله عنه لاصحاب النبي صلى الله عليه وسلم تسليما ضعوا للناس شيئا يعرفونه من التاريخ فكان عمر رضي الله عنه اول من حض على ذلك فقال بعضهم اكتبوا على تاريخ الروم فقال ان الروم يطول تاريخهم يكتبون من ذي القرنين فقال اكتبوا على تاريخ فارس ولم يزل يدور الحديث الى ان اجمع رايهم ان الهجرة كانت عشر سنين فكتبوا التاريخ من هجرة النبي صلى الله عليه وسلم فكان عمر رضي الله تعالى عنه اول من وضع التاريخ واول من عمر بالليل والناس قيام واول من نهى عن بيع امهات الولد واول من جمع الناس في صلاة الجنازة على اربع تكبيرات وكانوا قبل ذلك يكبرون اربعا وخمسا وستا واول من جمع الناس على امام واحد يصلي بهم التراويح في شهر رمضان وكتب بذلك الى سائر البلدان وامرهم به واول من جمع الدرة وضرب بها ودون الدواوين . وروى ابن السمرقندي ان ابا موسى الاشعري رضي الله تعالى عنه كتب الى عمر رضي الله عنه انه تاتينا منك كتب ليس لها تاريخ فَأرِّخْ لتستقيم الاحوال فأرِّخْ . وقال في سمط اللآل ولم يكن في صدر الاسلام تاريخ الى ان ولي عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه وافتتح بلاد العجم ودون الدواوين وجبا الخراج واعطى الاعطية فقيل له الاَ تُؤرِّخْ فقال وما التاريخ فقالوا شي كانت تفعله الاعاجم

يكتبون في شهر كذا من سنة كذا فقال عمر رضي الله عنه هذا احسن فارخوا . وقال ابن اليقظان رفع الى عمر رضي الله عنه صك محله في شعبان فقال ايما شعبان هذا الذي نحن فيه ام الماضي ام الذي ياتي . وقال الهيثم ابن عدي اول من ارخ يعلى ابن امية كتب الى عمر رضي الله عنه من اليمن كتابا مورخا فاستحسنه وشرع في التاريخ . انتهى .

الفصل الرابع في مبدا التاريخ الاسلامي

واما التاريخ الاسلامي ففي ابتدائه اختلاف فروى واسطة عقد الحفاظ جلال الدين السيوطي رحمه الله ذكر التاريخ من الهجرة النبوية على صاحبها افضل الصلاة وازكى التحيه حديثا مسندا عن ابن شهاب ان النبي صلى الله عليه وسلم امر بالتاريخ يوم قدم المدينة في شهر ربيع الاول رواه يعقوب بن سفيان حديثا يسند عن ابن شهاب انه قال التاريخ من يوم قدوم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة مهاجرا وقال ابن عساكر هذا هو الصحيح والصواب . وروى ابن عساكر ايضا في تاريخ دمشق عن انس بن مالك رضي الله تعالى عنه انه قال كان التاريخ من قدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة . وكذا قال الزهري قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة في ربيع الاول فارخوا . وقال الحافظ المحفوظ ان الامر بالتاريخ من زمن عمر رضي الله عنه كما قدمناه في الفصل قبله . وقال ابن عباس رضي الله عنهما قدم النبي صلى لله عليه وسلم المدينة وليس لهم تاريخ فكانوا يورخون بالشهر والشهرين من مقدمه صلى الله عليه وسلم فاقاموا على ذلك الى ان توفي النبي صلى الله عليه وسلم وانقطع التاريخ ومضت ايام ابي بكر رضي الله تعالى عنه على هذا واربع سنين من خلافة عمر ابن الخطاب رضي الله تعالى عنه ثم وضع التاريخ . وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما لما عزم عمر على التاريخ جمع الصحابة رضي الله تعالى عنهم واستشارهم فقال سعد بن ابي وقاص رضي الله عنه ارخ لوفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال علي بن ابي طالب رضي الله عنه وكرم وجهه ارخ لهجرته

صلى

صلى الله عليه وسلم فانها فرقت بين الحق والباطل . وقال آخرون لمولده صلى الله عليه وسلم . وقال قوم لنبوءته صلى الله عليه وسلم وكان هذا الكلام في سنة سبع عشرة من الهجرة وقيل في ست عشرة فاتفقوا على قول علي رضي الله عنه وكرم وجهه . قال ابو العباس احمد بن احمد الطبي كان ذلك يوم الاحد اول يوم من المحرم وبينه وبين التاريخ الذي كان يورخ به الفرس قبل الهجرة ثلاثون سنة فارسية واولها يوم الاثنين اول يوم من فروردين ماه وبين اول تاريخ الهجرة وتاريخ الروم تسعمائة سنة واثنتان وثلاثون سنة سريانية وزيادة مائة وستة وثمانين يوما . ثم اختلفوا في الشهور فقال عبد الرحمن بن عوف رضي الله تعالى عنه ارخ من رجب فانه اول الاشهر الحرم . وقال طلحة رضي الله تعالى عنه من شهر رمضان لانه شهر الامة . وقال علي رضي الله تعالى عنه وكرم وجهه من المحرم لانه اول السنة وهو من الاشهر الحرم . وقيل انما اشار بذلك اي بالمحرم عثمان رضي الله تعالى عنه والاول اصح . وقال ابن سيرين وابن المسيب ثبت التاريخ بمشورة علي رضي الله تعالى عنه وكرم وجهه . وقال الاصمعي انما ارخوا من ربيع الاول شهر الهجرة وهو وهم .

الفصل الخامس في ذكر الاسوة فيه بالقرءان العظيم والسنة المحمدية على صاحبها افضل الصلاة وازكى التحية

اعلم ان الضرب الذي اهتمت به ارباب الحديث ان يكون المقصد فيه احوال الولاة والعلماء والقضاة وفضلاء الرؤساء واهل المقامات الشريفة والسيرة المحمودة المحمدية من اوقات ولاداتهم ووفياتهم وطرفا من مقالاتهم ورواياتهم ومشائخهم ورواتهم . قال جامعه عفى الله تعالى عنه والحمد لله ان هذا المبارك مقلد بعقود مآثر العلماء ومضمخ بعبير فضلاء الوقت والقدماء ومتوج بيواقيت مدح المنزل عليه ـ وانك لعلى خلق عظيم ـ سراج الامة وهاديهم ـ وما كان الله ليعذبهم وانت فيهم ـ المتوج بالفضل العظيم المرتضى المبشر بقصارى الشفاعة ـ ولسوف يعطيك ربك فترضى ـ صلى الله عليه

وعلى آله وصحبه وسلم تسليما . قال في سمط اللآل ما نصه قال الرافعي قد وضع الاستدلال بالتاريخ في الكتاب العظيم في قوله تعالى - قل يا اهل الكتاب لم تحاجون في ابراهيم وما انزلت التوراة والانجيل الّا من بعده افلا تعقلون - وهذا من لطيف الاستدلال ونفائسه من حيث انه تعالى استدل على بطلان دعوى اليهود في ابراهيم عليه السلام انه يهودي وبطلان دعوى النصارى في ابراهيم انه نصراني وقال الله جل جلاله وهو اصدق القائلين - وكلا نقص عليك من انباء الرسل ما نثبت به فوادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمومنين - . وقال عز من قائل - ولقد جاءهم من الانباء ما فيه مزدجر حكمة بالغة فما تغني النذر - . وقال سبحانه وتعالى لقد كان في قصصهم عبرة لاولي الالباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شيء - وقال عز وجل - ونبئهم عن ضيف ابراهيم - الاية وقال تبارك وتعالى - نتلو عليك من نبا موسى وفرعون بالحق لقوم يومنون - وقال ابن عباس رضي الله عنهما قد ذكر الله التاريخ في كتابه العزيز فقال - و يسالونك عن الاهلة قل هي مواقيت للناس والحج - اي في حل دينهم وصومهم وفطرهم وعدة نسائهم والشروط الى ان تنتهي الى اجل معلوم * —

واما ما جاء من الاسوة في التاريخ بالسنة المحمدية
على صاحبها افضل الصلاة وازكى التحية

فقد حدث النبي صلى الله عليه وسلم بحديث ام زرع وغيره مما جرى في الجاهلية والاسلام والاحاديث الاسرائيلية فحديث ام زرع حسبما رواه الشيخ الحافظ ابو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي رحمه الله في الشمائل حدثنا علي بن حجر حدثنا عيسى بن يونس عن هشام بن عروة عن اخيه عبد الله بن عروة عن عروة عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت جلس احدى عشرة امراة فتعاهدن وتعاقدن ان لا يكتمن من اخبار ازواجهن شيئا فقالت الاولى زوجي لحم جمل غث على راس جبل وعر

لا سهل

لا سهل فيرتقى ولا سمين فينتقل قالت الثانية زوجي لا ابث خبره
اني اخاف أنْ لا أذرَهُ انْ اذْكُرهُ اذْكُرْ عُجَرَهُ وبُجَرَهُ قالت الثالثة زوجي
العَشَنَّق إنْ أنْطِقْ أُطَلَّقْ وإنْ أسْكُتْ أُعَلَّقْ قالت الرابعة زوجي كَلَيْلُ
تهامة لاحر ولا قر ولا مخافة ولا سآمة قالت الخامسة زوجي ان دخل
فَهِدَ وإنْ خَرَجَ أسِدَ ولاَ يَسْألُ عَمَّا عَهِدَ قالت السادسة زوجي إنْ أكَلَ لَفَّ
وان شَرِبَ آشْتَفَّ وإنِ آضْطَجَعَ آلْتَفَّ ولاَ يُولِجُ الكَفَّ لِيَعْلَمَ البَثَّ قالت
السابعة زوجي عَيَايَاء اوْ غَيَايَاء طَبَاقَاء كُلُّ دَاءٍ له داء شَجَّكِ او فَلَّكِ اوْ
جَمَعَ كُلاًّ لَكِ قالت الثامنة زوجي المَسُّ مَسُّ أرْنَبٍ وَالرِّيحُ رِيحُ زَرْنَبٍ
قالت التاسعة زوجي رَفِيعُ العِمَادِ عظيمُ الرَّمَادِ طويلُ النِّجَادِ قريبُ البَيْتِ
من النادِ قالت العاشرة زوجي مالك فما مالك مالك خير من ذلك له
ابل كثيرات المبارك قليلات المسارح اذا سمعن صوت المزهَر ايقنَّ انهنَّ
هوالك قالت الحادية عشرة زوجي ابو زرع فما ابو زرع أنَاسَ من حُلِيٍّ
أُذُنَيَّ وَمَلأَ مِنْ شَحْمٍ عَضُدَيَّ وَبَجَّحَنِي فَبَجِحَتْ الَيَّ نفسي وجدني في اهل
غُنَيْمَةٍ بِشِقٍّ فَجَعَلَنِي من اهْل صَهِيلٍ واطيط ودائس وَمُنَقٍّ فعنده اقول فلا
أُقَبَّحُ وَأرْقُدُ فَأتَصَبَّحُ وَأشْرَبُ فَأتَقَمَّحُ ام ابي زرع فما ام ابي زرع عكومها
رداح و بيتها فساح ابن ابي زرع فما ابن ابي زرع مَضْجَعُهُ كَمَسَلِّ شَطْبَة
وَتُشْبِعه ذراع الجَفْرَة بنت ابي زرع فما بنت ابي زرع طوع ابيها وطوع
امها وملء كسائها وغيظ جارتها جارية ابي زرع فما جارية ابي زرع لا
تبث حديثنا تبثيثا ولا تنقث ميرتنا تنقيثا ولا تملأ بيتنا تعشيشا قالت
خرج ابو زرع والاوطاب تُمْخَضُ فلقي امرأة معها ولدان لها كالفهدين
يلعبان من تحت خصرها برمانتين فطلقني ونكحها فنكحتُ بعده رجلاً
سريا ركب شريا واخذ خطيا واراح علي نعما ثريا واعطاني من كل
رائحة زوجا وقال كلي ام زرع وميري اهلك فلو جمعت كل شئ اعطانيه
ما بلغ اصغر آنية ابي زرع قالت عائشة رضي الله عنها فقال لي رسول
الله صلى الله عليه وسلم كنت لك كابي زرع لام زرع ، وحكى

عجائب ما راى ليلة اسري به وعرج وقال حدثوا من بني اسرائيل ولا حرج . وذكر صاحب سمط اللآل رواية ما في صحيح مسلم عن سماك ابن حرب انه قال قلت لجابر بن سمرة رضي الله عنهما أكنت تجالس رسول الله صلى الله عليه وسلم قال نعم كثيرا لا يقوم من مصلاه الذي صلى فيه الصبح حتى تطلع الشمس فاذا طلعت قام وكانوا يتحدثون فياخذون في امر الجاهلية ويضحكون و يتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم . وفي سنن ابي داوود عن عبد الله بن عمرو رضي الله تعالى عنهما قال كان النبي صلى الله عليه وسلم يحدثنا عن بني اسرائيل حتى يصبح ما يقوم الّا الى عظيم صلاة وقال تبارك وتعالى - لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة - وروى السيوطي في الجامع الصغير - بلغوا عني ولو ءاية وحدثوا عن بني اسرائيل ولا حرج ومن كذب علي متعمدا فليتبوا مقعده من النار .

واما ما ورد من اهتمام الصحابة رضي
الله تعالى عنهم ومن بعدهم

قال ابو شامة رضي الله عنه ولم تزل الصحابة رضي الله تعالى عنهم والتابعون ممن بعدهم يتفاوضون في حديث من مضى ويتذاكرون ما سبقهم من الاخبار وانقضى ويستنشدون الاشعار ويتطلبون الاثار وذلك بين من افعالهم لمن اطلع على احوالهم وهم السادة القدوة فلنا بهم اعظم اسوة وما بعد ما قال في شانهم سيدنا صلى الله عليه وسلم - اصحابي كالنجوم فبايهم اقتديتم اهتديتم - رضي الله عنهم اجمعين . ومما ذكر في المقدمة عن ابي شامة في خطبة كتاب الروضتين في اخبار الدولتين انه قال - اما بعد فانه بعد ان صرفت معظم عمري وجل فكري في اقتباس الفوائد الشرعية واقتناص القرائد الادبية عن لي ان اصرف الى علم التاريخ بعضه فاحرز بذلك سنة العلم وفرضه اقتداء بسيرة من مضى من كل عالم مرتضى فقال امام من الايمة ويحكى عنه من اخبار ما سلف فوائد جمة قال منهم امامنا الامام ابو عبد الله الشافعي رضي الله عنه قال في

حقه

حقه مصعب بن الزبير ما رايت احدا اعلم بايام الناس من الشافعي يروى عنه انه اقام على تعليم ايام الناس والادب عشرين سنة وقال ما اردت بذلك الّا الاستعانة على الفقه وذلك عظيم الفائدة جليل العائدة . وقال ابن شاكر في عيون التواريخ التاريخ من اعذب علوم الادب منبعا واهناها مشربا وانورها مطلعا واحلاها من القلوب موقعا لم تزل محاسنه تروق وفوائده تفوق وفرائده تشوق يعرف اخبار من سلف من العرب والعجم واحاديث ذوي المراتب والهمم وتستفاد منه محاسن الاعيان وتفهم مواقف الشجعان ومقاتل الفرسان واوقات مواليدهم ومدد اعمارهم ومواضع منازلهم ومعاهد ديارهم وسيرة الكرماء في كل وقت ومن اختص بفيض هباته بالهيبة وغيره بالمقت وكل عالم وعمن اخذ فنون علمه وكل اديب ومحاسن نثره وبديع نظمه والنظر في السنة الشريفة واسماء رجالها ومراتب رواتها وطبقات فرسان مجالها حتى كان الواقف عليه قد ادرك كلا منهم في عصره ونظره في ساعة ميدانه ومشيد قصره وراى الايمة واصبح للعلوم من افواههم ملتقيا وعلم من كان بجده وبهزله الى ورود العلياء مترقيا او كانه قد شاهد كسرى في ايوانه وهو يقص الرويا على موبذانه وعاصر سيف بن ذي يزن في اوانه وجالس ابن ابي الصلت ينشده على قصرغمدانه . وفي كتاب الله عز وجل وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم من اخبار الامم السابقة وابناء القرون الخالية ما فيه عبر لذوي البصائر واستعداد ليوم تبلى السرائر . ومنه قبل هذا ما نصه ورايت ان المطلع على اخبار المتقدمين كانه قد عاصرهم اجمعين وانه عندما يفكر في احوالهم يذكرهم كانه كان مشاهدهم وراى مشاهدهم فهو قائم له مقام طول الحيوة وان كان متعجل الوفاة . قال نعيم بن حماد كان ابن المبارك يكثر الجلوس في بيته فقيل له الا تستوحش فقال كيف استوحش وانا مع النبي صلى الله عليه وسلم واصحابه والتابعين لهم باحسان الى يوم الدين . قال وانشدنا بعض الفضلاء —

كتاب الطالعه مونس　　احب الي من الانسه
وادرسه فيريني القرون　　حضورا واعظمهم دارسه

وقد اختار الله سبحانه وتعالى لنا ان نكون آخر الامم واطلعنا على اخبار من تقدم لنتعظ بما جرى على القرون الخالية وتعيها اذن واعية ولنقتدي بمن تقدمنا من الانبياء والايمة والصلحاء ونرجو بتوفيق الله تعالى ان نجتمع بمن يدخل الجنة منهم ونذاكرهم بما نقل الينا عنهم وذلك على رغم انف من عدم الادب ولم يكن له في هذا العلم ارب . انتهى ما نقل من الحافظ ابي شامة رحمه الله تعالى . قلت واذا لم يكن بشرف الانباع لهذا الفن الجليل الذي ملا رحاب الدفاتر بجميل ثماره وانار ظلام سواد الرقوم باضواء نجومه الزواهر فازال صدا غباره الّا الاقتداء بسراج امامه الذي فتح الله له بالاسلام اعظم باب خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم سيدنا عمر ابن الخطاب لكفى شرفا وكفى شرفا ما ذكره الشيخ ابو العباس احمد القسطلاني في كتابه المواهب اللدنية ناقلا عن ابن القيم ان الاقلام اثنى عشر قلما وانها متفاوتة في الرتب فاعلاها واجلها قدرا قلم القدرة الذي كتب الله به مقادير الخلائق كما في سنن ابي داوود عن عبادة بن الصامت قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان اول ما خلق الله القلم قال له اكتب قال ربي وما اكتب قال اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة . فهذا القلم اول الاقلام واجلها وقد قال غير واحد من اهل التفسير انه القلم الذي اقسم الله به . والقلم الثاني قلم الوحي والثالث قلم التوقيع عن الله ورسوله والرابع قلم طب الابدان الذي يحفظ به صحتها والخامس قلم التوقيع عن الملوك ونوابهم وبه تساس الممالك والسادس قلم الحساب وهو الذي يضبط به الاموال مستخرجها ومصروفها ومقاديرها وهو قلم الارزاق والسابع قلم الحكم وهو الذي تثبت به الحقوق وتنفذ به القضايا والثامن قلم الشهادة الذي يحفظ به الحقوق والتاسع قلم التعبير وهي كتائب وحي المنام وتفسيره وتعبيره والعاشر قلم تواريخ العالم ووقائعه والحادي عشر قلم اللغة

وتفاصيلها

وتفاصيلها والثاني عشر القلم الجامع وهو علم الرد على المبطلين ورفع شبه المحرفين . فهذه الاقلام التى بها انتظام مصالح العام . انتهى ملخصا من المواهب . ويكفي التاريخ ان خلق الله له قلما مخصوصا .

الفصل السادس في ذكر فوائد التاريخ وما ينشا عن الجهل به والرد على من يرد عليه

قال صاحب سمط اللآل ومن فوائد التاريخ واقعة رئيس الروساء مع اليهودي عدو الله الذي كان اظهر كتابا فيه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم امر باسقاط الجزية عن اهل خيبر فيه شهادة الصحابة منهم علي بن ابي طالب رضي الله عنه وكرم وجهه فحمله لرئيس الروساء ووقع الناس في حيرة فعرضه على الحافظ ابي بكر الخطيب فتامله وقال هذا مزور فقيل له من اين لك ذلك فقال لان فيه شهادة معاوية وهو اسلم عام الفتح وكانت سنة ثمان وفتح خيبر سنة سبع وفيه شهادة سعد بن معاذ ومات سعد يوم بني قريضة قبل خيبر بسنتين ففرج ذلك على الناس هما وغما .

قال جامعه عفا الله عنه ونظيرتها ما حدثني به الاستاذ شيخنا سيدي احمد برناز وذلك انه كان بمحضر علي خوجة باي قسنطينة سنة سبع ومائة والف ووفدت عليهم طائفة اليهود بايديهم رق قديم به خط بين مضمونه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم اوصى عليهم ان لا يضرهم احد وفيه شهادة عدة من الصحابة رضي الله عنهم منهم ابو بكر وعمر وغيرهم ومن جملتهم شهادة كعب الاحبار . فلما رءاه الباي توقف وعرضه على الشيخ فلما اطلع عليه قال قبح الله اليهود فان في هذه شهادة كعب الاحبار وكعب الاحبار كان كافرا اذ ذاك ولا يكتب صلى الله عليه وسلم شهادة كافر في كتابه وانما كعب الاحبار اسلم في ايام عمر رضي الله عنه . فلما سمع الباي ذلك اراد ان يلقيه في النار فاستغاث اليهود فالقاه اليهم . انتهى من لفظه . ولقد اخبرني من اثق بخبره بغريبة تصارعها وهي من قاعدة ارباب المتجر من النصارى ان توضع ابناء اكابرهم بين ايدي

التجار امثالهم يتعاطون انواع قواعد الرقوم وكيفية الحساب وجميع طرق السبب بالسند حتى لتجد الصغير منهم يدرك خفيات المتجر ولطيف استخراج فروعه تصديقا للآية الكريمة - يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا - • واتفق ان بعض المتعلمين منهم نصب شبكة خديعة لمعلمه الذي هو بين يديه وذلك انه احكم التشبيه بخط معلمه غاية حتى صار لا يمكن لاحد ان يفرق بين خطيهما وهو لا يظهر ذلك • ووجد قرطاسا به اسم معلمه بخط معلمه فاحتال وركب عليه ما يقتضي ان بذمة معلمه للصانع مالا ذريعا وقدم تاريخه ثم طلب استاذه في المال فانكره فالح عليه فانكره الى ان تفاقم الامر وترافعا لشرعهما والقي الخط لصاحب الحكم فسال الحاكم المعلم وقال انظر هذا الخط وما تقول فيه فقال الخط خطي ولا مرية غير انه ما دفع لي ولا درهما ابدا وينظر الحاكم الى شدة حرقة الطالب في الحث على ماله وشدة حرقة المنكر واشتبه الامر فبينما الامر كذلك اذ اجتمع المعلم برجل مسن وحكى له غريبته فقال له تامل من القرطاس وانظر علامة القرطاس وابحث عن السنة التي اخذ فيها الاذن من مقدم صنعته هل السابق تاريخ صانع القرطاس او تاريخ الكتابة ففحص عن ذلك فوجد الاذن لصاحب القرطاس موخرا عن تاريخ الكتابة فارتفع خمار الشبهة عن وجه القضية • وكان فيها بنور التاريخ انور مزية • وقال في سمط اللآل وسال اسماعيل بن عباس رجلا اخبار اي سنة كتبت عن خالد بن معدان فقال سنة عشر يعني ومائة فقال انت تزعم انك سمعت منه بعد موته بسبع سنين • قال اسماعيل مات خالد سنة ثلاث ومائة • وقد روى يحيى ابن صالح عن اسماعيل انه توفي سنة خمس • وقد وقع لعفير بن معدان نظير هذا مع من ادعى انه سمع من خالد ولكن عفير قال انه توفي سنة اربع ومائة • وسئل ابو عبد الله الحاكم محمد بن حاتم الكشي عن مولده لما حدث عن عمر بن حميد فقال سنة ستين ومائتين فقال سمع هذا من عبد الله بن حميد بعد موته بثلاث عشرة سنة • وفي سمط اللآل ايضا ما نصه

ولقد

ولقد رايت مجلسا جمع ثلاثة عشر مدرسا منهم قاضي قضاة ذلك الزمان وغيره من الاعيان فجرى بينهم وانا اسمع ذكر من تحرم عليهم الصدقة وهم ذوو القربى المذكورون في القرءان فقال جميعهم بنو هاشم وبنو عبد المطلب وحادوا باجمعهم عما يجب فتعجبت من جهلهم حيث لم يفرقوا بين عبد المطلب والمطلب ولم يهتدوا الى ان المطلب هو عم عبد المطلب وان عبد المطلب هو ابن هاشم فما احقهم بلوم كل لائم اذ هو اصل من اصول الشريعة قد اهملوه وباب من ابواب الانساب قد جهلوه . وقال في سمط اللآل وسمعت من بعض الشيوخ رحمه الله تعالى ان ابن مالك والشاطبي حضرا عند البارزي وان الشاطبي اراد ان يصنف في النحو وابن مالك اراد ان يصنف في القراءات فاشار البارزي على كل منهما بعكس ما اراد وهذه الحكاية باطلة جمع فيها بين ثلاثة انفس من ثلاثة قرون فان الشاطبي مات سنة تسعين وخمسمائة وابن مالك ولد سنة ستمائة او احدى وستمائة بعد موت الشاطبي باكثر من عشرين سنة ومات سنة اثنتين وسبعين وستمائة والبارزي كان بعد السبعمائة فانه مات سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة . وقال الصلاح الصفدي في تاريخه — التاريخ للزمان مرءاة . وتراجم العالم للمشاركة في المشاهدة مرقاة . واخبار الماضيين لمن عانته الهموم ملهاة . وانشدوا —

لولا احاديث ابقتها اوائلنا من الندا والردا لم يعرف السمر

ولقد افاد التاريخ حزما وعزما . وموعظة وعلما . وهمة تذهب هما . وبيانا يزيل وهنا ووهما . وصبرا يبعثه التاسي بمن مضى . واحتشاما يوجب الرضى بما خفي وجلا من القضا . وقال سفيان الثوري رضي الله عنه فالتاريخ يبين كذب الرواة من صدقهم . وقال ابو حفص بن غياث اذا اتهمتم الشيخ فحاسبوه بالسنين بكسر السين وفتح النون المشددة تثنية سن وهو العمر اي احسبوا سنه وسن من كتب عنه . وقال حماد بن زيد استعن على الكذابين بمثل التاريخ . وقال في سمط اللآل وملخص ما ذكر ان

القادح في مطلق التاريخ الجاهل به لا يلتفت اليه ولا يعول في تحقيق العلوم عليه . وقد الحقه بعض الايمة كما مر بالفساق . ووقوع هذه المبالغة مشعر بان فعله اذا لم يوضع للتفرج والمفاكهة مما كان عليه الاتفاق . انتهى كلام صاحب سمط اللال .

الفصل السابع في ذكر اسماء الاشهر والايام
على اختلاف الملل وما جرت به عادة الله في بعضها

ولما كان مبنى التاريخ على مدة من الزمان ليعلم بها مقدار حركة الفلك ومن اجزائه الاشهر والايام التى تتميز بها المقادير ذكرت ما وقفت عليه من اسماء الاشهر في ملة الاسلام وغيرها على اختلاف الملل فالاول من اسماء الاشهر العربية المحرم الى ذي الحجة قال في سمط اللال وكانوا يكتبون شهر رمضان وشهر ربيع الاول وشهر ربيع الثاني فيذكرون الشهر مع هذه الثلثة الاشهر ولا يذكرونه مع غيرها من شهور السنة والشهور كلها مذكرة الاسماء الا جمادى الاولى وجمادى الاخرى . وكان ابو عبيدة يونث صفرا ويمنعه من الصرف والناس على خلاف ذلك . ولقد انشدني شيخنا ابو العباس احمد برناز رحمه الله

ثم الشهور كلها تذكر ... الا جمادى ورووا وصفر
وليس مصروفا من البقاع ... الا نواحي جي للسماع
مثل حنين ومنى و بدر ... وواسط ودابق وحجر

ومن خطه ما هو معزو للعلامة الشيخ سيدي احمد الفارضي الحنبلي رحمه الله تعالى

ان حادي عشرين شهر جمادى ... في كلام الشهود لحن قبيح
اثبتوا الشهر وهو مع رمضا ... ن والربيعين غير ذي لم يبيحوا
وتعدوا بحذف واو واثبا ... ت لنون وعكس هذا الصحيح
فاكتبه حادي وعشري جمادى ... واعتمده فالنقل فيه صحيح
فصريح قد قال ذا ابن هشام ... جاد مثواه صوب غيث فسيح

وهي كلها

وهي كلها معارف جارية مجرى الاعلام وقال في سمط اللآل رحمه الله قال ابن درستويه وليس من الاشهر ما يضاف اليه شهر الا شهرا ربيع وشهر رمضان قال الله تعالى ــ شهر رمضان الذي انزل فيه القرءان ــ وقال الراعي

شهري ربيع ما تذوق لبونهم الا حموضا وخمة ودويلا

فما كان من اسمائها اسما للشهر او صفة قامت مقام الاسم فهو الذي لم يجز ان يضاف الشهر اليه ولا يذكر معه كالمحرم انما معناه الشهر المحرم وهو من الاشهر الحرم وكصفر وهو اسم مرفة كزيد من قولهم صفر الاناء يصفر صفرا اذا خلى وجمادى وهي معرفة وليست بصفة وهي من جمود الماء ورجب وهو معرفة مثل صفر وهو من قولهم رجبت الشي اي عظمته لانه ايضا من الاشهر الحرم وشعبان وهو صفة بمنزلة عطشان من التشعب والتفرق وشوال وهو صفة جرت مجرى الاسم فصارت معرفة وفيه تشول الابل . وفي القاموس وشوال كشداد بلدة بمرو وشهر الفطر جمعه شواويل وشوالات . وفي مرءات الزمان لسبط بن الجوزي رحمه الله تعالى ما نصه سمي المحرم محرما لتحريم القتال فيه فكان من العرب من يلقى قاتل ابيه او ابنه او اخيه فلا يتعرض له بسوء وكذلك في سائر الاشهر الحرم واما صفر فلان المنازل كانت تصفر فيه منهم اي تخلو والصفر الخالي واما ربيع الاول وربيع الثاني فلانهم كانوا لا يرتبعون فيهما واما جمادى وجمادى فلان الماء كان يجمد فيهما وهو فعالى من الجمد واما رجب فمن الترجيب وهو التعظيم ويقال له رجب مضر لان مضر كانت تعظمه اكثر من غيرها فنسب اليها وجمعه ارجاب وقيل انه سمي الاصم لانه لا يشهد بالقبائح على هذه الامة واما شعبان فلان الشعب هو الاجتماع وكانوا يتشعبون به بعد الفرقة وقيل انما سمي شعبان لانه يتشعب فيه خير كثير لرمضان واما رمضان فاشتقاقه من الرمض وهو وقوع حر الشمس على الرمل ومنه الرمضاء واما شوال فهو من الشول وهو الارتفاع

لان النوق تشول فيه اي ترفع اذنابها للنتاج واما ذو القعدة فلقعودهم فيه عن الحرب والغارات قال الجوهري ولم يقولوا ذوي القعدة واما ذو الحجة فلانهم كانوا يهلون فيه بالحج ويقصدون مكة وجمعه ذوات الحجة . اه . وذو القعدة وهو صفة قامت مقام الشهر والقعود عن التصرف كقولك هذا الرجل ذو جلسة واذا عرفت الرجل قلت ذو الجلسة وذو الحجة مثله ماخوذ من الحج واما الربيعان ورمضان فليست باسماء للشهر ولا صفات له فلا بد من اضافة شهر اليها كقولك شهر ربيع وشهر رمضان ويدلك على ذلك ان رمضان فعلان من الرمض كقولك الغليان وليس الغليان بالشهر ولكن الشهر شهر الغليان وجعل رمضان اسما معرفة للرمضاء فلم يصرف لذلك . واما رواة الحديث فيرون انه اسم من اسماء الله تعالى . وربيع انما هو اسم للغيث وليس الشهر بالغيث ولكن الشهر شهر غيث وصار ربيع اسما للغيث معرفة كزيد فاذا قلت شهر ربيع الاول والآخر فهما صفتان لشهر واعرابهما كاعرابه ولا يكونان صفتين لربيع وان كانا معرفة لانه ليس هناك ربيعان وانما هو ربيع واحد وشهرا ربيع ولو كانا كذلك لكانا نكرتين لكنه مضاف الى معرفة — انتهى كلام ابن درستويه .

قال جامعه عفى الله عنه ان التعليل السابق في جمادى وانه مشتق من جمود الماء وفي شوال وانه تشول فيه الابل الخ غير مطرد لانفكاك شهور الاهلة عن الشهور الشمسية حسبما هو مشاهد إلّا ان يجاب بان الواضع وضع هذا الاسم على هذا الشهر باتفاق شولانها فيه عند زمن التسمية الى آخر التعليلات والله اعلم . ثم لما كان التاريخ نوعين قمري وهو المبني على دوران القمر وتاريخ العرب مبني عليه وهو الذي يجري به العمل عند الفقهاء وقد مرّ جانب في شان شهوره ومداره مبني على رويا الآية السماوية والخارقة الافقية وهي الهلال الذي بهر الحكماء صنعه واعجز الواصفين شكله ووضعه . ولقد ولع بتشبيهه فحول الصدر الاول حتى رايت لخاتمة المحققين الحافظ السيوطي رحمه الله تاليفا مستقلا سماه رصف اللآل في

وصف

وصف الهلال ولقد لقطت من سنبله بمنقار اليراع ما اغرى عليه التلذذ ولاستماع فمنه ما اسنده للصفدي رحمه الله تعالى ـ

قم بنا نلبس الربيع جديدا فلقد اخلقت برود الشتاء
وتبدى الهلال مثل مقص فنحوه لقص ذيل السماء

وقال مضمنا ـ

كان هلال لافق لما بدا لنا ولاحظه كل بعين مراقب
محجبة لما تراءت لصبها بدا حاجب منها وضنت بحاجب

وقال ـ

لاح الهلال فراق الناس منظره وقد بدا في نواحي الغرب منتصبا
كانه ونَد قد جره طنب فاعوج منه ولكن لا نرى الطنبا

وقال ـ

لايعجب الناس من شكل الهلال اذا ما لاح في لافق الغربي منتصبا
سعى ليخرج من تحت السحاب الى ان انحنى ظهره من اجل ما تعبا

وقال ـ

هذا الهلال الذي قمنا نشاهده والغرب في رقه المنشور قد رمزه
كانه البشر غطاها اخو حذر فما نرى منه إلّا جانب الخرزه

وقال ـ

شربنا والدجا قد زاد طولا وجفني قد تجافاه كراه
وزنجي الظلام غدا محلى بخلخال الهلال لمن يراه

وقال ابن المعتز ـ

اهلا بفطر قد اتاك هلاله فالان فاغد الى السرور وبكر
فكانما هو زورق من فضة قد اثقلته حمولة من عنبر

وقال ابو الحسن بن ظافر المصري ـ

والليل فرع بالكواكب شائب فيه مجرته كمثل المفرق
ولربما ياتي الهلال بحره متصيدا حوت النجوم بزورق

وقـال علي بن محمد بن احمد بن حبيب التميمي القليوبي الكاتب ـ

بدا مستدق الجانبين كانه على الافق الغربي مخلب طائر
وراح لمرءى ليلتين كانما تفرق منه الغيم عن اثر حافر

وقـال ابن نباتة ـ

كان شكل هلال العيد في يـده قوس على مهج الحساد موتـور
او مخلب مده نسر السماء لهم فكل طائر قلب منه مذعـور
او منجل لحصاد القوم منعطف او خنجر مرهف الحدين مطرور
او نعل تبر اجادت في هديته الى جواد ابن ايوب المقاديـر
او راكع الظهر شكرا في الظلام له من فضله في السما والارض مشكور
او حاجب اشمط يبني بان له عمرا له في ظلال العز تعميـر
او زورق جاء فيه العيد منحدرا حيث الدجا كعباب البحر مسجور
او لا فقل شفة للكاس مائلـة تـذكر العيش ان العيش مذكور
او لا فنصف سوار قام يطرحه كف الدجا حين عمته التباشير
او لا فقطعة قيد فك عن بشر اخنى الصيام عليه فهو مـاسور
او لا فمن رمضان النون قد سقطت لما مضى وهو في شوال محصور

وقـال ابو الطليق الخزاعي ـ

كان الثريا والهلال امامهـا يد علقت منه بنصف سـوار
تضم على الشطر البنان وشطره يلوح كنون علقت بنظـار

ولجـامعه عفى الله عنه ـ

بدا الهلال وجنح الليل يجذبه الى ائتلاف نجوم ملتقى السمر
كاقرع سارق يطل مختبرا لاي بيت يفاجي اول السحر

وقـال الحافظ السيوطي رحمه الله وانما كان التاريخ بالهلالية لحديث ـ انا امة امية لا نحسب ولا نكتب ـ وحديث ـ اذا رايتموه فافطروا واذا غم فاكملوا الثلاثين ـ . وقال رحمه الله قال والد شيخنا البلقيني في التدوين كل شهر في الشرع فالمراد الهلالي إلّا شهر المستحاضة وتخليق الحمل

وانما يورخ بالليالي لان الليالي سابقة على الايام الّا يوم عرفة شرعًا ـ

علقتها سوداء مصقولة سواد قلبي صفة فيها

ما انكسف البدر على تمه ونوره الّا ليحكيها

لاجلها الازمان اوقاتها مورخات بلياليها

وقوله تعالى ـ كانتا رتقا ففتقناهما ـ قالوا ولا يكون مع الرتق الّا الظلام فهو سابق على النور. قال الحافظ السيوطي وروى السدي عن اسحاق اول ما خلق الله النور والظلمة ثم ميز بينهما فجعل الظلمة ليلاً والنور نهارا وقد ثبت ان القيامة لا تقوم الّا نهارا فدل على ان ليلة اليوم سابقة اذ كل يوم له ليلة . وقد ثبت ان التاريخ نوعان قمري وقد مضى تفصيله وشمسي وهو المبني على دوران الشمس وقد تعتبر الشهور الشمسية عند الفقهاء فيذكرون تارة القبطية كما نقل المحقق محمد بن ابراهيم التتاءي في تحقيق ظل الزوال من قول القائل الظل في توت وفي برموده الخ ويذكرون تارة السريانية كما في تيعسير الجليل للمحقق السنهوري اثر قول المختصر وخرج الساعي طلوع الثريا بالفجر ونصه وطلوعها بالفجر منتصف ايار على حساب المتقدمين وعلى حساب المغاربة والفلاحين السابع والعشرين من بشنش والشمس في عاشر درجة من برج الجوزاء وهو فصل الصيف . اه . وكل وكل من ايار وبشنش شهر شمسي الّا ان الاول سرياني والثاني قبطي ومسماهما معا مايو الرومي كما سياتي قريبا ان شاء الله تعالى . ولما مر الكلام على سرد الشهور القمرية وبيان ماخذ اشتقاقها رايت ان اثبت هنا ما حققه صاحب سمط اللآل ناقلا من برنامج لبعض فضلاء المائة الثامنة من علماء بجاية قال ولم اقف على اسمه الّا ان الفاظه في طالعة الكتاب المذكور تدل على نجابته في هذا الشان فانه من التحقيق بمكان ونص بعض تلك الالفاظ وقصدت فيه الى تلخيص ما طولوه واسقاط ما كرروه من غير اجحاف في الاختصار ولا املال بالاكثار واقتفيت سبيل بعضهم في هذا الترتيب الذي رتبته والتفصيل الذي فصلته لكن مع زيادة بمحلها

وتنبيهات لا يستغنى عن مثلها وضبط بعض الالفاظ الواقعة للشهور فانها مسماة بحسب لغة كل قوم من الروم والقبط والفرس والسريانيين اذ لم تضبط عندهم اتكالا منهم على اشتهار استعمالها . وقال ايضا رحمه الله في المقدمة المذكورة اعلم ان القدماء من الامم الماضية والقرون الخالية اتفقوا على انه لا بد لكل امة من تاريخ معلوم تجعله اصلا في معاملاتها وحوادثها ومواسمها واتفقوا ايضا على ان عدد ايام السنة الشمسية ثلاثمائة وخمسة وستون يوما وربع يوم وان يزيدوا في اربع سنين يوما وهي الكبيسة وسموا شهورها بحسب لغاتهم ثم اختلفوا في تحديد اول السنة الشمسية مع اتفاقهم على ان فصولها اربعة فجعل المورخون من قدماء السريانيين التاريخ من هبوط ءادم الى الارض وجعلوا شهر ابريل اول السنة تقديما لفصل الربيع وفضله على سائر الفصول عند حلول الشمس ببرج الحمل وقدم المتاخرون منهم الخريف فجعلوا ابتداء السنة من اول كتوبر عند حلول الشمس ببرج الميزان وقدم النصارى فصل الشتاء فجعلوا اول السنة ينير عند حلول الشمس ببرج الجدي وهم المورخون بمولد المسيح لانه لم يتخلل بين المسيح عليه السلام وبين سيدنا عليه الصلاة والسلام نبي بل كان زمن فترة كما جاء في صحيح البخاري عن ابي هريرة رضي الله عنه قال سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول انا اولى الناس بابن مريم والانبياء اولاد علات ليس بيني وبينه نبي . وفيه عن سلمان الفارسي قال الفترة بين عيسى عليه السلام وبين محمد صلى الله عليه وسلم ستمائة سنة فجري المسلمون بالاندلس والمغرب على استعمال شهورهم من ابتداء السنة العجمية وهو شهر ينير وصار خفيفا على السنتهم قريبا من حسابهم وانما ابتدات به العجم وهي الروم لزعمهم ان اول يوم منه هو سابع مولد المسيح وانه يوم ختانه وهو من اكبر اعيادهم واسمه بالسريانية كانون الاخر ومما انشده القاضي عياض رحمه الله في برد كانون قوله —

كان كانون اهدى من ملابسه لشهر تموز انواعا من الحلل
او الغزالة من طول المدى خرفت فما تفرق بين الجدي والحمل

وبالقبطية

وبالقبطية طوبه بضم الطاء المهملة وكسر الباء الموحدة بعدها هاء ساكنة وايامه احد وثلاثون يوما وبرجه الجدي معوج الطلوع ترابي بارد يابس انثوي ليلي منقلب جنوبي حامض ذو مرة سوداء وله من المنازل الذابح وسعد بلع وثلث سعد السعود . اه . وهكذا فعل في ابتداء كل شهر منها غير ان الاختصار في المقال اولى بنا واليق بمقتضى الحال وفي الثاني والعشرين منه تنتهي الاربعينيات وفي الرابع والعشرين منه بدو العشب في الارض ويتزاوج الطيور . ـ فيرير ـ هكذا بفاء مكسورة فتحتية ساكنة فراء مفتوحة فتحتية ساكنة وآخره راء ايضا هذا هو اسمه عند الروم واسمه بالسريانية سباط بسين مهملة وتعجم ايضا وباء موحدة وبعد الالف طاء مهملة وبالقبطية امشير بهمزة مكسورة فميم ساكنة وبعد المعجمة المكسورة تحتية ساكنة وآخره راء . قال في المستوعب الكافي وعدد ايامه ثمانية وعشرون يوما ودخوله باليوم الرابع من ينير . وفي سابعه سقوط الجمرة الاولى . وفي ثالث عشر منه يجري الماء في العود من اسافله الى اعاليه وتنق الضفادع . وفي رابع عشر منه يصوم النصارى وتسقط الجمرة الثانية وتتحرك البراغيث . وفي الحادي والعشرين منه سقوط الجمرة الثالثة . وفي السادس والعشرين منه ايام العجوز . وانما سميت ايام العجوز لانها عجز الشتاء ولان عجوزا من عاد توارت في سرب فانتزعتها الريح في الثامن فاهلكتها . وقوله في الثامن طبق ما في الاية الكريمة . ولم ادر ما معتمد العيني رحمه الله تعالى حيث قال وهي سبعة ايام ثلاثة من شباط واربعة من اذار قيل سميت ايام العجوز لان الله تعالى اهلك قوم عاد في هذه الايام وتخلفت منهم عجوز كانت تنوح عليهم في كل سنة في هذه الايام . وقال في الكشاف هلكت في اليوم الثاني . وقيل انها كانت عجوز كاهنة اخبرت قومها ببرد شديد في آخر الشتاء يسوء اثره على المواشي فلم يكترثوا بقولها وجزوا اغنامهم فجاء البرد فقتلها . واسماء ايام العجوز صره وقيل صن بالنون وصنبر ووبر وءامر ومؤتمر ومعلل ومطفي الجمر . وهذه

الايام لا تخلو غالبا من برد او ريح او كدورة وهي المعبر منها في الكتاب العزيز بالحسوم . قال البيضاوي حسوما متابعات جمع حاسم من حسمت الدابة اذا تابعت بين كيها او نحسات حسمت كل خير واستاصلته او قاطعات قطعت دابرهم ويجوز ان يكون مصدرا منتصبا على العلة بمعنى قطعا او المصدر لفعله المقدر حالا اي يحسمهم حسوما ويويده القراءة بالفتح وكانت مرسلة عليهم اولها من صبح يوم الاربعاء لثمان بقين من شوال . وفي الكشاف وقيل هي ايام العجوز وهي آخر الشتاء واسماوها الصن والصنبر والوبر والامر والموتمر والمعلل ومطفيء الجمر وقيل مكفيء الظعن . وفي القاموس والصن بالكسر اول ايام العجوز وقال في الصحاح وصنابر الشتاء شدة برده وكذلك الصنبر بتشديد النون وكسر الباء قال طرفة —

بجفان تعتري مجلسنـــــا   من سديف حين هاج الصنبر

والصنبر بتسكين الباء يوم من ايام العجوز ويحتمل ان يكون بمعنى وانما حركت الباء للضرورة . وقال ايضا والوبر ايضا من ايام العجوز وقال ايضا وقول الشاعر —

وبآمر واخيه موتمـــر   ومعلل ومطفيء الجمر

فهما يومان من ايام العجوز كان الاول منهما يامر الناس بالحذر والاخر يشاورهم في الظعن والمقام وقال في القاموس ومعلل كمحدث يوم من ايام العجوز ومصطفيء الجمر خامس ايام العجوز او رابعها . قال جامعه عفى الله عنه لم يذكر الكشاف ولا غيره سوى سبعة ايام مع ان الاية الكريمة ثمانية . ثم قال الكشاف ومعنى سخرها عليهم سلطها عليهم كما شاء عاتية شديدة الغضب والعتو استعارة او عتت على عاد فما قدروا على ردها بحيلة من استتار ببناء او لياذ بجبل او اختفاء في حفرة فانها كانت تنزعهم عن مكامنهم وتهلكهم وقيل عتت على خزانها فخرجت بلا كيل ولا وزن . وروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال ما ارسل الله سفنة من ريح الا بمكيال ولا قطرة من ماء الا بمكيال الا يوم عاد ويوم نوح فان الماء يوم نوح

طغى

طغى على الخزان فلم يكن لهم عليه سبيل . ثم قرا - انا لما طغى الماء حملناكم في الجارية - وان الريح يوم عاد عتت على الخزان فلم يكن لهم عليها سبيل . ثم قرا - بريح صرصر عاتية - ولعلها عبارة عن الشدة والافراط فيها والصرصر الشديدة الصوت لها صرصرة . قال البكري تاج العارفين وصف به ولم يقل صرصرة كما قال عاتية مع ان الريح مونثة لان الصرصر وصف مختص بالريح فاشبه باب حايض وطامث وحامل بخلاف عاتية فان غير الريح من الاسماء المونثة وصف به وقيل هي الباردة من الصر كانها التي كرر فيها البرد وكثر فهي تحرق بشدة بردها . اه . وفي شعر حاتم لعبدة بن يسار -

اوقد فان الليل ليل قـــــر والريح يا موقد ريح صـــر
عسى يرى نارك من يمـــر ان جلبت ضيفا فانت حر

وفي التفسير انا لما طغى الماء علا فوق كل شيء من الجبال وغيرها زمن الطوفان والشعور بالطوفان هو السبب في بناء اهرامات مصر فان بعض حكمائهم اخبرهم فقال تخرج نار تعم على جميع الدنيا وبنوها تحت الارض ليدخلوها عند هذه النار ووضعوها قبل لذخائرهم واموالهم وكتبهم وجميع ما يعز عليهم ويحتاجون اليه واخبروا بذلك ملكهم وكان رجلا شريبا للخمر لا يصحى منه وبقوا على اهبة لدخولها فاذا هي ماء فدخلها الحكماء ومن كانت له قدرة على الدخول معهم واما ملكهم فوجد سكرانا فلم يدخل وغرق . وقال القرطبي في مسالك الممالك والايام النحسات كل اربعاء توافق اربعا من الشهر نحو اربع خلون او بقين او اربع عشرة خلت او بقيت او اربع وعشرين خلون او بقين . انتهى . — مرس — ويقال باثبات الالف بين الميم والراء واسمه بالسريانية اذار بالمد وذال معجمة وراء وبالقبطية برمهات بباء موحدة وراء ساكنة وميم مفتوحة وهاء بعدها الف ثم تاء وايامه احد وثلاثون يوما واسم الدال ودخوله رابع ينير ورابعه آخر ايام العجوز وفي الثاني عشر يستوي الليل والنهار وهو الاعتدال الربيعي وهو اول ربيع العجم وخريف

الصين . - ابريل - واسمه بالسريانية نيسان بكسر النون وياء تحتية مثناة ساكنة وسين مهملة مفتوحة بعد الياء وبالقبطية برموده بفتح الباء الموحدة وراء ساكنة وميم مضمومة بعدها واو ساكنة ثم دال مهملة ثم هاء وايامه ثلاثون واسمه الزاي ودخوله سابع ينير وفي اوله يرجى المطر وفي رابعه عيد الشعانين وفي الحادي عشر عيد النصارى وفي السابع والعشرين منه مد الفرات . - مايه - وهو بالسريانية ايار بهمز ثم مثناة تحتية ثم الف ثم راء وبالقبطية بشنس بباء موحدة ثم شين معجمة ثم سين مهملة بينهما نون وايامه احد وثلاثون واسمه الباء ودخوله الثاني من ينير وفي رابعه عيد الصليب وفي السادس عشر يهيج الصبا ويطيب ركوب البحر وفي الرابع والعشرين يرفع الطاعون ويحصد الزرع وتبين زيادة نيل مصر وتهب الدبور . - يونية - وهو بالسريانية حزيران بفتح الحاء ثم زاي مكسورة بعدها مسفولة مثناة ثم راء ثم الف ونون وضبطه بعضهم بضم الحاء على صيغة التصغير وبالقبطية بوونه بباء موحدة وواوين ثم نون وهاء ساكنة وبعضهم كسر النون وجعله بواو واحدة ساكنة مع كسر النون وفتح الباء وايامه ثلاثون واسمه الهاء ودخوله خامس ينير وفي السادس عشر منه يتنفس نيل مصر وتغور المياه وفي الثاني عشر غاية طول النهار وقصر الليل وهو انقلاب الصيف وفي التاسع والعشرين تنظر اصحاب التجاريب بارض مصر فاذا كثر النداء فيه امتلأ النيل والا لا . - يولية - وهو بالسريانية تموز بفتح التاء المثناة وضم الميم المشددة وزاي معجمة قبلها واو وبالقبطية ابيب بفتح الهمزة وكسر الباء الموحدة ثم ياء مسفولة مثناة ثم باء موحدة كالاولى وايامه احد وثلاثون واسمه الزاي ودخوله سابع ينير وفي سابعه تطلع الشعرى وبطلوعها يعرف صالح الزرع من فاسده وذلك انهم قبل طلوع الشعرى بسبعة ايام ياخذون لوحا ويزرعون عليه اصناف الحبوب فاذا كانت ليلة طلوع الشعرى وضعوا ذلك اللوح تحت السماء في موضع عال فما اخضر من ذلك النبات فهو الصالح في تلك السنة وما اصبح منه مصفرا فهو الفاسد وفي الثاني

والعشرين

والعشرين تشتد صولة الحر ويرتفع الطاعون . — اغشت — وهو بالسريانية ءاب بالمد وآخرة باء موحدة وبالقبطية مسرا بضم الميم وسكون السين المهملة وفتح الراء مقصور واسمه الجيم ودخوله ثالث ينير وهو واحد وثلاثون وسادسه اول عيد التجلي والسابع عشر آخره . — شتنبر — بضم الشين المعجمة وفتح التاء المثناة فوق وسكون النون وفتح الباء الموحدة ثم راء وبالسريانية ايلول بفتح الهمزة وسكون المثناة تحت ثم لاملن بينهما واو اولاهما مضمومة واسمه بالقبطية توت بفتح التاء المثناة فوق ثم واو ثم تاء كالاولى واسمه الواو ودخوله سادس ينير وهو ثلاثون يوما . قال التجاني وفي سابع شتنبر يظهر سهيل على قرب اذا كانت الجوزاء سموا في وسط السماء في المواضع التي يظهر منها وموضعه الذي يظهر منه بافريقية من قصر الجم واذا كانت غائبة او هابطة في اقصى المشرق او المغرب لا يرى وهو من الكواكب اليمانية ولذلك قال عمر بن عبد الله بن ابي ربيعة المخزومي موريا بذكره وبذكر الثريا عن سهيل بن عبد الرحمان بن عوف والثريا بنت عبد الله بن الحارث بن امية الاصغر بن عبد شمس لما تزوجها —

ايها المنكح الثريا سهيلا   عمرك الله كيف يلتقيان
هي شامية اذا ما استقلت   وسهيل اذا استقل يماني

وفيه فيما يظهر لناظره احرار واضطراب شديد وذلك لقربه من الافق فان الكواكب تكثر حركتها هنالك وكلما ارتفعت قلت حركتها وقد تعرض لها حركة ايضا وهي مرتفعة اذا كان في الهواء تموج وقد قال ابو العلاء المعري —

وسهيل كوجنة الحب في اللو   ن وقلب المحب في الخفقان
يسرح اللون في احرار كما تسو   ح في اللمح مقلة الغضبان
قدماه وراءه وهو في العجـ   ـز كساع ليست له قدمان

قدماه كوكبان تحته يعرفان بقدمي سهيل يقول قد ثبت انه له قدمان ولكنه لم يبرح فكانه لا قدمين له يشير الى طول الليل وانشد

ابو علي في الامالي لاعرابي يصف نارا —

رايت بحزن عزة ضوء نار تلالا وهي واضحة المكان

فشبه صاحباي بها سهيلا فقلت تثبتا ما تبصران

انار اوقدت لتنوراهـا بدت لكما ام البرق اليماني

كان النار يقطع من سناها بنائق جبة من ارجوان

وكل ذلك اشارة الى احمراره واضطرابه وتتقدم قبل سهيل خمسة كواكب تسمى العذارى او هي في المجرة اسفل من الشعرى العبور وكوكب آخر يسمى حضار على وزن حذام ويقال له ايضا المحنث وذلك لانه شبيه بسهيل فيظن من رآه انه هو ويحلف على ذلك فاذا طلع سهيل تبين له غيره فيحنث . وكانت العرب تزعم ان سهيلا يعشر الناس بضم الشين اي ياخذ عشر اموالهم وكذلك الضب وانهما كانا ماكسين على تجار البر والبحر فمسخهما الله سبحانه عقوبة لهما وجعل احدهما نجما في السماء والآخر حيوانا في الارض والى هذا اشار الحكيم ابن عمر البهراني الاعمى بقوله وكان اتى ابن العنبر بالبادية واقام معهم فكان يتفقه بفقههم ويفتي بفتياهم —

ان ربي لما يشاء قدير ما لما ان اراده من مفر

ماسخ الماكسين نجما وضبا حين جاءا بكل مكس وعشر

وذلك من خرافات الاعراب واباطيلهم وانما الغريب من امر سهيل وهو صحيح مشاهد ان الابل ساعة طلوعه تستدبره فلا تزال مولية بوجوهها عنه ما دام طالعا وان كانت حين طلوعه مستقبلة لجهته استدارت في الحين فولته ادبارها وهذا امر شائع مستفيض لم ارَ من اهل الابل إلّا مقرا به مصدقا له وكانوا يزعمون ان طلوعه سبب موت الابل ووقوع الوباء فيها فلاجل ذلك تكرهه وتستدبره وقد اشار الساجع الى ذلك بقوله - طلوع سهيل . ضر للابل وويل - وقال الشاعر —

وكان اضر فيهم من سهيل اذا وافى واشام من قزاح

وعليه بنى ابو العلاء قوله —

لا تحسبني

لا تحسبي ابلي سهيلا طالعـا   بالشام فالمرئيّ شعلة قابس

يريد ان ابله رات قبسا بالشام حسبته سهيلا فخشيت الموت فقال لها ليس سهيل من الكواكب الطالعة بالشام فتخافيه وانما رايت قبسا فلا تراعي وكذلك قول ابي الطيب المتنبي —

وتنكر موتهم وانا سهيـل   طلعت بموت اولاد الزنـاء

وذلك انه جعل حساده واضداده بهائم لجهلهم فسهيل يميتهم بطلوعه وجعلهم اولاد الزناء لانتسابهم للفضل وليسوا منه كما ينسب اولاد الزناء لاباء ليسوا منهم . قال التجاني وسالت اعراب زماننا عن هذا الذي يذكر من تاثيره في الابل فقالوا لا نعلم له تاثيرا فيها إلّا ان طلوعه عندنا امان للابل المغشوشة من الموت والغش داء معروف عندهم قالوا فما لم يمت بالغش قبل طلوعه لا يموت بعده وكانت العرب عند طلوعه تفصل الحوار عن امه ويقال ان ذلك سبب كراهة الابل لسهيل ولهذا قال ساجعهم ـ اذا طلع سهيل . برد الليل . وخيف السيل . وامتنع القيل . وكان لام الحوار الويل . وانما كان لها الويل لفراقها له ويروى كان للحوار الويل لفصله ومنعه من الرضاع وقد تكون الرواية الاولى موافقة لهذه فيكون معنى قوله وكان لام الحوار الويل اي للحوار نفسه والقيل في هذا السجع اما من القائلة وهي نومة الظهيرة او من الشرب في ذلك الوقت فانه يسمى القيل . وقالوا ايضا في سجع آخر ـ اذا طلعت الجبهة . تحانت الولهة . وتنزت السفهة . وقلب في الارض الرفهة . قالوا الولهة بتحريك اللام النوق تحن الى اولادها وتوله عليها لاجل ما ذكرناه فان طلوع الجبهة مقارن لطلوع سهيل وقوله وتنزت السفهة بفتح السين والفاء يعني السفهاء تواثبوا بطرا فاكثروا الغارة والافساد وانما بطروا لانهم في خصب من اللبن لما فصلت اولادها والرفهة بضم الراء وفتح الفاء قصب الزرع بعد اخراج الحب منه يعني انه لم يبق من الحبوب اذ ذاك إلّا الرفهة لاحتياجهم الى حفظ نعمهم لما تنازع السفهاء خوف الغارة واعرف ان ابن السيرافي لما تعرض لشرح قول الشاعر —

السم الك بجاركم فتركتموني لكلبي في دياركم عـــــواء
واخرت العشاء الى سهيــل او الشعرى فطال بي العشاء

قــال انما قال الشاعر هذا لان سهيلا انما يطلع سحرا وكذلك الشعرى فاراد اني انتظرت معروفكم حتى ايست منكم كما ييأس صاحب العشاء اذا طلع سهيل لانه لو اتى اذ ذاك بما ياكله لم يسم عشاء لفوات اسم العشاء بدخول السحر وهذا الذي قال ابن السيرافي من ان سهيلا انما يطلع سحرا لا يصح على الاطلاق لان طلوع سهيل يختلف باختلاف الازمان واختلاف البلدان فرب بلد يطلع فيه سحرا وقد طلع في غيره عشاء وربما طلع في ذلك الموضع بعينه في فصل آخر سحرا وهو في هذا كسائر الكواكب الّا ان يعني انه في ذلك الزمن الذي قيل فيه الشعر كان يطلع في ذلك البلد سحرا فحينئذ يصح قوله على بعد هذا التاويل من كلامه . انتهى . وفي الثالث عشر من شهر شتنبر منتهى زيادة نيل مصر وعيد كنيسة قمامة وفي الرابع عشر عيد الصليب وفي الثاني عشر يستوي الليل والنهار وهو الاعتدال الخريفي وهو اول الخريف عند العجم واول الربيع عند الصين . ـ كتوبر ـ واسمه بالسريانية تشرين الاول بفتح المثناة الفوقية وسكون الشين المعجمة ثم راء مكسورة بعدها ياء مسفولة مثناة وآخره نون وبالقبطية بابه بباء موحدة بعدها الف ثم باء ايضا مكسورة ثم هاء واسمه الحاء ومنهم من جعل اسمه الالف ودخوله اول ينير وهو احد وثلثون وفي الثالث عشر منه تغور المياه ويضطرب البحر وفي الخامس عشر يبرد الزمان وتكثر الرياح وفي الثامن عشر تفيض مياه النيل وفي الحادي والعشرين يزرع على نيل مصر وفي الثالث والعشرين يبتدي الهواء البارد . ـ نونبر ـ على وزن شتنبر من ضم وفتح وسكون وبالسريانية تشرين الاخر وبالقبطية هتور بهاء مفتوحة وتاء فوقية مضمومة وواو ساكنة ثم راء مهملة واسمه الدال ودخوله رابع ينير وهو ثلثون وفي اوله تهب الجنوب . ـ دجنبر ـ وضبطه كشتنبر وبالسريانية كانون الاول وبالقبطية كيهك بكاف بعدها مثناة مسفولة ثم هاء

ثم كاف

ثم كاف وأيامه احد وثلثون وربع واسمه الواو ويدخل سادس ينير وفي اوله الاربعينيات وفي التاسع عشر منه غاية الطول ليلاً وغاية القصر نهاراً وفي الثالث والعشرين تنتهي زيادة النيل وتكثر الانداء وتسقط اوراق الشجر *

ثم اعلم ان سني العرب قمرية وهي ثلثمائة واربعة وخمسون يوماً وخمس يوم وسدس يوم ومن هذا الخمس والسدس يحصل الكبس . قال السوسي ـ

ايامه سند وزيد الخمس   والسدس منهما يكون الكبس

وقوله ايامه الخ المعتبر في حسابهم اليوم وليلته اذ هما يدا الدهر الذي في خلال تصرفهما باذن خالقهما ما يعجز الالباب عده ـ ولا يمكن بالحيلة رده ـ وكيف وهما آيتان بالتامل والاعتبار ـ ومن آياته الليل والنهار ـ وقد اجاد بدر الدين الحلبي في وصفهما ـ وناسب في رصفهما ـ فقال ـ ارقت ذات ليلة في مهادي ـ فسمعت طارقا في النادي ينادي ـ

ان الليالي للانام مناهل   تطوى وتنشر بينها الاعمار

فقصارهن مع الهموم طويلة   وطوالهن مع السرور قصار

فقمت من مضجعي ـ وقد بل ردني مدمعي ـ متحيرا في امري ـ متاسفا على ما فات من عمري ـ وقلت ايها الطارق ـ في ظلمة الليل الغاسق ـ هل لك في المنادمة ـ فقال كم نديم سفك المنادمة ـ ثم سلم وجلس ـ وتنفس وما نبس ـ فقلت يا من شنف السمع بدرره ـ اذكر لي في طول الليل وقصره ـ فقال ـ

وليل كواكبه لا تسير   ولا هو منها يطيق البراحا

كيوم القيامة في طوله   على من يراقب فيه الصباحا

مقيم ليس يبرح ـ وعاجز لا يظعن ولا يترح ـ برد نجومه لا يذوب ـ وغائب ضوءه ليس يئوب ـ لا يبلى جديد مسحه ـ ولا يجنح الى الحركة ساكن جنحه ـ عليله ما يرجى صلاحه ـ وصباحه ما يلوح مصباحه ـ قطع الطريق على السحر ـ وعذب اجفان المحبين بالسهر ـ

حدثوني عن النهار حديثا   او صفوه فقد نسيت النهارا

كانه صريع راح ـ او طائر مقصوص الجناح ـ او اسير يتخبط في قيده ـ او

بحر منع الجزر عن مده - او كسير ليس له على النهض اقتدار - او ضرير ايس طرفه من روية النهار -

اوهائم غمر بقطع الفـــلا   قد حار لا يدري بمن يهتدي

اوجيش زنج باللوى قد ثوى   او دارة حيث انتهت تبتدي

واعلـــم ايها البصير الناقد - انه يطول على المهجور الفاقد - ويقصر على المسرور الراقد -

ليلي كما شاءت فان لم تـزر   طال وان زارت فليلي قصير

فقلت له ايه ايها الامام - اسمعني شيئا في وصف الايام - فـقال -

لله ايام تـقضت لنـــا   ما كان احلاها واهناهـــا

مرت فلم يبق لنا بعدهـــا   شيء سوى ان نتمناهـــا

حيث الوقت معين - وماء الشبيبة معين - ونشر البشر فاتح - ونور الهناء لائح - والحبيب مجيب - والرقيب غير قريب - وغصن الصبا رطيب - وطرف اللهو قشيب - والعيش غض والدهر غضيض الطرف - وسعاد السعد ممنوعة من الصرف -

والشمل مجتمع والجمع مشتمـــل   على الجميل وحسن الخلق والخلق

يا اخا الادب - الى كم ذا الحرص والداب - الايام نجمها غرار - ومدعي الوفاء منها غدار - كثيرة الملال - سريعة الزوال - تفرق الحبائب - وتسترجع المواهب - ذمامها ذميم - ومسالمها سليم - تحل العقود - ولا تحفظ العهود - تكدر الصافي من الشراب - وتعد الظامي بورد السراب - لقد سقط من تمسك بعراها - وتعب من قصد الراحة في ذراها -

ومكلف الايام ضد طباعهـــا   متطلب بالماء جـذوة ناري

ثم قال مضت الجبهة والشفق ، والفحمة والغسق ، والقطع والسدفة ، والبهرة والزلفة - وءان لنسمات السحر ان تخطر - ولعيون الفجر ان تنفجر - وقام للوداع - فقلت زودني يا نعم المتاع - فقال ضع اوزار الاوزار - واتق من لا تدركه الابصار - وسبحه بالعشي والابكار - وهو الذي يتوفاكم بالليل و يعلم ما

جرحتم

جزحتم بالنهار ـ انتهى . ولا تدرك حقيقة التمييز بينهما إلّا بشهادة الشاهدين اللذين اشرق عقدهما بصفحات الزمان وبهر . الاّ وهما الشمس والقمر * وقد وشى الحلبي طرازهما المشرق ـ وسقى الظمئان من زلال بيانهما العذب المشوق ـ فقال : بكرت يوما بعد اداء الفرض ـ اتفكر في خلق السموات والارض ـ فلمحت المشرق بالنظر ـ واذا قرن الغزالة قد ظهر ـ كانه جذوة نار ـ او قطعة من دينار ـ اوكاس ستر بعضه بالحباب ـ او حسناء غطت وجهها بنقاب ـ ثم كشفت استارها ـ والقت على الافق انوارها ـ وبرزت كانها كرة في ميدان ـ او مجن ضمخ بالزعفران ـ او مرءاة لم تصقل ولم تطرق ـ او وجه مليحة في خمار ازرق ـ او سبيكة زجاج منتفخة الجوانب ـ او بوتقة يجول فيها ذهب ذائب ـ وكانها عند انبساط شعاعها تبر يذوب على فروع المشرق . فقلت اهلا بالجارية ـ التي في طلعتها ما يغني عن الجارية ـ والعين التي تغار منها العين ـ والجونة التي وضح منها الجبين ـ والسراج الوهاج ـ الذي تبرجت به الابراج ـ انت المخصوصة بالشرف والرفعة ـ انت واسطة عقد الكواكب السبعة ـ انت للحكمة برهان ـ وللفلك معيار وميزان ـ انت الناطقة في صمتها ـ التي قصر البليغ عن وصفها ونعتها ـ انت ملك مقدم ـ انت النير الاعظم ـ انت بوح ـ التي تغدو في مصالح العالم وتروح ـ انت ذكاء التي اذكت نارها ـ انت الضحى التي اعلى الله منارها ـ انت الشمس ـ التي بها تعرف الاوقات الخمس ـ بل ينشر الظل ويطوى ـ ويشتد النبات بعد ضعفه ويقوى ـ ويستدل على طريق الصواب ـ ويعلم عدد السنين والحساب ـ لما سفرت راحلة في الحلل المعصفرة ـ محيت ءاية الليل وجعلت ءاية النهار مبصرة ـ ويناهيك بها منزلة ـ وحسبك ان صفاتك في الكتاب منزلة ـ . ثم تمشت على بساطها ـ وخطرت في وشيها ورياطها ـ وسبحت في فلكها مرشدة الى الحقائق ـ مظهرة اسرار الساعات والدرج والدقائق ـ

تسمو الى كبد السماء كانهـا تبغي هناك دفاع امر معضل

واستمرت سائرة يحدوها مر النسيم - والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم - . فلم يزل فكري يصاحبها - وطرفي يرعاها ويراقبها -

حتى اذا بلغت الى حيث انتهت   وقفت كوقفة سائل عن منزل
ثم انثنت تبغي الحدور كانها   طير اسف مخافة من اجدل

ولما حجبت عن العيون شخصها - وخطف المغرب من يد المشرق قرصها - واكتحلت جفون الافق بالقار - وطرد زنجي الليل رومي النهار - بزغ الهلال - بامر ذي الجلال - كانه قوس موتور - او زورق منحدر في بحر الديجور - او شطر سوار - او منجل معد لحصاد الاعمار - او خنجر مرهف النصلين - او نون معرقة من لجين - او شفة كاس مائلة - او مخلب عقاب صائلة - او قطعة من قيد - او فخ نصب للصيد - او حرف الجيم - او عرجون قديم - او حاجب شيخ ادركه الشمط - او نعل من حافر ادهم الدجى سقط - او ذباب سيف خرج من جفنه - او راكع يعبد من لا يحدث امر الا باذنه - فقلت مرحبا بمن اسباب مناويه رثاث - قر عينا ستعود قمرا بعد ثلاث - ثم تصير بدرا - ان في ذلك لذكرى -

واذا رايت من الهلال نموه   ايقنت ان سيكون بدرا كاملا

انت الزمهرير - الذي ليس له في نصرته نظير - انت الزبرقان - الذي له في كل شهر مهرجان - ايها القمر - كم محب طاب له فيك السمر - ايها الواضح الباهر - ما انت الا مثل سائر - ايها البدر الكامل - الذي فضله للبرية شامل - لا تاس على ما فاتك من الدرج - ولا يكن في صدرك من الغزالة حرج -

فقد تحمد الشمس الصباح بضوءها   تفاوتت الانوار والكل رائق

منازلك معروفة - ومحاسنك موصوفة - وشرفك باذخ - وقدمك راسخ - وءاياتك ظاهرة - وسفارتك سافرة - كم اوضحت من طريق - وهديت الرفيق الى الفريق - واذكرت محبا بمحبوبه - وبلغت طالبا غاية مطلوبه - احسن بضوء ذبالتك - وحبذا بهالتك - جعلك الباري في السماء نورا -

وكان

وكان امر الله قدرا مقدورا - وجلا بمحياك حندس الغسق - واقسم بك في قوله والقمر اذا اتسق - قدرك اثير اثيل - وحبك نبيه نبيل - ووجهك يا بثينة الحسن جميل - على رسل جمالك عن جار الى رتب العلا ولا رسيل - فتبارك اسم ستي البسكما احسن الحبر - وتعالى جد من جعلكما مصباحين لاهل النظر - ومن ءاياته الليل والنهار والشمس والقمر - ثم لم يبرح يسري وانا لا ابرح - ويتولى وانا شاهد وجهه الاصبح - الى ان غاب واختفى وحسبنا الله وكفى . اهـ . وسني العجم شمسية وهي ثلاثمائة وستة وستون يوما وقيل خمسة وستون يوما والتفاوت بينهما في كل مائة سنة ثلاث سنين . قال الله تعالى - ولبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا - ومن املاء شيخنا سيدي احمد برناز وقرا حمزة والكساءي ثلاثمائة سنين على اضافة ثلاثمائة الى سنين ومقتضى هذه القراءة ان يكون اقل لبثهم تسعمائة وتسع سنين بدليل قوله تعالى - قل الله اعلم بما لبثوا - اذ كل فرد من الافراد التي اضيف اليها ثلاثمائة سنين بالجمع واقل الجمع ثلاثة وقال ابو السعود ولبثوا في كهفهم احياء مضروبا على ءاذانهم ثلاثمائة الخ . واما شهور الفرس والعبرانيين وخوارزم واليونان فاختصرت ذكرها لعدم وقوفي على تقييد الفاظها . واما اسماء ايام الاسبوع في الجاهلية فقد انشدني شيخنا ابو العباس احمد برناز املاء من حفظه -

الطمع ان اعيش وان اوقى   باول او باهون او جبار

او التالى جبار فان افته   فمونس او عروبة او شيار

واما تسمية ايام الشهور العربية فقال ابو العباس ان العرب سمت كل ثلاثة ايام باسم فالثلاثة الاول من الشهر الغرر والواحد الاغر قال الراجز - في الليلة الغراء واليوم الاغر - لان الهلال يرى فيهن كانه غرة ثم شهب ثم بهر لانه يبهر ظلمة الليل ثم عشر لان الليلة الثالثة منهن العاشرة ثم بيض لان القمر يبقى الليل كله ثم درع والشاة الدرعاء التي مقدمها اسود وموخرها ابيض ثم خنس لان القمر يخنس فلا يرى الّا مطفئا ثم دهم لسواد

فيهن ثم قحم لان القمر قحم في دنوه من الشمس ثم دآدي والواحدة داداة وهي في عدو الابل ان يقدم يدا ثم يتبعها الاخرى وقيل غرر ثم نفل ثم تسع ثم عشر ثم بيض ثم درع ثم ظلم ثم حنادس ثم دآدي ثم محاق . واما الايام في انفسها فقد اختلف في اليوم الذي ابتدا الله فيه الخلق فقيل الاحد وقيل السبت وقيل الاثنين والاول اصح على ما ذكره القرطبي في مسالك الممالك وقال رحمه الله تعالى كذلك روي عن ابن عباس رضي الله عنهما وعن ابن مسعود ايضا ورواه مالك يرفعه الى ابن سلام فخلق الارضين يوم الاحد والاثنين وخلق ما عليها من المنافع يوم الثلاثاء والاربعاء - وقوله تعالى - والارض بعد ذلك دحاها - دحى الارض في يومين ايبس الماء فجعله ارضا واحدة ثم فتقها سبع ارضين في يومين وفرغ من سائر الخلق في يومين . فائدة . ان قيل لم خلق الله السماء قبل الارض وما الحكمة في ذلك وما السر في رفعها بغير عمد - قيل خلقها قبل الارض ليعلم ان فعله جل وعلا خلاف افعال الخلق فخلق اولا السقف ثم الاساس ورفعها على غير عمد ليدل على كمال قدرته تعالى وروي انه لما اراد الله عز وجل خلق السماوات والارضين سلط الريح العقيم على الماء فعظمت امواجه وكثر زبده وصعد دخانه وسما فسماه سماء وقال لزبده اجمد فجمد فصار ارضا وخلق الارض على حوت والحوت الذي ذكره الله تعالى في سورة - ن والقلم - والحوت في الماء والماء على ظهر صفاة والصفاة على ظهر ملك والملك على صخرة والصخرة في الريح والصخرة هي التي ذكرها الله حكاية عن لقمان بقوله تعالى - فتكن في صخرة - فاضطرب الحوت فتزلزلت الارض فارساها بالجبال فذلك قوله تعالى - وجعل فيها رواسي ان تميد بكم - ثم استوى الى السماء وهي دخان - ففتق السماوات وكانتا رتقا يوم الخميس والجمعة وانما سمي جمعة لانه تعالى جمع فيه خلق السماوات والارض . قال ابن سلام وكعب الاحبار وخلق آدم في آخر ساعة من يوم الجمعة فتلك الساعة التي تقوم فيها الساعة ويوم الجمعة هو سيد

الايام

الايام كما روي ان سيد البشر ءادم عليه السلام وسيد العرب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وسيد فارس سلمان وسيد الحبش بلال وسيدة الاشجار سدرة المنتهى وسيد الكلام القرءان العظيم وسيدة القرءان سورة البقرة وسيدة سورة البقرة ءاية الكرسي وسيد الشهور شهر رمضان وسيد الايام يوم الجمعة ولهم في ميمها الضم والكسر والاسكان وكل ذلك مع ضم الجيم . وعن عكرمة خلق في ساعتين منه الملائكة وفي ساعتين الجنة والنار وفي ساعتين الشمس والقمر والكواكب وفي ساعتين الليل والنهار واختلف ايهما خلق قبل والصواب انه الليل فكان اولا ثم خلق الشمس فضاءت فاضات حصة النهار وذكر ان ءادم خلق يوم الخميس . وذكر في خبر ابليس ان الله تعالى خلق الملائكة يوم الاربعاء والجن يوم الخميس وءادم يوم الجمعة وقيل بعد احدى عشرة ساعة فمكث جسدا ملقى اربعين عاما من اعوام الدنيا ثم نفخ فيه الروح وكان مكثه في السماء ومقامه في الجنة الى ان اهبط منها ثلاثا واربعين سنة واربعة اشهر و[illegible] من ساعات الايام الستة . قال ابن عباس رضى الله عنهما مكث ثلاث ساعات وهي ربع يوم وقدرها مائتان وخمسون عاما من اعوام الدنيا . وقال وهب بن منبه مكث فيها ستة ايام واهبط في الجمعة الثانية . وتظاهرت الاخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله خلق ءادم يوم الجمعة وفيه اهبطه الى الارض واخرجه من الجنة يوم الجمعة وتاب عليه يوم الجمعة وقبضه الله يوم الجمعة . وقال بعضهم اخرج ءادم من الجنة في الساعة العاشرة او التاسعة والمعروف ما تقدم كما ان بعضهم ذكر ان الله خلقه لساعتين مضتا من يوم الجمعة وقيل لثلاث والصحيح ما تقدم . واسماء ساعات النهار الذرور والبزوغ والضحى والغزالة والهاجرة والزوال والدلوك والعصير والاصيل والصبوب والحدور والغروب . واسماء ساعات الليل الشاهد والغسق والعجمة والوهن والقطع والجوهر والعتلة والتباشير والفجر الاول والفجر الثاني والمعترض . ويقال في ساعات النهار ايضا البكور ثم الشروق ثم الاشراق ثم الراد ثم الضحى

ثم النوع ثم الهاجرة ثم الاصيل ثم العصر ثم الطفل ثم الغروب . اه .
واهبط الله آدم قبل غروب الشمس من اليم الذي خلقه فيه بالهند على جبل يقال له واشم عند واد يقال له كليل بين الدهنج والمندل بلدين بارض الهند وهو بشرقي ارض الهند وقيل على جبل يقال له يوذ وقيل بسرنديب على جبل الدهون منها وعليه الورق الذي خصفه فيبس فذرته الريح في بلاد الهند فعلة كون الطيب في بلاد الهند من ذلك . وعن ابن عباس رضي الله عنهما مثله واهبطت حواء بجدة والحية باصبهان وقيل بالبرية وابليس بساحل بحر الايلة بميسان . قال ابو جعفر وهذا لا نعلم صحته واما هبوط آدم بارض الهند فذلك ما لا يدفع علماء الاسلام فيه واهل التوراة والانجيل وان آدم لما اهبط من الجنة اخرج معه ثلاثين قضيبا مودعة اصناف الثمار منها العشرة لها قشور وهي الجوز واللوز والجلوز والفستق والخشخاش والشاهبلوط والبلوط والرانج وهو جوز الهند والموز والرمان . وقيل لما نزل آدم من الجنة نزل باربع ورقات من ورق التين قد ستر بها عورته فلما تاب الله عليه جاءه كل حيوان في الارض يهنئه بقبول توبته ويتبرك به فسبق اليه منهم اربعة وهم الغزال وبقر البحر والنحل والدود الذي يخرج منه الحرير فاطعم ورقة للغزال فصار منه المسك واطعم ورقة لبقر البحر فصار منه العنبر واطعم ورقة للنحل فصار منه العسل واطعم ورقة لدود الحرير فصار منه الحرير . فسبحان القادر على كل شيء . ثم ان السنة في نفسها تنقسم الى اربعة فصول مختلفة الاحوال وقد اولع بالتفنن في احوالها اكابر ارباب البلاغة . من ذلك ما امطرته سحب البلاغة برياضها . وتلاطمت بامواج فصاحتها بحار حياضها . وانساب من نيسان بديعها اراقم الجداول فدارت كالخلاخل بسوقها . وتاهت دوحة البيان على علاتها بسوقها . ومالت تختال بليدها وبسوقها . في خلال لطافة ما لاحظها قلب الا وصبا . ولذلك يدعونه نسيم الصبا . تاليف العلامة بدر الدين الحسن ابن عمر بن الحسن بن عمر بن حبيب الدمشقي الاصل الحلبي المولد والدار

ونصه : — حضر فصول العام مجلس الادب . في يوم بلغ منه الاريب نهاية الارب . بمشهد من ذوي البلاغة . ومتقني صناعة الصياغة . فقام كل منهم يعرب عن نفسه . ويفتخر على ابناء جنسه * فقال الربيع : انا شاب الزمان . وروح الحيوان . وانسان عين الانسان . انا حياة النفوس . وزينة عروس الغروس . ونزهة الابصار . ومنطق الاطيار . عرف اوقاتي ناسم . وايامي اعياد ومواسم . فيها يظهر النبات . وتنشر الاموات . وترد الودائع . وتتحرك الطبائع . ويمرح جيب الجنوب . وينزح وجيب القلوب . وتفيض عيون الانهار . ويعتدل الليل والنهار . كم لي عقد منظوم . وطراز وشي مرقوم . وحلة فاخرة . وحلية ظاهرة . ونجم سعد يدني راعيه من الامل . وشمس حسن ينشدنا بعد ما بين برج الجدي والحمل . عساكري منصورة . واسلحتي مشهورة . فمن سيف غصن مجوهر . ودرع بنفسج مشهر . ومغفر شقيق احمر . وترس بهار يبهر . وسهم آس يرشق فينشق . ورمح سوس سنانه ازرق . تحرسها آيات . وتكنفها رايات . بي تحمر من الورد خدوده . وتهتز من البان قدوده . ويخضر عذار الريحان . وينتبه من النرجس طرفه الوسنان . وتخرج الخبايا من الزوايا . ويفتر ثغر الاقحوان قائلا — انا ابن جلا وطلاع الثنايا —

ان هذا الربيع شيء عجيب تضحك الارض من بكاء السماء
ذهب حيث ما ذهبنا ودر حيث درنا وفضة في الفضاء

وقال الصيف : انا الخل الموافق . والصديق الصادق . والطبيب الحاذق . اجتهد في مصلحة الاصحاب . وارفع عنهم كلفة حمل الثياب . واخفف اثقالهم . واوفر اموالهم . واكفيهم المونة . واجزل لهم المعونة . واغنيهم عن شراء الفرا . واحقق لهم ان كل الصيد في جوف الفرا . نصرت بالصبا . واوتيت الحكمة من زمن الصبا . بي تنضج الجمادة . وتنضج من الفواكه المادة . ويزهى البسر والرطب . وينصلح مزاج العنب . ويقوى قلب اللوز . ويلين عطف التين والموز . وينعقد حب الرمان . فيقمع

الصفراء ويسكن الخفقان . وتخصب وجنات التفاح . ويذهب عرف السفرجل مع الرياح . وتسود عيون الزيتون . وتخلق نجاب النارنج والليمون . مواعدي مسعودة . وموائدي ممدودة . الخير موجود في مقامي . والرزق مقسوم في ايامي . الفقير يصطاع بجمله . ملك وصاعه . والغني يرتع في ربيع ملكه واقطاعه . والوحش ياتي زرافات ووحدانا . والطير تغدو خماصا وتروح بطانا —

مصيف له ظل مديد على الورى   ومن جلا طبعا وحلل اخلاطنا

يصالح انواع الفواكه مبديا   لصحتها حفظا يعجز بقراطنا

وقال الخريف : — انا سائق الغيوم . وكاسر جيش الغموم . وهازم احزاب السموم . وحادي نجائب السحائب . وحاسر نقاب المناقب . انا اصد الصدا . واجود بالندا . واظهر كل معنى جلي . واسمو بالوسمي والولي . في ايامي تقطف الثمار . وتصفو الانهار من الاكدار . ويترقرق دمع العيون . ويتلون ورق الغصون . طورا يحاكي البقم . وتارة يتشبه بالارقم . وحينا يبدو في حلته الذهبية . فيجذب الى حلته القلوب الابية . وفيها يكفي الناس هم الهوام . ويتساوى في لذة الماء الخاص والعام . وتقدم الاطيار طرية بنشيشها . رافلة في الملابس المجردة من ريشها . وتعصر بنت العنقود . وتوثق في سجن الدنان بالقيود . على انها لم تجترح اثما . ولم تعاقب إلّا عدوانا وظلما . بي تطيب الاوقات . وتحصل اللذات . وترق النسمات . ويرمى حصى الجمرات . وتسكن حرارة القلوب . وتكثر انواع المطعوم والمشروب . كم لي من شجرة اكلها دائم . وحملها للنفع المتعدي لازم . وورقها على الدوام غير ذابل . وقدود اغصانها تخجل كل رمح ذابل —

ان فصل الخريف وافى الينا   يتهادى في حليه كالعروس

غيره كان للعيون ربيعا   وهو ما بيننا ربيع النفوس

وقال الشتاء : — انا شيخ الجماعة . ورب البضاعة . والمقابل بالسمع والطاعة . اجمع شمل الاصحاب . واسدل عليهم الحجاب . واتحفهم بالطعام

والشراب

والشراب . ومن ليس له في طاقة اغلقت من اجله الباب . اميل الى المطيع . القادر المستطيع . المعتضد بالبرود والفرا . المتمسك من الدثار بلوثق العرا . المرتقب قدومي وموافاتي . المتاهب للسبعة المشهورة من كافاتي . ومن يعش عن ذكري . ولم يمتثل امري . ارجفته بصوت الرعد . وانجزت له من سيف البرق صادق الوعد . وسرت اليه بعساكر السحاب . ولم اقنع من الغنيمة بالاياب . معروفي معروف . ونيل نيلي موصوف . وثمار احسابي دانية القطوف . كم لي من وابل طويل المدا . وجود وافر الجدا . وقطر حلا مذاقه . وغيث قيد العفاة اطلاقه . وديمة تطرب السمع بصوتها . وحياء يحيي الارض بعد موتها . ايامي وجيزة . واوقاتي عزيزة . ومجالسي معمورة بذوي السيادة . مغمورة بالخير والميسر والسعادة . نقلها ياتي من انواعه بالعجب . ومناقلها تسمح بذهب اللهب . وراحها تنعش الارواح . وسقاتها بجفونهم السقيمة تفتن العقول الصحاح . ان زرتها وجدت مالا ممدودا . وان رزتها شاهدت لها بنين شهودا —

وإذا رميت بسور كاسك في الهوى عادت اليك من العقيق عقودا

يا صاحب العودين لا تهملهما حرك لنا عودا وحرق عودا

فلما نظم كل منهم سلك مقاله . وفرغ من الكلام على شرح حاله . اخذ الجماعة من الطرب ما ياخذ اهل السكر . وتجاذبوا اطراف مطارف الثناء والشكر . وظهرت اسرار السرور . وانشرحت صدور الصدور . وهبت قبول الاقبال . وانشد لسان الحال —

وما ذا يعيب المرء في مدح نفسه اذا لم يكن في قوله بكذوب

ثم انفض المجلس وحل النطاق . وتفرق شمل اهله وآخر الصحبة الفراق .

الفصل الثامن في ذكر مدة العالم

واعلم ان العلماء اختلفوا في ابتداء مدة العالم وانقضائه على اقوال احدها ان عمر الدنيا من هبوط آدم عليه السلام سبعة آلاف سنة هكذا رواه صاحب عقد الجمان مرويا عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي

الله تعالى عنهم قال هي جمعة من جمع الاخرة قد مضى منها ستة ءالاف سنة وبقي الف سنة والثاني ان عمر الدنيا ستة ءالاف سنة وسبعمائة عام قاله كعب الاحبار ووهب بن منبه رضي الله عنهما والثالث اربعة ءالاف سنة وستمائة سنة واثنتان واربعون سنة وهو قول النصارى والرابع خمسة ءالاف سنة وخمسمائة واثنتان وثلثون سنة وهو قول .... والخامس اربعة ءالاف سنة ومائة واثنتان وثمانون سنة وهو قول اليونان . قال جامعه عفى الله عنه وقصارى ما لخصه مجتهد وقته جلال الدين السيوطي رحمه الله في كتابه الكشف في مجاوزة هذه الامة الالف ما نصه : قال الحكيم الترمذي في نوادر الاصول حدثنا صالح بن محمد حدثنا يعلى بن هلال عن ليث عن مجاهد عن ابي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم - ان الشفاعة يوم القيامة لمن عمل الكبائر من امتي ثم ماتوا عليها فهم في الباب الاول من جهنم لا تسود وجوههم ولا تزرق عيونهم ولا يغلون بالاغلال ولا يقرنون مع الشياطين ولا يضربون بالمقامع ولا يطرحون في ادراك منهم من يمكث فيها ساعة ثم يخرج ومنهم من يمكث فيها سنة ثم يخرج واطولهم مكثا فيها من يمكث فيها مثل الدنيا من يوم خلقت الى يوم افنيت - وذلك سبعة ءالاف سنة - وذكر بقية الحديث ، وقال ابن عساكر انبا ابو سعيد احمد بن محمد انبا ابو سهل احمد ابن احمد بن عمر الصيرفي انبا ابو جعفر محمد بن شاذان بن سعدويه انبا ابو علي الحسين بن داوود البلخي انبا شقيق بن ابراهيم الزاهد انبا ابو هاشم الايلي عن انس بن مالك رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم - من قضى حاجة لمسلم في الله كتب الله له عمر الدنيا سبعة ءالاف سنة صيام نهارها وقيام ليلها . وقال ابن عدي انبا ابو اسحاق انبا ابراهيم النبطي انبا احمد بن محمد بن حمزة بن داوود انبا عمر بن يحيى انبا العلاء بن زيد عن انس رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم - الدنيا سبعة ايام من ايام الاخرة - قال

تعالى

تعالى - وان يوما عند ربك كالف سنة مما تعدون - وقال ابن ابي حاتم في التفسير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال الدنيا جمعة من جمع الاخرة سبعة آلاف سنة مضى منها ستة ءالاف . وقال ابن ابي الدنيا في كتاب ذم الامل : انبا علي بن سعيد انبا حمزة بن هشام قال : قال سعيد بن جبير : انما الدنيا جمعة من جمع الاخرة . وقال عبد بن حميد في تفسيره : انبا محمد بن الفضل انبا حماد بن زيد عن يحيى بن عتيق عن محمد بن سيرين عن رجل من اهل الكتاب اسلم : قال ان الله تعالى خلق السماوات والارض في ستة ايام وان يوما عند ربك كالف سنة مما تعدون - وجعل اجل الدنيا ستة ايام وجعل الساعة في السابع فقد مضت الستة ايام وانتم في اليوم السابع . وقال ابو اسحاق انبا محمد بن محمد عن عكرمة انبا ابو سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما ان يهودا كانوا يقولون مدة الدنيا سبعة آلاف سنة وانما نعد بكل الف سنة من ايام الدنيا يوما واحدا في النار وانما هي سبعة ايام معدودات ثم ينقطع العذاب فانزل الله تعالى في ذلك - وقالوا لن تمسنا النار إلّا اياما معدودة - الى قوله تعالى - هم فيها خالدون . ثم استطرد خروج الدجال ومكثه ونزول سيدنا عيسى عليه السلام ومكثه الى ان قال : واخرج احمد في الزهد عن ابي هريرة رضي الله عنه قال : يلبث عيسى ابن مريم في الارض اربعين سنة لو يقول للبطحاء سيلي عسلا لسالت . واخرج في المستدرك عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : بين اذني الدجال اربعون ذراعا - فذكر الحديث الى ان قال : وينزل عيسى بن مريم فيقتله فيمتعون اربعين سنة لا يموت احد ولا يمرض ويقول الرجل لغنمه ولدوابه اذهبوا فارعوا وتمر الماشية بين الزرعين لا تاكل منه سنبلة والحيات والعقارب لا تؤذي احدا والسبع على ابواب الدور لا يؤذي احدا وياخذ الرجل المد من القمح فيبذره فيجيء سبعمائة مد فيمكثون في ذلك حتى يكسر سد ياجوج وماجوج فيخرجون ويفسدون فيبعث الله دابة من الارض فتدخل في ءاذانهم

فيصبحون موتى اجمعين وتنتن الارض منهم فيوذي الناس بنتنهم فيستغيثون بالله فيغيثهم فيبعث عليهم ريحا يمانية غبراء ويكشف ما بهم بعد ثلاث وقد قذفت جيفهم في البحر ولا يلبثون الّا قليلا حتى تطلع الشمس من مغربها ٠

وذكر ابن العربي رحمه الله تعالى ما نصه : - روينا من حديث عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما ان النبي صلى الله عليه وسلم اخذ بحلقة باب الكعبة في حجة الوداع ثم اقبل بوجهه الكريم على الناس فقال : - يا معشر الناس ان من اشراط القيامة اماتة الصلاة واتباع الشهوات وتكون امراء خونة ووزراء فسقة - فوثب سلمان الفارسي فقال : بابي انت وامي يا رسول الله وان هذا لكائن ٠ قال - نعم يا سلمان وعندها يكون المنكر معروفا والمعروف منكرا ٠ قال : ويكون ذلك ٠ قال - نعم يا سلمان وعندها يذوب قلب المومن في جوفه كما يذوب الملح في الماء مما يرى ولا يستطيع ان يغيره ٠ قال : ويكون ذلك ٠ قال - نعم يا سلمان ويونمن الخائن ويخون الامين ويصدق الكاذب ويكذب الصادق ٠ قال : ويكون ذلك ٠ قال - نعم يا سلمان ان اولى الناس قوم المومن بينهم يمشي بالمخافة ان تكلم اكلوه وان سكت مات بغيظه يا سلمان ما قدست امة لا ينتقم قويها لضعيفها ٠ قال : فيكون ذلك ٠ قال - نعم يا سلمان عندها يكون المطر قيظا والولد غيظا وتفيض اللئام فيضا وتغيض الكرام غيضا ٠ قال : ويكون ذلك ٠ قال - نعم يا سلمان عندها يعظم رب المال ويباع الدين بالدنيا وتلتمس الدنيا بعمل الاخرة واكتفى الرجال بالرجال والنساء بالنساء وتركب الفروج السروج فعليهم من امتي لعنة الله يا سلمان عندها يلي امتي قوم جثثهم جثث الناس وقلوبهم قلوب الشياطين ان تكلموا قتلوهم وان سكتوا استباحوهم لا يرحمون صغيرا ولا يوقرون كبيرا وتوطا حرمتهم ويجار في حكمهم عند ذلك امارة النساء ومشاورة الاماء وتفوه الصبيان على الناس وتكثر الشرط وتتحلى ذكور امتي بالذهب ويتهاون بالزناء وتظهر القينات ويتغنى بكتاب الله وتتكلم الروبيضة ٠ قال : بابي انت وامي يا رسول الله وما الروبيضة ٠

قال -

قال ـ يتكلم في امر العامة من لا يتكلم قبل . قال : ويكون ذلك يا رسول الله . قال ـ نعم يا سلمان عندها تزخرف المساجد كما تزخرف الكنائس والبيع وتحلى المصاحف بالذهب وتطول المنابر وتكثر الصفوف والقلوب متباغضة والالسن مختلفة ونوالهم لعقة على لسان من اعطي شكر ومن منع كفر . قال : ويكون ذلك يا رسول الله . قال ـ نعم يا سلمان عند ذلك تاتي سبايا من المشرق والمغرب تكون من امتي فويل للضعفاء منهم وويل لهم من الله ان تكلموا قتلوا وان سكتوا قتلوا موت على طاعة الله خير من حياة على معصية الله . قال : ويكون ذلك يا رسول الله : قال ـ نعم يا سلمان عندها تشارك المراة زوجها في امره ويعق الرجل والده ويبر صديقه يلبسون جلود الضان على قلوب الذئاب علماؤهم شر من الجيفة . قال : ويكون ذلك يا رسول الله . قال ـ نعم يا سلمان عندها تكون عبادتهم فيما بينهم التلاوة لما فيها ولا بد يسمون في ملكوت السماوات والارض الانجاس الارجاس . قال: ويكون ذلك . قال ـ نعم يا سلمان عند ذلك يتخذ كتاب الله من امي وتظهر القينات وينبذ كتاب الله وراء ظهورهم وهم يعطلون الحدود ويميتون سنتي ويحيون البدعة ولا يقام يومئذ بنصر الله لا يامرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر عندها يغار على الغلام كما يغار على الجارية ويخطب كما تخطب النساء ويهيا كما تهيا المراة عندها تتقارب الاسواق قال كل لا ابيع ولا اشتري ولا رازق غير الله يا سلمان عندها تليهم الجبابرة ويمنعون حقوقهم ويملأون قلوبهم رعبا فلا ترى إلّا خائفا مرعوبا عند ذلك يرفع الحج فلا حج يحج كبار الناس للهو واوساط الناس للتجارة وفقراء الناس للرياء والسمعة . قال : ويكون ذلك . قال ـ نعم يا سلمان . اه .

الباب الثاني في ذكر المغرب وفيه فصلان

الفصل الاول في فضل المغرب عموما

قال في صلة السمط ما نصه ـ ففي كتاب مسلم قال حدثنا يحيى بن يحيى الذي قال فيه ابن حنبل ما اخرجت نيسابور بعد ابن المبارك

كيحيى بن يحيى قال اخبرنا هشام عن داوود بن ابي هند عن ابي عثمان
عن سعد بن ابي وقاص قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ لا يزال
اهل المغرب ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة ـ ويعضد هذا الحديث
ما ذكره صاحب القاموس في مادة الغرب بما نصه ـ ومنه لا يزال اهل
الغرب ظاهرين على الحق • وقال الشيخ الصالح ابو الحجاج يوسف بن
يحيى بن عيسى بن عبد الرحمن التادلي في كتابه الموسوم بالتشوف
الى رجال التصوف ما نصه ـ وقد جاء في الصحيح من فضل اهل المغرب
ما لا يدفعه دافع ولا ينازع في ثبوته منازع كمثل ما روينا من طريق
مسلم بن الحجاج بسنده الى سعد بن ابي وقاص قال : قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم ـ لا يزال اهل المغرب ظاهرين على الحق الى يوم
القيامة • ومن حديث سعد بن مالك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم
قال ـ لا يزال اهل المغرب ظاهرين حتى تقوم الساعة • ومن تاول قوله
عليه الصلاة والسلام على ان الغرب الدلو وانه اراد اهل الغرب وهم العرب
فيبطل تاويله ما روينا من طريق يحيى بن مخلد في مسنده قال : اخبرنا
يحيى بن عبد الحميد قال حدثنا هشام قال اخبرنا داوود بن ابي معبد عن
ابي عثمان النهدي عن سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ـ لا يزال
اهل المغرب ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة او ياتي امر الله • وخرج
الدارقطني في فوائده بسنده الى سعد بن ابي وقاص قال : قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم ـ لا تزال طائفة من امتي ظاهرين على الحق في المغرب
حتى تقوم الساعة • وقال الامام الزاهد ابو بكر محمد الوليد الفهري الطرطوشي
نزيل الاسكندرية في رسالته المشهورة التي بعثها الى السلطان بمراكش
بعد ان ذكر الحديث الذي اخرجه مسلم فقال والله اعلم : هل ارادكم
رسول الله صلى الله عليه وسلم او اراد بذلك جملة من اهل المغرب لما هم
عليه من التمسك بالسنة والجماعة وطهارتهم من البدع والاحداث في
الدين والاقتفاء لاثار من مضى من السلف الصالح رضي الله عنهم فشرفوا

بهذه

بهذه المشارف شرفا وشغفوا بهذه المشاغف شغفا . انتهى * ـ وفي كتاب طبقات علماء افريقية لابي العرب محمد بن احمد بن تميم : وحدثني محمد بن بسطام بكسر الباء الضبي بفتح الضاد المعجمة منسوب الى ضبة عن ابي الحسن احمد بن عبد الله بن صالح قال حدثنا محمد بن الصباح قال حدثنا هشيم قال اخبرنا داوود بن ابي هند قال حدثنا ابو عثمان النهدي عن سعد بن ابي وقاص قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ لا يزال اهل المغرب ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة ـ وهشيم مصغر هو ابن بشير قال وحدثنا يحيى بن عمر وهو صاحب المنتخبة قال حدثنا حرملة ابن يحيى عن نعيم بن حماد عن عيسى بن يونس عن شعبة بن يزيد بن حصين عن راشد بن سعد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ خير الارض مغاربها . وذكر في الكتاب المذكور بسند يرفعه الى انس بن مالك رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ـ لا تزال عصابة من امتي بالمغرب يقاتلون بالحق لا يضرهم من خالفهم حتى يرون قتاما فيقولون غشيتم فيبعثون سرعاء خيلهم ينظرون فيرجعون اليهم فيقولون الجبال سيرت فيخرون سجدا فتقبض ارواحهم ـ والقتام بضم القاف وهو الغبار . قال المصري كذا وقع باثبات النون في الفعل ويحتمل ان تكون من غلط الناسخ واما ان كانت الرواية قد وردت به فيجب حمل حتى هنا على انها ابتدائية ولذلك ارتفع الفعل بعدها . وحدثني شيخنا ابو العباس احمد برناز قال اخبرني شيخنا سيدي احمد الغربي في ايام قراءتي عليه ببلاد زواوة ان ببلاد المغرب مقبرة فيها عشرة من الصحابة بعثهم اهل المغرب رسلا لرسول الله صلى الله عليه وسلم فدخلوا مسجده الشريف فلما وقفوا سالوا عنه صلى الله عليه وسلم بلسانهم ـ ءاذا ءامازان ايربي ـ وهي كلمة بربرية فاذا معناها اين وءامازان معناها رسول وايربي معناه ربي فاجابهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله ـ ءاشكاب ـ معناه والله اعلم ـ اي شيء تريدون . انتهى من خطه . وقوله ءاذا بهمزة بعدها الف

ممدودة فذال معجمة بعدها الف ، والكلمة الثانية بهمزة بعدها الف ممدودة فميم فالف فزاي فالف بعدها نون مكسورة والثالثة بهمزة مكسورة بعدها ياء ساكنة ثم راء ثم باء موحدة مكسورة بعدها ياء ، وجوابه صلى الله عليه وسلم بهمزة بعدها الف ممدودة ثم شين معجمة ساكنة ثم كاف بعدها الف ثم باء موحدة ساكنة ٠ ـــ

الفصل الثاني في حد المغرب

فـاما حده فقال في عقد الجمان المغرب ثالث الاقاليم العرفية وبلاد المغرب مصاقبة مصر من جهة المشرق الى فم بحر الزقاق الى صحراء لمتونة في الجنوب ومن جهة الجنوب المفاوز الفاصلة بين بلاد السودان وبلاد المغرب وهذه المفاوز ممتدة غربا وشرقا من سبتة الى مراكش ثم الى سجلماسة وما في سمتها شمالا وجنوبا وهذه ثلاثة اصقاع الاول يعرف بافريقية الثاني يعرف ببلاد المغرب الاقصى الثالث يعرف ببلاد السوس الاقصى ففي الصقع الثاني قبائل من البربر وصنهاجة وبرغاطة وزناتة وفيه نخل كثير ينتهي التمر عندهم اكثر من عشرة اجناس لا يشبه بعضها بعضا في الطعم ، قال جامعه عفى الله عنه قوله عشرة اجناس ليس من المستكثر فاني سمعت ممن اثق بخبره انه يحفظ من اسماء انواعها ستين اسما وقال سمعت من اهل الجريد من احصى مائة اسم في مجلس واحد وهو اكثر طعامهم والزرع عندهم قليل بسبب الاعراب ويجلب من هذا الصقع جلود الفنك احسن من فنك البحر ويجلب المتاع القيرواني مثل السوسيات والثياب المقصرة والمقاطع وثياب الصوف العالية والارجوان المحكم الصنعة ومنه يجلب الخيل الغريبة ٠

الباب الثالث في ذكر افريقية وفيه اربعة فصول

الفصل الاول في فضل افريقية بالاحاديث

قال صاحب طبقات علماء افريقية حدثني فرات عن محمد قال حدثنا عبد الله بن حسان اليحصبي عن عبد الرحمن ابن زياد عن ابي عبد الرحمن الحبلي

الحبلي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ـ ليأتين اناس من امتي من افريقية يوم القيامة وجوههم افضل نورا من نور القمر ليلة البدر . واليحصبي بفتح الصاد المهملة منسوب الى بني يحصب ويجوز كسر الصاد منه في النسبة . وفي اقتباس الانوار اليحصبي في حمير ينسب الى يحصب بن ذهبان بن مالك بن زيد بن سدد بن زرع بن سبا الاصغر كذا نسبه الهمداني والحبلي بضم الحاء وفتح الباء وهو ممن عده صاحب كتاب الطبقات ممن دخل افريقية من اجلة التابعين وعده البكري ايضا فيمن دخل الاندلس من التابعين وقال فيه هو ابو عبد الرحمن عبد الله بن يزيد الحبلي الانصاري وهو منسوب الى بني الحبلى من الانصار وذكر سيبويه النسبة اليه الحبلي بضم الحاء وفتح الباء في شواذ النسب قال ويقال فيه حبلي للفرق بينه وبين حبلي آخر وسمي الحبلي لعظم بطنه وبعضهم يقول فيه الحبلي بضم الحاء وضم الباء وكذلك يقوله المحدثون ولعلها لغة فيه فاما من قال حبلي بكسون الباء فهو جار على القياس لانه الاصل ولكن المسموع غيره وهو ما ذكره سيبويه والله اعلم . وقال القاضي ابو الفضل عياض رحمه الله تعالى وابو عبد الرحمن الحبلي بضم الحاء والباء رواية اكثر الشيوخ والفقهاء والنحاة واهل الاتفاق يقولونه بضم الحاء وفتح الباء وسكونها ايضا . وقال الشيخ الحافظ ابو علي الغساني رحمه الله تعالى المحدثون يضمون الباء وفي الكتاب البارع لابي علي البغدادي يقال فلان الحبلي بضم الحاء والباء منسوب الى حي من الانصار يقال لهم بنو الحبلى . قال واسمه عبد الله بن يزيد من تابعي اهل مصر سمع عبد الله بن عمرو بن العاصي وروى عنه شرحبيل بن شريك وابو هانئ الخولاني ويقال ان ابا عبد الرحمن دخل الاندلس روى له مسلم وحده وقوله عبد الله بن عمرو الواوي هو بفتح العين وسكون الميم وهو عبد الله بن عمرو بن العاصي رضي الله عنه صحابي مشهور ومن خيار الصحابة رضي الله عنهم . وفيه ايضا قال حدثني حبيب بن نصر بن سهل واحمد بن

ابي سليمان وعيسى بن مسكين قالوا حدثنا سحنون عن عبد الله بن وهب عن عبد الرحمن بن زياد عن ابي عبد الرحمن الحبلي عن عبد الله بن عمرو ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال - لياتين اناس من امتي من افريقية يوم القيامة وجوههم اشد نورا من نور القمر ليلة البدر . وحدث احمد بن ابي سليمان وحبيب وعيسى عن سحنون قال حدثني فرات عن موسى بن معاوية وسحنون عن ابن وهب عن ابن لهيعة عن بكر بن سواد الجذامي ان سفيان بن الحارث حدثهم عن اشياخه انهم قالوا للمقداد بن الاسود صاحب النبي صلى الله عليه وسلم - ثقلت وتخرج في هذه المغازي . فقال - خفيفا كنت او ثقيلا لا اتخلف عنها لان الله تبارك وتعالى يقول - انفروا خفافا وثقالا - ثم قال قدمت سرية على رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكروا البرد والاجر قال فرات في حديثه الذي اصابهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم - ان البرد الشديد والاجر العظيم لاهل افريقية . وابن لهيعة بفتح اللام وكسر الهاء هو عبد الله بن لهيعة من مشاهير الرواة وذكره في المدونة . وقال في كتاب البيان للجاحظ ومن اصحاب الاثار والاخبار عبد الله ابن عقبة بن لهيعة ويكنى ابا عبد الرحمن وبكر بن سواد بفتح الباء وسكون الكاف وسواد بفتح السين المهملة وتخفيف الواو ودال مهملة مذكور في المدونة ونسبه الجذامي بضم الجيم وذال معجمة منسوب الى جذام وهي قبيلة من اليمن وحكي في الكتاب المذكور بسنده عن ابن لهيعة انه سمع يزيد بن ابي حبيب وهو من الرواة المشاهير ذكره في المدونة ذكر ان المقداد بن الاسود كان غزا افريقة مع عبد الله بن سعد وفيه قال حدثني عبد الله بن ابي حيان عن عبد الرحمن بن زياد عن ابي عبد الرحمن الحبلي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم - ينطقع الجهاد من البلدان كلها فلا يبقى الّا في موضع في المغرب يقال له افريقية فبينما القوم بازاء عدوهم نظروا الى الجبال قد سيرت فيخرون لله سجدا فلا ينزع عنهم اخلاقهم يعني ثيابهم الّا خدمهم في الجنة - وذكر جماعة من الصحابة رضي الله عنهم اجمعين

اجمعين دخلوا افريقية وذكر عن اسحاق بن الملشوني ان عقبة بن نافع كان معه في عسكره خمسة وعشرون من اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم تسليما . ومن الاماكن التي وقع الثناء من رسول الله صلى الله عليه وسلم في شانها المنستير . قال ابن الشباط المنستير بضم الميم وضم النون وسكون السين المهملة وكسر التاء المثناة فوق وبعدها ياء اخت الواو وءاخره راء مهملة حدثني احمد بن يزيد قال حدثني داوود بن يحيى عن سقلاب بن زياد الهمداني عن بهلول بن راشد قال حدثنا عباد بن كثير عن ليث بن ابي سليم عن مجاهد بن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم - بساحل قمونية باب من ابواب الجنة يقال له المنستير من دخله فبرحمة الله ومن خرج منه فبعفو الله - وسقلاب بكسر السين المهملة وسكون القاف والظاهر ان هذا الاسم اعجمي فيجب على هذا ان لا يصرف . قال في طبقات علماء افريقية سقلاب بن زياد كان من اهل الفضل والعبادات والاجتهاد سمع من مالك بن انس وهو من طبقات البهلول بن راشد ثقة مامون سمع منه ابو سنان وداوود بن يحيى وغيرهما مات سنة ثلاث وتسعين ومائة . وقال ابو سنان فيما رواه سعيد بن اسحاق كان سقلاب بن زياد اماما من ايمة المسلمين مامونا على ما سمع قال وحدثني فرات بن محمد العبدي قال حدثنا عبد الله بن حسان اليحصبي عن ابيه وعن سفيان بن عيينة عن عبد الله ابن دينار عن انس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم - من رابط بالمنستير ثلاثة ايام وجبت له الجنة . قال انس - بخ بخ يارسول الله . والمرابطة والرباط ملازمة النظر وهو موضع المخافة من العدو والرباط ايضا ملازمة الصلاة والاول هو المراد بالحديث وقوله بخ بخ هي كلمة تقال عند المدح للشيء والرضى به وتكرر للتاكيد فيقال بخ بخ وهي مبنية على السكون في الوقف واما في الوصل فتكسر وتنون وقد تشدد فيقال بخ ويشتق من قولك بخ فعل فيقال بخبخت فلانا اذا قلت له ذلك ومنه قول العجاج لاعشى همدان في قوله —

بين الاشج وبين قيس باذخ بخبخ لوالده وللمولـــــــود

والله لا تبخبخ لاحد بعدهـا ابدا.هكذا حكاه ابو الفرج وحكاه غيره لا بخبخت بعدها . وفي حديث آخر - من رابط ثلاثة ايام وجبت له الجنة . قال انس بخ بخ يارسول الله . قال - نعم يا انس وله في هذه الثلاثة ايام اجر الصديقين والشهداء والصالحين . قال وحدثني احمد بن ابي سليمان وحبيب وعيسى عن سحنون قال حدثني عن موسى بن معاوية وسحنون عن ابن وهب عن ابن لهيعة وحكى الحديث المتقدم قال وحدثني احمد بن يزيد قال حدثنا عبد الله بن عمر بن غانم عن ثور بن يزيد عن خالد بن معدان عن عمران ابن الحصين قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم - بساحل قمونية باب من ابواب الجنة يقال له المنستير ينقطع الجهاد في آخر الزمان من كل موضع فكاني اسمع صرير المحامل من مشارق الارض ومغاربها الى ساحل قمونية . قال التجاني روى ابو العرب محمد بن احمد بن تميم في كتاب الطبقات من تاليفه بسنده الى سفيان بن عيينة عن عبد الله بن دينار عن انس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم - من رابط بالمنستير ثلاثة ايام وجبت له الجنة - وسنده الى خالد بن معدان عن عمران بن الحصين قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم - بمدينة قمونية باب من ابواب الجنة يقال له المنستير ينقطع الجهاد في آخر الزمان من كل موضع فكاني اسمع صرير المحامل من مشارق الارض ومغاربها الى ساحل قمونية . وحدثنا عباد بن كثير عن ليث عن ابن ابي سليم عن مجاهد عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم - بساحل قمونية باب من ابواب الجنة يقال له المنستير من دخله فبرحمة الله ومن خرج منه فبعفو الله عنه - وعباد بن كثير الواقع في هذا السند متروك الحديث عندهم وليث ابن ابي سليم ضعيف لا يحتج به من غير كتاب ابي العرب وبسند ابي العرب الى عبد الرحمن بن زياد بن انعم عن مطرف بن عبد الله قال - المنستير باب من ابواب الجنة فبينما هم في الصلاة اذ سمعوا هدة فبعثوا رسولهم

ليانيهم

ليأتيهم بالخبر فما لبثوا ان انصرف فقالوا له ما صرفك فقال لهم سيرت الجبال فيخرون سجدا لله فيقول الله تبارك وتعالى يا اهل المنستير لولا اني كتبت الموت على خلقي لادخلتكم الجنة - يعني قبل الموت فتخرج عليهم ريح صفراء ما بين القبلة والمشرق فتخرج ازواجهم من الحور العين وخدمهم . وعبد الرحمن بن زياد ايضا متروك الحديث ضعفه ابن معين والبهلول بن راشد سمعت سفيان بن عيينة يقول جاءنا عبد الرحمن بن زياد الافريقي بستة احاديث رفعها الى النبي صلى الله عليه وسلم لم اسمع احدا من العلماء رفعها وذكرها وبسند ابي العرب الى سفيان بن عيينة موقوفا عليه . قال الفضل في ثلاثة مواضع - المصيصة باب من ابواب الجنة يحشر منها يوم القيامة سبعون الف شهيد وعسقلان باب من ابواب الجنة وموضع هنالك بالمغرب يقال له الياقوتة بالمنستير داخل في البحر الى جانبه سبخة على تلك السبخة قنطرة من قناطير الاولين يحشر منها يوم القيامة سبعون الف شهيد . وفي كتاب الرقيق قال : يقال ان بافريقية ساحلا يقال له المنستير هو باب من ابواب الجنة وبها جبل يقال له مطور هو باب من ابواب جهنم . انتهى كلام الرقيق . قال التجاني وهذا الجبل هو المسمى في وقتنا هذا بجبل وسلات يسكنه اخلاط من البربر . وعبد الله بن عمر بن غانم المتقدم الذكر قبل هذا هو قاضي افريقية روى عن مالك بن انس رضي الله عنه وذكره في المدونة وهو مشهور الفضل والدين من قضاة العدل . قال في كتاب الطبقات عبد الله بن عمر بن غانم ابو عبد الرحمن الرعيني كان ثقة نبيلا فقيها ولي القضاء وكان عدلا في قضائه ولاه روح ابن حاتم في رجب سنة احدى وسبعين ومائة وهو يومئذ ابن اثنتين واربعين سنة سمع من مالك وسمع من عبد الرحمن بن زياد بن انعم ومن سفيان الثوري واسرائيل بن يونس وذكر ان وفاته رحمه الله تعالى كانت سنة تسعين ومائة ومولده سنة ثمان وعشرين ومائة وقوله معدان بفتح الميم وسكون العين المهملة وبالدال المهملة . وذكر الشيخ ابو عمر رحمه الله

تعالى ان خالد بن معدان روى عن عبد الله بن سعد الازدي الشامي مرفوعا
- ان الله اعطاني فارس وامرني بحمير . وقوله في الحديث قبله قمونية بفتح
القاف وتشديد الميم فواو ساكنة فنون فياء مثناة تحتية فهاء اسم موضع
للقيروان والقيروان لم يعلم الان بعد مدينة تونس في الوطن الافريقي اعظم
منها مدينة واهلها اشبه الناس علما واكثر حرافة وادرى الناس بتعاطي
المتجر واحضر الناس جوابا واحدهم خطابا واقواهم تجلدا على عض الدهر
وابصرهم بعواقب الامر بينهم عرى اخوة لم تستهلهل وثبات قدم في الحمية
لم يتزلزل ووثوق عهد في الذب عن انفسهم لم يتخلخل وتجد الاقل ينتصر
لذويه في الاغاثة قبل ان يتامل وانما اطلق القلم في هذه الصفحات لسانه
وحرك في ظلال هذه الاسطر بنانه لما مر الوعد آنفا بتعريف ما اندرج في
خلال العمالة الافريقية من مشاهير بلدانها التي عرف بها الفضلاء وافصح
في تبيانها النبلاء . ولما وقفت على تعريف من اعتنى بها وفيت بما وعدت
والحال انه لا تجد لها مكانا اليق بتعريفها من هذا المحل اذ ربما تبقت
لتذكر في وقائع الباب الثامن فيصير مشتمل سياقه جذاذا ولم يكن اليق لها
من موقعها هذا . وقال السلطان المويد في كتابه المختصر في اخبار البشر
وفي سنة خمسين من الهجرة بنيت القيروان وكمل بناوها في سنة خمس
وخمسين وكان حديثها ان معاوية ولى عقبة بن نافع افريقية وكان عقبة
المذكور صحابيا من الصالحين فوضع السيف في اهل افريقية لانهم كانوا
يرتدون اذا فارقهم العسكر وكان مقام الولاة بزويلة وبرقة فراى عقبة ان
يتخذ مدينة بتلك البلاد تكون مقرا للعسكر فاختار موضع القيروان وكانت
اجمة مشتبكة فقطع اشجارها وبناها مدينة وتوفي بها رباح وكنيته ابو زيد
اللخمي الزاهد ودفن بها سنة اثنتين وسبعين ومائة وكان مجاب الدعوة .
وكان من ولاتها يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن ابي صفرة الازدي
كانت ولايته بافريقية خمسة عشر عاما وثلاثة اشهر توفي يوم الثلاثاء
لاثنتي عشرة ليلة بقيت من شهر رمضان سنة سبعين ومائة ودفن بالقيروان
بباب

بباب سلم كذا ذكره ابن خلكان وقال : قال اهل افريقية ما ابعد ما يكون بين هذين الاخوين فان اخاه روحا كان واليا بالسند وهذا هنا فاتفق ان الرشيد عزل روحا عن السند وسيره الى موضع اخيه يزيد فدخل افريقية في اول رجب سنة احدى وسبعين ومائة ولم يزل واليا بها الى ان توفي لاحدى عشرة ليلة بقيت من شهر رمضان سنة اربع وسبعين ومائة ودفن مع اخيه يزيد في قبر واحد فعجب الناس من هذا الاتفاق بعد ذلك التباعد رحمهما الله . وكان روح المذكور من الكرماء الاجواد وولي لخمسة من الخلفاء السفاح والمنصور والمهدي والهادي والرشيد ويقال انه لم يتفق مثل هذا إلا لابي موسى الاشعري رضي الله عنه فانه ولي لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولابي بكر وعمر وعثمان وعلي بن ابي طالب رضي الله عنهم اجمعين . وكان المهدي بن ابي جعفر المنصور هو الذي اولى روحا على السند سنة تسع وخمسين ومائة وكان قد ولاه في اول خلافته الكوفة وقيل انه ولي السند سنة ستين ومائة ثم عزل عنه سنة احدى وستين ومائة ثم ولي البصرة . واخوه يزيد المذكور اولا هو الذي قصده ربيعة بن ثابت الاسدي الرقي فاحسن اليه وكان ربيعة مدح يزيد بن اسد السلمي فقصر يزيد في حقه فقال يمدح يزيد بن حاتم ويهجو يزيد السلمي بقصيدته التي من جملتها —

شتان ما بين اليزيدين في الندا ... يزيد سليم والاغر ابن حاتم
فهم الفتى الازدي اتلاف ماله ... وهم الفتى القيسي جمع الدراهم
فلا يحسب التمتام اني هجوته ... ولكنني فضلت اهل المكارم

ومنها —

فيا ابن اسيد لا تسام ابن حاتم ... فتقرع ان ساميته سن نادم
هو البحر ان كلفت نفسك خوضه ... تهالكت في آذيه المتلاطم
تمنيت مجدا في سليم سفاهة ... اماني خال او اماني حالم
الا انما آل المهلب غرة ... وفي الحرب قادات لكم بالخزائم

وهي طويلة ويكفى منها هذا وكان قصر في حقه اولا فعمل ربيعة ابياتا من جملتها ــ

ارانى ولا كفران لله راجعا بخفي حنين من نوال ابن حاتم

فعاد وعطف عليه وبالغ من الاحسان اليه . قال ابن الشباط واعلم ان في مختصر تاريخ الطبري ان معاوية بن ابي سفيان قد بعث عقبة بن نافع الفهري الى افريقية فافتتحها واختط قيروانها وكان موضع غيضة لا يرام من السباع والحيات والدواب فدعا الله عز وجل فلم يبق فيها شيء إلّا خرج هاربا منها حتى ان السباع لتحمل اولادها عنها فكان عقبة بن نافع اول الناس اختطها وقطع مساكنها ودورها للناس وبنى مسجدها وكان محمود السيرة جميل الاثر . انتهى ما في مختصر الطبري رحمه الله . وقال ابن الشباط واعلم انه وقع في كتاب طبقات علماء افريقية عن اسحاق ابن الملشوني ان عقبة ابن نافع كان معه في عسكره خمسة وعشرون من اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وان عقبة جمع وجوه اصحابه وكبار العسكر فدار بهم حول القيروان واقبل يدعو ويقول اللهم املاها علما وفقها واعمرها بالمطيعين والعابدين واجعلها عزا لدينك وذلا على من كفر بك واعز بها الاسلام وامنعها من جبابرة الارض قال فبذلك هي معصومة من كل جبار عنيد قال وانما كان دعاء عقبة لها بعد ما كان عمرها في غزوته الثانية وخرب تيكروان التي اتخذها ابو المهاجر قيروانا . قال البكري رحمه الله تعالى ومدينة القيروان في بساط من الارض مديد من الجوف منها بحر تونس وفي الشرق بحر سوسة والمهدية وفي القبلة بحر صفاقس واقربها منها البحر الشرقي بينها وبينه مسيرة يوم وبينها وبين الجبل مسيرة يوم وبينها وبين سواد الزيتون المعروف بالساحل مسيرة يوم وشرقها سبخة وسائر جوانبها ارضون طيبة كريمة واحسنها الجانب الغربي وهو المعروف بفحص الدوارة يصاب فيه السنة المخصبة للحبة مائة وهواء هذا الجانب طيب صحيح وكان زياد بن خلفون المتطبب اذا خرج من القيروان يريد مدينة رقادة وحاذى باب اصرم رفع العمامة

العمامة من راسه يباشر الهواء براسه كالتداوي لصحته . وللقيروان في القديم سبعة محارس اربعة خارجها وثلاثة داخلها قال وكان للقيروان في القديم سور طوب سعته عشرة اذرع بناه محمد بن الاشعث بن عقبة الخزاعي سنة اربع واربعين ومائة وهو اول قائد دخل القيروان للمسودة فهدم هذا السور زيادة الله بن ابراهيم المعروف بالكبير سنة تسع ومائتين لما قام عليه اهل القيروان مع منصور المعروف بالطنبذي فلما انهزم عن القيروان يوم الاربعاء للنصف من جمادى الاولى من هذه السنة وخرج اهل القيروان الى زيادة الله فرغبوا في العفو عنهم والصفح هدم سورهم عقوبة لهم ثم بناه المعز ابن باديس بن منصور الصنهاجي سنة اربع واربعين واربعمائة وبلغ تكسيره اثنين وعشرين الف ذراع قال وخارج سور القيروان خمسة عشر ماجلا للماء سقايات لاهلها منها من بنيان هشام بن عبد الملك وغيره واعظمها شانا وافخمها منصبا ماجل ابي ابراهيم احمد بن محمد بن الاغلب بباب تونس وهو مستدير متناهي الكبر في وسطه صومعة مثمنة في اعلاها قصبة مفتحة على اربعة ابواب تحمل احد عشر رجلا لا خلل بينهم فاذا امتلا الماجل كان ذلك الماء ذخرا لهم . وذكر البكري ايضا رحمه الله ان اول من وضع محراب الجامع بالقيروان نافع بن عقبة كذا وقع بتقديم نافع قال ابن الشباط واراه غلطا من النساخ والصواب عقبة بن نافع قال ثم هدمه حسان حاشا المحراب وبناه يعني حسان بن النعمان الغساني وحمل اليه الساريتين المتجاورتين الموشاتين بصفرة اللتين لم ير الراؤون مثلهما من كنيسة كانت للاول في الموضع المعروف اليوم بالقيسارية ويقولون ان صاحب القسطنطينية بذل لهم فيهما قبل نقلهما الى الجامع زنتهما ذهبا فابتدروا الجامع بهما ويذكر كل من رءاهما انه ما راى في البلاد ما يقترن بهما قال فلما كانت خلافة هشام بن عبد الملك كتب اليه عامله على القيروان يعلمه ان الجامع يضيق باهله وان بحريه جنة كبيرة لقوم من فهر فامره هشام بشرائها وان يدخلها في المسجد الجامع ففعل وبنى في صحنه ماجلا وهو المعروف بالماجل القديم

بالقرب من البلاطات وبنى بئرا الصقت معه في بئر الجنان نصب اساسها على الماء واتفق ان وقعت في نفس الحائط الجوفي . قـال واهل الورع يكرهون الصلاة في هذه الزيادة يقولون ان اهل الجنة اكرهوا على بيعها والصومعة اليوم على بنائه طولها ستون ذراعا وعرضها خمسة وعشرون ولها بابان شرقي وغربي وامـا في عصرنا هذا فليس لها إلّا باب واحد جوفي الذي يخرج منه يستقبل القبلة وعضائدها رخام منقوش فلما ولي افريقية يزيد بن حاتم سنة خمس وخمسين ومائة هدم الجامع كله حاشا المحراب وبناه واشترى العمود الاخضر بمال عريض جزيل ووضعه فيه فلما ولي زيادة الله بن ابراهيم هدم الجامع كله واراد هدم المحراب فقيل له ان من تقدمك من الولاة توقفوا عن ذلك لما كان واضعه عقبة بن نافع ومن كان معه فالح في هدمه لئلا يبقى فيه اثر لغيره فقال له بعض البنائين اذا ادخلته بين حائطين لا يظهر في الجامع اثر لغيرك فاستصوب ذلك وفعله فهو على بنائه الى اليوم والمحراب كله وما يليه مبني بالرخام الابيض من اعلاه الى اسفله وهو مخرم منقوش كله منه كتابة تقرا ومنه تدبيج مختلف الصناعة تستدير به اعمدة رخام في غاية الحسن والعمودان الاحمران المذكوران يقابلان المحراب وعليهما القبة المتصلة بالمحراب وبلاطاته سبع عشرة بلاطة وطوله مائتان وعشرون ذراعا واعمدته اربعمائة واربعة عشر عمودا وعرضه مائة وخمسون ذراعا وبلغت النفقة في بنائه ستة وثمانين الف مثقال . ولـما ولي ابراهيم بن احمد بن الاغلب زاد في طول بلاطات الجامع وبنى القبة المعروفة بباب البهور على آخر بلاطات المحراب في دورها اثنتان وثلاثون سارية من بديع الرخام وفيهـا نقوش غريبة وصباغات مختلفة محكمة عجيبة يشهد كل من رءاها انه لم ير مبنيا احسن منه وقـد فرش من الصحن بين ايدي البلاطات نحو خمسة عشر ذراعا وللجامع عشرة ابواب ومقصورة للنساء في شرقيها بينها وبين الجامع حائط آخر مخرم محكم العمل هذا ما ذكره البكري رحمه الله تعالى . وذكر صاحب كتاب الافتخار ان ابا

ابراهيم

ابراهيم احمد بن محمد بن الاغلب امر باخراج ثلاثمائة دينار من بيت المال فامر ببناء ماجل بباب تونس وبنى بجامع القيروان القبة الخارجة على البهور مع الصفين اللذين يليانها من جانبيها جميعا وبلاطها الذي بين يديها مفروشا وعمل المحراب جلبت له تلك القراميد الصينية لمجلس اراد ان يعمله وجاءه من بغداد خشب الساج عمله منبرا للجامع وجاء بالمحراب مفصلا رخاما من العراق وعمله في جامع القيروان وجعل تلك القراميد في وجه المحراب وجعل له رجل بغدادي قراميد اخرى زادها اليها وزين تلك الزينة العجيبة بالرخام والذهب والالة الحسنة وبنى ماجل ابي الربيع وامر ببناء ماجل القصر الكبير وبنى جامع مدينة تونس وبنى سور سوسة ودار الملك بسوسة وبنى قصر لمطة وسور صفاقس وتصدق بباقي المال على الفقراء والمساكين . وذكر في الكتاب المذكور ان وفاته كانت سنة تسع واربعين ومائتين وانه ملك افريقية وهو ابن ثمان وعشرين واعلم ان المنبر الذي تقدم ذكره فيه من غرائب الصنائع والنقوش ما يحار الطرف فيه ويكل الوصف عنه ويكاد راءيه يقطع بانه لا يرى مثله واذا عرفت ذلك فاعلم ان الشيخ ابا محمد بن عبد البر رحمه الله ذكر في كتاب الصحابة رضي الله عنهم ان معاوية بن حديج رحمه الله كان اختط القيروان بموضع يدعى اليوم بالقرن فنهض اليه عقبة فلم يعجبه فركب الناس الى موضع القيروان اليوم وكانت افريقية تدعى مزاق وفي ذلك يقول عبد الرحمن بن زياد بن انعم —

ذكرت القيروان فهاج شوقي وابن القيروان من العـــراق

مسيرة اشهر للعير نصــــا على الابل المضمرة العتـــاق

فبلغ انعما وبني ابيـــــه ومن يرجى لنا وله التـــلاقي

فان الله قد خلى سبيـــلي وجد بنا المسير الى مــــزاق

ومما يقرب من القيروان جلولا مدينة عظيمة اولية وقد تلاشتها ايدي الدهر كعادته بالعمارات وادخلتها اقلام النقول في دفاتر الاخبارات وهي كما قال

ابن الشباط ومن القيروان الى جلولا اربعة وعشرون ميلا وبجلولا آثار ابراج
قائمة للاول وآبار عذبة وخرائب وجد فيها بعض الرعاة تاج ذهب بجوهرة
وبقرب جلولا متنزه يعرف بسردانية ليس في افريقية موضع اجمل منه
فيه ثمار عظيمة وفيه من النارنج خاصة نحو الف اصل ولها حصن وهي
قديمة مبنية بالصخر وفيها عين ثرة في وسطها وهي كثيرة الثمار والاشجار
واكثر رياحينها الياسمين وبطيب عسلها يضرب المثل لكثرة ياسمينها وجرس
نحلها وبها يزيت اهل القيروان من الياسمين والورد والبنفسج وبها قصب
السكر كثير ومنها يرد كل يوم الى القيروان من احمال الفواكه والبقول ما لا
يحصى كثرة فتحها معاوية بن حديج حاصرها اياما وقتل من اهلها عددا كثيرا
حتى فتحها المسلمون عنوة وقتلوا المقاتلة وسبوا الذراري واصابوا جميع ما كان في
المدينة وقسم معاوية بن حديج الفيء وتوفيت في تلك الغزوة بقمونية ابنة
عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهم فدفنت بموضع من القيروان
يسمى اليوم بمقبرة قريش وهو بغربي القيروان وكان فتحها على يد معاوية
ابن حديج وقوله وبقرب جلولا متنزه بفتح الزاي اي متفرج قال ابن
الشباط قال ابن قتيبة وقد كان بعض اصحاب اللغة يذهب في قول الناس
خرجنا نتنزه اذا خرجوا الى البساتين الى الغلط ويقول انما النزهة التباعد عن
الماء والريف ومنه يقال فلان تنزه عن الاقذار اي باعد نفسه عنها وفلان
نزيه كريم اذا كان بعيدا من القوم قال وليس عندي هذا غلطا لان البساتين
في كل مصر وكل بلد انما تكون خارج البلد فاذا اراد الرجل ان ياتيها فقد
اراد ان يتنزه اي يبعد عن المنازل والبيوت ثم كثر هذا واستعمل حتى صارت
النزهة القعود في الخضرة والجنان وقوله عين ثرة بفتح الثاء المثلثة وتشديد
الراء اي غزيرة الماء واسعة وكذلك الثرثارة وقوله الياسمين بكسر السين وهو
اعجمي عربه العرب وفيه لغتان منهم من يجعل اعرابه في النون ويبقي
الياء على حالها ومنهم من يقول فيه ياسمون بالواو في الرفع وبالياء في النصب
والخفض وهولاء جعلوا واحده ياسما وانشد ابو حنيفة في الياسم —

من

من ياسم بيض وورد احمر يخرج من اكمامه معصفرا

وهذا الجمع من الجموع الشاذة الواردة فيما لا يعقل . وقوله جرس نحلها الجرس بفتح الجيم وسكون الراء المهملة اكل النحل . وفي الحديث جرست نحلة العرفط اي اكلته قال صاحب الصحاح والعرفط شجر الغضا ينضح المغفور ويرميه ابيض وفي المختصر والمغافر والمغفور والمغفير شمع العرفط والجمع مغافير وقد يغفر العرفط وخرجوا يتمغفرون اذا اجتنوه قال غيره في الحديث اكلت مغافر وهو شيء ينضحه العرفط حلو كالناطف وله ريح منكرة والعرفط من الغضا قال وليس في كلام العرب مفعول إلّا مغفور ومغرود لضرب من الكماة ومنخور للمنخر ومغلوق واحد المغاليق والسمسم بكسر السين معروف وهو الجلجلان والزنبق بفتح الزاي المعجمة وسكون النون وفتح الباء الموحدة وآخره قاف دهن الياسمين والبنفسج بفتح الموحدة وفتح السين المهملة نبت معروف ازهر حسن اللون طيب الريح وقوله اولا في ابتكار القيروان بقرن الجبل هو بفتح القاف وسكون الراء ذكر بعض المورخين ان معاوية بن حديج نزل بسفح جبل صغير منفرد فاصابه نوء شديد فقال ان جبلنا هذا لممطور نسمي ذلك الجبل ممطورا الى يوم القيامة اذهبوا بنا الى هذا القرن فسمي القرن ايضا الى اليوم قال وهذه اسماء عربية لا يعرفها العجم قال ابن الشباط قلت والقرن جبل صغير منفرد وجلولا بفتح الجيم وضم اللام وقصر الالف وهو الجاري على الالسنة في هذه الجهات وفي كتاب الافتخار حكاية حسنة عن ابي القاسم عريب بن نصر قال اشتهيت اسفنجة بعسل فاقمت سنة ونفسي قد تاقت فمررت بسماط القيروان فاذا شاب جالس على بابه فلما رءاني سلم علي وقال تحب ان تدخل عندي فدخلت فقدم لي اسفنجة بعسل جلولي ابيض في مثرد فاكلت واكل حتى تمليت ثم طيبني وخرجت من عنده وولى ووالله ما عرفته فمررت بصبي يلعب فرفع راسه الي وقال يا عم سبحان من يجود بالنعم على من يستحق النقم فابكاني وقوله جلولي بفتح الجيم وفتح اللام وسكون الواو والله اعلم بصحة ذلك ولعلها لغة فيه

وقال صاحب تشقيف اللسان يقولون جلولي والصواب جلولي بالفتح منسوب الى جلولا كذا في نسخة وفي نسخة اخرى والصواب جلولي بفتح الجيم وفي نسخة اخرى بالقصر وفي اخرى بالمد وعند سيبويه قولهم جلولي في باب النسب وهو نسب الى جلولا التي بالمشرق والله اعلم وهذا يوذن بانها ممدودة بان يقال جلولاء بابدال الهمزة واوا فلما قالوا جالولاء كان ذلك شاذا واما لو جعلناه مقصورا فانه يكون غير شاذ لان في ذلك وجهين احدهما ابدال الالف فتقول جلولوي كما يقال حبلي وحبلوي وقوله وخرائب ان اراد به جمع خربة فلا يجوز الّا ان يكون قد سمع فيكون شاذا والقياس ان يكون جمع خريبة كسفينة وسفائن او خريب كقصيد وقصائد فان كان سمع الجمع والواحد فلا اشكال وان كان سمع الجمع وحده فقياس المفرد ما ذكرته وان كان لم ينطق به . وقد ذكر الشيخ محمد بن محمد بن علي بن احمد العبدري الحاحي في رحلته ودخلها سنة ثمان وثمانين وستمائة حاجا فقال ما نصه ثم وصلنا مدينة القيروان . فدخلتها مجدا في البحث غير وان . فلم ار الّا رسوما محتها يد الزمان . وءاثارا يقال عنها كان وكان . والاحياء من اهلها جفاة الطباع . ما لهم في رقة الحضارة باع . ولا في معنى من معاني الانسانية انطباع . خفت نفس العلوم بينهم فلم يبق بها رمق . وكسدت سوق المعارف لديهم فيا سخنة عين من رمق . والمدينة نفسها ليس بها بر ولا بحر . ولا شجر ولا نهر . وضعت في سبخة قرعى . لا ماء فيها ولا مرعى . ولا تنبت اصلا ولا تنقل فرعا . وما كان حالها في القديم . الّا ءاية من ءايات هذا الدين القويم . اذ اسسها المخلصون من اهله . المتمسكون بحبله . السالكون لحزنه وسهله . اهل العزائم النافذة الماضية . والصوارم القاضبة القاضية . والهمة الغالبة العالية . فرسان الحراب . وليوث الطعان والضراب . رضي الله عنهم ما سار في الدو فدفد . ولاح في الجو فرقد . وقد كان شان القيروان . في غابر الزمان . بحيث لا يجهله انسان . ولا يحصله لسان . حسبك ببلد وضعت الاوضاع في فضله . وملئت

الاسماع

للاسماع من وابله وطله . ماوى العلماء والصلحاء في حياتهم . وكفاتهم بعد وفاتهم . بلد يناهز به كل اقليم . ومتى ذكر علماوهم فليس إلا التسليم . ولاكنما للايام اذا اعطت اخذت . وكلما مضت نفذت . لا تلوي على مغرور . ولا تعرف فضل العذر على المعذور . ان سلمت سالمت . وان هدنت داهنت . وان رافقت فارقت . ومهما حلت ماحلت . لا تبقي ولا تذر . فليكن العاقل منها على حذر —

لا تطمئن الى حظ حظيت به   ولا تثق باغترار صح لي وثبت
فما الليالي وان اعطت صداقتها   إلا عدا المرء مهما استمكنت وثبت

قـــال ولم ار بالقيروان ما يورخ ولا ما يهتم بذكره سوى جامعها ومقبرتها اما جامعها فهو من الجوامع الكبار المتقنة الرائقة المشرقة الانيسة وسطه فضائح متسع وكان الموسس له المقيم لقبلته الرجل الصالح عقبة بن نافع الفهري المعروف بالمستجاب مع جماعة من الصحابة والتابعين وهم الموسسون لمدينة القيروان والقيروان في اللغة القافلة وهي فارسية معربة يقال ان قافلة نزلت بذلك المكان ثم بنيت المدينة في موضعها فسميت باسمها وهو اسم للجيش ايضا قال ابن القطاع اللغوي القيروان بفتح الراء الجيش وبالضم القافلة نقله عن بعضهم والله اعلم . انتهى من ابن خلكان . ويمر على القيروان من قبليها وادي زرود على اميال يسيرة واصله من موضع يقرب من تبسة يعرف بفران بضم الفاء وتخفيف الراء وهذا الوادي يجري في طريقه على مزارع تسقى منه وينتفع به فيها فاذا انتهى الى الاصنام وهو موضع جوفي القيروان انتشر في سبخة هنالك متسعة وضاع ماوه فلم ينتفع به والى ذلك الاشارة بقول الشاعر —

صنعت صنيعا ضاع في نجل عامر   كما ضاع في الاصنام واد زرود

ويحكى انه لما امرهم عقبة ببنائها قالوا له انك امرتنا ان نبني في شعراء وغياض ونحن نخاف من السباع والهوام فقال عقبة — انا اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم اردنا ان ننزل هاهنا فارحلن عنا . فراى الناس عجبا

راوا الاسود تحمل اشبالها والذئاب تحمل اجراءها والحيات تحمل اولادها حتى ارتحلن جميعا . ويقال انه قد مر عليها اربعون سنة لم تر فيها حية لدعوته رضي الله عنه فلما بنوها طاف حولها عقبة واصحابه ودعوا الله واسسوا مسجدها واقام عقبة قبلتها برويا رءاها . قال وقد سالت امام جامعها ومن حضر معه عن سمت قبلته فلم اجد احدا منهم يعرفه ولم ابت بها فاتعرف ذلك بالنجوم إلّا انه قوي عندي بالحدس انها كما قيل الى المنقلب الشتوي او يميل يسيرا الى الجنوب . قال ودخلنا به بيت الكتب فاخرجت لنا مصاحف كثيرة بخط مشرقي ومنها ما كتب كله بالذهب وفيها كتب محبسة قديمة التاريخ من عهد سحنون وقبله منها موطا ابن القاسم وغيره . قال ورايت بها مصحفا كاملا مضموما بين لوحين مجلدين غير منقوط ولا مشكول وخطه مشرقي بين جدا مليح وطوله شبران ونصف في عرض شبر ونصف وذكروا انه الذي بعثه عثمان رضي الله عنه الى المغرب وانه بخط عبد الله بن عمر رضي الله عنهما . واما مقبرتها فهي المزارات العظيمة الشريفة وفيها من الافاضل واخيار الامة ما يقصر عنه الوصف . وبها قبر ابي زمعة البلوي صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقبره مشهور بها وكذلك قبر الشيخ الولي الفقيه العالم ابى الحسن علي بن محمد القابسي رحمه الله واما قبر الشيخ ابي محمد عبد الله بن ابي زيد رحمه الله فهو بداره داخل البلد في بيت منه على يسار الداخل وقد زرته ودخلت البيت فوجدت فيه عدة قبور وسالت العجوز القيمة على الدار عن قبره فاخبرتني انه الذي في وسط البيت المقابل للباب فنظرت تاريخه فوجدته لغيره ثم اتيت الذي عن يسار الباب وعليه دكان مبني فقرات في حجر من رخام عند رجليه انه قبر الشيخ ابي محمد وان وفاته كانت ليلة الجمعة الثامن والعشرين من شعبان قال الشك مني سنة ست وثمانين وثلاثمائة فعرفت الشيخ الفقيه المحصل ابا زيد عبد الرحمن بن محمد بما قالت العجوز وبما وجدت من التاريخ فقال لي طرا في ذلك مشكل وذلك انه كان في ما مضى قد احتيج

الى

الى تجديد السقف واستقبحوا الهدم عليهم فاخرجت توابيتهم الى بيت آخر فلما اصلح السقف وارادوا رد التوابيت اشكلت عليهم وكان الشيخ ابو محمد مدفونا قبالة الباب كما ذكرت العجوز فلما اعيد دفنهم غلب على ظنون اكثر الناس انه دفن على اليسار حيث الدكان والتاريخ قال وقد بذلت وسعي اذ دخلت القيروان عمن فيها من اهل العلم فلم اجد بها من يعتبر وجوده ولا يسع جهله سوى هذا الشيخ الفقيه المحدث الراوية المتفنن ابي زيد عبد الرحمن بن محمد بن علي بن عبد الله الانصاري الاسيدي من ولد اسيد ابن حضير رضي الله عنه ويعرف بالدباغ قال لقيته يوم ورودنا القيروان فرايت شيخا زكيا حصيفا ذا سمت وهيئة وسكون ظاهر محبا لاهل العلم حسن الرجاء بر اللقاء لم يوثر الكبر في جسمه على علو سنه ولا تغير شيء من ذهنه وحواسه سالته عن مولده فقال سنة خمس وستمائة وهو حفظه الله من اهل التهمم والعناية بالعلم مع عدم المعتني به والطالب له موطا الاكناف لين الجانب جميل العشرة على سنن المشايخ من اهل العلم والفضل اوحد وقته رواية ودراية لقيت من بره وحسن خلقه ورقة شمائله ما لم اخل مثله باقيا وما وجد في القيروان في هذا الاوان الا من جملة بركات سلف اهله وقد نيف شيوخه على الثمانين وله برنامج فيه اسماوهم وما روى عنهم . قال وقد قرات عليه بعضه واجازني في كل ما تضمنه وما شذ عنه من رواياته اجازة عامة قال وكذا اجاز ولدي محمدا وفقه الله وكتب لي بذلك خط يده وقال لي مرارا اذا قضى الله حاجتك وحججت فلا تقم في البلاد فاني كثير الشفقة على ولدك وقد اوقع الله حبه في قلبي منذ ذكرته لي . ومن عجيب اخلاقه انه ما طلبت منه جزءا لانقل منه الا وهبه لي وقد اعطاني اكثر من عشرة اجزاء من فوائده وفوائد شيوخه وفهارسهم قال وقال لي انت اولى بها مني فاني شيخ على الوداع وانت في عنفوان عمرك ومن حين رايتك انغرز حبك في قلبي . وله مجموعات وتآليف ونظم جيد كثير ومشاركة في العلوم نقليها وعقليها والف كتابا حسنا

مقيدا في طبقات من دخل القيروان من الفضلاء منذ دخلها الاسلام الى زمانه وهو كبير في مجلدين وسماه معالم الايمان وروضات الرضوان في مناقب المشهورين من صلحاء القيروان . قال وقد ذكر لي شيخنا الفقيه العالم امام ديار مصر ابو الفتح محمد بن علي بن وهب القشيري انه كلف الفقيه الاوحد الافضل ابا العباس الغماري التونسي رحمه الله استنساخ هذا الكتاب له حين صدر من المشرق وانه لما وصل الى تونس اعتنى باستنساخه له حتى كمل ثم اعتنى بتصحيحه ومقابلته فلما فرغ منها توفي فبيع في تركته وانثني على مولفه المذكور كما ينبغي . قال وقد حدثني به مناولة وسالته لم لم يذكر فيه ابا الحسن اللخمي فقال لي توفي سنة ثمان وسبعين واربعمائة . قال وذكر لي انه قرا ذلك في حجر عند راسه بمدينة صفاقس حرسها الله وناولني صحيحي البخاري ومسلم في اصله منهما . قال وقرات عليه بعض الاحاديث العالية الاسناد حديث مالك رضي الله عنه من تخريجه وبعض احاديث التساعية من تاليفه وانتقائه وناولني سائرهما وناولني اجزاء من عوالي حديثه وحديث شيوخه وناولني الاحاديث الاربعين في عموم رحمة الله لسائر المومنين من تاليفه . قال وحدثني حفظه الله بحديث عبد الله بن عمرو بن العاصي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : الراحمون يرحمهم الرحمن ارحموا من في الارض يرحمكم من في السماء . قال وهو اول حديث سمعته منه عن الفقيه ابي عبد الله محمد بن ابراهيم بن عثمان الحنفي سمع منه بالمهدية عام ثمانية وعشرين بسنده مسلسلا بحديث انس بن مالك رضي الله عنه . قال صافحت بكفي هذا كف رسول الله صلى الله عليه وسلم فما مسست خزا ولا حريرا الين من كف رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمصافحة . وبحديث عبد الله بن مسعود في التشهد مسلسلا فأخذ اليد اليه . قال اخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم فعلمني التشهد ـ التحيات لله الزاكيات لله والصلوات والطيبات لله السلام عليك ايها النبي الكريم ورحمة الله وبركاته السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين

اشهد

اشهد ان لا اله إلّا الله وحده لا شريك له واشهد ان محمدا عبده ورسوله ٠
وفيه عن ابراهيم بن سعيد الجوهري رواية عن الحسين بن علي الجعفي ان
هارون الرشيد قدم مكة فجلس عند الاسطوانة الحمراء ثم قال للفضل بن
الربيع بلغني ان الحسين بن علي الجعفي حاج فانظر اين هو حتى ءاتيه
فقال له رجل هو ذاك يصلي عند المقام فقال الفضل انا ءاتيك به يا امير
المومنين فانه احق ان ياتيك فجاء الفضل فوقف عليه فقال له ان امير
المومنين عزم على اتيانك فسلم الحسين ثم قال له انا احق ان ءاتيه قال
فانهض بنا فجاء معه فاعتنقه هارون وسلم عليه واجلسه الى جنبه على
مقعده ثم اقبل عليه هارون وساله عن حاله وسفره قال ثم تنحى عنه حتى
صار بين يديه وضرب بيده الى قلم وقرطاس ثم قال له تملي علي
حديث عبد الله بن مسعود في التشهد فقال اخبرنا الحسن بن الحر قال اخذ
القاسم بن مخيمرة بيدي وقال اخذ علقمة بن قيس بيدي وقال اخذ عبد
الله بيدي وذكر الحديث فقال له هارون اخذ بيدك الحسن بن الحر
قال نعم قال فتاخذ بيدي كما اخذ بيدك قال فاخذ يده في يده قال
فترك هارون يده وجعل يقبل يد نفسه وقال باي يد صافحت كف رسول
الله صلى الله عليه وسلم وحدثني ايضا وهو ءاخذ بيدي بسنده مسلسلا الى
ابي الربيع الزهراني قال حدثنا مالك وهو ءاخذ بيدي من اخذ بيد
مكروب اخذ الله بيده ٠ وهذه الاحاديث كلها من مسلسلات الامام ابي
الحسن علي ابن الفضل المقدسي رحمه الله وقال قال شيخنا الفقيه ابو زيد
يرويها عن الفقيه المحدث الرواية ابي عمرو عثمان بن سفيان بن عثمان
التميمي التونسي عرف بابن شقر ويقال ابن الشقر معرفا عن الامام ابي
الحسن المقدسي المذكور ٠ وقد ذكر في هذا ايضا نحو ما تقدم عن الرشيد
قال وهذه المسلسلات قراتها كلها على الفقيه الصالح ابي العباس احمد بن
موسى البطرني وسلسلتها معه وحدثني بها عن ابن شقر المذكور قراءة ٠
قال وانشدني شيخنا ابو زيد واعطانيه في ورقة بخطه قال انشدني

الفقيه المحدث ابو المكارم وابو بكر محمد بن ابي احمد يوسف بن موسى هو ابن مزدي بالزاي والسين المهلبي وكتبه لي بخطه قال انشدني القاضي ابو الحسن علي بن عبد الله بن محمد بن يوسف الانصاري هو ابن قطرال بثغر شاطبة وكتب لي بخطه قال انشدنا ابو الحجاج يوسف بن محمد هو ابن الشيخ البلوي قال وكتب لي بخطه قال ابن مسدي وقد قرات على ابي عبد الله محمد بن احمد التميمي قال انشدنا ابو محمد عبد الله ابن فصل القاضي بثغر الاسكندرية وكتب لنا بخط يده قال انشدنا ابو عبد الله محمد بن صدقة بن سليمان وكتب لي بخطه قال انشدنا محمد بن شداد بن ابراهيم بن قاسم الطليطلي وكتب لي بخطه قال انشدنا محمد ابن شداد بن الحداد وكتب لي بخطه قال انشدنا ابو عبد الله محمد بن ابراهيم بن موسى بن بطليبرة لنفسه وكتب لي بخطه —

رايت الانقباض اجل شيء وادعى في الامور الى السلامة

فهذا الخلق سالهم ودعهم فخلطتهم تقود الى الندامة

ولا تعنى بشيء غير شيء يقود الى خلاصك في القيامة

قال وانشدني ايضا قال انشدني ابو عمرو بن شقر عن ابي الحسن المقدسي عن الامام ابي الطاهر احمد بن محمد بن احمد السلفي عن الخطيب ابي زكرياء يحيى بن علي التبريزي عن ابي الحسن علي بن محمد الفلي لنفسه وهو بالفاء اخت القاف واللام المشددة . قال كذا وجدته بخط ابن شقر ومنه نقلت السند والشعر —

تصدر للتدريس كل مهوس بليد تسمى بالفقيه المدرس

فحق لاهل العلم ان يتمثلوا بشعر قديم شاع في كل مجلس

لقد هزلت حتى بدا من هزالها كلاها وحتى سامها كل مفلس

وقال انشدني ايضا قال انشدني ابو عمرو بن شقر قال انشدني الفقيه الزاهد المنقطع الى الله سبحانه ابو الحسن محمد بن احمد بن جبير الكناني بالاسكندرية لنفسه —

تأن في الامر لا تكن عجلا   فمن تأنى اصاب اوكادا
وكن بحبل الله معتصما   تأمن به بغي كل من كادا
فكم رجاه فنال بغيته   عبد مسيء بنفسه كادا
ومن تطل صحبة الزمان له   يلق خطوبا به وانكادا

وبنحوه له عفا الله عنه —

صن العقل عن لحظة في هوى   فان البصيرة طوع البصر
وغض الجفون على عفة   فان زناء العيون النظر

وبنحوه له ايضا عفا الله عنه —

من الله فاسال كل امر تريده   فما يملك الانسان نفعا ولا ضرا
ولا تتواضع للولاة فانهم   من الكبر في حال تموج بهم سكرا
واياك ان ترضى بتقبيل راحة   فقد قيل فيها انها السجدة الصغرا

قال وقوله ولا تتواضع للولاة البيت ينظر الى قول الاول —

قل النصر والمرء في دولة السلطان اعمى ما دام يدعى اميرا
واذا زالت الولاية عنه   واستوى والرجال عاد بصيرا

وفي نحو منه قول منصور الفقيه —

اذا عزل المرء واليته   وعند الولاية استكبر
لان الولاة لهم نبأة   ونفسي على الذل لا تصبر

ونهيه عن التواضع للولاة حكم شرعي . قال صلى الله عليه وسلم - من تواضع لغني ذهب ثلثا دينه - وان هذا الحديث مبني على الحديث الاخر وهو قوله صلى الله عليه وسلم - ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الايمان ان يكون الله ورسوله احب اليه مما سواهما وان يحب المرء لا يحبه الا لله وان يكره ان يعود في الكفر بعد ما انقذه الله منه كما يكره ان يقذف في النار - فصار من تواضع لغني لاجل غناه قد سقطت عنه الخصلتان الاوليان اذ صار الغناء احب الاشياء اليه واحب المرء لغير الله واذا سقطت الخصلتان من الثلاث فقد ذهب الثلثان فهذا وجه تخصيصهما والله اعلم . قال

وانشدني لابي جبير بمثل السند —

ايها المستطيل بالبغي اقصر　وربما طاطا الزمان وءوسا
وتذكر قول الاله تعالى　ان قارون كان من قوم موسى

قال وانشدني له ايضا بمثله وقد اظله عيد الاضحى بطندة قرية من قرى مصر —

شهدنا صلاة العيد في ارض غربة　باحواز مصر والاحبة قد بانوا
فقلت لخلي في النوى جد بدمعة　فليس لنا الّا المدامع قربان

قال وانشدني ايضا قال انشدني بعض اصحاب ابي عمرو عثمان بن حسين وهو ابن دحية المعروف بابن الجميل عنه قال ولا ادري هل هو له او تمثل به —

الا ان هذا الدهر يوم وليلة　يكران من سبت عليك الى سبت
فقل لجديد العيش لا بد من بلا　وقل لاجتماع الشمل لا بد من شت

قال وانشدني حفظه الله تعالى عند الموادعة —

ان نعش نجتمع والّا فما اشـ　ـغل من مات عن جميع الانام

قال في الحادي والعشرين من الوافي بالوفيات ما نصه : ومن ابناء القيروان الحسن بن احمد بن علي بن الحسن بن ابي هلال التجيبي ابو هلال غلبت عليه كنيته قال ابن رشيق في الانموذج اوطن سوسة وهو شاعر معروف حسن الطريقة متصنع متصرف بين التصنيع والاسترسال احيانا صاحب مكاتبات ونضمرات ومعمى ومطيرات وملح ومفاكهات ومدحه قليل وله —

لا والحاظك التي تركتني　غرضا للسهام ما دمت حيا
والذي اجتنيه من ورد خديـ　ـك ليال الوصال غضا طريا
وتثنيك ذا الذي اذهل العقـ　ـل وابقى بين الجوانح كيا
ما تحاكيك ايام وجرة في الحسـ　ـن ولا في سناه المضيا

والبيت الرابع اظنه —

ما تحاكي ءارام وجرة ذا الحسـ　ـن ولا البدر ذا السناء المضيا

فيخلص من الزحاف واللحن وعلى كل حال فهو ماخوذ من قول البحتري —

انواني

اتراني مستبدلا بك ما عشـ ـت خليلا او واجدا منك بدا
حاش لله انت افتن الخلـ ـق واحلى شكلا وارشق قدا

قال الشيخ الصالح ابو الحجاج يوسف بن يحيى بن عيسى بن عبد الرحمن التاذلي في كتابه الموسوم بالتشوف الى رجال اهل التصوف ومن رجال القيروان الشيخ ابو عبد الله محمد بن سعدون بن علي بن بلال القروي اصله من القيروان وافى بمكة ابا بكر المطوعي فحمل عنه تواليفه في التصوف وغيرها واستقر باغمات وبها مات سنة اربع وثمانين واربعمائة واهل اغمات الى الآن يستشفعون بتراب قبره وكان من اهل الفضل والعلم قال حدثني علي بن عيسى عن شيوخه ان فقيها من فقهاء اغمات وقف عند قبر ابن سعدون فسمعه بعض الصالحين يتكلم معه فقال له ذلك الصالح سمعتك تتكلم عند قبر ابن سعدون فقال له ذلك الفقيه انت رجل صالح ولولا ذلك لما حدثتك فاكتم علي فقد اشكلت علي مسالة فبحثت عنها فلم اجدها فاتيت قبر ابن سعدون فذكرت له المسالة فقال لي من قبره اطلبها في الديوان الفلاني . وقال التاذلي ومنهم ابو عمران موسى بن عيسى بن ابي حاج الفاسي اصله من مدينة فاس ونزل القيروان فاخذ عن ابي الحسن القابسي ثم رحل الى بغداد فحضر مجلس القاضي ابي بكر بن الخطيب ثم عاد الى القيروان وبها مات في تمام عشر خلت من شهر رمضان سنة ثلاثين واربعمائة وكان مقدما في الامانة والفضل نقل ابو عبد الله محمد ابن عثمان الميورقي عن القاسم بن عبد الجليل بن ابي الرياحي قال جرت عندنا مسالة بالقيروان في الكفار هل يعلمون الله ام لا فوقع فيها اختلاف كثير وتنازع بين العلماء وبين العامة وكان اكثر ما يلج فيها رجل من المؤذنين يركب حماره ثم يذهب من واحد الى ءاخر لا يترك متكلما ولا فقيها الّا يناظره في هذه المسالة فذكرت هذه المسالة لرجل من التجار من العامة ركبت معه البحر فقال لي على الخبير بها سقطت هذه المسالة كما اخبر الشيخ ابو القاسم عبد الجليل حتى تمارى الناس عندنا في الاسواق

ويقوم بعضهم الى بعض ويخرجون عن حد الاعتدال من الجدال الى القتال فقال قائل منا لو ذهبنا الى الشيخ ابي عمران رضي الله عنه لشفانا من هذه المسالة قال فقمنا اليه جماعة اهل السوق فاتينا باب داره فاستاذنا منه فاذن لنا فدخلنا عليه فقال ما لكم فقلنا اصلح الله الشيخ انت تعلم ان العامة اذا حدث بهم حادث انما يفزعون الى علمائهم وهذه المسالة قد جرى فيها ما بلغك وما لنا في الاسواق شغل الّا الكلام فيها حتى يقوم بعضنا على بعض فقال لنا الشيخ ان انتم انصتم واحببتم الاستماع اجبتكم بما عندي فقلنا له ما نحب الّا جوابا بينا على مقدار فهمنا فقال لنا وبالله التوفيق فاطرق ثم قال لا يكلمني الّا واحد ويسمع الباقون فقلنا نعم فقال لمخاطبه رايت لو لقيت رجلا فقلت له اتعرف الشيخ ابا عمران الفاسي فقال نعم فقلت صفه لي فقال هو رجل يبيع الحنطة والبقول في سوق ابن هشام ويسكن البصرة اكان يعرفني قال لا قال له ثم لقيت ءاخر فسالته عني فقال اعرفه فقلت صفه فقال هو رجل يدرس العلم ويفتي الناس ويسكن بقرب السماط اكان يعرفني قال نعم قال الشيخ لاول الكافر اذا قال ان لمعبودي صاحبة وولدا وانه جسم وقصد بعبادته من بهذه الصفة فلم يعرف الله ولا وصفه بصفة بخلاف المومن يقول ان معبودي الله الاحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا احد فقد عرف الله ووصفه بصفاته وقصده بعبادة من يستحق الربوبية سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا فرضي الجماعة وقالوا لقد شفيت ما في صدورنا ولم تجر هذه المسالة بالقيروان بعد هذا المجلس . وقال التاذلي ومنهم واجاج بن زلو اللمطي من اهل السوس الاقصى رحل الى القيروان واخذ عن ابي عمران الفاسي ثم عاد الى السوس فبنى دارا وسماها دار المرابطين لطلبة العلم وقراءة القرءان وكان المصامدة يزورونه ويتبركون بدعائه واذا اصابهم قحط استسقوا به قال التاذلي فسمعت الشيخ ابا موسى عيسى بن عبد العزيز الجزولي يقول اصاب الناس جدب بنفيس فذهبوا الى واجاج بن زلو وهو بالسوس الاقصى فلما

وصلوا

وصلوا اليه قال ما جاء بكم فقالوا له قحطنا وجئناك لتدعو الله لنا ليسقينا فقال انما مثلكم كمثل قوم ابصروا جبح نحل فظنوا ان فيه عسلا ولكن انزلوا عندي فانكم اضيافي فاضافهم ثلاثة ايام فلما عزموا على الانصراف وجاؤوا لوداعه ليرجعوا الى بلدهم قال لهم اياكم ان ترجعوا من طريقكم الاول الذي اتيتم منه وارجعوا من طريق آخر لتسكنوا في الغيران والكهوف من الامطار فلما انصرفوا ارسل الله عليهم السحاب بالامطار ودامت عليهم الامطار فلم يصلوا لبلادهم إلّا بعد ستة اشهر . ثم ذكر التاذلي اثر ذلك قطعة مصلحة لقلوب امثالي فتطفلت على تشطيرها بعد ما ذكرتها مجردة وهي —

للاولياء مناقب مشهورة ... فاشهد بها حق الشهادة واقطع
ورد الكتاب بها وسنة احمد ... فاشدد يديك على الحسام الاقطع
خرق العوائد ممكن لا سيما ... في حق اصحاب المقام الارفع
قوم فرائضهم ومندوباتهم ... منهم بمرأى لا يغيب ومسمع
قطعوا الظلام تاملا وتمهلا ... وعيونهم تبدي عيون الادمع
وتسارعوا نحو المراد وخلفوا ... مثلي ومثلك هزلا لم يسرع
وردوا جفان مواهب مختومة ... عن غيرهم وحرمت ري المشرع
لو كنت مثلهم لنلت منالهم ... لكن نزعت خلاف ذاك المنزع
اتقيس نفسك يا جبان بمقدم ... اتقيس نفسك عاصيا بالطيع
ومن المحال مع التفاوت ان يرى ... ماضي الجنان مع الجبان بموضع
لا يشبهون وان نفسك غرة ... سبقوك ايام البطالة فارجع
قسم يخص بها السريع الى التقى ... لو كنت من اصحابهم لم تمنع
ان لم تعاين في البطالة مفلحا ... فاصلح بقلبك قبل عينك واسمع

وهذا تشطيرها الموعود به وهو —

للاولياء مناقب مشهورة ... سارت كانفاس الشذا المتضوع
لا تعد عنها معرضا بالبخل بل ... فاشهد بها حق الشهادة واقطع
ورد الكتاب بها وسنة احمد ... ولذاك مرتعها خصيب المربع

واغنم فانك ذو حسام قاطـــع ... واشدد يديك على الحسام الاقطع
خرق العوائد ممكن لا سيمـــا ... من ذي وشاح بالبروق اللمع
عالي المقام فكن بجهدك مخلصا ... في حق اصحاب المقام الارفع
قوم فرائضهم ومندوباتهـــــم ... من غير منهل واجب لم تكرع
وصلوا على الاخلاص محبوبا غدا ... منهم بمرأى لا يغيب ومسمع
قطعوا الظلام تاملا وتململـــــلا ... فظلامهم بسواهما لم يقطـــــع
وقلوبهم سكرى بما قد فكروا ... وعيونهم تبدي عيون الادمـــع
وتسارعوا نحو المراد وخلفـــوا ... حظ النفوس بقعر بئر بلقـــع
فازوا وقد صرنا على ءاثارهـــم ... مثلي ومثلك هزلا لم نســـرع
وردوا جفان مواهب مختومـــة ... حنت على العافي حنو المرضـــع
ظماي واكواب الوصال منيعة ... عن غيرهم وحرمت ري المشرع
لو كنت مثلهم لنلت منالهـــم ... ولكل وافي العهد حسن الموقـــع
ولطالما املت البس مثلهـــــم ... لكن نزعت خلاف ذاك المنزع
انتقيس نفسك يا جبان بمقدم ... وافى المواعد لا بقول المـــدعي
شرط القياس على التساوي واقف ... انتقيس نفسك عاصيا بالطيع
ومن المحال مع التفاوت ان يرى ... وفق بفعلي معرض مع طيـــع
أم كيف يجتمع القياس بباسل ... ماضي الجنان مع الجبان بموضع
لا يشبهون وان نفسك غـــرة ... في مطمح تسعى اليه ومطمـــع
فاعزم على الرجعى لوبك انهم ... سبقوك ايام البطالة فارجـــع
قسم يخص بها السريع الى التقى ... واذا صدقت بحبهم فلتســـرع
خالفتهم فمنعت عما خصصـــوا ... لو كنت من اصحابهم لم تمنـــع
ان لم تعاين في البطالة مقلحا ... كنه فان الحزم غير مضيـــع
واذا اردت من السلامة صرفها ... فاصلح بقلبك قبل عينك واسمع

ومن ادبائها وبلغائها ابو اسحاق ابراهيم بن علي بن تميم الحصري المعروف القيرواني الشاعر المشهور له ديوان شعر وكتاب زهر الاداب جمع فيه كل غريبة

غريبة في ثلاثة اجزاء وكتاب المصون في سر الهوى المكنون في مجلد واحد فيه ملح وءاداب ذكره ابن رشيق في كتابه الانموذج وحكى شيئا من اخباره واحواله وانشد جملة من اشعاره وقال كان شبان القيروان يجتمعون عنده ويأخذون عنه وراس عندهم وشرف لديهم وسارت تآليفه وانثالت عليه الصلات من كل الجهات واورد من شعره —

انى احبك حبا ليس يبلغه   فهمي ولا ينتهي وصفي الى صفته
اقصى نهاية علمي فيه معرفتي   بالعجز مني عن ادراك معرفته

واورد له ابو الحسن علي بن بسام صاحب كتاب الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة بيتين في ضمن حكاية وهما —

اورد قلبي الردا   لام عذار بدا
اسود كالكفر في   ابيض مثل الهدا

وهو ابن خالة علي الحصري الشاعر توفي ابو اسحاق المذكور بالقيروان سنة ثلاث عشرة واربعمائة وقال ابن بسام في الذخيرة بلغني انه توفي سنة ثلاث وخمسين واربعمائة والاول اصح . وذكر القاضي الرشيد بن الزبير في كتاب الجنان في الجزء الاول من ترجمة ابي الحسن علي بن عبد العزيز المعروف بالفكيك ان الحصري المذكور الف كتاب زهر الاداب في سنة خمسين واربعمائة وهذا يدل على صحة ما قاله ابن بسام والله اعلم . والحصري بضم الحاء المهملة وسكون الصاد المهملة وبعدها الراء المهملة نسبة الى عمل الحصر او بيعها . ومن بلغاء القيروان ومن ابنائها الحسن بن رشيق احد البلغاء الافاضل الشعراء ولد بالمسيلة وتادب بها قليلا ثم ارتحل الى القيروان سنة ست واربعمائة كذا قال ابن بسام وقال غيره ولد بالمهدية سنة تسعين وثلاثمائة وابوه مملوك رومي من موالي الازد وتوفي سنة ثلاث وستين واربعمائة وكانت صنعة ابيه في بلده المحمدية الصياغة فعلمه ابوه صنعته وقرا الادب بالمحمدية وقال الشعر وتاقت نفسه الى التزيد منه وملاقاة اهل الادب فرحل الى القيروان واشتهر بها ومدح صاحبها

ولم يزل بها الى ان هجم العرب عليها وقتلوا اهلها وخربوها فانتقل الى صقلية واقام بمازر الى ان مات وهي قرية بجزيرة صقلية منها المازري رحمه الله واختلف في تاريخ وفاته قال ابن خلكان رايت بخط بعض الفضلاء انه توفي سنة ست وخمسين واربعمائة قال والاول اصح قال وقيل انه توفي ليلة السبت غرة ذي القعدة سنة ست وخمسين . ومن شعره —

يا رب لا اقوى على دفع الاذى   وبك استعنت على الضعيف المؤذي
مالي بعثت الي الف بعوضة   وبعثت واحدة الى نمـــــروذ

وكان بينه وبين عبد الله بن ابي سعيد بن احمد المعروف بابن شرف القيرواني مناقضات ومهاجات وصنف عدة رسائل في الرد عليه منها رسالة سماها ساجور الكلب ورسالة نجح الطلب ورسالة قطع الانفاس ورسالة نقض الرسالة الشعوذية والقصيدة الدعية والرسالة المنقوضة ورسالة رفع الاشكال ودفع المحال وله كتاب انموذج الشعراء شعراء القيروان ورسالة قراضة الذهب والعمدة في معرفة صناعة الشعر ونقده وعيوبه وهو كتاب جيد وغير ذلك . قال صاحب الوافي في الجزء الثالث والعشرين منه ما نصه : وقد وقفت على هذه المصنفات والرسائل المذكورة جميعها فوجدتها تدل على تبحره في الادب واطلاعه على كلام الناس ونقله لمواد هذا الفن وتبحره في النقد وله كتاب في شذوذ اللغة يذكر فيه كل كلمة جاءت شاذة في بابها . ومن شعره —

احب اخي وان اعرضت عنه   وقل على مسامعه كـــلامي
ولي في وجهه تقطيب راض   كما قطبت في وجه المدام
ورب تقطب من غير بغض   وبغض كامن تحت ابتســـام

ومنــــه —

اذا ما خففت لعهد الصبـــــا   ابت ذلك الخمس والاربعونـا
وما ثقلت كبرا وطـــــاقى   ولكن اجر وراءي السنينـــــا

ومنــــه —

وقائلة

وقائلة ما ذا الشحوب وذا الضنا　فقلت لها قول المشوق المتيم
هواك اتاني وهو ضيف اعزه　فاطعمته لحمي واسقيته دمي

ومنه —

ذمت لعينك اعين الغزلان　قمر اقر لحسنه القمران
ومشت فلا والله ما حقف النقا　مما ارتك ولا قضيب البان
وثن الملاحة غير ان ديانتي　تابى علي عبادة الاوثان

ومنها في المديح —

يا ابن الاعزة من اكابر حمير　وسلالة الاملاك من قحطان
من كل ابلج آمر بلسانه　يضع السيوف مواضع التيجان

ومنه —

في الناس من لا يرتجى نفعه　إلّا اذا مس باضرار
كالعود لا يطمع في طيبه　إلّا اذا احرق بالنار

ومنه —

اقول كالماسور في ليلة　القت على الافاق كلكالها
يا ليلة الهجر التي ليلها　قطع سيف الهجر اوصالها
ما احسنت حملا ولا اجملت　هذا وليس الحسن إلّا لها

ومنه —

ومن حسنات الدهر عندي ليلة　من العمر لم تترك لايامها ذنبا
خلونا بها ننفي القذا عن عيوننا　بلولوة مملوة ذهبا سكبا
وملنا لتقبيل الثغور ولثمها　كمثل جنوح الطير يلتقط الحبا

قال الاسوردي وما هذا باحسن من قول ابن المعتز —

كم من عناق لنا ومن قبل　مختلسات حذار مرتقب
نقر العصافير وهي خائفة　من النواطير يانع الرطب

قال في الوافي قلت مقام ابن المعتز غير مقام ابن رشيق لان ابن رشيق ذكر انه في ليلة امن وهي عنده من حسنات الدهر فلهذا حسن تشبيه التقبيل

مع الامن بالتقاط الطير الحب لانه يتوالى دفعة بعد دفعة واما ابن المعتز فانه كان خائفا يختلس التقبيل ويسرقه كما يفعل العصفور في نقر الرطب اليانع لانه يقدم جازعا خائفا من الناطور فلا يطمئن فيما يلتمسه الا ترى الاخر كيف قال فاحسن —

اقبله على جزعي　　كشرب الطائر الفزع
راى ماءً فواقعه　　وخاف عواقب الطمع

ومن شعر ابن رشيق —

قد حكمت مني التجا　　رب كل شيء غير جودي
ابدا اقول لئن كسب　　ت لاقبضن يدي شديد
حتى اذا اثريت عد　　ت الى السماحة من جديد
ان المقام بمثل حا　　لي لا يتم مع القعود
لا بد لي من رحلة　　تدني من الامل البعيد

ومنه —

معتقة يعلو الحباب متونها　　فتحسبه فيها نثير جمان
رات من لجين راحة لمديرها　　فطافت له من عسجد ببنان

واخذ ابن رشيق الادب عن ابي عبد الله محمد بن جعفر القزاز القيرواني النحوي وغيره من اهل القيروان وكفى بابي عبد الله القيرواني سندا اذ من تلامذته الحسن بن صافي بن عبد الله بن نزار بن ابي الحسن المعروف بملك النحاة قرا مذهب الشافعي على احمد الاسنهي والاصول على ابي عبد الله القيرواني واصول الفقه على ابي الفتح بن برهان والخلاف على اسعد الميهني والنحو على ابي الحسن علي بن ابي زيد الفصيحي حتى برع فيه ودرس النحو في الجامع ببغداد ثم سافر الى خراسان وكرمان وغزنة وعاد الى الشام واستوطن دمشق الى ان مات سنة ثمان وستين وخمسمائة ودفن بباب الصغير وقد ناهز الثمانين وكان صحيح الاعتقاد كريما وصنف العمد في النحو والمنتخب في النحو وهو كتاب جيد والمقتصد في التصريف

واسلوب

واسلوب الحق في تعليل القراءات العشر وشيء من الشواذ مجلدان والتذكرة السفرية اربعمائة كراسة والعروض مختصرا محررا والحاكم في مذهب الشافعي مجلدان ومختصرا في اصول الدين والمقامات حذا فيها حذو الحريري وديوان شعر. قال في الوافي وكان ملك النحاة مطبوعا متناسب الاحوال والافعال يحكم على اهل التمييز بحكم ملكه فيقبل ولا يستثقل وكان يقول هل سيبويه إلّا من رعيتي ولو عاش ابن جني لم يسعه إلّا حمل غاشيتي يضم يده على المائة والمائتين ويمسي وهو منهما صفر اليدين مولع باستعمال الحلاوات السكرية واهدائها الى جيرانه وخلع عليه نور الدين محمود يوما خلعة سنية فمضى بها الى منزله فراى في طريقه حلقة مجموعة على تيس يخرج الخبايا فلما وقف عليه للفرجة قال معلم التيس قد وقف في حلقتي رجل عظيم القدر شائع الذكر ملك في زي سوقة اعلم الناس واكرمهم واجملهم فارني اياه فشق ذلك التيس الناس وخرج حتى وضع يده على ملك النحاة فلم يتمالك ان القى عليه تلك الخلعة فبلغ ذلك نور الدين فعاتبه وقال استخفافا بنا فقال بل عذري واضح لان في هذه المدينة ما يزيد على مائة الف تيس فما منهم من عرفني إلّا هذا التيس فجازيته على ذلك فضحك نور الدين منه وكان اذا ذكر احد من النحاة يقول كلب من الكلاب فقال له رجل يوما حينئذ انت ملك الكلاب لست ملك النحاة فاستشاط غضبا وقال اخرجوا عني هذا الفضولي وعضت يده يوما سنورة فربطها بمنديل فقال فتيان بن علي بن فتيان النحوي الاسدي —

عتبت على قط ملك النحاة   وقلت اتيت بغير الصواب
عضضت يدا خلقت للندا   وبث العلوم وضرب الرقاب
فاعرض عني وقال اتئـد   اليس القطاط اعادي الكلاب

فبلغه فاستحيى فتيان وانقطع عنه فكتب اليه ملك النحاة جوابا عن ابيات يعتذر فيها —

يا خليلي نلتما النعمـاء   ونسنمتما العلا والعـلاء

امنحا صاحبي الذي كان فيه كل يوم تحية وثنـــــــاء
الما بالشاغور بالمسجد المهـ ـجور واستمطرا له الانــــواء
ثم قولا له اعتبرنا الذي فهـ ـمت به مادحا وكان سمــاء
وقبلنا فيه اعتذارك عمـــا قاله الجاهلون عنك افتراء

وقـــــال فتيان رايته بعد موته في النوم فقلت له ما فعل الله بك فقال انشدته قصيدة ما في الجنة مثلها فتعلق بحفظي منها —

يا هذه اقصري عن العــــذل فلست في الحل ويك من قبلي
يا رب ها قد اتيت معترفــــا بمــا قد جنته يداي من زلل
ملئان كف بكل مأثمـــــة صفر يد من محاسن العمــــل
فكيف اخشى نارا مسـعرة وانـــت يارب في القيامة لي

قال فوالله منذ فرغت من انشادها ما سمعت حسيس النار . ومن شعره —

يا ابن الذين ترفعوا في مجدهم وعلت اخامصهم فروع شمام
انا عالم ملك بكسر اللام في ما ادعيه لا بفتح الـــلام

ومن املاء شيخنا ابي العباس احمد برناز ان الحسن بن زياد القيرواني وهو اخو الشيخ علي بن زياد سمع من ابي حنيفة كما سمع منه اسد بن الفرات ثم سمع من ابن القاسم صاحب الامام مالك وكتب مدونة واتى بها القيروان ثم سمع بعده سحنون وكتب عليه مدونة فرجع فيها عن اشياء كتبت في مدونة أسد بن الفرات فلما اراد سحنون التوجه بها الى القيروان* كتب معه ابن القاسم كتابا الى اسد بن الفرات يقول له فيه اصلح كتابك من كتاب سحنون فامتنع اسد بن الفرات من الاصلاح محتجا باني اخذت عنه مشافهة واذا اصلحت صرت آخذا بواسطة ولا ارجع عما اخذته مشافهة الى ما اخذته بواسطة . وقال الشيخ ابو علي البغدادي في كتابه البارع حدثني حبيب بن نصر بن سهل واحمد بن ابي سليمان وعيسى بن مسكين قالوا حدثنا سحنون عن عبد الله بن وهب عن عبد الرحمن بن زياد عن ابي عبد الرحمن الحبلي عن عبد الله بن عمر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم

وسلم قال - ليأتين اناس من امتي من افريقية يوم القيامة وجوههم اشد نورا من نور القمر ليلة البدر - وقوله سحنون قال في تكملة معالم الايمان راوده الامير ابو العباس احمد بن الاغلب حولا كاملا على ان يوليه القضاء فابى فعزم عليه بالايمان التي لا يخرج منها فلما راى ذلك سحنون اشترط على الامير شروطا كثيرة فاعطاه كل ما سال واطلق يده في كل ما اشترطه حتى قال له - اني ابدا باهل بيتك وقرابتك واعوانك فان قبلكم ظلامات للناس منذ زمان طويل . فقال له الامير - نعم لا تبتدي الّا بهم واجر الحق على مفرق راسي . فتولى القضاء بهذه الشروط وانما يعلم ان ليس احد يستحق هذا الامر وانه لا يسعه الّا القبول وكان ذلك في شهر رمضان سنة اربع وثلاثين ومائتين واقام قاضيا ستة اعوام ولم ياخذ على ذلك اجرا وكان سنه اربعا وسبعين سنة . وسحنون بفتح السين وبعضهم يقول فيه سحنون بضم السين قال صاحب تثقيف اللسان والصواب فتحها قال اخبرني الثقة عن ابي عمران رضي الله عنه يعني ابا عمران الفاسي موسى بن ابي حاج انه ما لفظ به قط الّا مفتوح السين وكان لا يلحن في كلامه قال وانكر ابو علي الجلولي رحمه الله الضم فيه حين سالته عنه وقال ما سمعت احدا من علمائنا ابن السمين وغيره يقوله الّا بالفتح قال ابو علي وارى ان وزنه فَعْلون لا فُعْلول والنون فيه زائدة قال صاحب تثقيف اللسان واذا كان كذلك كان كعبدون وحمدون قال غيره وسمي سحنون باسم طائر حديد لحدة ذهنه في المسائل وهو لقب واسمه عبد السلام بن سعيد قال قلت ان كان هذا الاسم عربيا مشتقا من السحنة فهو مصروف وان كان اصله اعجميا فحكمه ان لا ينصرف واخبار سحنون وفضائله مشهورة . وقال في كتاب الطبقات سحنون ابن سعيد بن حبيب بن عبد السلام بن عبد القدوس التنوخي من صليبة العرب واصله من الشام من حمص وكان ثقة حافظا للعلم فقيها اجتمعت فيه خصال ما اجتمعت في غيره الفقه البارع والورع الصادق والزهادة في الدنيا والتخشن في اللباس والطعام والسماحة وذكر انه كان لا يقبل من

سلطان شيئا وكان ربما واصل بعض اخوانه بالثلاثين دينارا ونحوها وكان اول من شرد اهل الاهواء من الجامع وكان الجامع فيه حلق من الصفرية والاباضية مظهرين لزيغهم وكان لم يهب سلطانا في حق . وذكر انه لقي في الفقه ابن القاسم واشهب وغيرهما ولقي في الحديث سفيان بن عيينة وابن وهب وانس بن عياض ووكيعا وعبد الرحمن بن مهدي ويزيد بن مروان والوليد بن مسلم وغيرهم وتوفي رحمه الله يوم الثلاثاء لسبعة ايام مضت من رجب سنة اربعين ومائتين وكان خروجه لطلب العلم سنة ثمان وثمانين ومائة وكان قدومه افريقية سنة احدى وتسعين ومائة وكان مولده سنة ستين ومائة ومناقبه كثيرة . وذكر حمديس القطان انه سمع سحنون بن سعيد يقول سمع مني العلم سنة احدى وتسعين ومائة اهل اجدابية وفي تلك السنة مات عبد الرحمن بن القاسم ثم ذكر ابن ابي العرب رحمه الله جماعة من اهل سحنون وذكر قبل ذلك اسماءهم واخبارهم عن بعضهم انه قال عرست فدعوت ليلة عرسي جماعة من اصحابنا منهم احمد بن نصير وغيره فاتوني قال وكان فيمن دعوت شيخ من اهل المشرق كان قدم علينا من اصحاب احمد بن حنبل وكان الناس يسمعون منه العلم وكان شيخا نبيلا فلما راينا مثله قال وكان اصحابنا في اول الليل في قراءة وتحزن وبكاء وخشوع ثم اخذوا بعد ذلك في مسائل العلم والمناظرة ثم ابتدروا بعد ذلك زوايا الدار يصلون احزابهم قال فنظر الشيخ الحنبلي اليهم فقال - من اصحاب هولاء ومن معلمهم العلم والله ما رايت قط انبل من هولاء اخذوا في اول الليل في قراءة القرءان والتفسير والخشوع وبعد ذلك اخذوا يتناظرون في مسائل العلم ثم بعد ذلك وثبوا الى القيام والتهجد باحزابهم والله ما رايت انبل من هولاء والله لا يصحب هولاء رجل إلّا سعد . فقيل له - هولاء اصحاب سحنون . قال وسمعت محمد بن مسكين يقول - حدثني بعض طلبة العلم من الاندلسيين عن ابن عجلان قال قال ابو العرب فقلت من ابن عجلان هذا فقال عالم من علماء الاندلس انه قال ما بورك لاحد بعد

اصحاب

اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بورك لسحنون في اصحابه انهم بكل بلد لايمة . قـــال وحدثني عبد الله بن محمد كان يقول الذي يحضر مجلس سحنون من العباد اكثر ممن يحضره من طلبة العلم كانوا ياتون من اقطار الارض اليه .

الفصل الثاني في حد افريقية وذكر ما اشتهر من مدنها و بلادها حسبما وقفت عليه

قـــال البكري رحمه الله طولها من برقة شرقا الى مدينة طنجة الخضراء غربا وعرضها من البحر الى الرمال التي هي اول بلاد السودان وهي جبال رمل عظيمة متصلة من الغرب الى الشرق وبها يصاد الفنك الجيد قـوله وهي جبال رمل بالجيم ويقع في بعض الاوهام حبال رمل بالحاء المهملة لان الحبل هو المستطيل من الرمل والفنك بفتح الفاء والنون حيوان يتخذ منه الفراء وهي الاقليم الرابع حسبما نص عليه القرطبي في مسالك الممالك حيث قـال والرابع من الاقـاليم السبعة مصر وافريقيـة والبربر والاندلس وله الجوزاء وعطارد . قـال جامعه عفى الله عنه ويظهر من كلامه رحمه الله شبه تناقض من حيث انه لما ذكره اجمالا حكم عليه بانه الرابع حسبما رايته مصرحا به ولـما فصل كل اقليم وما اندرج تحته من المدن ذكر ان افريقية في الثالث وظاهره مشكل ولكن طريق المسلك فيه الى التحقيق والله اعلم أن اعظم المعتمد في ذلك اعتبار الاعاريض والغايات اذ هي الموازين التي يدرك بها من هذا الفن الغايات ومن المقرر المعلوم الذي لا مرية فيه ان عرض مدينة تونس ست وثلاثون درجة وثلثا درجة وغاية طول النهار بها حسبما هو مقرر ايضا اربع عشرة ساعة ونصف والحالة انه قدر عند تفصيله كل اقليم بنفسه ان الثالث من الاقاليم وسطه حيث يكون النهار الاطول اربع عشرة ساعة الى حيث يكون طوله اربع عشرة ساعة وربع ساعة ومن حيث يكون ارتفاع القطب ثلاثين جزءا وثلاثة اخماس ونصف خمس الى حيث يكون اربعة وثلاثين جزءا وذلك مسافة ثلاثمائة ميل وهو يبتدي من

المشرق فيمر على شمال بلاد الصين الى ان قال ثم يمر على برقة وافريقية وينتهي الى بحر المغرب . وقال في الاقليم الرابع ما نصه : وسطه من حيث يكون النهار الاطول اربع عشرة ساعة ونصف الى حيث يكون اربع عشرة ساعة وثلاثة ارباع الساعة وارتفاع القطب سبعة وثلاثون جزءًا وذلك مسافة ثلاثمائة ميل يبتدي من المشرق فينتهي الى خراسان . وما عثرنا بمواد نستوفي منها ذكر بلاد افريقية كلها ولكن حيث لم يمكن ان نستوفي ذكر البلاد التي شملها هذا الاقليم الرابع فلا اقل من بعضها لان افريقية جرتهم بالاضافة . فمن المدن التي اندرجت في خلال هذا الاقليم المبارك فرغانة قال في القاموس وفرغانة ناحية بالمشرق وفرغان قرية بفارس وبلد باليمن وصميرة واسروشنة وسمرقند وبخارا والري واصبهان ونهاوند والدينور وحلوان وسهيل ورودس والموصل ونصيبين وآمد وراس عين وقاليقلا وشمشاط وحران والرقة وقرقيسيا ويمر على شمال الشام وفيه من المدن هناك بالس ومنبج وملطية والقنطرة وحلب وقنسرين وانطاكية وطرابلس الشام وعلى جزيرة قبرس ورودس ثم يمر في ارض الغرب على بلاد طنجة وينتهي الى بحر المغرب وفي هذا الاقليم تقع قرطبة وما حولها لان طول نهارها في نهاية اربع عشرة ساعة وثلثي الساعة . قال جامعه عفى الله عنه ودليله في ان قرطبة من الرابع واحتجاجه لذلك بطول النهار الخ هو دليلنا وحجتنا فلا محيص ان تكون افريقية في الاقليم الرابع من غير منازع اذ بلدنا تونس وقرطبة في العرض والغاية مستويان كما نص عليه في مسالك الممالك والله اعلم بحقيقة ذلك .

فـــائدة . طول الاقاليم جميعا من المشرق الى المغرب وهو مسافة اثنتي عشرة ساعة من دور الفلك وبين عرض كل اقليم والذي يليه نصف ساعة معتدلة من النهار الاطول فالاقليم الاول يمر وسطه على المواضع التي يكون طول نهارها الاطول ست عشرة ساعة وقـــال القرطبي قال ابو عبيدة واتفقوا على ان طول العمران من الاميال التي الميل منها اربعة آلاف ذراع بالذراع الذي وضعه المامون لذرع الثياب ومساحات البناء وهي اربعة وعشرون اصبعا

اصبعا قال الدولابي وهو ذراع السواد وذلك الفان وثلاثمائة وثلاثون خطوة وهو بالذراع الهاشمي ثلاثة ءالاف ذراع ثلاثة عشر الفا وخمسمائة ميل وذلك من اقصى جزائر اقنابس الستة واقنابس البحر المحيط الذي لا يدرى ما وراءه غربا الى اقصى عمران الصين شرقا والشمس اذا غابت في اقصى الصين طلعت على الجزائر وبالضد . وبالاقليم السابع الدبيل والصين له الميزان والشمس . وذكر صاحب كتاب الزيج عن خالد بن عبد الله المروزي انه رصد الشمس للمامون ببرية ديار ربيعة وبرية سيحان فوجد مقدار درجة من الفلك ستة وخمسين ميلا من الارض فضرب العدد في ثلاثمائة وستين ميلا فانتهى ذلك عشرين الفا ومائة وستين ميلا فهو دورة كرة الارض المحيطة بالبر والبحر فقطراها على هذا ستة ءالاف واربعمائة واربعة عشر ميلا ونصف عشر بتقريب والمعمور نصف هذا القدر والقطر من خط الاستواء الى الشمال ومنتهى العمران في الشمال جزيرة قول في برطانية . وفي الجغرافيا ان عدد هذه الارض المعمورة عشرة آلاف ميل وخمسمائة وثلاثون ميلا وان عدد البحار المحيطة بالارض خمسة وجميع العيون الكبار مائتان وثلاثون عينا والانهار الكبار الجارية مائتان وتسعون . وذكر ان طول كل اقليم من الاقاليم السبعة تسعمائة فرسخ في مثلها . وقد زعم صاحب المجسطى ان دور كرة الارض اربعة وعشرون الفا وثلاثون ميلا وان قطرها وعمقها سبعة آلاف وستمائة وتسعة وثلاثون ميلا وقال غيره هي سبعة آلاف وانهم ادركوا ذلك بان اخذوا ارتفاع القطب الشمالي في مرتين على خط واحد على ان يكونا جميعا واقعين على خط نصف النهار فيتفقان في الطول ويختلفان في العرض مثل الاتفاق الذي وقع بين تدمر في بر العراق والرقة فوجدوا ارتفاع القطب الشمالي في الرقة خمسة وثلاثين وفي مدينة تدمر اربعة وثلاثين وثلثا ثم مسحوا مسافة ما بينهما فوجدوه تسعة وثمانين فوجب ان يكون مقدار الدرجة من الفلك في الارض ستة وستين ميلا وثلثي ميل للتقريب . قلت وانظر هذا مع ما تقدم فانه قال قبله مقدار درجة الفلك

ستة وخمسون ميلا والله اعلم بحقيقة ذلك . قال ثم ضربنا ذلك في ثلاثمائة وستين واذا قسم دور الارض على ثلاثة وسبع كان ما يخرج مقدار الارض واذا ضربنا القطر في الدور كان ما يبلغ مسافة جميع الارض مكسورا . ولذلك قال ترجمان الفيلسوفي ان دور جميع الارض على ما امتحنه ازذواستناقس (كذا) الحكيم احد وثلاثون الفا ومائتان وخمسون ميلا قال والارض كلها مسيرة خمسمائة عام ثلث عمران وثلث بحار وثلث براري غير مسكونة . وذكر في السفر الثاني ان دائرة الارض ست وثلاثون درجة والدرجة خمسة وعشرون فرسخا والفرسخ اثنى عشر الف ذراع والذراع اثنان واربعون اصبعا والاصبع ست حبات وتسعان مصفوفة بعضها الى بعض فيكون ذلك تسعة آلاف فرسخ . قلت وهذا غير ما تقدم في كثرة العدد وكبر الذراع . ثم قال وانما ننقل في كل موضع من هذا الكتاب على حسب ما نجده لا على ما نقطع بصحته . وقد مسح جماعة ممن اتى بعد بطليموس مقدار الدرجة من درج الفلك فيما بين مدينة الرقة وتدمر على ما ذكر فوجد حساب الدرجة الواحدة خمسة وعشرين فرسخا فوجب على هذا ان تكون مساحة اعظم دائرة تقع على كرة الارض تسعة آلاف فرسخ إلّا ان بطليموس وثنيوس صاحب كتاب الافلاك انكرا ان تكون مساحة الدرجة الواحدة تنتهي اكثر من ستة وستين ميلا وثلثي ميل . وقيل ان قدر محيط كرة الارض ثمانية آلاف فرسخ وقدر قطرها الفان وخمسمائة واربعون فرسخا ونصف فرسخ وتكسير سطحها عشرون الف الف وثلاثمائة واربعة وستون الفا فرسخ وتكسير الربع المسكون خمسمائة الف واحد وتسعون الف فرسخ . وبعد القمر عن مركز الارض خمسة وسبعون الف فرسخ وثمانية فراسخ وبعد فلك الشمس عن فلك القمر الف الف فرسخ وثمانمائة الف فرسخ وستة آلاف واثنان وخمسون فرسخا وبعد الشمس عن مركز الارض الف الف فرسخ وثمانمائة الف فرسخ واحد وثمانون الف فرسخ وسبعون فرسخا والله اعلم . وذكروا ان المعمور من الارض اقل من الثلث واكثر من الربع وطول الجزء المعمور

من

من الارض مبداه من الجزائر الخالدات التي هي اقصى بلاد المغرب الى
مدينة شيراز الى اقصى بلد الصين وذلك على الخط الموازي لدائرة معدل
النهار فراس هذا الخط الذي مبداه الجزائر الخالدات هو نظير درجة الشمس
بالسواء اذا كانت الشمس براس الحمل وطول هذا الخط مائة وثمانون جزءًا
من اجزاء الفلك واما مبدا عرض البلاد فانه من ناحية مجرى سهيل من
ارض الحبشة على مسافة عشرين ليلة في سمت مهب الجنوب وهي بعد
بلاد الصقالبة والخزر . اه . وانما سرح القلم الى هذا المقدار وان كان في
اكثر ما هو المطلوب فقد قال من قبلنا والحديث شجون وطرف* المناسبة في
سطاق الكمية اضاق ذلك وبالجملة فانه غريب ولا يقف عليه النظر في
مكان . ومما اندرج في خلال افريقية ذكر بعض مشاهير بلادها ومدنها
فاعظمها بعد تونس مدينة القيروان وقد ذكرت في فصل فضل افريقية لمناسبة
الاحاديث التي جاءت فيها وذكر صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم
الذي هو ابو زمعة البلوي رضي الله عنه فان هذا المقدار احق ان يضاف
لفصل افريقية . ومنها المنستير وقد سبق ذكرها في فصل فضل افريقية ايضا
كما وقفت عليه . ومنها سوسة قال التمجروتي ومدينة سوسة مسورة
سورها متقن وهي صغيرة ضعيفة العمارة وبها جامع مليح فاسح وكانت في
القديم يرغب العلماء في سكناها وبها عدة فقهاء منهم يحيى بن عمر من اعيان
مذهب الامام مالك رحمه الله تعالى ويذكرون انه هو المدفون خارج بابها
البحري وبها ايضا الفقيه عبد الحميد بن عمر بن الصائغ مدفون خارجها
في شرقيها وفيها غيرهما من الافاضل وعلى شاطئ بحرها مقام الولي الصالح
الشيخ ابي جعفر زرته سنة خمس وعشرين ومائة والف وختمت عند
ضريحه دلائل الخيرات ثم اخذني النوم فرايت النبي صلى الله عليه وسلم
واقفا على حافة حرم الاستاذ ورجل بين يديه قال له يا رسول الله ادع
لهذا واشار للفقير فرفع النبي صلى الله عليه وسلم كفيه الشريفتين ودعا فلم
اسمعه فعلمت ان لصاحب المقام شانا واعتناءً نفعنا الله به وبامثاله . قال

العيني هي جنوبي تونس وشرقيها وهي في طرف داخل البحر قليل العمارة لاستيلاء العرب عليها ولها سور من لبن وفي العزيزي بين المهدية وسوسة مرحلتان . وقال ابن الشباط قال البكري رحمه الله تعالى ومن القيروان الى مدينة سوسة ستة وثلاثون ميلا قد احاط بها البحر من ثلاث نواح الشمال والجنوب والشرق وسورها صخر منيع حصين متقن البناء يضرب فيه البحر ويدخل الى دورها من فناء من الجهة الشرقية وفي ركنها بين الغرب والقبلة منار عال يعرف بمنار خلف الفتي ولها بابان غربيان يقابلان الملعب قال جامعه عفى الله عنه واتفق اني وقفت ببابها الغربي مع بعض فقهائها فالتفت في نحو المدينة فاذا البحر يضطرب بافراطه والمراكب عرائس تتجلى على مورد بساطه فقال لي هل لتونس هذا المنظر الشهي وهل هو الا لسوسة دونها فقلت له لم لم تكن كذلك وهي ركن من اركان عسسها وزاوية من زوايا حرسها ولا تستكثر هذا المقدار في جنابها فانها لما اضيفت اليها خلعت هذه الخلع عليها . وبهذا الملعب وهو بنيان عظيم للاول اقناء مرتفعة واسعة معقودة بحجر النشف الخفيف الذي يطفو على الماء المجلوب من بر صقلية وحوله اقباء كثيرة يفضي بعضها الى بعض وحول مدينة سوسة ءاثار عظيمة للاول وبنيانها كله بالصخر المحكم وبها اسواق كثيرة وهي مخصوصة بكثرة الامتعة والتمر ولحم مراعيها من اطيب اللحوم وهي رخيصة الفواكه كثيرة الخير وهي قديمة البنيان وبخارجها محارس وروابط ومجامع للصالحين والاخيار وداخلها حرس عظيم كالمدينة مسور بسور متقن يعرف بقصر الرباط وهو ماوى الصالحين داخله حصن ثان يسمى القصبة وهو بجوفي المدينة متصل بدار الصناعة في سفح الجبل الذي هي في سند من جهة الشرق والمدينة في سند عال يرى دورها من البحر والحياكة بها كثيرة ويقال كان في الصدر الاول يباع المثقال من فائق غزلها بمثقالين ذهبا وبها تقصر الثياب الرفيعة . قال العيني رحمه الله ومنها فتح المسلمون جزيرة صقلية . وفي اقتباس الانوار سوسة من بلاد افريقية نزلها جماعة

من

من حملة العلم منهم يحيى بن عمر الكناني ويكنى ابا زكرياء رحل من الاندلس فسمع بافريقية من سحنون وابي زكرياء الجبري وغيرهما وسمع بمصر وسمع منه اهل القيروان ومن اتصل بهم وكان فقيها حافظا للراي ثقة في روايته ضابطا لكتبه وسمع منه اهل الاندلس ولد سنة ثلاث عشرة ومائتين ومات بسوسة في ذي الحجة سنة تسع وثمانين ومائتين رحمه الله تعالى واليها تنسب الثياب الرفيعة السوسية . وقال ابن الشباط رحمه الله ما نصه : ووقع في التاريخ المنسوب الى الفقيه الحافظ ابي الطاهر السلفي رحمه الله تعالى ان معاوية بن حديج غزا افريقية وكانت خرابات كلها وذلك سنة خمس واربعين في زمن معاوية بن ابي سفيان رحمه الله تعالى بعثه معاوية في جيش كثيف من نحو عشرة ءالاف مقاتل وكان معه عبد الله ابن عمر بن الخطاب وعبد الله بن الزبير بن العوام وعبد الملك بن مروان ويحيى بن ابي الحكم بن ابي العاص واشراف قريش وغيرهم فبعث ملك افريقية بطريقا في ثلاثين الفا فنزل بساحل سوسة فاخرج اليه معاوية بن حديج عبد الله بن الزبير في خيل كثيفة فسار حتى نزل على شرف عال ينظر منه بينه وبين سوسة اثنى عشر ميلا فلما بلغ ذلك البطريق اقلع في البحر منهزما واقبل ابن الزبير حتى نزل باب سوسة ووقف على البحر وصلى بالمسلمين صلاة العصر والروم يتعجبون من جراءته وقلة جزعه فاخرجوا اليه خيلا وابن الزبير مقبل على صلاته لا يهوله امرها حتى قضى الصلاة ثم ركب وحمل بمن معه على الروم فانهزم الروم منكشفين ورجع ابن الزبير الى معاوية وهو بالجبل . وبهذه المدينة الولي الذي اغنى اشتهار اسمه عن ايضاح وسمه كنز البركات وكهف العنايات والمعد لمعظم الازمات من اضحت اغاثته لذوي الوجل كالغيث بعد المحل النور الساطع والسراج اللامع الشيخ ابو عبد الله محمد بن عمران ابو راوي الفحل وكانت وفاته سنة احدى وثلاثين وتسعمائة ولقد كلفني بعض مخلصي الاعتقاد في علي جنابه وكثيري الترداد على العلية اعتابه ان اضع له تاريخا مستلزما ذكر لقبه

بالفحل اذ هو اشهر اوصافه نفعنا الله به ءامين فقلت ـ

ذا ضريح لابي راوي الفحل　ما راى كربا به إلّا وحل
يحمل الكل ويحمي جــاره　وبايديه تخاليص الوصــل
ذاق كاس الوصل في حالاته　فرقى مرتبة الانس وصــل
ولذا اتنوا لدى تاريخــه　لك سر يا ابا راوي الفحــل

فلما رءاه قال انه توفي في رجب وودت لو انك زدت ذكر رجب في التاريخ لكان احب للنفس فقلت له ان العدد لا يعقل اشتراكه لجهتين في لفظ واحد فالح علي فقلت أستعين بنفس الاستاذ ولعل الله يفتح من فضله فجاء كما تراه ـ

ومن به يرجو المومل ما طلب　وبه تساق لديه غايات الارب
اذ فحل ءاساد الولاية حلمه　وامير مرتبة العناية والقــرب
يروي ظما الآمال حتى انــه　يدعى ابا راوي فلاتك ذا عجب
تتخذ العارف حلة فراى بهــا　في حضرة القدس لذاذات الطرب
فلطالما احيى الرغائب قبل مـا　ان ارخوا ولقد توفي في رجب

وسوسة مدينة حصينة على سفح جبل عال وعليها سور عظيم منيع من الصخر ينتهي البحر اليه ويضرب في جدرانه وبها ءاثار الاول وبها جامع للخطبة حسن كان بناوه في ولاية ابي العبــاس احمد بن محمد بن الاغلب بن ابراهيم بن الاغلب سنة ست وثلاثين ومائتين على يد خادمه مدام وكانت سوسـة اذ ذاك قرية واتى بعده ابن اخيه ابو ابراهيم احمد بن محمد بن الاغلب فجدد سورها والحقها بالمدن وكان تجديده لسورها سنة تسع واربعين ومائتين وبصحن جامعها المذكور بيت قد كتب فيه بخط قديم نقشا في الحجر ـ القرءان كلام الله ليس بمخلوق ـ وكتب مثل ذلك ايضا في عمد الجامع وذلك كله تنبيه على مذهب اهل السنة وتثبيت له بسبب كثرة ما كان بها وبجميع بلاد افريقية في القديم من المذاهب المنحرفة عن المذهب السني ثم ما كان بها منها في زمن الروافض ثم في زمن تغلب

الخوارج

الخوارج عليها . ومن سوسة هذه ركب اسد بن الفرات البحر غازيا الى صقلية سنة ثنتي عشرة ومائتين فاستفتح كثيرا من معاقلها وتغلب على كثير من مدنها ومات في العام الذي يليه وهو محاصر لها . قالوا ونزل الروم بها في الزمن القديم في ثلاثين الف مقاتل فبلغ ذلك معاوية بن حديج السكوني وقيل التجيبي وقيل الكندي قال ابو عمر بن عبد البر والصواب ان شاء الله السكوني وخطاه الرصاص في هذا وقال اذا كان سكونيا فهو تجيبي وكندي . وكان معاوية هذا واليا على افريقية من قبل عمرو بن العاص فبعث عبد الله بن الزبير الى سوسة في جمع كثيف ليحميها فتوجه عبد الله ونزل بجمعه على شرف عال بينه وبينها اثني عشر ميلا ونحوها فلما علم الروم بوصوله زفوا جميع سفنهم الى شاطي البحر وازمعوا على الارتحال فوصل عبد الله بجمعه من الغد حتى انتهى الى سور المدينة ثم نزل عن فرسه وقام يصلي بالناس بعض الصلوات فجعل الروم يتعجبون من اقدامه وقلة اكتراثه بهم فاخرجوا له جمعا من حماتهم فزحفوا اليه وهو مقبل على صلاته لا يهوله ذلك حتى اذا قضى صلاته ركب فرسه وحمل عليهم فانكشفوا عنه وولوا ادبارهم فصعدوا الى مراكبهم واقلعوا الى بلادهم . ولم تزل سوسة معروفة بالامتناع على من رامها واهلها يوصفون بالباس والنجدة وحسبك من امتناعها ونجدتهم ان ابا يزيد لما تملكها وفعل فيهم الافعال الشنيعة من قتل الرجال وسبي النساء وقطع الاعضاء وبقر البطون خالفوا عليه وبايعوا ابا القاسم القائم الشيعي ووجهوا عامل ابي يزيد اليه وذلك كله عام اثنين وثلاثين وثلاثمائة فوصل اليها ابو يزيد بنفسه في ذلك العام وحاصرها حصارا شديدا وكان مما تحصل من جند ابي يزيد الخارجي انهم صنعوا مائة الف خص في كل خص نحو الثلاثة او الاربعة انفس فكان يقاتل سوسة كل يوم فمرة له ومرة عليه ولم يزل محاصرا لها الى ان توفي القائم في العام المذكور وولي بعده ابنه اسماعيل الملقب بالمنصور فوجه الى ابي يزيد جيشا كان بسببه ارتحاله عنها وفي ذلك يقول بعض شعرائها —

ان الخوارج صدها عن سوسة منا طعان السمر والاقدام
وجلاد اسياف تطاير بينها في النقع دون المحصنات الهام

وقال احمد بن افلح من قديم شعرائها —

مدينة سوسة بالغرب ثغر تدين له المدائن والثغور
لقد لعن الذين بغوا عليها كما لعنت مزينة والنظير
اتاها الخارجون ليملكوها فكان من الاله لها نصير
ولولا نصره لدهت دواه يشيب لهولها الطفل الصغير
سيبلغ ذكر سوسة كل ارض ويغشى ارضها الجم الغفير

وقد خالف اهل سوسة ايضا على المعز بن باديس صاحب افريقية سنة خمس واربعين واربعمائة ومنعوه ما كانوا يحملون اليه من المال وقالوا نحن اولى به لنذب به عن بلدنا وتوفيت اخت المعز عندهم فضموا اموالها وابوا من توجيهها اليه فبعث المعز لهم في ذلك فقالوا لرسله كيف ندفع اليه اموالا يتقوى بها علينا بل نتقوى بها نحن على مدافعته وحربه فبعث المعز اليهم من المهدية اسطولا ضخما فاصبح بمرسى سوسة فاحرق ما فيها من المراكب وكانت نيفا وستين مركبا اكثرها لاهل سوسة فعمد اهل سوسة الى من كان عندهم من اهل القيروان فاخذوا اموالهم واهانوهم اشد الاهانة فوجه المعز اليهم جيشا فيه مائة فارس وامرهم ان يتظافروا مع الاسطول على حصار سوسة لياخذوا بمخنقها برا وبحرا فكان من قدر الله الغريب الاتفاق ان اجتاز على سوسة يوم خروج هذا الجيش اسطول من قبل صاحب صقلية فخافه اسطول المعز فانصرف راجعا الى المهدية ولا علم عند المعز بذلك ووصل جيش المعز الى سوسة فسالوا عن الاسطول فاخبروا باقلاعه فسقط في ايديهم فخرج اهل سوسة ومن حف بها من الاعراب اليهم فادخلوهم الى المدينة واجالوا السيوف على جميعهم ونصبوا رووسهم على السور قال ابن شرف اخبرني من شاهدها ان عدتها نيف وخمسون راسا قال وانما سلم من سلم من الجيش لضعف في دوابهم منعتهم من اللحاق باخوانهم فلما تحققوا الخبر

الخبر ولوا للمعز راجعين فسلموا بذلك ومات المعز بعد ذلك سنة اربع وخمسين وسوسة مخالفة عليه فلما ولي ابنه تميم انابوا له فعفى عنهم وتغمد ذنوبهم وذلك سنة ست وخمسين . وتوالت على سوسة بعد ذلك امراء من العرب ملكوها حين استولوا على البلاد وانتزعوها من ايدي صنهاجة واستقرت ءاخرا تحت ملك جبارة بن كامل بن سرحان بن ابي العين الفادغي البعيد الصيت المشتهر بالجود ومن يده اخذها النصارى حين اخذوا المهدية من يد الحسن واستولوا على سائر بلاد السواحل . ولما وصل عبد المومن الى افريقية واستنقذها من ايدي النصارى وقام اهل كل بلد على من عندهم منهم امتثل اهل سوسة ذلك ورحل اشياخهم الى عبد المومن ورحل اليه ايضا جبارة بن كامل المذكور فقدم على اهل سوسة حافظا من الموحدين يعرف بعبد الحق بن علناس الكومي فطرقهم اسطول النصراني ثانيا وهم على غرة فاستولى على البلد وقتل من اهله من قتل وسبى من سبى وخرب البلد تخريبا عظيما لانه لم يبن على الاقامة فيه واسر الحافظ المذكور واهله و ولده وتوجه بهم الى صقلية فاقاموا بها مدة ثم افتدوا بعد ذلك وخرجوا ومن حينئذ استولى الخراب على مدينة سوسة وهلم جرا . وكفى فخرا لسوسة ان المنستير الذي وردت الاحاديث في فضله محرس من محارسها ومنسوب اليها و بقرب منها جبل وسلات وفي السابق يعرف بجبل ممطور وسبب تسميته بذلك ان معاوية بن حديج لما وصل الى افريقية نزل على هذا الجبل فاصابه فيه مطر شديد فقال ان هذا الجبل ممطور اذهبوا بنا الى ذلك القرن فسمي الجبل ممطورا وسمي ذلك الموضع القرن . واما ما ادعاه ابن شرف في تاريخه من ان اهل سوسة في الاصل عبيد لاهل القيروان قال وذلك انه لما افتتحت افريقية اشتدت غارة الروم على مدن البحر فابتنيت القصور على السواحل كقصور سوسة وغيرها وجعل بها من عبيد اهل القيروان ومن انتدب معهم قوم للرباط فكثروا هنالك واستقلوا بمدينتهم فمجرد دعوى حملت عليها العداوة والعدوى والواجب ان لا يقبل كلام قروي على

سوسي وبالعكس لما صح بينهم من العداوة المتوارثة • ومن شعراء سوسة في القديم المتقدمين بالزمان المشهورين باصابة غرض الاحسان محمد بن الحسين بن ابي الفتح بن ميخائيل القرشي قال ابن رشيق في الانموذج هو من اهل سوسة وسكن القيروان قال وكان يسلك مسلك قدامة في انتقاده للشعر ومطالبته للحقائق وربما سهل الفاظه وعبث بملح كقوله –

صور عبد الله من مسكة   وصور الانسان من طين
ابدعه الخالق سبحانه   كمثل حور الجنة العين
(نقص في كل النسخ)   سيف علي يوم صفين
في مثله يوصل حبل الصفا   وتؤثر الدنيا على الدين

قال ابن رشيق لم اتصفح هذه الابيات الّا مرة واحدة فوجدتها قد علقت بنفسي وخفت على لساني حتى كدت اتهمه فيها لولا علمي به • قال وكثيرا ما يجري ذلك في الشعر المطبوع حتى ان قائل الابيات ربما استراب بها لسهولتها عليه فاسقطها • وشعر ابن ميخائيل هذا في الانموذج وغيره كثير مشهور • ومنهم علي بن احمد بن الصفار السوسي كذا وجدته بتقديم الصاد على الفاء وياتي بعده ذكره بالقاف وقبل الصاد ولم اقف على الثابت منهما قال ابن رشيق هو شاعر متسع القافية سالم الطبع عالم باللغة ومن شعره –

ءانست بالعلياء نارا لها سنى   لليلى بليل قد دجا وتغضنا
وما اوقدت الّا لخابط ظلمة   مضل وضيف جاء يقتاد ضيفنا
فما بلغا حتى اكلا والصقا   قلوصيهما بالارض من شدة الونا

قال وهذا كلام عربي صريح قلما ياتي مثله للمتقدمين المحسنين فضلا عن المتاخرين لا سيما في هذه القافية قال وانت ترى حال ابي نواس فيها على جلالته وجراته • ولابن القصار المذكور من قصيدة اخرى وذكر الشيب قال ابن رشيق وهو مليح جدا –

ارى البيض لا يمنحن ذا البيض منحة   سوى منحة تهوى الكتابة او تتلى
كان لايام الشباب بسالة   طلبن لايام المشيب بها ذحلا

ولم

ولم تر عيني كالشباب وحسنه   اقر لاجفان القيان ولا احلى

ولا كبياض الشيب في اعين الدمى   قذى بئسما يغشي القذى لاعين النجلا

فلا غرو ان ارثي الشباب وعصره   ولا لوم ان انعى المشيب ولا عذلا

قال ابن رشيق ما رايت اعجب من البيت الثاني من هذه الابيات اما ينظر الناس الى هذا المعنى الغريب والتخلص العجيب في اللفظ الرائع المتمكن والنظم الرائق المستحسن . ومنهم ابو الفتوح بن محمد قال ابن رشيق نشا بسوسة وهو من اهلها وشعره سهل وطي لا يتكلف فاذا تكلف ظهر عليه اثر ذلك وانشد له يمدح حسن بن البلبل متولي سوسة وقد رفع عليه مال وقيلت فيه اقوال فلم يضره ذلك —

دم هاكذا دم على رغم العدا ابدا   علاك في اليوم تعلاها علاك غدا

قد قدر الله ان تعطى مناك وما   اعطى حسودك الّا البين والكمدا

ومنهم ابو موسى عيسى بن ابراهيم السوسي المعروف بالقطان قال ابن رشيق كان شاعرا مشهورا بالشعر مليح المقطعات قال كنت اسمع بذكره وهو بسوسة الى ان اجتمعت به فانشدني بعض شعره ثم قال كيف رضاك عما سمعت فقلت احسن رضى واتمه فتكلم بكلام جميل ولم اره بعد ذلك الاجتماع وانشد له في الانموذج —

اهدى الى الغصن الرطيب قواما   والى فوادي لوعة وغراما

ظبي اعار الظبي منه محاجرا   واعارني من سقمهن سقاما

ما ضره لو كان مع كلفي به   يهدي الي مع الرياح سلاما

قال وهذه الفاظ طيبة ومعاني رائقة . ومنهم عبد الوهاب بن خلف بن القاسم السوسي ويعرف بابن الغطاس قال ابن رشيق هو من ابناء سوسة ومستوطنيها وهو شاعر متدرب قد جمع الى رقة المعنى متانة اللفظ وقرب المقصد وانشد له —

وكم ليلة جاذبت من راحتي بها   نهود العذارى في قميص الدجى الزحف

وبت يعاطيني العقار مهفهف   هضيم الحشا مخطوفه وافر الردف

واظما فاستسقي ثناياه ظامئا ... فتغني ثناياه عن القهوة الصرف
واجفان دهري مغضيات على القذى ... واياهم يقطعن باللهو والقصف

وانشد له ايضا يصف خيارا —

جسم لجين يكاد يجري ... لولا ترديه ثوب سام
ما اعترضته العيون إلّا ... رات به مقبض الحسام

ومنهم محمد بن عبدون السوسي قال ابن رشيق اصله من القيروان وهو من اكابرها وابوه هو المنتقل الى سوسة قال وهو شاعر وطيء الكلام كلف بعذوبة اللفظ والتوصل الى المعنى البعيد بلطافة وسكون جاش وكانت له رحلة الى ثقة الدولة يوسف بن عبد الله يعني الى صقلية فامتدحه واضافه الى والده جعفر فادناه وقربه وكان من اكرم الناس عنده وساله الرجوع الى وطنه ورفع اليه قصيدة يتشوق فيها معاهده منها قوله —

بالله يا جبل العسكر دع ... ريح الجنوب لعلها تسري
كيما اسائلها فتخبرني ... ما يفعل الجيران بالقصر
يا قصر طارق الذي طرقت ... احشاي فيه بلابل الصدر
والله ما قصرت عن قلق ... لكنني قصرت بالقسر
فسقاك [illegible] الحيا وسقى ... عصرا تقضى فيك من عصر
يا ربع كم لي فيك من غصن ... يهفو صباه به وكم بدر
ومناسب للاوصاف اثقله ... حقف يكاد ينوء بالخصر
قد طال ما عقدت قلائده ... مني مكان قلائد النحر
ولثمت صدرا فاح عنبره ... من غير ما طيب ولا عطر
وضممت انفاسي عليه وقد ... اشفقت من نفسي الذي يسري
وكانّ صدري لا ضلوع له ... وكانّ قلبي بان عن صدري
اعطي عهود الله صفقة من ... اعطى العهود بجانب الحجر
لو استطيع سبحت من طرب ... شوقا اليك سواد ذا البحر
حتى اقبل جانبيك كما ... قبلت فيك مراشف البدر

وافيض

وافيض اجفاني لديك كما   فاضت عليك وما بها تدري

قال ابن رشيق رقة الشوق ظاهرة على هذا الشعر ولطف الحضارة مع مائه تكاد تنبع من جانبه فهو اندى من الزهر غب القطر واحلى من الوصل بعد الهجر قال ولما سمعها جعفر ازداد به اعجابا وفيه رغبة فمنعه من السفر فكتب الى ثقة الدولة يسأله فيما سال فيه ولده ويشكر ما ناله من الجود ويذكر وطنه ايضا —

يا قصر طارق همي فيك مقصور   شوقي طليق وخطوي عنك مأسور

ان نام جارك اني ساهر ابـدا   ابكي عليك وباكي العين معذور

عندي من الوجد ما لو فاض من كبدي   اليك لاحترقت من حولك الدور

ومدح فيها ثقة الدولة فلم يجد عندهما ما يشتهي فخرج عنهما مسارقة قال ابن رشيق ومن ملح ما رايت له قوله لجعفر حين استاذنه في الرجوع الى وطنه فعتب عليه وحجبه —

ولما رايت البدر قمت مسلما   عليه واظهرت الخضوع لديه

وقلت له ان الامير بن يوسف   شبيهك قد عز الوصول اليه

فكن لي شفيعا عنده ومذكرا   اذا جئته تبغي السلام عليه

قال فكتب هذه الابيات ولقيه بها في متنزه له فطرب واعجب بها اعجابا شديدا وامر له بمال كثير قال والابيات ماخوذة من قول ابن الرومي —

بالله يا قمر السمـا   كن لي لمَن اهوى شفيعا

قال ومن عجيب كلامه قوله —

اتبصر ام انت لا تبصر   هو الحب يجري بما يقدر

تذلل وكن خاضعا خاشعا   فذل الهوى عزك الاكبر

ولا تنكرن احتكام الهوى   فاحكامه فوق ما ينكر

اذا عز دمع فاغر الهـوى   به وابك ان البكا اعذر

ايا واحد الحسن اوحدتني   لما بي وان كان لي معشر

يحامون دوني ولكن حمى   فوادي ابيح ولم يشعروا

عزفت بهجري وغرقتني   بدمع يفيض ولا يقطر
وعايتني كيف اشكو الهوى   كما يشتكي فقده المعسر

قال ابن رشيق لله انفاس البغداديين النفيسة لم يخنها طبع ولا اعجزتها صنعة ولو مزج هذا الكلام بكلام العباس بن الاحنف ظريف الشعراء لامتزج به امتزاج الخمر بالماء والنور بالهواء ولابن عبدون في ملعب سوسة وهو مما انشده ابن رشيق —

اين من شاد ذا ومن رفع السمـ   ـك واعلاه فوق ما يحتاج
اين ذاك الملك الشديد الذي كا   ن وذاك الازواج والادلاج
اين ذاك الدهم الذي يرجف الار   ض جيوشا يضيق عنها الفجاج
اين تلك الخدور اين بدور   حجبتها الحبوش والاعلاج
اين اربابهم ومن رفع التا   ج على راسه واين التاج
ضمت الارض والبلاد عليهم   فطوتهم وطيها ادماج
طحنتهم طحن الرحا فاذا الانـ   ـسان والدهر صخرة وزجاج

ومنهم عبد الحليم بن عبد الواحد السوسي الكاتب لم يذكره ابن رشيق وذكره ابن الصلت في الحديقة وانشد له —

هممت بان تخفي بقايا شبيبة   كغرة ليل أو حشاشة مهزوم
ترى الشعرات السود والبيض حولها   كمثل اسارى الزنج في عسكر الروم

وانشد له في عود نشابة —

لليالي في نقض حالي عظات   حار في وصفها ذووا الالباب
صرت في الخوص بعد لبس الخوافي   واعتمادي بازرق كالشهاب
بعد ذب الكماة عن حرم العـ   ـز تنقلت بي لذب الذباب

وله مما لم ينشده ابو الصلت —

نذرت لله اذا ما التقت   شفاهنا بعد النوى للقبل
صومي على الراح سوى ما حوى   مبسمها العذب وراح المقل

وله ايضا —

حيني هدتني والعين الكحيلة مع   عين الرقيب واخذ الناس بالعين
هبني اتقيت عدوا سن لاربعة   ما اجلب العين مذ كانت الى حيني

ومنهم التراب السوسي ذكره عماد الاصبهاني في الخريدة وانشد له من قصيدة يمدح بها جبارة بن كامل المتولي على سوسة وقد قدمنا الخبر على تملكه لها —

بات بالابرق برق يتسامى   فجفى الجفن لروياه المناما
طلعت راياته خافقة   خفقان القلب امسى مستهاما
بذمام الحب يا برق عسى   لك علم حبهم اعيى الاناما
انسوا عاما فلما ملكوا   رق قلبي اوحشوا عاما فعاما
واستمالوني بوصل خادع   فكما ملت راوا وصلي حراما

ومنها في مدح جبارة —

فاذا ابصرته اكبرته   واذا خاطبت خاطبت هماما
واذا استصرخت في حادثة   فعلى الحادث جردت حساما

وله فيه هذه القصيدة قال التجاني وقد اولع اعراب زماننا بانشادها وكثرة تردادها ولاجل ذلك ذكرناها بكمالها وان كان فيها بعض طول فان الحسن غير ملول —

سلم على ذي سلم   مغنى الهوى المستغنم
وقف بها مسايلا   عن ساكن والخيم
واستمطر العين بها   صوب دموع ودم
فهذه اطلالهم   مندرسات الارسم
وهذه عراصهم   مستوحشات المعلم
كانهن اسطر   في كتب لم تفهم
لم تبق منهن الصبا   وراعفات الديم
سوى ثلاث صائما   ت قائمات جثم
واشعث مطرح   بربعها المهدم

اضحت خلاءً بلقعا   بواليا كالرمم

لا تسمع الاذن بها   إلّا نعيبَ الاسحم

الى صرير جندب   الى عُواء ديسم

الى ضبيح ثعلب   الى زئير ضيغم

ولا ترى العيس سوى   خدرنق مخيم

وشوذق ونقنق   ولقلق وشيهم

بعد السرور والمنا   والامل المتمم

والغانيات كالدمى   يسحبن كل معلم

من أبيض محبر   واخضر منمنم

واحمر معتق   واصفر مسهم

من كل خود كحلت   مقلتها بالسقم

جبينها من قمر   وفرعها من ظلم

وقدها من غصن   وخدها من عندم

يلوح في بنانها   وكفها والمعصم

رقم من الوشمي في   ملمح اديم الارقم

تفتر عن مفلج   عذب الثنايا شبم

مفضض مذهب   مدبج بمرسم

حلو اللما وانما   لحظي جناه لا فمي

من كل ريم مائس   كالغصن المنعم

وصاله من سكر   وصده من علقم

مبتسم عن جوهر   في عسجد منظم

ان ضاء في برقعه   كالمشرفي المخذم

قامت له مدامعي   مقام مهراق الدم

سقيا لذات تربها   وعيشي المتصرم

ايام كانت لمتي   مسودة كالحمم

وقامتي

وقامتي قويمة شبابها لم يهرم
والدهر لم يخط الى مساءتي بقدم
فلا نهاني عذلي ولا لحاني لومي
ثم انقضت بسرعة ايام ذاك الموسم
كانني كنت ارى عيشي بها كالحلم
يا ربع احباب نووا عن مدنف متيم
انعم صباحا واسلم سقيت نوء المرزم
ان لم امت من اسف وحسرة عليهم
كذبت في دعوى الهوى لست بهم بمغرم
كانني بالوصل من احبتي لم انعم
ولم ابت ريان من رشف عقار المبسم
في ليلتين ليلتي وليل شعر اسحم
ما بين تفاح الخدو د العاطر الموشم
وبين رمان النهو د الارج المكتم
في فرش وثيرة لم تفترش للمحرم
حتى تولى الليل في خميسه المنهزم
واقبل الصباح في جحفله العرمرم
كانه لما بدا يشرق تحت الظلم
وجه الامير ابن الامير الاكرم بن الاكرم
جبارة بن كامل سقف الندا والكرم
الفارس الذي اذا اسرج كل شيظم
وسل كل مرهف وطر كل لهذم
واضرمت نار الوغى وفر حامي الحرم
واشفق الابطال من وقع القنا المقوم
وحشرت نفس الجبا ن من كروب القدم

وافى على ظامي الحشا عبل الشواء مقدم
من الهلال مسرج من الثريا ملجم
من الضحى محجل من الصبا مجسم
مقلدا بصارم عضب المهز مخذم
ثم انثنى يسبح في بحر الردى الملتطم
فاجفلوا امامه بعضا على بعضهم
كانه ضياغم سطت بسرب الغنم
حتى اذا الليل دجا وانهل صوب الديم
ووعوع السرحان من طول الطوى المخيم
وجئت معتزا الى منزله في العتم
الفيته خير فتى طرقته في الظلم
يلقاك من قبل الندى بالبشر والتبسم
الى كريم خيمه سمح وفيّ الذمم
ءاراوه في الحادثا ت نفذٌ كالاسهم
وحمله امنع من رضوى لكل مجرم
وخلقه احسن من برء باثر السقم
نهابه الى الفعا ل والمقام الاعظم
صيد من العرب الاولى كانوا ملوك الامم
وكانت الارض ارتوت منهم بجود ودم
من دير سمعان الى نجد بوادي اطم
بجانبي وادي القرى فالدوح من ذي سلم
ثم انقضوا وذكرهم كالشهد في كل فم
من بعد ما اوصوا بنيـ ـهم مكرما عن مكرم
بالصبر في وقت الوغا والكف عند المغنم
فجاء يقفو مجدهم وحسن تلك الشيم

يا حاسدي

يا حاسديه انتبهوا من رقدة التوهم
انطمعون في علا قد حازها او همم
كلا ولو رقيتم الى السما بسلم
ابا عنان زد علا على محل الانجم
اقسمت بالبيت الحرا م والصفا وزمزم
لانت من بعد النبي المصطفى المكرم
وءاله وصحبه اهل الوفى والذمم
اجل من تحت السما ء من جميع الامم
لو كنت يا ابن الاكرمين في الزمان الاقدم
لا نزلت في فضلك الـ مكمل المتمم
مفصلات سور من الكتاب المحكم
انت الذي لو لم اكن من عزه في حرم
لقلت للدهر الظلو م الجائر المحتكم
يادهر ان شئت فصل حبلي او شئت اصرم
وان تشا لِنْ واستقم وان تشا جُرْ واظلم
فما اباليك ولا القائل كالمستعصم
اني من ابن كامل ذي الباس والتكرم
في ظل سيف مرهف وقاتل منسجم
وعزة قد خيمت بين السهى والمرزم
قد رفعت من الثرى الى الثريا قدمي
فالنجم لي مجالس كانه من حرم
والسعد لي مساعد كانه من خدم
هو الذي لو امه كل الورى لم يسام
ولو سخى بنفسه لسائل لم يندم
علمني الجود بما قلدني من انعم

فرحت والدينار في | يدي مثل الدرهم
فان غدوت مادحا | لغيره من عدم
فجائز ضرورة | على حدود الحرم
كالماء ان عدمته | صليت بالتيمم
لاجعلن ما حييـ | ـت ذكره شغل فمي
وان امت فشكره | في القبر شغل اعظمي
لا زال طول عمره | مويدا بالعصم
مستمسكا من سعده | بعروة لم تنفصم
ربوعه ماهولة | بسابغات النعم
وسمره محمرة | من العداة بالدم
ما اومضت بوارق | في جنح ليل مظلم
وما شدت حمائم | على فروع السلم

قال التجاني ومما ينسب الى سوسة هذه شيخ شيوخنا ابو عبد الله محمد ابن عبد الجبار الرعيني السوسي قديم المولد كان يسمى ملحق الاباء بالابناء لطول امده وقدم مولده توفي بتونس في الثاني والعشرين لذي القعدة سنة اثنتين وستين وستمائة وكان مولده سنة سبع وستين وخمسمائة وكان له اخ شاعر توجه الى المشرق فمات بالموصل سنة اثنتين وعشرين وستمائة وانشد له ابن سعيد في خزانة الاداب —

عكفنا على الكاس في جنة | تحاكي بها ميل اغصانها
ورسل النسيم بها سحرة | تحوش ما بين ريحانها
اظن تغاريد الحانها | زهتها فاصغت بآذانها

ولابي عبد الله شعر حسن والموجود منه قليل ومنه قوله من بداية قصيدة يمدح بها الشيخ ابا محمد عبد الله بن الشيخ المقدس ابي محمد عبد الواحد ابن ابي حفص —

وجردت عزمك صارما مسلولا | ماء ولكن ما يبل غليلا

وقوله

وقوله يخاطب بعض الروسا وقد قدم له فوسا اشهب حديدي لركوبه —

اركب باقبال السعادة اشهبا   مثل الصباح اذا يشوب الغيهبا

ما شاب من مر السنين وانما   لاقى سناك فراح يحكي الاشيبا

قد الجموه بالثريا فانثنى   ينقض في ليل العجاجة كوكبا

وكان يداعب طلبته من اهل تونس بسوالهم عن قول الشاعر —

لا تلمني على الدناءة اني   تونسي وجزت يوما بسوسة

اي البلدين يقتضي الشعر ان يكون اعظم دناءة فيقولون له سوسة وهذا البيت ذكره جعفر بن شرف في تاريخه . قال التجاني كما انشدته وسمعت كثيرا من مشايخنا يقولون انه مغير وان البيت المشهور انما هو غير ذلك مما اضربنا عن ذكره . قال التجاني ونختم هذا الفصل من ذكر سوسة وشعرائها بحكاية ذكرها الحميدي في تاريخه قال اخبرنا بعض اصحابنا بالاندلس عن سليمان بن محمد المهدي الصقلي قال كان بسوسة افريقية رجل اديب شاعر وكان يهوى غلاما جميلا من غلمانها وكان الغلام يتجنى عليه ويعرض عنه قال فبينما هو ذات ليلة يشرب وحده على ما اخبر عن نفسه وقد غلب عليه السكر اذ خطر بباله ان ياخذ قبس نار ويحرق عليه داره لتجنيه عليه فقام من حينه وفعل ذلك واتفق ان رءاه بعض الجيران فبادروا النار بالاطفاء ولما اصبحوا نهضوا الى القاضي فاعلموه فاحضره القاضي وسأله عما فعل فانشا يقول —

لما تمادى على بعادي   واضرم النار في فوادي

ولم اجد من هواه بدا   ولا معينا على السهاد

حملت نفسي على وقوفي   ببابه حملة الجواد

فطار من بعض نار قلبي   اقل في الوصف من زناد

فاحرق الباب دون علمي   ولم يكن ذاك عن مرادي

قال فاستظرفه القاضي وتحمل عنه ما افسده واخذ عليه ان لا يعود وخلى سبيله قال الحميدي كنت اظن ان هذا المعنى مما تفرد به هذا الشاعر حتى

حدثني ابو اسحاق ابراهيم بن سعيد بالفسطاط قال لنا القاضي ابو الحسن بن صخر اخبرني بعض شيوخ البصريين ان ابا القاسم نصر بن احمد الخبزوري الشاعر دخل على ابي الحسن بن المثنى في اثر حريق المربد فقال له هل قلت في هذا شيئا فقال ما قلت شيئا فقال اويحسن بك وانت شاعر البصرة والمربد اجل شوارعها واعظم اسواقها ولا تقول فيه شيئا فقال ما قلت شيئا ولكني اقول الان وانشد مرتجلا ـ

اتتكم شهود الهوى تشهد   فما تستطيعون ان تجحدوا
فيا مربديون ناشدتكم   على انني منكم مكمد
جرى نفسي صاعدا نحوكم   فمن اجل ذا احترق المربد
ولولا دموع جرت لم يكن   حريقكم ابدا يخمد
وهاجت رياح حنيني لكم   فظلت بها ناركم توقد

قال الحميدي فاق بالمعنى وزيادة وذكر هذه الحكاية ابن بشكوال في الصلة ناقلا لها عن الحميدي • وقبل ارض سوسة ارض دلاج وقبلة ارض دلاج ارض حكيم وطرود وقبلتها بلدة تعرف بزرمدين بفتح الزاي وسكون الراء وكسر الدال المهملة هكذا ضبطه التجاني وبها حصن حصين اسفله حجارة واعلاه طين ياوي اليه اهلها و بخارجها مقبرة الشيخ ابي محمد السيد الزرمديني من اهلها يذكر عنه صلاح وفضل وبقربها بلد جمال وبنواحي تلك البقاع قصور عديدة وقرى متفرقة قد اخلتها العرب واجلت ناسها وهنالك قصر الوردانيين وهي القرية التي ازمع اهلها على قتل الشيخ الصالح ابي يوسف الدهماني رحمه الله ايام سكناه بمسجد غانم على قرب منهم واتفقوا مع بعض العرب فظهرت له معهم الكرامة المشهورة ولقيه العربي فخرّ عن فرسه لاثما قدمي الشيخ طالبا منه الدعاء وعرفه بالقضية وسال منه ان يركب فرسه فاسعفه بذلك وقال له يا بني علم الله ضعفي وقلة قدرتي على المشي فاتاني بك وتاب العربي وحسنت حالته • وينسب الى الوردانيين هذه ابو محمد يونس بن محمد الورداني كان صالحا جليل القدر ثبتا في روايته اخذ

العلم

العلم عن سحنون بن سعيد وصحح عليه جميع نسبه ودعى الله ان يخمل ذكره
فكان لا يولد له . ولما دخل عبيد الله الشيعي افريقية وغلب التشيع على
اهلها جمع ابو محمد هذا اهله وقال لهم ان امر هولاء القوم قد اشتهر فاما
ان تتركوني افر بديني الى بلاد لا حكم لهم عليها واما ان احمل نفسي
على الاشتغال برعي البقر لعلي اسلم من فتنتهم فعظم ذلك عليهم ثم راوا ان
رعي البقر خير لهم من مفارقته فاجابوه الى ذلك فكان يحمل مصحفه معه
و يبعد عن العمران و يقبل على القراءة فاذا جن الليل اقبل بالبقر الى منزله
وربما اراد بعض الناس زيارته فاذا رءاهم من بعد صاح وهرول يريهم ان في
عقله اختبالا توفي سنة تسع وتسعين ومائتين . وقبلته بنحو مرحلة الحصن
المعروف بالجم وهو اعظم حصون افريقية واشهرها على القدم وليس بافريقية
بعد الحناية التي بقرطاجنة بناء اضخم منه ولا اعجب وشكله مستدير
وارتفاعه في الهوي مائة ذراع وذكر البكري ان تكسير دائرته في الارض
ميل و يقال ان الكاهنة المتقدم ذكرها المعروفة بكاهنة لواتة حصرها عدوها
في هذا الحصن فحفرت منه سربا في الحجر الصلد نفذت به الى مدينة
سلقطة وكانت اختها هنالك فكان الطعام يجاء به اليها في ذلك السرب
على ظهور الدواب وتمام خبر الكاهنة واسمها ياتي في الفصل الرابع من
الباب الثالث في فتح افريقية . وقد قاتل هذا الحصن يحيى بن اسحاق
الميورقي فاعياه وارتحل عنه خائبا و يذكر انهم رموه منه بعد الحصر الطويل
بالسمك حيا وانهم جلبوه من ذلك النفق النافذ الى سلقطة فحينئذ ايس
منهم وارتحل عنهم . والى جانب هذا الحصن قرية عامرة بها جنات
ومزارعات متسعة ومسجد جامع واسواق نافقة يسكنها قوم من البربر كانوا
قبل ساكنين بقصر مليتة من ارض زوارة فاجلتهم العرب منه فسكنوا بهذه
الارض . و بتمام ارض حكيم وطرود مبدا ارض اخوتهم حصن ومن مفارقة
ارض الجم يدخل السائر في الزيتون القديم المتصل المعروف بزيتون الساحل
وقد ذهب اكثره بفساد العرب وتغيرت اسطره بعد استوائها فانه كان مغروسا

على حالة حسنة معلومة واسطر متناسبة منظومة فابطل الافساد اكثر ذلك وعلى هذا الزيتون كان مدار غلات افريقية في القديم · وقد روي ان ابن ابي سرح لما افتتح افريقية وقتل ملكها وجد اكثر اموالهم الذهب والفضة فغنم منها ملء ايدي جنده وسالهم انى لكم هذا فجعل احدهم يلتمس شيئا في الارض حتى اتاه بنواة زيتون فقال له من هذا اصبنا هذه الاموال · قال الرشاطي في كتابه المسمى باقتباس الانوار وانما سمي هذا الموضع الساحل وليس بساحل بحر لكثرة ما فيه من سواد الزيتون والشجر والكرم قال وهو كله قرى متصلة البعض بالبعض · وذكر من المنسوبين اليه من العلماء اسرائيل بن روح الساحلي واخبر انه لقي الامام مالكا رضي الله عنه وحدث عنه قال ابو بكر احمد بن علي بن ثابت الخطيب اخبرنا ابو الفرج احمد ابن علي قال حدثنا احمد الواعظ قال حدثنا عبد الله بن احمد بن زياد قال حدثنا اسماعيل بن حصن قال حدثنا اسرائيل بن روح الساحلي قال سالت مالك بن انس فقلت يا ابا عبد الله ما تقول في اتيان النساء في ادبارهن فقال اما انتم قوم عرب هل يكون الحرث إلّا في موضع الزرع اما تسمعون الله تعالى يقول ـ نساؤكم حرث لكم فاتوا حرثكم انى شئتم ـ قائمة وقاعدة وعلى جنبها ولا تعدوا الفرج فقلت يا ابا عبد الله انهم يقولون انك تخبر بذلك فقال يكذبون علي وكررها ثلاثا · ويتصل بهذه الغابة منزلة تعرف بام الاصابع لدى قصر قد شيد في سالف الزمن بنيانه واحكم تاسيسه واتقانه وجعلت ابراجا مستديرة اركانه إلّا ان طول الزمان المتباعد قوض احد تلك الاركان من القواعد وهذه البناءات التي وصلوها به من بعد ليتداركوا بها ما انهدم لا مناسبة بينها وبين ما كان وبتلك الابراج المستديرة به سمي ام الاصابع لانها بقيت لارتفاعها عما اتصل بها من البنيان كانها اصابع قائمة وقريب منها قرية صغيرة ذات قصور مرتفعة مفترقة تعرف ببرشانة وقريب منها قصر زياد على ساحل البحر وهو قصر حصين في اهله نجدة موصوفة بالشجاعة · قال اللبيدي في اخبار الشيخ ابي اسحاق الجبنياني

نفعنا

نفعنا الله به وكان قصر زياد يسمى دار مالك لكثرة من به من اهل العلم
في ذلك الزمان وبين هذا القصر وصفاقس جزيرة قرقنة وهي جزيرة قوية
العمارة شهيرة الذكر من القديم قال التجاني والنصارى في وقتنا هذا وكانت
سنة ست وسبعمائة متغلبون عليها متحكمون في اهلها ليس لها سور ولا
دور وانما سكنى اهلها في اخصاص يجعل كل واحد منهم في ارضه ما احب
منها وفي الجهة الغربية منها كهوف يتحصنون بها وطول هذه الجزيرة ستة
عشر ميلا وعرضها ثلث ذلك . وقد مر بقريب ذكر قصر الجم ولما وصل
القلم الى هنا اتصلت بقطعة معربة ممن له وثيق خبرة باللسان الاسبنيولي
عن ما قيده القسيس الذي ورد لتونس وانشا المارستان لمرضى النصارى
شرقي جامع ترشيش داخل باب البحر وكان ذلك المكان به حمام وبازائه
حانات خمر وملخص تقييده ان هذا القصر جعل للملاهي والتنزهات في
اعياد النصارى وهو في ارض مرتفعة قليلا يظهر بنيانه للناظر من بعد على
هيئة بيضة إلّا ان فيه قليل انحراف ولا يتبين ذلك الانحراف بديهة
إلّا بعد التامل دوره الف قدم واربعمائة قدم وارتفاعه مائتان وخمسون
شبرا به اربعة ادوار في كل دور ثمانون طاقة ما بين الطاقة والطاقة
نصف سارية براسها وكل طاقة ارتفاعها خمسة عشر شبرا وعرض كل
سارية ثلاثة اشبار وطولها ثلاثون شبرا ثم الدور الاول ارتفاعه اربعون شبرا
والدور الثاني ارتفاعه اربعة وثلاثون شبرا والدور الثالث ارتفاعه عشرون
شبرا والدور الرابع ارتفاعه خمسة عشر شبرا بنيانه كله بالحجر المنحوت من
مقطع الحجر الذي قرب المهدية وقدر الحجارة المبني بها من سبعة اشبار
الى ما دون ذلك في وسطه رحبة متسعة وفي وسط الرحبة بئر وفيها ست
طبقات دواميس وعليها الادراج كلها والدواميس الاولى تنفتح عن خمسة عشر
شبرا عرضا وعليها دربوز دائر بالقصر المذكور وبه ضوء كثير لكثرة ما به
من الطاقات وفي الدور الثالث من الدواميس المذكورة درج للطلوع الى ما
فوق ودرج للنزول الى ما تحتها وفي الدور الثالث دربوز ايضا وفي الرابع

درج اخرى للطلوع والنزول وفي الدور الخامس دربوز ايضا وفي السادس درج ايضا للطلوع والنزول كما في ما قبله والدربوز الاول فيه ثلاثة ادوار دواميس ثلاث طبقات بعضها فوق بعض وفي الثاني اقل مما تحته وهلم جرا الى التمام والدرج التي به كل درجة مساحتها ثلاثة اشبار طولا وعرضا إلّا ان العرض اقل بيسير وله بابان للدخول فيه والخروج منه • وفي زماننا هذا انهدم منه بعض النواحي وكان غالبها عن اذن محمد باي ابن مراد باي لما كان يلجا اليه ارباب الفساد من العربان وما مر احد بتلك النواحي إلّا انتهبوه فامر لاجل ذلك بثلمه وبعضه اخنى عليه القدم وكساه حلية الهرم وفي الجهة القبلية منه بعض انصداع وخشوع وايماء للركوع وسبحان من تنزه عن الاخرية والفرجة التي انهدمت منه عرضها في مقدار ستة وثلاثين شبرا عرضا وفرجة اخرى من ناحية الجبل اقل من الاولى ورفعت تلك الاحجار من محالها وكان من جملتها الحجر المكتوب فيه تاريخ البناء الاول والحامل على ابتكار الجم على ما حدث به القسيس المذكور قال كان ملوك النصارى ومعظم توابعهم يجتمعون في الادوار المذكورة ويخرجون الاسود والنمور وغرائب الحيوانات تصدر منهم عجائب المواخذة والافتراس السبعي بحيث يتمتعون بالنظر وهم في امان من تعديهم عليهم ويجتمع خارج القصر من ارباب الملاهي والصنائع الغريبة وانواع المصارعة والمسابقة والرمي ويحصل لهم بذلك الحظ الوافر وذلك دابهم • ومن البلدان المشهورة صفاقس قال التجاني دخلتها فرايت مدينة حاضرة ذات سورين يمشي الراكب بينهما ويضرب البحر في الخارج منهما وكان بها قبل غابة زيتون ملاصقة لسورها فافسدتها العرب فليس بخارجها الان شجرة قائمة وفواكهها مجلوبة من قابس وماوها شراب لا يستساغ وانما يعتمدون في شرابهم على ما يدخرونه من مياه الامطار ويصطاد بها من السمك انواع تفوت الاحصاء وببحرها يوجد صوف البحر الذي يعمل منه الثياب الرفيعة الملوكية وربما وجد في بحرها صدف يشتمل على لولو صغير الحب ومرساها مرسى حسنة مينة الماء

والماء

والماء يمد بها ويجزر عنها كل يوم فاذا جزر استوت السفن على الحماة واذا مد عامت وفي هذا المد والجزر يقول بعض المجيدين من شعرائها وهو علي ابن حبيب التنوخي وسياتي ذكره بعد هذا ان شاء الله تعالى ـ

سقيا لارض صفاقس ذات المصانع والمصلى

يحمي القصير الى الخليـ ـج بقصرها السامي المعلى

بلد يكاد يقول حيـ ـن تزوره اهلا وسهلا

وكانه والبحر يجـ ـزر تارة عنه ويملا

صب يريد زيادة فاذا راى الرقباء ولى

واين هذا من قول ابي عبد الله محمد ابن الشيخ الصالح ابي تميم المعز بن سليمان يذمها ويخيل ان هذا الجزر هروب من البحر عنها لقبحها وقد كان ولي اشرافها سنة خمس وستين وستمائة ـ

صفاقس لا صفى عيش لساكنها ولا سقى ارضها غيث اذا انسكبا

ناهيك من بلدة من حل ساحتها عانى بها العاديين الروم والعربا

كم ظل في البر مسلوبا بضاعته وبات في البحر يشكو الاسر والعطبا

وليتها فتولتني الهموم وقد لقيت من سفري في ارضها نصبا

قد عاين البحر قبحا في جوانبها فكلما هم ان يدنو لها هربا

قال في عقد الجمان في باب السين ما نصه : سفاقس بفتح السين والفاء وبعد الالف قاف مضمومة وفي آخرها سين مهملة ذكرها الرشاطي في باب السين المهملة وذكرها غيره في باب الصاد وهي مدينة شرقي المهدية مائلة الى الجنوب وهي صغيرة ولها سور وءابار يشربون منها ولها بساتين يسيرة وهي في مستوى من الارض والجبل جنوبيها بينها وبين قفصة مرحلتان ويسمى ذلك الجبل جبل السبع . قال الذرعي وصفاقس حصن مسور في ارض قفراء جدبة يابسة بيضاء لا نبات فيها وقبالتهم في البحر جزيرة قريبة فيها رياضهم واشجارهم وثمارهم ونخيلهم يقطعون اليها بالصنادل في بحر قصير لا تجري به السفن الكبار وذلك من الاسباب التي منع الله بها

صفاقس وجربة من النصارى دمرهم الله . وبها جامع حسن ذكر اللبيدي
في اخبار الشيخ ابي اسحاق الجبنياني رحمه الله تعالى ان علي بن سالم
جد الشيخ ابي اسحاق هو الذي بناه وكان سحنون اولاه قضاء صفاقس
وهو ولده من الرضاعة ارضعته زوجه ام محمد بن سحنون مع محمد قال وهو
الذي بنى ايضا سور صفاقس بالطوب وبنى المحرس المعروف في القديم
بمحرس علي وعرف بعد بالمحرس الجديد . قال التجاني وقد شاع في
الناس تسمية صفاقس بلعنة الله وبلغ الامر في ذلك الى ان بعض الملوك
قال لبعض من راجعه الكلام اذهب الى لعنة الله فاخذ في الارتحال الى
صفاقس وكانت ولاتها في القديم تتردد عليها من قبل صنهاجة الى ان ولى
المعز بن باديس عليها منصور البرغواطي وكان من الفرسان المعروفين
بالاقدام فاراد ان يثور بها واخذ في مخالفة العرب فعاجله ابن عمه حمو
ابن مليل وقتله غدرا في الحمام وذلك سنة احدى وخمسين واربعمائة ولما
قتله وصل خلفاء منصور من العرب فحصروا حمو بصفاقس فبعث اليهم
يسالهم هل قصدهم الاخذ بثار ابن عمه منه او المال فقالوا نحن لا ندخل
بينكم في الدماء وانما غرضنا الاموال فالتزم لهم بالمال ما رضوا به وعجل لهم
ما تيسر وانفصلوا وكان حمو بصفاقس واظهر العناد على بني مناد ومات المعز
ابن باديس سنة اربع وخمسين وولي تميم ولده فطمع حمو في تمام الاستبداد
والتغلب على غير صفاقس من البلاد فحالف جماعة من العرب عديا والاثبج
ومن ضامهم وزحف بهم وبمن معه من رجاله الى بعض القرى فملكها
واستحوذ عليها ثم نهض الى المهدية يريد حصرها فنهض تميم للقائه فولت
فئة حمو ادبارها واسرعت فرارها ورجع الى صفاقس ودام امر حمو بصفاقس
زمانا ثم وجه تميم ابنه يحيى لمحاصرته فحاصره اياما ثم رجع عنها . ويقال
ان يحيى احب الابقاء على حمو فلم يبالغ في حصاره وكان حمو يقول ان
هذا لعجب بالامس اخلص يحيى من القتل يشير الى حكاية ذكرها ابو
الصلت وغيره من المورخين قال كان فلان التركي هاجر من المشرق الى تميم

في جماعة

في جماعة من اصحابه فاكرمه تميم ورتب له جراية فلم ترضه وبلغه
عن تميم ما اوحشه وكان داهية ذا مكر وخبث فخرج يوما في جماعة مع
يحيى بن تميم يتصيد فلما ابعدوا عن المدينة قبض التركي على يحيى وعلى
جماعته وتوجه به هاربا فافلت رجل ممن حضر فوصل يركض الى تميم
فاعلمه فاستعظم ذلك تميم وانفذ الخيل تطلبه ففات ولجا الى صفاقس
فاكرمهم حمو بن مليل وبالغ في امر يحيى وحبسه عنده ثم خاف ان يوليه
اهل صفاقس عليهم فاحب اخراجه من البلد فكتب الى ابيه يعرفه انه
ان بعث اموال الترك الهاربين واهلهم وجه اليه ابنه يحيى ففعل تميم
ذلك ووجه اليه ابنه يحيى فلما وصل يحيى الى تميم رده لحصار صفاقس
كما ذكرنا فرجع عنها ولم يفتحها . فلما كان سنة ثلاث وتسعين توجه اليها
تميم بنفسه فافتتحها وفر حمو منها فاستجار بمكن بن كامل الرياحي بقابس
وكان لحمو بن مليل ايام ملكه لصفاقس كاتب يعرف بمظفر بن علي مشهور
بالبلاغة وحسن الكتابة وكان يكتب عن حمو الى تميم ما يغيظه ويبلغ منه
كل مبلغ فلما فر حمو الى قابس لم يشعر تميم الّا ومظفر قائم بين يديه
يطلب العفو فعفا عنه تميم على شدة حقده عليه . قال ابو الصلت ومثل
هذا الذنب لا تغتفره الملوك بل يجاوز فيه التثريب الى التعذيب ويتعدى
العقاب الى ضرب الرقاب . وذكر ابو الصلت جملة مما تمثل به مظفر
في الكتب عن مخدومه الى تميم قال امكنت حمو فرصة في طائفة من جند
تميم فقتلهم بصفاقس وكتب مظفر في ذلك الى تميم متمثلا بقول ابي الطيب

فان كان اعجبكم عامكم فعودوا الى مصر في القابل
فان الحسام الخضيب الذي قتلتم به في يد القاتل

قال وتحدث مرة بالمهدية بموت حمو وبلغه ذلك فامر مظفرا ان يكتب
الى تميم في هذا المعنى فكتب اليه متمثلا بقول ابي الطيب ايضا ـ

كم قد دفنت وكم اقبرت عندكم ثم انتفضت فزال القبر والكفن
ما كل ما يتمنى المرء يدركه تجري الرياح بما لا تشتهي السفن

وكتب اليه تميم يوعده ويهدده ويتمثل فيه بقول الشاعر —

ستعلم ليلى اي دين تداينت وأي غريم للتقاضي غريمها

فراجعه عنه مظفر متمثلا بقول قيس بن الذريح —

ستعلم ان شطت به غربة النوى وزالوا بليلى ان عقلك زائل

وفي رواية ان مظفرا تمثل له في مراجعته عن هذا الكتب بقول جرير —

زعم الفرزدق ان سيقتل مربعا ابشر بطول سلامة يا مربع

وكتب اليه في اثر وقيعة كانت له عليه كتاب ايناس والطاف فراجعه متمثلا بقول عبد الله بن محمد العطار —

لا تظنن امرءًا اغضبه سبب ثم انقضى ذاك السبب

سالم الصدر من الحقد ولو اظهر الود ولم يبد الغضب

كرماد النار يبقى حرها كامنا فيه وان زال اللهب

ولما افتتح تميم صفاقس كانت ولاتها تتردد من قبله الى ان توفي سنة احدى وخمسمائة وولي ابنه يحيى فولى عليها ابنه ابا الفتوح فقام عليه اهلها ونهبوا قصره وارادوا قتله فغضب يحيى لذلك واخذ في تفريق كلمة اهل صفاقس وتشتيت شملهم ولم يزل يوالي عليهم البوس ويملا منهم المحبوس الى ان شفى نفسه منهم ثم عفا عنهم بعد ذلك وفي الواقعة يقول ابو الصلت يذكرها ويشكر ليحيى عفوه عنهم من قصيدة طويلة —

ورب اناس اججوا نار فتنة يجنبها الاتقى ويصلى بها الاشقى

وجر عليهم جهلهم حلم مالك يرق ويحنو كلما ملك الرقا

ولو شاء روى السيف منهم فطالما نصاه فسقاه من الدم ما استسقى

ولكن دعاه الحلم والفضل والحجى الى ان يكون الاحلم الاكرم الاتقى

سجية مجبول السجايا على الهدى اذا غضب استانى وان ملك استبقى

واول هذه القصيدة —

قضى الله ان تفنى عداك وان تبقى وتخلد حتى تملك الغرب والشرقا

قال ابو الصلت انشدت يحيى هذه القصيدة وخاصته بين يديه وعبد العزيز

العزيز بن عمار في الجملة وكان في هذه الصناعة ابصر الجماعة فقال له يحيى كيف ترى ما سمعت فقال حسن الحوك محكم السرد فقال اتعرف قائله قال لا قال هو ذلك الجالس يشير الي فعلاه فتور ونفور عن الاستماع بحسب ما يعرض من العوام الرعاع عندما ينشدون لمن جمعهم واياه مكان وزمان وان كان في اول جريرة ذوي الاحسان وانما عنوا بامتداح القديم وتعظيم العظم الرميم وسبب ذلك الحسد فكثيرا ما يعيد الصواب محالا والقوام اعوجاجا والعذب ملحا اجاجا . ثم ولى يحيى على صفاقس ابنه عليا وهو ولي عهده فلما كانت سنة تسع وخمسمائة توفي يحيى وعلي بصفاقس فوصل واستبد بالملك وكان يبعث الولاة لصفاقس الى ان توفي وولي ابنه الحسن فوقعت الوحشة بينه وبين روجار فوجه روجار اساطيله لحصار المهدية وكان من تغلبه عليها وخروج الحسن منها ما ياتي ذكره مستوفيا بعد هذا ان شاء الله تعالى . فلما تملك المهدية واستقر عامله بها وذلك في سنة ثلاث واربعين انفذ منها اسطولا لمدينة صفاقس فملكها وامن اهلها وقد اسكن بها جماعة من النصارى الذين افتتحها بهم وحصل منها رهائن منهم شيخ البلد وصالحه ابو الحسن الفرياني وبقي ولده عمر بن ابي الحسن متصرفا في اعمال البلد وكان ذا اقدام وشهامة ولما ودعه ابوه قال له - يا بني اني قد كبرت واشرفت على الموت وقد صدقت نفسي على المسلمين فان امكنتك الفرصة في هولاء النصارى الذين عندك فاغتنمها ودعني اقتل . فلما كانت سنة احدى وخمسين وخمسمائة امتثل ابو علي وصية ابيه وثار على من بصفاقس من النصارى فقتلوا قتلا ذريعا فبلغ ذلك طاغية صقلية غليلم بن روجار فقيد الشيخ ابا الحسن وسجنه وارسل الى ابنه عمر يهدده بقتل ابيه ان لم يرجع الى الطاعة . قال الرسول - فوصلت الى صفاقس فلم امكن من النزول الى البر ولما كان من الغد سمعت في البلد ضجة ثم فتح باب البحر وخرج الناس يكبرون ويهللون ومعهم نعش قد رفعوه على رؤوسهم فحطوه ثم تقدم عمر فصلى بهم ودفنوه وعزاه الناس وانفصلوا - قال - فاستدعيت الجواب فقيل لي

ان الشيخ مشغول بالعزاء في والده الذي بصقلية والنعش الذي رايت نعشه وقد عزم على موته والسلو عنه ولا لك جواب الّا ما رايت . فلما بلغ ذلك طاغية صقلية امر بالشيخ ابي الحسن فسحب الى المشنقة بوادي عباس فشنق وهو يتلو كلام الله الى ان فاضت نفسه رحمه الله تعالى وكان انتقاض صفاقس على النصارى سببا في انتقاض سائر بلاد السواحل وزوالها من ايديهم . واقام عمر يدبر امر البلد الى ان نزل الخليفة عبد المومن بن علي الى افريقية لحصار المهدية فوصل اليها عمر المذكور مع جماعة من اشياخ صفاقس فاذعنوا له بالطاعة وعين لهم عبد المومن حافظا من الموحدين وامر عمر بالرجوع الى بلده وان تكون الاشغال المخزنية تتصرف على يده . فاقام على ذلك الى ان توفي وخلفه في ذلك ولده عبد الرحمن بن عمر وقام مقامه فوصل الميورقي الى صفاقس واستولى عليها فرغب اليه عبد الرحمن ان يسرحه الى الحج فارتحل باهله ولم يعد وبقي بعض ولده بصفاقس وذريتهم بها ومنهم من له شعر وسياتي ذكر ما امكن منهم ان شاء الله تعالى . وممن ذكر ابن رشيق في الانموذج من شعراء صفاقس علي بن حبيب التنوخي قال موطنه صفاقس وبها نشا وهو شاعر عذب اللفظ لطيف المعنى سهل الطريقة قليل التكلف رحل الى المشرق ولقي جماعة من روساء العرب فحظي عندهم واقام بمدينة لك هذه الى ان تشاجرت القبائل على يديه ونجا بشعره من شر عظيم قال وانشدني لنفسه في غلام جاء في طلبه الى الحضرة بعد ان امتكن عليه ـ

يامعطشي من عذب مورده　　برد غليل جوانحي العطشى
اترى الذي ارجو افوز به　　منكم فقد كان الذي اخشى
ولقد شخصت اليك من بلد　　قد اظلمت ارجاوه وحشـا
وتنكرت للعين بهجته　　منذ ارتحلت كانني اعشى
والله ما من ساعة عبرت　　الّا علي لذكركم يغشى

قـال ومن جيد كلامه قوله من قصيدة ـ

يا ليالي في ذرى ابن حسين　　هل معاد قبل الممات اليـا

قد نشرنا

قد نشرنا صحائف الحزن نشرا   وطوينا العزاء بعدك طيا
واطلنا البكا عليك واني   لعليم ان ليس يرجع شيا
فالى الله من فراق رماني   عنك بعد الدنو مرمى قصيا
ولكم قد حذرت منه ولكن   كان امرا مقدرا مقضيا

قال وفوق النهاية من شعره قوله في الوعظ والزهد —

للمرء في ايامه واعظ   لو فكر المغرور في امسه
كم من قرير العين في غبطة   اعراه صرف الدهر عن لبسه
ففارق الاحباب عن كرهة   واستبدل الوحشة من انسه
يا رب غفرانك يرجو الذي   اسرف في الدنيا على نفسه

ومنهم مطر بن تميم الفزاري قال ابن رشيق موطنه صفاقس وهو شاعر حسن الطريقة في الشعر وانشد له —

يا من عذيري من شوقي وتسهيدي   ومن معيني على نوحي وتعديدي
تطاول الليل واشتدت غرائبه   وصح لي ورد عين غير مورودي
لا اطمع الغمض الا ان يطيف به   طيف ويذهب مفقودا بمفقودي

قال هذا من حر الكلام ونفيسه وفي هذه القصيدة يقول —

وما استقرت على بحر الهوى سفن   شطت بهم عن كئيب القلب معمود
استودع الله من ولى واودعني   شوقا اليه جديدا غير مجدود

قال قوله جديدا غير مجدود من غريب الشعر والمجدود هنا المحظوظ واو جعلته من الجد الذي هو القطع كانه قال غير مقطوع لكان جيدا والاول اشهر . ومن علماء صفاقس وشعرائها ولم يذكره ابن رشيق في الانموذج وهو من المعاصرين له ابو عمرو غسان بن ابي بكر بن حمودة الصدفي المعروف بابن الضابط الامام المحدث الشاعر له رحلة الى المشرق واخذ فيها عن جماعة يطول تعدادهم منهم الحافظ ابو نعيم صحبه باصبهان وكتب عنه كثيرا ذكر انه كتب عنه بخطه مائة الف حديث وكان يقول لم ار مثل ابي نعيم علما وعملا ثم توجه الى الاندلس سنة ست وثلاثين واربعمائة

ناقرا بها واخذ عنه علماوها واثنوا عليه وعاد منها الى القيروان فوجهه صاحبها الصنهاجي رسولا الى القسطنطينية فمات في طريقه اما واردا او صادرا وذلك بعد سنة اربع واربعين ذكره ابو عمر بن الحذاء في تسمية رجاله الذين التقى بهم فقال قدم علينا بطليطلة وسنه نحو الخمسين وكانت له رواية واسعة ومعه كتب كثيرة قد رواها بالعراق والشام والحجاز بمصر وتحول عندنا بالاندلس نحو عامين ثم انصرف الى القيروان وكان لي صديقا وتكررت كتبه الي من القيروان الى ان ارسله الصنهاجي الى القسطنطينية فبلغتنا وفاته وذكره الحميدي ايضا فقال كان حافظا عاقلا قرات عليه كثيرا وكتبت عنه وانشدني —

اذا ما عدوك يوما سما   الى حاجة لم تطق نقصها

فقبل ولا تانفن كفه   اذا انت لم تستطع عضها

وذكره ابو القاسم بن بشكوال في الصلة واثنى عليه واخبر عنه انه قال بعث الي شعراء القيروان حين مقامي بها منهم ابن رشيق وابن شرف وابن حجاج والعطار يسالونني ان ارسل اليهم بشعري فقلت للرسول انه في مسوداته فقال احمله كما هو فاخذته وكتبت عليه ارتجالا ثم بعثت به —

خطبت بناتي فارسلتهن   اليك عواطل من كل زينه

لتعلم أنّيَ ممن يجود   بمحض الوداد وليس ضنينه

قال فاجابوني عن بطء بهذه الابيات —

اتتنا بناتك يرفلن في   ثياب من الوشي يفتن زينه

فلما سفرن فضحن الشموس   وسرب الظبا واخجلن عينه

ولما نطقن سحرن العقول   وظل القرين ينادي قرينه

افي بابل نحن ام في العراق   وفوق البسيطة ام في سفينه

فدعني اراقب ضوء الجميع   لتسمع من كل صدح عيونه

وابو عمرو هذا اول من ادخل الى الاندلس كتاب غريب الحديث للخطابي وله جزء تضمن عوالي كتبها لابي محمد عبد الرحمن بن عتاب تعرف بعوالي

الصفاقسي

الصفاقسي . وبحصن صفاقس قبر الامام ابي الحسن علي بن محمد الربعي المعروف باللخمي وهو فقيه فاضل دين متقن ذو حظ من الادب والحديث حسن الخلق قيرواني نزل صفاقس وتفقه بابن محرز وابي اسحاق التونسي والسيوري وغيرهم وتفقه به جماعة منهم الامام ابو عبد الله المازري وابو الفضل النحوي والكلاعي وابو علي وعبد الحميد الصفاقسي وله تآليف حسنة مفيدة من احسنها تعليق على المدونة مفيد سماه التبصرة حاز رئاسة افريقية جملة وبعد صيته بها توفي سنة ثمان وسبعين واربعمائة رحمه الله ونفعنا به آمين . ومن منازل صفاقس الراجعة الى عملها المحتوية على من يذكر من الفضلاء جبنيانة التي منها الشيخ الصالح العالم ابو اسحاق ابراهيم بن احمد بن علي بن سالم وكان جده علي بن سالم قاضيا بصفاقس فلما مات تولى ابنه احمد خارج افريقية في ايام بني الاغلب فتورط معهم وكان من اهل الادب والفهم ثم ارتفعت حالة معهم الى ان كان مشاورا ووزيرا وكان اذا مشى مشى في عسكره وبين يديه ومن خلفه النجائب كما كان الوزراء يمشون اذ ذاك وكان له بصفاقس نيف واربعون دارا وربي الشيخ ابو اسحاق رحمه الله في مثل هذا الحال . قال التجاني اخبرني بذلك من رءاه وهو صبي وقد وكل بحفظه خمسة عشر صقليا يحفون به اذا مشى ثم ترك ذلك لله لما ناهز الحلم ولبس عباءة وفر عن والده ووالدته على تلك الحالة التي كانا عليها مع بني الاغلب . وكان ابو اسحاق يتطوف على من بالساحل من العلماء والصالحين فاذا علم ان اباه طلبه اخفى نفسه الى ان اختلفت الدولة وطلب ابوه في من طلب واخذت املاكه ومنازله وربوعه وامن في نفسه لزم الخير وقراءة العلم والقرءان ثم توجه الى الحج فحج ومات رحمه الله . واشتهر ابو اسحاق بالعلم والعبادة ولزم سكنى جبنيانة الى ان توفي بها رحمه الله وكانت وفاته في التاسع عشر للمحرم مفتتح سنة تسع وستين وثلاثمائة ودفن بشرقي جبنيانة . قال التجاني وزرت قبره ودعوت عنده واخباره رحمه الله مؤلفة مشهورة وولده ابو الطاهر كان صالحا

فاضلا وكان لابي الطاهر ولد يسمى عبد الله اديب شاعر ظريف ذكره ابن رشيق في الانموذج واخبر ان صفاقس موطنه وان بها منشاه قال وكانت له نباهة ونظافة في جميع احواله مع نزاهة نفس وبعد همة قال واجتمعت به في صفاقس فكنت اقطع الغربة بقربه ثم انفصلت الى الحضرة فلم يكن إلّا قليل حتى اجتاز علينا متوجها الى الاندلس فسالته عن سبب ذلك فاخبرني ان عليه دينا ثقيلا قد استغرق ذمته وانشدني لنفسه وهو يتمايل وكان متعلق النفس بجارية له ام ولد تركها بموضعه —

ساضرب في بــلاد الله بــرا وبحــرا بالسفــائن والــركاب
الى ان تنكر الاحباب مني ثــواءي بالمغارب واغترابي
لاكسب ثروة وافيد مالا وابلي عذر نفسي في الطلاب
فان نلت المراد فذاك حسبي وان احرم فاني ذو احتساب
وما فــارقت اخواني واهلي ومن احببت إلّا عن غــلاب

قــال وارتحل فاتصل بالحاجب الموفق مجاهد بن عبد الله فاكرمه وعظمه وادناه وقربه وكشف عنه فوجد فضلا وجلالة فاستمسك به وحسدوه على مكانه منه فوجد في منزله مذبوحا وسكين الاقلام بين يديه مغالطة كانه فعل ذلك بنفسه وبقية الروح فيه فسالوه من به فاشار الى فقيه الموضع وكان الفقيه المذكور كثير الملازمة له وتلك من ساعته فقال الفقيه انما اشار الي بالوصية فقيد وسجن الى ان جاء ولي الدم فطلبه فلم يتوجه له عليه حق فاطلقه وكانت وفاة عبد الله سنة خمس عشرة واربعمائة .

ومن منازل صفاقس ايضا قرية لبيد كذا تحققتها وسماها الرشاطي لبيدة ينسب اليهــا الفقيه الصالح ابو القــاسم عبد الرحمن بن محمد الحضرمي اللبيدي . قــال ابن شرف في صلته لتاريخ الرقيق كان بقية اهل العلم وله تصانيف في الفقه وبها الفتيا وذكر الرشاطي ان كتابه المسمى بالشرح والتفصيل لمسائل المدونة كتاب كبير قــال وتوفي قريبا من سنة ثلاثين واربعمائة وابن شرف قد نص في تاريخه على ان وفاته كانت سنــة

اربعين

اربعين وهو المولف لاخبار الشيخ ابي اسحاق الجبنياني التي نقل التجاني
منها ما تقدم وانشد لنفسه في كتابه المذكور شعرا ضعيفا وولده ابو بكر
ابن عبد الرحمن كانت له رئاسة وسعة حال وكان من اهل الادب والفهم
وله شعر حسن اخبر عنه ابن شرف في تاريخه • ومن شعراء صفاقس
ايضا ثم من الفريانيين وروسائها عبد الله بن عبد الرحمن بن علي الفرياني
مولده بمالقة من بلاد الاندلس وابوه هو المنتقل اليها من صفاقس له رحلة
ابعد النجعة فيها شرقا وغربا • قال التجاني اخبرنا عنه صاحبنا ابو العباس
احمد بن عبد السلام الاموي التاجوري وقد رءاه وجالسه بطرابلس كثيرا
وسمع منه بعض شعره وكان هجاءً ومن شعره حين ولي السعيد مراكش وكان
السعيد اسود اللون —

كان الخلائف قبل في مراكش   صورا من الكافور يعجب خالصه
فاتى علي بعدهم ختما لهم   كالمسك لونا ليس فيه خصائصه

وله في مثل ذلك —

اسفا على مراكش وولاتها   لم يبق للايام فيها رونق
كانوا حماما فالليالي لم تدع   في دارهم إلَّا غرابا ينعق

والم ابن الابار في التحفة بذكر جماعة من هجاء الشعراء فذكر اولهم ابا
محمد عبد الله بن عبد الرحمن الفرياني وكان باشبيلية ناظرا في المواريث
لابي سليمان داوود وانشد له بيتين في هجاء ابن زهر وهو غير الذي ذكرنا
وان توافقا في الاسم واسم الاب والنسب والصفة لبعد ما بينهما في الزمن
فان مولد الفرياني الذي ذكرناه سنة تسع وستمائة ولعله سنة وفاته •
و بقريب منها طينة قال التجاني بكسر الطاء وفتح النون وبعدها نقطة
بفتح النون وتشديد القاف وهما قصران ويقال ان جماعة من اصحاب
معروف الكرخي رحمه الله رابطوا بقصر نقطة هذا وماتوا به فقبروهم هنالك
و بعدهما المحرس وهو قصر قديم البناء سام للسماء ينسب بناوه لابن الاغلب
والى هذا الحصن يلجا جميع اهل تلك القصور اذا وصل اليهم عدو او اضطروا

الى قتال . ويقال ان الميورقي اجتاز عليه واراد محاصرته ففتح اهله باب الحصن ووقفوا دونه يقاتلون فعلم انه لا مطمع له فيه فتجاوزه الى غيره ولم يتعرض له واهله قوم من هوارة كانوا ساكنين قبل هذا بالقصور المعروفة بقصور بني خيار فاجاتهم العرب منها فانتقلوا الى هذا الحصن وكان مسجدا خاليا للعبادة والرباط فابتنوا ديارا الى جانبه وجعلوا على الجميع سورا . وقصور بني خيار قال التجاني مررت بها سنة ست وسبعمائة وهي خالية خربة في جبال مسلاتة من شرقي طرابلس . وبعد الحرس في اول المرحلة المورد المسمى بصعيب وهم يكرهون هذا الاسم فيكنونه بابي سهل . وفي منتهى ءاخر مرحلة طويلة منه قصور المباركة وهي كلها عامرة قال التجاني واهلها موصوفون بالبخل وهي منتهى ارض بني عوف وبعدها ارض بني دباب ابن ربيعة بن زغب بن جرو بن مالك بن خفاف بن امرء القيس بن بهية بن سليم بن منصور قال التجاني كذا تلقينا هذا النسب من علماء الاعراب المعلومين بحفظ الانساب وكذا ذكره الرشاطي في كتابه وهذه الارض لطائفة من الدبابيين يعرفون بالنوايل ينسبون الى نايل بن عامر بن جابر ابن فائد بالفاء ابن رافع بن دباب وهم اخوة لبني وشاح بن عامر وبني سنان بن عامر وبعدها قصر وذرف قصر متسع وحوله نخيلات وعيون ماء جارية وفي هذا الموضع يقول ابو عبد الله محمد بن محمد المزدوري الهنتاتي ايام اضطره الحال الى الخروج من تونس والسكنى بتلك الجهات على ما رواه عنه التجاني في رحلته قال انشدني —

هذي عيون وذرف ... دع العيون تذرف

بدلت من ارضي بها ... وا اسفي وا اسفي

ومنها بيسير تظهر قابس قال ابن الشباط بينها وبين القيروان اربع مراحل وقابس مدينة عظيمة على البحر المالح عامرة كثيرة الاشجار والعيون الجارية واهلها اخلاط من العرب والعجم والبربر ينسب اليها جماعة من العلماء منهم ابو الحسن علي بن محمد بن خلف القابسي الفقيه المالكي الزاهد

المشهور

المشهور كان قبل سنة اربعمائة كذا نقله من اختصار اقتباس الانوار . وقال البكري رحمه الله مدينة قابس مدينة جليلة مسورة بالصخر الجليل من بنيان الاول ذات حصن حصين وارباض واسواق وفنادق وجامع وحمامات كثيرة وقد احاط بجميعها خندق كبير يجرون اليه الماء عند الحاجة فيكون امنع شيء ولها ثلاثة ابواب ثم زيد لها باب رابع وشرقيها وقبليها ارباضها ويسكنها العرب والافارق وفيها جميع الثمار واللوز بها كثير وتمتاز على القيروان بكثرة الفواكه وبها التوت الكثير ويقوم من الشجرة الواحدة من الحرير ما لا يقوم من خمس شجرات من غيرها وحريرها اطيب الحرير وارقه واتصال بساتين ثمارها مقدار اربعة اميال ومياهها سائحة مطردة يسقى بها جميع اشجارها واصل هذا الماء من عين خرارة في جبل بين القبلة والمغرب منها يصب في بحرها وقصب السكر كثير بها . وبين ساحل قابس والبحر ثلاثة اميال قال ابن الشباط وانشدني والدي ابقى الله بركته علي وجعل رضاه نورا يسعى بين يدي هذه الابيات ولم يسم قائلها ــ

لئن كان من قبل التشرق مذهبي	سوى ما عليه الاشعريون اصفقوا
بان المسمى غير الاسم فها انا	اقول سواء حين جد التشرق
الم تر اني كلما قلت قابس	صبا قبس من جانب القلب يحرق
وان قلت ان الشمل منها ممزق	فان فوادي عند ذاك يمزق

قال ابن الشباط ناقلا عن مختصر الطبري ان معاوية بن ابي سفيان عزل معاوية بن حديج عن مصر سنة خمسين وولى مسلمة ابن مخلد مصر وافريقية وجمع له ولاية طرابلس وباب قابس وهو اول من جمع له المغرب ولم يزل واليا حتى هلك معاوية بن ابي سفيان رحمه الله . قال ابن الشباط قوله باب قابس يريد والله اعلم انه ولاه قابس واعمالها فانها الباب الذي يسلك منه من رام المسير من المغرب الى المشرق او من المشرق الى المغرب ليس له سلوك إلّا منها ولا عبور إلّا عليها فكانت كالباب الذي يدخل منه الى مكان ويخرج لاخر قال وهذا يوذن انها افتتحت

قبل ذلك وكان عبد الله بن سعد بن ابي سرح لما ارسله سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنهما سنة سبع وعشرين ومر على طرابلس واخذ منها مغنما كثيرا عظيما وكان معه عشرون الفا سار الى قابس فحاصرها فاشار عليه اصحابه بتركها وتاخير امرها فسار وبث السرايا حتى وصل الى افريقية وكان ملكها وطاغيتها يقال له جرجير فكان بين عبد الله وبينه مراسلة وخيره فيما بين الاسلام والجزية فامتنع من الاسلام وقال لو سالتموني درهما واحدا ما اعطيته فعزم عبد الله على قتاله فلما راى ذلك جرجير اشتد رعبه وارسل ديدبانا من خشب فصعد بحيث ينظره العسكر وامر بنشر السلاح وامر ابنته فصعدت الديدبان مع خدمها وكانوا خمسين خادما عليهن الحلي الرفيع والجوهر النفيس واسفرت ابنة جرجير عن وجهها واقسم ابوها بدينه لاهل عسكره لا يقتل احد منهم ابن ابي سرح إلّا زوجها اياه ويبلغه عنده من المنزلة ما لا يبلغه احد من قومه فما زال حتى انتهوا الى عسكر عبد الله وبلغه فقال عبد الله والذي جاء به محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يقتل احد منكم جرجيرا إلّا نفلته ابنته وخدمها ثم حمل بمن معه من المسلمين والتحمت الحرب وكان المسلمون في عشرين الفا والمشركون في مائة الف وعشرين الفا فضاق بالمسلمين امرهم واختلفوا على عبد الله بن ابي سرح في الراي فدخل فسطاطه ليخلو برايه ويفكر في امره قال عبد الله ابن الزبير فرايت من جرجير غرة والناس في مصافهم وذلك اني رايته على برذون خلف اصحابه منقطعا ومعه جاريتان تظللانه بريش الطواويس من الشمس فاتيت فسطاط عبد الله فاعلمته فخرج فراى ما رايت فقال ايها الناس انتدبوا مع ابن الزبير قال عبد الله فانتدبت الي طائفة وقلت احموا ظهري وانا اكفيكم امره ثم تسارع الى جرجير فهرب منه فادركه عبد الله وقتله وحمل المسلمون فقتلوا النصارى كيف شاءوا . اه من ابن الشباط .

قال التجاني دخلتها فرايت بلدا قد استوفى المحاسن واستغرقها . واذكر بمنظره الانضر وورقه الاخضر جنة الخلد واستبرقها . وقد احدقت غابته

من

من جميع جهاته وبهذه الغابة من الطلع الباسق • والنخيل المتناسق • ما يستوقف الطرف • ويستوفي الحسن والظرف • ويحق ما قيل ان قابس جنة الدنيا وانها دمشق الصغرى وهي مدينة بحرية صحراوية فان الصحراء متصلة بها والبحر على ثلاثة اميال منها فهي احق بقول ابن عيينة —

زر وادي القصر نعم القصر والوادي　وحبذا اهله من حاضر بادي

ترفو قراقره والعيس واقفة　والضب والنون والفلاح والحادي

وبقول الخليل بن احمد —

يا جنة فاقت الجنان فما　لعلقها قيمة ولا ثمن

ظاهر حيتانها الضباب بها　فهذه جنة وذا حمن

من سفن كالنعام مقبلة　ومن نعام كانها سفن

ويقال انه لا يجتمع صيد البر وصيد البحر واصناف التمر في مائدة الا في مائدة من يسكن قابس وعلى قابس سور صخر جليل من بناء الاول ولها ارباض واسعة وجل اسواقها في ارباضها وقد دار بسورها خندق متسع يجرون الماء اليه اذا خافوا من نزول عدو عليهم فيكون امنع شيء لها ولها وادي يسقي بساتينها ومزارعها ويخترق في مواضع كثيرة من مواضع الغابة ودورها وشوارعها واصل هذا الوادي من عين خرارة في جبل بين القبلة والمغرب منها واكثر جناتها فيما بين المدينة والبحر وبتلك الجهة الساحة المعروفة بساحة عنبر قال التجاني وانشدني الفقيه الكاتب البليغ ابو الفضل محمد بن علي التجاني لنفسه يصف احدى عشاياه بتلك الجهة في تلك الساحة وما اقتصه بها من الانس والراحة —

اذكر عشيتنا بساحة عنبر　والجو يتحفنا بنكهة عنبر

حيث النخيل عرائس نسج الحيا　بسطا لها من اخضر او اصفر

والشمس تستحيي فتستر وجهها　عنا بستر للعروس محبر

والنور بين مفضض ومذهب　والنون بين مدرهم ومدنر

والنهر والغدر الزرق تحصنا　اذ صفت الغابات صف معسكر

والبحر يرمقنا بمقلة ازرق ... والبر يرمقنا بمقلة اعفر
في جنة لو نلت من خلد بها ... قصدي بلغت الى النعيم الاكبر
ومحل انس قلت بين رياضه ... برياضة قادت لابهى منظر
ملنا بمنعرج المصلى نحوه ... حذر الرقيب وليلة لم نحذر
وجرى لنا فيه حديث كله ... لطف حضرنا منه اطيب محضر
نجري احاديث الصبابة والصبا ... بارق من مسرى الصبا المتعطر
ونديركاسات المحبة بيننا ... فنميل منها بالحلال المسكر
حتى اذا ولى العشي وحان ان ... نمتاز عن نظر المراد الانضر
قمنا نجر من العفاف سوابغا ... لما نغيرها بصبغة منكر
واليوم قابس جنة الدنيا وفي ... قلبي لوشك البين حرقة مسعر

ومن المكاره التي حفت به جنة قابس ما يتعدى اليها من الوباء وينال ساكنها من الامراض وسبب ذلك فيما يذكر اهلها كثرة شجر الدفلى بها فيكتسب الماء منه لدى جريه سمية ومرارة تضر بابدان سكانها كثيرا ولذلك لا تجد وجوه كثير من اهلها الا مصفرة . وفي هذه البلدة ايضا فساد وتغير وسببه كثرة عفوناتها وليس في جميع مياهها ما يسلم من ذلك الا العين المعروفة بعين الامير والعين الاخرى المعروفة بعين سلام فان ماء هاتين يسلم من الفساد لعدم مروره على الدفلى والاولى منهما منسوبة للامير الاسدي المعروف بابن الصغير واما الثانية فالمشهور في اسمها عين سلام باللام المخففة وهي انما توجد في عقودهم القديمة عين سنام بالنون . ومما يذكر اهل قابس وهو من جنس الخرافات ما حكاه البكري عنهم ان مدينتهم كانت سالمة من الوباء الى ان احتفروا فيها موضعا توهموا ان فيه مالا فاستخرجوا منه تروبة غبراء فحدث الوباء عندهم . وقد اشتهر عن اهل قابس ما اشتهر من بيع فضلتهم وهم يقرون بذلك ويدعون شدة احتياجهم اليه وان النخيل في بلادهم لا يثمر الا به . ومن رسالة لابي مطرف بن عميرة في وصف قابس وكان ولي قضاءها في اول مدة الخليفة المستنصر — بلد غوطي البساتين .

طوري

طوري الزيتون والتين • فاما النخل فجمع عظيم • وطلع هظيم • وسكك مابورة • ونواعم في الخدور متصورة • وان بقعته لوارفة الظل • آمنة الحرم والحل • جنة لو نزع ما في صدور اهلها من الغل • وبالجملة فهو تام الغرابة • مدهام الغابة • مستأثر بسيد من سادات الصحابة • ولا عيب بتربته الا وخامة مائها • وحميات قليا يعرى من عدوائها • وفي فصل من رسالة اخرى له يصف شدة الوباء بها وكثرة عقاربها — وهذه البلدة الان في ضلال من شرخ الشباب • وظلال من ثمرات النخيل والاعناب • فهي لا عيب فيها الا هواء وخامته تتخاف • وماء غير من خالصة الماء المضاف • ولبيوت المدينة دواجن سيئة الجوار • سريعة الى القطان والزوار • كراها تنفيه • وسرها تخفيه • وصاحبها لا يطمع احد فيه • فقبحت شائلة الاذناب • شاملة بالعذاب • كامنة بارزة • هامزة لامزة • تطرق بالبلية • وتقسم شرها بين البر والفاجر بالسوية • قال دبت عندنا ليلة لمن كان يرمق دبيبها • ويحاول قبل ان تصيبه ان يصيبها • فاوقعت به لدغا في القدم • فلاقى اشد الم • قال وبات وبتنا معه في ليلة اخي ذبيان • وجل الله ما اطول ما كانت واهول ما كان • واشار ابو المطرف في الرسالة السابقة مستأثرا بسيد من سادات الصحابة الى ما يذكره اهل قابس ان ابا لبابة الانصاري مدفون ببلدهم وقبره عندهم مزار مشهور — وبقابس ايضا مسجد ينسبونه اليه قال التجاني ولم ار احدا من المورخين عد ابا لبابة ممن دخل افريقية من الصحابة فلعله ان ثبت قبره هنالك مما اغفل المورخون ذكره منهم • واسم ابي لبابة بشر ابن عبد المنذر وهو ممن شهد العقبة وبدرا ويقال بل امره النبي صلى الله عليه وسلم على المدينة في غزوة بدر ولم يشهدها غير ان رسول الله صلى الله عليه وسلم امره ايضا على المدينة في غزوة السويق ومات في خلافة علي رضوان الله عليه ولعل قدومه الى افريقية كان هجرانا لدار قومه بسبب ذنبه الذي اذنبه فتاب الله عليه قال يا رسول الله ان من توبتي ان اهجر دار قومي وان انخلع عن مالي فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم يجزيك

من ذلك الثلث . واختلف في ذنب ابي لبابة فقيل هو تخلفه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك فلما غزا النبي صلى الله عليه وسلم ورجع ندم ابو لبابة فربط نفسه لسارية وقال والله لا احل نفسي منها ولا اذوق طعاما ولا شرابا حتى يتوب الله علي او اموت فبعث اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرفه بتوبة الله عليه فقال والله لا احل نفسي حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذي يحلني فجاءه النبي صلى الله عليه وسلم فحله بيده فقال يا رسول الله ان من توبتي ان اهجر دار قومي ـ الحديث . وقيل بل ذنبه اشارته الى حلفه لبني قريضة حلفائه باشارة ان نزلتم على حكم سعد بن معاذ فنزلت فيه ـ يا ايها الذين ءامنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا امانتكم ـ ثم تاب الله عليه والله اعلم . وانشد ابو الحكم الحسن بن عبد الرحمن بن عذرة في كتابه الكبير الذي سماه منتهى السول في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم لابي المظفر بن عميرة وقد انصرف من قبر ابي لبابة ـ

خبر الاحبة ما الذ مساقه ... وجنى القطيعة ما امر مذاقه
وهوى القلوب لها عليه شواهد ... سبقت بناطق حالها استنطاقه
أي المنازل ان ذكرت عهودها ... فتهيج من كلف بها اشواقه
يعتاده منها جوى بين الحشا ... والصدر رقرق دمعه واراقه
ويبيت منها كالسليم وماله ... راق اذا مد الظلام رواقه
حمل الغرام وما استقل بحمله ... قبل النوى فالان كيف اطاقه
ورمت به الاقدار كل تنوفة ... لم تاله لجمالها اغراقه
قفر تشاكينا الفراق لديه والـ ... ـاشهى لنا ان نستديم فراقه
وموارد حملت أجنة ءاجن ... يلقى بها طعم النوى من ذاقه
خفق الجوانح دونه ويرد من ... افضى اليه مع الصدى اخفاقه
ما زلت اقطعها مهامه لم تزل ... بالصبر حتى خرّقت اخلاقه
حتى وقفت وما افقت بمنزل ... كالظلم في صدري ارى إحْداقه

وقبست

وقبست من شوقي لقابس جذوة شبت على قلب سواها شاقه
من بلدة في العين اظلم جوها مع انها ما انكرت اشراقه
قد كان منظرها يروق بعين من يشكو النوى لو ان شيئا راقه
لكن بقبر ابي لبابة لي هوى ما من هوى للنفس إلّا فاقه
امل بنفسي لو ظفرت بتربه فجعلت اثمد ناظري دقاقه
وتمثل القبر الكريم بمقلتي فدنوت منه والتزمت عناقه
فوثاق ذنبي ارتجي لفكاكه عن افك قول العالمين وثاقه
صلى الاله على النبي محمد والذله بجواره استحقاقه
وعلى صحابته وعترته التي لزمت رضاه واقتفت اخلاقه
وقضى لنا من بطنه في سيرنا يوم الجزاء على الصراط لحاقه

وبشرقي قابس موضع يعرف بالمنارة كان به منار مرتفع يظهر للآتي من جهة المشرق قبل وصوله الى البلد بمسافة بعيدة وقد سقط الان فلم يبق له اثر . وذكر البكري ان الحداة يحدون عند قدومهم من مصر الى افريقية فيقولون —

لا نوم لا نوم ولا قرارا حتى ارى قابس والمنارا

وفي وصف بطحاء قابس وهي في سرتها يقول ابو عبد الله محمد بن العطار القرطبي —

لهفي على طيب ليال خلت بجانب البطحاء من قابس
كانّ قلبي عند تذكارها جذوة نار في يدي قابس

وبداخل المدينة مسجدها الجامع وهو مسجد متسع له منار مرتفع قد مال وخرج عن الوزن إلّا انه لصحة موضعه لا يخشى من وقوعه . و بمقربة من هذا الجامع قصبة قابس وبها المبنى المشهور المعروف بالعروسيين الذي لا يرى مثله ظرفا وحسنا وقد استولى الخراب على القصبة وعليه . والعروسيان من بناء بني جامع الهلاليين الذين كان لهم امر قابس فطوت ايدي التوحيد آثارهم ومحت اخبارهم . واهل قابس ينسبون بناءه لرشيد بن مدافع بن جامع احد من تملكها منهم وممدوح ابي محمد عبد الجبار بن حمديس

الصقلي بقصيدته التي يقول فيها —

افلا يحالفني الرشاد وهمتي   قصدت عزيمتها لامير رشيدا

قال التجاني وقد وقفت في بعض ابواب القصر على اسطر كتبت نقشا في الحجر نصها — امر بعمل هذا الباب الامير رافع ابن امير الامراء مكن بن كامل بن جامع في رجب سنة خمسمائة — فان كان ما يذكره اهل قابس من ان راشدا هو الذي ابتناه صحيحا فيكون هذا الباب خاصة هو الذي امر ببنائه رافع بن مكن . وقال التجاني واخبرني بعض الطلبة من اهلها انه وقف لبعض المورخين على ان صنهاجة هم الذين ابتداوا ببنائه وانتهوا به الى قدر ثلثيه فاتمه بنو جامع الهلاليون . وكانت ولاية قابس ايام الشيعة مترددة في بني لقمان الكتاميين وفي بعض امرائهم يقول الشاعر —

لولا ابن لقمان حليف الندا   سل على قابس سيف الردا

فلما ملكت الشيعة مصر وانقلبت الدولة الكتامية بافريقية صنهاجية رجعت ولاية قابس في صنهاجة وعبيدهم فوليها في اول امرهم بنو عامر ثم وليها ابراهيم بن يوسف بن زيري وهو اخو باديس ثم منصور بن فارس ثم تداولت بعد في اقوام من برغواطة ولاهم المعز بن باديس . فلما اجتازت العرب الى افريقية بتدبير الوزير البازوري حسبما تقدم قبل هذا فتغلبوا على اكثر البلاد والجاوا المعز الى المهدية كان والي قابس اذ ذاك المعز بن محمد بن ولموية الصنهاجي وكان اخواه ابراهيم وقاضي قائدين للمعز بن باديس على جيوشه فعزلهما لغرض عنّ له ففرا عنه مغاضبين ولحقا بمونس بن يحيى الهلالي الصنبري امير رياح من الاعراب القادمين من مصر فاكرمهما وكساهما ثيابا وصلت اليه من مصر وسر بقدومهما وانصرفا الى قابس فاجتمعا باخيهما فاتفقوا على قطع اسم المعز بن باديس من الخطبة وصرف الطاعة الى مونس بن يحيى فكان ذلك اول تملك العرب بها ولحق المعز بن محمد بمونس فكان في صحبته واقام ابراهيم واليا على قابس وهو في طاعة مونس الى ان توفي المعز ابن باديس وولي بعده ابنه تميم . ثم مات ابراهيم بقابس فولي بعده اخوه

قاضي

قاضي وكان سيء السيرة فقتله اهل قابس وبعثوا الى عمر بن المعز بن باديس اخي تميم بن المعز وكان مخالفا عليه فامروه على انفسهم وذلك في سنة تسع وثمانين واربعمائة . فلما علم تميم بولاية اخيه تحرك الى قابس وجد في حصارها الى ان افتتحها وكان قبل ذلك متراخيا عنها فقيل له لم ذلك فقال لما كان فيها قاضي اخو ابراهيم كان بمنزلة عبد من عبيدي فكان زواله سهلا علي متى اردت واما الان ابن المعز بالمهدية وابن المعز بقابس صعب على النفوس . وفي فتحها يقول الشاعر —

ضحك الزمان وكان قدما عابسا   لما فتحت بجد سيفك قابسا

اصدقت عذرتها نكاحا جائزا   سمر القنا وبواترا وفوارسا

من كان بالبيض القواضب خاطبا   حلت له بيض البلاد عرائسا

ثم خالفت قابس بعد ذلك على تميم ورجعت الى طاعة العرب واختلف عليها امراؤهم فوليها منهم مكن بن كامل بن جامع وهو الذي اجار حمو بن مليل البرغواطي الثائر بصفاقس لما اخرجه منها تميم ابن المعز وقد ذكرنا ذلك قبل هذا وبعده ابنه رافع بن مكن وهو الذي كتب اسمه في عروسيها كما تقدم . وتوفي تميم ورافع باق على ولاية قابس ثم ولي يحيى بن تميم فصالحه وداراه طول حياته . ثم توفي يحيى وولي بعده ابنه علي فانف من مصالحة رافع وكان راي يحيى يحتمل امورا لرافع لم يحتملها علي منها ان رافعا انشا بساحل قابس سفينة اعدها لما يعرض له في البحر من الامر فلم يبد يحيى انكارا لذلك بل اعانه عليها وامده بما يحتاج اليه فيها . فلما ولي علي انف من ذلك وكره ان يقاومه احد من اهل افريقية في اجراء السفن في البحر فانفذ اسطولا الى ساحل قابس لمنع هذه السفينة من الاقلاع واخذها ان اقلعت . وعلم بذلك رافع فكتب لروجار صاحب صقلية يسأله الاعانة على علي ويخبره انه لما انشا تلك السفينة ما قصد بها إلّا ان يبعثها هدية اليه . فبعث روجار الى قابس اسطولا ضخما لنصرة رافع . فلما بلغ ذلك عليا جمع رجال دولته واستشارهم في ذلك فكلهم اشار عليه باسترجاع اسطوله

والتقاصرعن رافع في هذه المسالة حفظا لما بينه وبين روجار من المصالحة ٠ فزاد علي في ذلك وحنا عليه فامر ببقية اسطوله فاخرج للحين ووجهه الى قابس فوجد الروم قد نزلوا من قطعهم لضيافة اعدها لهم رافع فلم يرعهم إلّا وصول الاسطول فبادروا الى قطعهم فغلبهم المسلمون وقتلوا منهم جماعة كبيرة ٠ وكان ذلك من اشد الاسباب في الوحشة بين روجار وعلي وسياتي ان شاء الله طرف من تراجم هولاء عند استقلالهم بولاية افريقية متبعا بالسنين مذكورا في الباب السادس عند ذكر الامراء الذين قبل ولاة ءال عثمان ٠ ولقد اوجب عارض هذه الحركة التي وقعت بين علي ورافع تغلب الروم على المهدية وانقراض دولة بني مناد منها وفي هذا الفتح يقول محمد بن عبد الله الكاتب يمدح علي بن يحيى من قصيدة صعيفة النظم —

ليهن المعالي ان تملك رقهـا ... علي بن يحيى بالحجى والتكرم
جرى وجرى صيد الملوك فردهم ... الى غاية بالمجد لم تتقـدم
وصمم تصميم الحسام مبـادرا ... لاطفاء نار ءاذنت بالتضـرم
تعدت عن الاعلاج في بحر قابس ... وسـار اليهم في الخميس العرمرم
فولوا على الادبار رعبا واجفلوا ... بناب نبا عنها وظفر مقلـم

ولما تم هذا الفتح لعلي دون قبائل العرب واعد الاساطيل لمحاصرة قابس وذلك في سنة احدى عشرة وخمسمائة ٠ فلما بلغ ذلك رافعا ارسل جماعة من وجوه قومه الى علي راغبا في المصالحة فلم يجبه علي اليها فراى انه ليس له قبل بقتال علي فقصد الى القيروان وكانت تحت ملك العرب فاتفق بنو عمه على ان اعطوه اياها ففي دخوله اليها يقول محمد بن رشيد من كلمات —

سل رافعا ما الذي اجرى تنصره ... وهل يقي الذل منه من به وثقا
لو لم ير الروم اهلا والصليب ابا ... لم يشك من عيشه في قابس رنقا
انفاقك المال في العلياء تلحقه ... فالقيروان التي تعتدها نفقـا
ابدت له عزة للجاهلين يـد ... وكان ستر عليه قبل فانخرقـا

لله

لله فعلك ام المال تجمعـــــه   وكيف ذاك وقد شتته مزقـــا
وكان مالا تشد المكرمات به   اشد ما هو توفيرا اذا محقـــا

وملك قابس بعد دخول رافع القيروان محمد بن رشيد من بني جامع ايضا وغلب على دولته مولاه يوسف . واتفق ان خرج محمد من قابس لحرب عدو له وترك احد بنيه نائبا عنه بها فطرد يوسف مولى ابيه منها واستولى على المدينة وانتسب الى طاعة روجار . فقام عليه اهل قابس ودفعوه الى العرب فعذبوه عذابا شديدا وقطعوا مذاكره لانهم نسبوه للتعرض لحرم مولاه . وكان ليوسف اخ اسمه عيسى فقر الى صقلية مستنصرا بطاغيتها وزعم له ان اخاه انما صنع به ما صنع وهو منتسب الى طاعته فخرج روجار اسطوله لحصار قابس فحاصرها مدة ثم رجع . وكان ءاخر من ملكها من بني جامع مدافع ابن رشيد بن مدافع بن كامل بن جامع ومن يده اخذها الموحدون . وقد كان عبد المومن بن علي لاطفه واستدعاه باشعار خاطبه بها ويلوم عليه فامتنع من جوابه فلما وصل الى حصار المهدية انفذ اليه عسكرا قائده ابنه عبد الله . فلما علم مدافع باقباله جمع اهله وعشيرته ومن انحاش اليه وفر واتبعه عسكر عبد الله فاتبعته شرذمة منه فواقفها ساعة ثم انهزم وقتل جماعة من اهله وعشيرته وملك الموحدون قابس وتوغل مدافع في الهرب واستجار باعراب طرابلس فاجاروه . وكان شاعرا حافظا للسير والاخبار عالما بالانساب . فلما مر عليه عامان طريدا شريدا استشار عشيرته باللحاق بعبد المومن فاشاروا عليه بذلك فسار اليه فلقيه بمدينة فاس فرضي عنه واسكنه هنالك فتوفي بها وقد ناهز التسعين . وكان له ايام ملكه وزير يعرف بسلام بن فرحان بذل نفسه دونه يوم خروجهم من قابس وقاتل عنه الى ان قتل . وانشد له العماد الاصبهاني في الخريدة في مدح مدافع المذكور —

ما زلت افري اديم الارض منفردا   اطوي المفاوز غيطانا وءاكامـــا
حتى حططت رحالي في ذرى ملك   غمر المواهب للقصاد بسامـــا

يهني المدافع ان الله خوله   سعدا ينال به كل الذي راما

قم فافتح الارض فالاملاك كلهم   سواك اضحوا عن العلياء نواما

وانشد له من ابيات ذكر انه قالها يوم قتله —

اكذا اموت وما بلغت مرادي   بين الصوارم والقنا الميـاد

حيث العيون لوامح وطوامح   ما بين احباب وبين اعادي

وذكر صاحب الخريدة ايضا ان ابا مكن عامر بن محمد بن مكن ابن كامل ابن جامع خلص يوم خروجهم واتصل به الفرار الى دمشق فاستوطنها وقال يذكر ايامهم بقابس —

يا جار طرفي غير هاجع   والدمع من عينيّ هامع

ولقد ارقت مسامرا   نجما بدا في الشرق طالع

متذكرا بصروف دهـ   ـر اصبحت فينا قواطع

اني من الشم الاولى   شادوا العلا ابناء جامع

اهل المراتب والكتا   ئب والمواهب والصنائع

يتسابقون الى المعا   لي كلهم فيها مسارع

ولقد ملكنا قابسا   بالمشرفيات القواطع

تسعين عاما لم يكن   فيها لنا احد منازع

وجنابنا للمعتفيـ   ـن بزاهر المعروف يانع

واذا شهدنا مجمعا   يومى الينا بالاصابع

عبثت بنا ايدي الزما   ن واحدثت فينا البدائع

وذكر ابنه مكن بن عامر وقد ورد ايضا الى دمشق وكان موجودا بها سنة احدى وتسعين وخمسمائة وانشد له —

اذا عز من اهوى اغض له طرفي   واخفي الذي بي من سقام ومن ضعف

واكتم من سري هواه صيانة   ولو كان في كتمانه ابدا حتفي

مخافة ان يشكو فوادي صبابتي   الى مقلتي يوما فتبدي الذي اخفي

وتغلب على قابس بعد خلوصها للموحدين شرف الدين قراقش الارمني مملوك

مملوك الملك الظافر تقي الدين بن شاهنشاه بن ايوب بن شادي بن اخي السلطان صلاح الدين وكانت بينه وبين علي ابن اسحاق الميورقي مهادنة ومصالحة وكانا يجتمعان في اكثر حروبهما ويقيمان الدعوة العباسية بهذه الجهات . وسأذكر سبب وصوله الى هذا البلد باثر الفراغ من خبري هذا ان شاء الله تعالى . فتحرك اليهما المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد المومن فكانت له الوقعة المعروفة بوقعة الحامة وذلك في سنة ثلاث وثمانين . وسياتي خبر هذه الوقيعة عند الكلام على الحامة ان شاء الله تعالى . وفر قراقش والميورقي فدخلا الى صحراء توزر ورجع المنصور الى قابس فاستسلموا له وفتحوا ابوابها وسلموا له اتباع قراقش وشيعته وقد كان اعدها حصنا وشحنها باهله واتباعه وامتنع اهله بقصر العروسيين منها يومين ثم نزلوا الى المنصور راغبين في الامان فبعث بهم في البحر الى حضرة تونس ثم رفعوا بعد الى مراكش والى المغرب . فاظهر قراقش الانابة وهاجر الى الموحدين وذلك في سنة ست وثمانين وقد مات علي بن اسحاق الميورقي وولي اخوه يحيى . فاجتمع قراقش بتونس بالسيد ابي زيد ابن السيد ابي حفص وهو اذ ذاك الوالي عليها من قبل المنصور فاقام بها زمانا تحت كرامة ثم انصرف فارا عنه ورجع الى قابس وخادع اهلها حتى دخلها فقتل جماعة منهم واظهر الرجوع عن الانابة واستدعى اشياخ العرب الدباببيين فقتل اعيانهم بقابس . ومن جملة من قتل منهم محمود بن طوق ابن بقية واليه تنسب المحاميد وحميد بن جارية وهو ابو الجواري في سبعين من كبارهم وذلك بداخل قصر العروسيين في موضع منه معلوم الى الان . قال التجاني واخبرني ابو صبرة مساعد بن الازرق والضريسي ان الدعي ابن ابي عمارة لما تغلب على قابس سنة اثنتين وثمانين وستمائة امر بحفر ذلك الموضع لبناء احب احداثه هنالك قال فوافق الحفر موضع دفنهم فرفعوا منه بين ايدينا نيفا وستين راسا فامر الدعي بنقلها الى غير ذلك الموضع فدفنت به . ثم توجه قراقش الى طرابلس بعد افتتاحه قابس وكانت قد

وبايعته اول اقباله وانتقضت عليه فحصلت طرابلس وقابس تحت يديه ٠
ووقع بينه وبين يحيى بن اسحاق الميورقي تنغير والميورقي اذ ذاك ببلد
الجريد فسار الميورقي اليه الى طرابلس وخرج قراقش الى لقائه فالتقيا
بخارجها فانكسر قراقش وفر الى جبالها ولم يدخل الى البلد خوفا من
الحصار ٠ ثم اخذ الميورقي ايضا في الحركة الى قابس وكان نائب قراقش قد
خرج منها لما انهزم قراقش ووجه اليها الشيخ ابو سعيد بن ابي حفص من
تونس حافظا من الموحدين يعرف بابن تافراجين ٠ فتحرك الميورقي اليها
ووصل الى المنزل المعروف بزريق بتقديم الزاي على الراء وكتب الى اهل
قابس ينذرهم ويحذرهم ٠ ومن فصول كتبه في ذلك — ولما عزمنا على قرع
بابكم ٠ والحلول بجنابكم ٠ راينا تقديم الانذار اليكم ٠ وايراد النصيحة عليكم ٠
والكف عنكم ثلاثة ايام ٠ لا تمد لكم فيها يد ٠ ولا يتقدم اليكم بالاضرار
احد ٠ لنعلم ما عندكم ٠ ويتبين غيكم او رشدكم ٠ فان آثرتم الطاعة ٠
وتبعتم الجماعة ٠ وطانا لكم اكناف العدل ٠ واتبعنا فيكم كريم القول وصحيح
الفعل ٠ وان ابيتم إلّا الخلاف فقد ابلغنا النفس عذرا ٠ واتينا بالبتر ومن
امركم يرى ٠ ولا تغتروا باهل طرابلس فلو كان لهم سواد يقطع ٠ او مياه
تصدع وتمنع ٠ تجروا الى الطاعة ٠ وحملوا انفسهم منها فوق الاستطاعة ٭
فلما انقضى اجله الذي حده ولم ير منهم اجابة ولا آنس منهم انابة زحف
اليها بجموعه فحاصرها حصارا شديدا وقطع جميع غابتها ٠ فيقال انه لم
يبق منها إلّا نخلة واحدة تركها عبرة لهم ٠ فانابوا له بعد ان اشترطوا عليه
مسالمة واليهم ابن تافراجين وان يتوجه باهله وماله في البحر فاشترط لهم
ذلك ووفى به واغرمهم ستين الف دينار عقوبة لهم ٠ وقد وصف ذلك كله
كاتبه ابو محمد عبد البر بن فرسان في كتاب كتبه عنه لاهل طرابلس وهي
اذ ذاك في طاعته مبشرا بافتتاحه لقابس ونقل التجاني ذلك الكتاب في
رحلته وكان بطرابلس بخط شيخه الفقيه ابي فارس عبد العزيز بن عبد
العظيم ابن عبيد يقول في بعض فصوله — الحمد لله الذي عاض من النصب
راحة ٠

راحة . واضاء باشراق الدعوة العباسية كل جهة من هذه المدينة كانت مظلمة وساحة . بعد لجاجة شيطانها . ومكابرة قطانها . وتضييق اعطانها . بمجانيق سامية لمبانيها . مواشكة على ثوانيها . لا تبلع اهلها ريقا . ولا تجدي المدافعة طريقا فريقا . ترهب على البعد وتقتل فريقا . وكنا قبل وضع تاجها . وخلع رتاجها . وكسر مهابتها . والتوغل في غابتها . خاطبنا جمهورهم . واستنزلنا معمورهم . للطاعة ومغمورهم . رغبة في الابقاء عليهم . وانذارا لم يكن بد من تقدمه اليهم . فرفعوا عوامّ . وركبوا هوادم . واستنهضوا اغوياءهم فنصبوا للشقاوة لواءهم . وكان فيها من رجال الدرق . ورماة الحدق . غناء اسندوا اليهم ظهورهم فانقصمت . وتمسكوا بعرائم فانفصمت . وغرّهم استنفروا من الجبال وكدوا بعد الهبوب . وعرفوا سوم تلك الحروب * ومن فصول هذا الكتاب - فاخذهم حول الحصار . واحاطت الخيام بالاسوار . حتى كانت المدينة معها كالزند في ضمن السوار . وكالعنق تحت محيط الازار . وكالمركز للفلك الدوار . وكما لاحت في هالتها اجسام الاقمار . لا يمسون الا على اذن واعية . ولا يصبحون الا على عين مراعية . فضجوا من ثلاث ساقتهم الى التشحب سوق احثات بعد القسوة . وانصداع عصى الاسوة . والعجز عن حماية الاولاد والنسوة . ولما سقط في ايديهم . ولم يجدوا راحما يعصمهم ممن يوذيهم . سلكوا للطاعة طريقة . وتظاهروا بها مجازا او حقيقة . فقبلت على حكم التسليم والتفويض . والقيام باعباء طيبة المال والنهوض . وانتقلوا من الحرم الى الحل . ومن الحرور الى الظل . وتصرعن المد حد السيف المطل . وتفقدوا سوادهم فوجدوه طامس الاثار . فنجت الاشجار بغور المياه الغزار . لا منورا ابقت الايدي منه ولا منثورا . يقول ناظره متعجبا ومعتبرا - وكان الله على كل شيء مقتدرا - * وفي فصل منه - واذن لتقرر على الشرط حكم الاصطلاح . وجرد المسترزق منهم والمتطوع من ملابس السلاح . وحمل غريمهم المومن في نفسه واهله مع ما اختار صحبته من جنده الخاسر على ذات الدسر والالواح . فرضنا عليهم مائة الف دينار

عددا . لم نفسح لهم في اقتضائها امدا . فعجزوا واستكانوا . وتضاءلوا بذلك كانهم غير الذي كانوا . فوسعهم التفات ديني ونظر على الرحمة مبني حتف المتون . فاضحت المائة وهي ستون . وهم في شانها مفيضون . وعما عداها معرضون . فخاطبناكم بهذا الفتح الذي اشرقت من جانبيه شمس النجح . لتاخذوا من المسرة بحظ من تبيين امنه تبلج الصبح . فقد تقرر لدينا مما تعتقدون من الاعتماد علينا والانتصار . وتزيدون النظر كل حين في احكام الطاعة والاستبصار . ما عضد خبره بالاختبار . ولم يرتفع عنه الّا ما وقع بالموافقة وجاء على الاختيار * - وتاريخ الكتاب العشر الاخير من ربيع الثاني سنة احدى وتسعين وخمسمائة . وفي هذا الفتح والتخفيف على اهل قابس فيما علموه يقول ابو محمد عبد البر بن فرسان المذكور وزعم ابن نخيل في تاريخه ان عبد البرّ قال هذه القصيدة عند فتح طرابلس - قال التجاني وليس كما زعم -

اجل انه النصر المهنى والفتح ... طواه الدجى وقتا وبينه الصبح
عصوا ثم جاءوا طائعين امامهم ... عصابة غي كان آخرها النجح
هدوا للهدى بعد اقتحام ضلالة ... بساحتهم من قبح عبراتها لفح
عموا عن سبيل الرشد ثمة ابصروا ... وقد كان نشوان الضلالة لا يصح
وفاءوا وعن حين اقتراء سمائهم ... الى غرة قد كان منهم بها قرح
اجالوا قداح الراي اثناء عزمهم ... فحين انابوا فاز بالامل القدح
وما اذعنوا للشرط حتى اراهم ... ردى فهم في كل حرب لهم برح
فما وريت منهم زناد استقامة ... من الشر حتى حلّ في مسها القدح
جثوا لقبول العفو في مجلس الرضى ... على بذل مال بان عنهم به الشح
فاوسعتهم عفوا وخففت عنهم ... من المال ما لولاه ادهم الفتح
وهبت الذي لو ظن غيرك انه ... يفوز به لم يتجهم عندها الصلح
وما المال الّا للنفوس وقاية ... خسارته في حسب ما يتقى ربح
تقود الجيوش الدهم برا ولجة ... ففي سبسب وخد وفي لجة سبح
تنازل من عاداك في قعر داره ... فتنزله لو كان منزله الصرح

وتضرب

وتضرب بالحق الصحيح كلا العدا | اذا كان حظ البطل من غيرك الجرح
وتطلع فجر العدل في مشرق الهدى | اذا اشتد من ليل اعتداء العدا جنح
وتسرد من ءاي العلا سورا لهـا | براهين لا يخفى لها ابدا شرح
تقوم لها بالتكرمات دلائـل | كما قام عن مستودع الروضة النفح
فلا زلت فتاح البلاد ممهـدا | جوانبهـا ما لاح من بارق لمح
ودان لك الداني وقص من الذي | بغى طائفـا وبيش وصح له ذبح

وبقيت قابس في حكم الميورقي الى ان وصل الناصر الى افريقية في سنة احدى وستمائة فاستنقذ من يده قابس وغيرها وتردد عليها حفاظ الموحدين من قبل الناصر مدة اقامته بافريقية ومن قبل الشيخ ابي محمد بن أبي حفص بعد انفصال الناصر وهلم جرا • وفي اثر هذا استقر قراقش بودان فتوجه الميورقي اليه بمن استصحب معه من العرب الذبابيين الموتورين من قراقش فحاصره بها الى ان فني طعامه واعطى بيده سلما واشترط على العرب ان يقتلوه قبل قتل ولده وكان شديد المحبة له فلما خرج هو وولده اليهم قال له الولد — يا ابت الى اين يروحون بنا — فقال له — الى اين رحنا بآبائهم — فقتلوه وقتلوا ولده بعده وصلبه الميورقي بظاهر ودان وذلك في سنة تسع وستمائة • وهذا الخبر من صفة موت قراقش كان تلقاه التجاني من افواه العرب حسبما نص عليه بقلمه في رحلته. قال والعرب الذبابيون الذين روى منهم يزعمون انهم اخذوا ذلك عن ءابائهم عمن حضر لذلك من اجدادهم • وترك قراقش ولدا آخر اشتهر امره بعد مدة وكان شجاعا كريما حسن الصورة جدا تميل العيون الى شخصه والاسماع الى ذكره رتبه الخليفة المستنصر بالحضرة في اجناده وقدمه لطائفة منهم فحدثته نفسه ان ينور واراد ان ينسج على منوال ابيه فهرب من اصحابه ولحق ببلاد ودان فانفذ اليه ملك كانم من قتله وأراح منه ومن فتنته تلك البلاد وحمل براسه الى بلاده فطيف به بها وذلك في سنة ست وخمسين وستمائة وقد كان البطالون من الاجناد بالحضرة قد اشتغلوا بذكره واكثروا الخوض في امره • والموجب

الداعي اول الحال الى وصول قراقش الى هذه البلاد ان صلاح الدين يوسف
بن ايوب كان ملك مصر هو وعمه اسد الدين شيركوه بجيش نور الدين محمود
ابن زنكي وقوة سلطانه وهما في ذلك من جملة امرائه واعوانه ثم بعد استيلائه
عليها وموت عمه اسد الدين حدثت بين صلاح الدين ونور الدين وحشة
خاف بسببها صلاح الدين ان يتحرك نور الدين على مصر ويستولي عليها
فاحتاط لنفسه وبنى على الاندفاع امامه وكان ذلك في سنة ثمان وستين
وخمسمائة فانقسم امره بين بلاد اليمن وبلاد المغرب فقال له اخوه توران شاه
ابن ايوب انا اتوجه الى اليمن وافتتحها واعيدها لك ان احتجت اليها
فتجهز اليها في السنة المذكورة وافتتحها في السنة التي بعدها وهي سنة
تسع وستين وخمسمائة وقال له الملك المظفر تقي الدين ابن اخيه
شاهنشاه بن ايوب انا اتوجه الى المغرب فافعل مثل ذلك فاشتغل تقي
الدين بالنظر في حركته ثم انه زهد في بلاد المغرب وعرف ما بينه وبين
افريقية من العربان والمهالك فاستغنى من ذلك وقد كان اسر خبر تغريبه
الى جمع من جنده وخواصه فاشرفوا لذلك وبنوا عليه فلما امتنع تقي الدين
من التغريب فر بطائفة منهم مملوكه شرف الدين قراقش الارمني وبطائفة
اخرى ابراهيم بن قراتكين سلاح دار المعظمي وهو منسوب الى الملك المعظم
شمس الدولة اخي صلاح الدين وكان في اجناد تقي الدين فجاز المذكوران
بمن معهما الى المغرب . ولما جاوزا العقبة رايا ان يفترقا لينفذ كل واحد
منهما بما قدر له من الملك والرئاسة فسار قراقش الى سترية فافتتحها
وخطب فيها للسلطان صلاح الدين ولاستاذه تقي الدين بعده وكتب اليهما
بذلك وافتتح زلة واوجلة وازال من بلاد فزان دولة بني خطاب الهواريين
وكانت قاعدة ملكهم زويلة وهي المعروفة بزويلة بني خطاب وعذب ملكها
محمد بن خطاب بن يصلتن بن عبد الله بن صنفل بن خطاب آخر ملوكهم
على المال حتى هلك وخطب فيها لصلاح الدين ولتقي الدين ولم يزل على
هذه الطريقة يفتتح البلاد ويخطب فيها لمن ذكر الى ان وصل الى طرابلس

فاجتمع

فاجتمع عليه الذبابيون ونهضوا معه الى جبل نفوسة فاستولى عليه واستخلص منه اموالا عظيمة ارضى بها العرب . وكان من الاتفاق ان مسعود بن زمام امير الرياحيين خالف في ذلك الزمن على بني عبد المومن وفر امامهم فوصل الى هذه البلاد فكان تارة يكون مع زغب وتارة مع ذباب . فلما سمع بوصول قراقش ومن عنده من رماة الغزسر بهم وتوجه بمن معه من ابطال الرياحيين اليهم فحصر قراقش بهم طرابلس وصادف بلادا لم تستوقع ثائرا ولا مخالفا فهي خالية من الاجناد ومن العدد والاقوات فاستولى عليها فعظم اذ ذاك امره وتوقع من تونس وغيرها شره ووصلت اليه العربان من كل مكان فاحتاج الى تكليف الرعية فوق طاقتهم فبغضه الناس بعد ان كانت القلوب كلها قد مالت اليه واقبلت عليه ولم يزل امره من تلك الافعال الشنيعة ومخالفته على بني عبد المومن وتلاعبه بالمهاجرة اليهم وفراره عنهم ودام ذلك نحوا من اربعين عاما الى ان قتله الميورقي . واما ابراهيم ابن قراتكين فانه سار بجمعه ووقع في خاطره المهاجرة الى بني عبد المومن والركوب عندهم فصدته اشياخ العرب المخالفون عليهم وحملوه على الانفراد وطلب الرئاسة وساروا معه الى قفصة فاستولى على جميع منازلها وارسل الى بني الزند روساء قفصة فمكنوه من البلد لانحرافهم عن بني عبد المومن وحبهم في الخطبة العباسية التي الفوها فدخلها ابراهيم وخطب فيها للخليفة العباسي ثم لصلاح الدين . وقدّر ان كان قتل ابراهيم المذكور وجملة اجناده بعد ذلك على يد المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد المومن في قفصة . وكان يقال لقراقش المظفري لانه مملوك الملك المظفر والناصري لانه كان يخطب للملك الناصر صلاح الدين وكذلك كان يكتب في ظهائره قال التجاني وقفت على ظهير بتسويغ املاك لبعض اهل طرابلس سمى فيه نفسه — قراقش الناصري ولي امر المومنين — بسكون الميم في لفظة امر . وكتب علامة الظهير بخطه — وثقت بالله وحده — وتاريخ الظهير عام تسعة وسبعين وخمسمائة . وكان الميورقي يكتب العلامة في كتبه — وثقت بالله وحده — ويجعلها في اسفل الرسم الذي بينه وبينهم

لانه واياهم من سليم ويعيرهم انقيادهم لتراقش ويستدعيهم للوصول لحضرته —

يا ايها الراكب الساري لطيبة　على عذافرة يشفى بها الالم
بلغ سليما على بعد المزار بها　بيني وبينكم الرحمن والرحم
يا قومنا لاتنشبوا الحرب ان خمدت　واستمسكوا بعرى الايمان واعتصموا
يقودهم ارمني لا خلاق له　كانه فيهم من جهلهم علم
الله يعلم اني ما دعوتكم　دعاء ذي بزة يوما فيتتقم
ولا لحاجة لامر يستعان به　من الامور واهل الحق قد علموا
لكن لاجزي رسول الله عن رحم　تنمى اليه وترعى تلكم الذمم
فان اتيتم فحبل الود متصل　وان ابيتم فعند السيف نحتكم

ومن غريب الاتفاق ان ما حف بتابس من عين سلام ومن المنار والعروسيين والوادي كل ذلك اسماء اماكن حفت بقلعة بني حماد ابن علي بن حماد نصا سواء وحينما ورد شيء من هذه الاسماء في شعر ابي عبد الله محمد فانما يعني بذلك مباني القلعة فانه كان ولوعا بندبها كقوله من ابيات يندب بها تلك المعاهد —

اين العروسان لا رسم ولا طلل　واين ما شاد منه السادة الاول
ومجلس النوم قد هب الزمان له　بحادث قل فيه الحادث الجلل
وما رسوم المنار الان ماثلة　لكنها نبذ يجري بها المثل

وكقوله من اخرى —

الا ليت شعري هل ابيتن ليلة　بوادي الجوا ما بين تلك الجداول
وهل اسمعن تلك الطيور عشية　تجاوب في تلك الغصون البلابل
وهل اردن عين السلام على الصدا　فابرد من حر الضلوع النواهل
وانظر طيقان المنار مطلة　على الوجنات الزاهرات الخمائل
كان القباب المشرقات بافقه　نجوم تبدت في سعود المنازل
فان ثنت الايام عنها اعنتي　وانزلنني في غير تلك المنازل
فصبر جميل غير ان صبابتي　ستبقى بقاء الطالعات الاوافل

وقال

وقال من ابيات اخرى على عين السلام —

على عين السلام سلام صب غذاه ماؤها العذب النمير
تاود ايكها وجرت صباها وشم لها كما فتق العبير
وابرد ما يكون الجو فيها واندى حين يحتدم الهجير
وما ادري ايجري فوق در ام ابتسمت بمنبعها الثغور
وقد قام المنار على ذراها كما قام العروس او الامير
بناه يزدري ايوان كسرى لديه والخورنق والسدير

قال التجاني وقد ورد علي من والدي ونحن على قابس مكتوب وفيه —

حمائم القلب اذ جد الرحيل بكم من الصبابة ما لا تحمل الابل
فلو ملكت سبيل الحزم ما عجزت اذ ذاك مني عن دفع النوى الحيل
لكن عراني ذهول يوم بينكم عما يكابد من احبابه الوجل
فالله يجمع منا الشمل عن عجل فالخير اجمل ما في نيله العجل

وبعد قابس رئاسة الوشاحين وفي الغالب انها محصورة في قبيلتين الجواري والمحاميد ومن عدا هاتين القبيلتين من بني وشاح كالعمور والجوابرة يضاف اليهما وهما قبيلتان متكافئتان في العدد والقوة فمهما نقص من احداهما فارس بموت او غيره نقص من الاخرى نظيره عادة اجراها الله تعالى بينهم فتجد احدى الطائفتين اذا مات واحد من الاخرى يتوقعون موت مقابله منهم فيقع ذلك عن قرب · ورئاسة المحاميد في بني رحاب منهم وهم بنو رحاب بن محمود ابن طوق ابن بقية بن وشاح · وبعد رئاسة قرية كتانة وهي قرية صغيرة ملتفة الشجر حسنة المنظر كانها بستان واحد خضرة ونضرة وعامة شجرها الزيتون وكان غرسه بها ايام ولاية الامير ابي زكرياء على قابس سنة اربع وعشرين وستمائة ولاهلها قصر كبير ياوون اليه وبها عين فوارة عذبة قد اجتمعت منها بركة ماء متسعة تلاصق سور القصر من جهة غربية وتخرج مذانب ومسارب تخترق الغابة فتعمها بالسقي · وبعدها قرية الزارات وهي قرية ذات نخل كثير وماء نمير ينبع من عين حمة قد اجتمعت من

منبعها ايضا بركة متسعة القطر بعيدة القعر ومنها يكون الابتداء بسلوك منازل البربر التمسكين بمذهب الخوارج المستحلين لدماء المسلمين واموالهم . قال التجاني وهذا المذهب هو الغالب على جميع البقاع التي بين قابس وطرابلس وخصوصا اهل الساحل منهم فهم بهذا المذهب يتقربون ببيع من يمر بهم من المسلمين الى النصارى فتجد الناس لاجل ذلك يتحامون الانفراد في قراهم ويتجنبون ليواءهم ، وقراهم من بقايا الشرذمة التي قام بها ابو يزيد مخلد بن كيداد في افريقية فانه لما اظفر الله به واراح البلاد والعباد منه تفرقت اتباعه في الاقطار فسكنت هذه الشرذمة بهذه المواضع وسكنت طائفة اخرى بجبال بجاية وقسنطينة وما والاها الى بونة ومالت طائفة اخرى الى بلاد الجريد فاستوطنت نفطة ونفزاوة وما والاهما . وبعدها وادي مجسر اصل مائه من الجبل المتصل من المغرب الى المشرق في جهة الجنوب ينحدر ماؤه فيجتمع عند جبل صغير يعرف بُرْاس تاجرا على نحو خمسة عشر ميلا منه حيث اوقع الشيخ ابو محمد بن ابي حفص بالميورقي ابن غانية وقعته المشهورة التي استاصل فيها اكثر اجناد ابن غانية واروى من دمائهم المراقة ظماء حداده وهي الوقيعة المعروفة بوقيعة تاجرا وكانت سنة اثنتين وستمائة قال ابن نخيل وكانت الغنائم من عسكره يومئذ ثمانية عشر الفا من احمال المال والمتاع والخرثي والآلة . ثم يفترق من تاجرا واديان ينتهيان الى البحر احدهما هذا الوادي وهو وادي المجسر والاخر الوادي الاعلى الى جهة المشرق وهو المعروف بوادي الفجاء فلا بد لكل سالك بين تاجرا والبحر من قطع هذين الواديين . ووادي مجسر منهما معروف بكثرة الاسود وهي موصوفة بشدة الاسر وقوة النصر . وقد كان بني في وسط هذا الوادي قصر واحييت هنالك مزارع وجعلت لها من الوادي مشارع فاجلت الاسود ناسها واكثرت فيهم افتراسها ففارقوا مغناها ولم يستطيعوا لاجل ذلك سكناها . وهذا الوادي ما كان من ارضه منخفضا كان الماء به دائما إلّا انه يعود بطبع الارض ملحا اجاجا ولاسيما ما قرب منه الى ارض البحر . وتوجد فيه انواع من الحوت مستطابة

وما كان

وما كان منه مرتفعا لم يكن فيه ماء الّا في حين حمله عند نزول الامطار .
وتنبت به غابة مشتبكة من الطرفاء وغيرها وبعده مجاز الجرف ومنه تظهر
جزيرة جربة وعرض هذا المجاز من الجرف الى ساحل الجزيرة اربعة
اميال وبعد المجاز من جانب الجزيرة يسمى ساحل اجيم بالف ممدودة
وتشديد الجيم وبه مسجد مبارك يذكر ان الامام المهدي سكن به في اول
جوازه الى المشرق (وجزيرة جربة) من اعظم الجزائر خطرا واشهرها في سالف
الزمان عمارة وذكرا وطولها من المغرب الى المشرق ستون ميلا كذا ذكره
التجاني ناقلا عن الشريف في كتاب روجار ومنها الى جزيرة قرقنة في البحر
ستون ميلا وعرض الراس الشرقي منها خمسة عشر ميلا وهو اضيق مكان بها
قال ابن الشباط قال البكري قال حنش الصنعاني غزونا مع رويفع بن
ثابت الانصاري المغرب فافتتح قرية من المغرب يقال لها جربة فقام
فينا خطيبا فقال ايها الناس اني لا اقول فيكم الّا ما سمعت رسول الله صلى
الله عليه وسلم يقول يوم خيبر قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال — لا
يحل لامرء يومن بالله واليوم الاخر ان يسقي ماءه زرع غيره — يعني اتيان
الحبالى من السبي . وذكر الشيخ ابو عمر بن عبد العزيز رحمه الله ان
معاوية امر رويفع بن ثابت على طرابلس سنة ست واربعين فغزا من
طرابلس افريقية سنة سبع واربعين وانصرف عنها فعلى هذا يكون فتح جزيرة
جربة سنة سبع واربعين والله اعلم وهي ارض كريمة المزارع عذبة المشارع
واكثر شجرها النخيل والزيتون والعنب والتين وبها اصناف كثيرة من سائر
الفواكه الّا ان هذه هي اكثر ثمرتها وغيرها من كرائم الارضين يقاربها على
الجملة في ثمارها او يساويها وتفاحها لا يوجد في بقاع الارض نظير لما
يوجد بها منه صفاء وجفاء وطيب مذاق وعطارة استنشاق ورائحته توجد
من المسافة المديدة والاميال العديدة وكان من شجره بهذه الجزيرة قبل هذا
كثير ثم قل الان بسبب ان النصارى يتحفون به ملوكهم وكبارهم دون
تعويض لاربابه عنه فراى اهل الجزيرة ان غيره من الشجر اعود بالفائدة

عليهم فقطعوا اكثره • واختصت ايضا هذه الجزيرة دون غيرها بحسن الاصواف المحمودة التي ليس بافريقية لما ينسج من اثوابها نظير وذلك معلوم من امرها شهير • واكثر مساكن اهلها اخصاص من النخيل يجعل كل واحد منهم في ارضه واحدا او اثنين او اكثر من ذلك ثم يسكنه بعياله وليس فيها بناء قائم إلّا دور قليلة وهم ينقسمون الى فرقتين فرقة تعرف بالوهبية ورئاستهم في بني سمومن وارض هذه الفرقة من الجزيرة الجهة الغربية فما والاها من جهة الشمال وفرقة تعرف بمستاوة ورئاستهم في بني عزون ارضهم الجهة الشرقية فما والاها من جهة الجنوب وكانّ مدينة جربة فاصلة بين ارضيهم • وكان الثائر النكاري قام على المعز بن باديس سنة احدى وثلاثين واربعمائة ووصل الى جربة فافتتحها وقتل مَن اراد من اهلها وسبى ذراريهم واسر ابن كلديين مقدمهم ثم قتله وصلبه فجهز اليه المعز اسطولا وقتل اصحابه قتلة شنيعة واستقرت جربة تحت طاعته وتوفي المعز فثار اهلها واظهروا العناد والفساد وانشاوا مراكب يقطعون بها في البحر على سائر السواحل • قال ابو الصلت في كتابه الذي ذيل به على كتاب الرقيق لما ولي ابو الحسن بن يحيى بن تميم بن المعز وذلك آخر سنة تسع وخمسمائة واستتم له امره واستوثق ملكه امر باعداد الاساطيل لغزو جزيرة جربة وحركه في ذلك ما ترادف عليه من قطع اهلها في البحر واخافتهم المسافرين فيه فتم ذلك وقدم على الاسطول قائد الجيش ابراهيم بن عبد الله واصحابه من اهل الدولة للمشورة فساروا اليها وذلك في سنة عشر وخمسمائة فحاصروها واخذوا بمخنقها الى ان انقاد اهلها بالطاعة للسلطان واذعنوا لامره ونزلوا على حكمه وضمن اشياخهم ومقدموهم قطع جميع الفساد الواصل الى ساحل افريقية من قطاعهم واشرارهم وان لا يتعدوا متاجرهم الهدية وانقطع ذلك الضرر • قال التجاني قال ابو الصلت وكان من امر جربة في القديم من ايام ءاباء ابي الحسن واجداده أن عصوا عليهم على اتساع ملكهم وكثرة جيوشهم ووفور اموالهم ثم تغلب النصارى على جربة في سنة تسع وعشرين وخمسمائة فقتلوا مَن

قتلوا

قتلوا وبقي الباقون تحت طاعتهم فلما كان سنة ثمان واربعين وخمسمائة ثار اهلها على النصارى وقتلوا منهم جماعة كبيرة فغزاهم النصارى من عامهم وتغلبوا على الجزيرة ثانيا فنقلوا اكثر اهلها سبيا الى بلادهم ولم يبقوا بها الّا من لا حاجة لهم به ثم تملكها المسلمون بعد ذلك ولم تزل من اول الفتح الاسلامي على هذه الصفة مترددة بين تملك المسلمين وتغلب النصارى الى أن غزاها النصارى سنة ثمان وثمانين وستمائة وملكوها . وبجانب جربة المعروفة جربة القديمة قال التجاني قال ابو الصلت دخلتها وجست خلالها فرايت بقايا مدينة صغيرة الصنع مربعة الوضع ويحدق بها سور مرتفع هو باق وبجانبه جامع حسن البناء وقد تخرب الان فليس الباقي الّا اثاره . قال ورايت على جهة منه نقشا لم تصل يد الفناء اليه فوجدته في غاية الاحتفال وحسن الصنعة ولم يصل به احد وفي آخر المدينة بقايا اطلال القصبة حيث كانت سكنى حافظ البلد وقد استولى الخراب على جميع الاولى وفي موضعها الان شجرة عظيمة من السدر المعروف في هذه البلاد بالسدر المصري قد ملات ذلك المكان وهذا السدر مخالف لسدر بلادنا هذه وهو اكبر ثمرا واعطر رائحة واما المطعم ففيه غثاثة قال ورايت منه بتوزر وما والاها من البلاد شجرا كثيرا وانما نسب الى مصر لكثرته بها وكان الى جانب هذه القصبة حمام صغيرهو الى الان باق لم يتسلط الخراب عليه واما الناحية التي يخرج بها من قابس لجهة توزر فاول مرحلة بها ارض ذباب في منازل بني احمد وهم بنو احمد بن ذباب بن ربيعة بن زغب وربما شاركهم في منازلهم هذه بنو يزيد وبنو يزيد اربعة افخاذ من ذباب تحالفت وانتسبت الى مدلول الزيادة لا الى رجل منهم بيزيد وهم الصهبة والحمارنة والخرجة والاصابعة فاما الصهبة بسكون الهاء فبنو صهب بن جابر بن فائد بن رافع بن ذباب والحمارنة بنو حمران بن جابر اخوتهم واما الخرجة بسكون الراء فجماعة من آل سليمان بن رافع بن ذباب اخرجهم بنو عمهم الى سالم بن رافع من ارضهم فمالوا الى

مخالفة هولاء وساكنوهم بمنازلهم هذه وكانت ارضهم ارض مسلانة وما قارب منها واما الاصابعة فمنتسبون الى رجل كانت له اصبع زائدة وذباب يطعنون عليهم في نسبهم ويذكرون انهم خارجون عنهم • وبعدهم الحمة وتعرف بحمة مطماطة تفرقة بينها وبين حمة توزر المعروفة بحمة البهاليل وهي مدينة حاضرة تحف بها غابة نخل وجميع مياه هذه البلاد شروب وهي في غاية السخانة وبسخانة مائها سميت الحمة والحمة في اللغة هي العين التي في مائها سخانة • وجاء في الحديث مثل العالم مثل الحمة قال الهروي في غريبه الحمة عين حارة يستشفي بها المرضى وذكر ابو عبيدة في كتاب الامثال ان من امثالهم العالم كالحمة ياتيها البعيد ويزهد فيها القرباء لم يزد ابو عبيدة على هذا وهو اثر وتمامه فبينما هم كذلك اذ غار ماوها فانتفع بها قوم وبقي قوم يتفكنون بالنون اي يتندمون تفكن تفكنا وقرا ابو حازم فظلتم تفكنون وهو من هذا والنسبة الى الحمة حمي • وذكر ابو عبد الله ابن علي المصري في صلة السمط انه سمع في ذلك حامي بالالف وهو من شواذ النسب وهذه البلدة في اكثر اوقاتها سالة من الوباء فاذا وبئت بفتح الواو وان شئت ضممت استاصلت اهلها وكانت في ذلك اشد من قابس وكان عليها سور مرتفع قال التجاني رايت مواضع منه تهدمت ولم يشتغل اهلها برمها فسالتهم عن ذلك فقالوا نحن لا نعتمد على سور وانما سورنا سيوفنا قال فذكرت قول الشاعر —

اذا صدق الحسام ومنتضيه فكل قرارة حصن حصين

وما ليث العرين بذي امتناع اذا لم يحمه الّا العرين

وبناء داخل هذه المدينة في نهاية الارتفاع وهم يتنافسون في ذلك قال ورايت بقصبتها وهي موضع سكنى الوالي ءاثارا تدل على ضخامتها غير ان الخراب استولى الان على كثير منها وبهذه القصبة قناة ماء تتسرب اليها من خارجها في غاية القوة وقد بني عليها بيت على شكل حمام جاء في نهاية الظرف والحسن وبظاهر هذه البلدة كانت الوقيعة للمنصور ابي يوسف بن

يعقوب

يعقوب بن عبد المومن ملك المغرب على علي بن اسحاق الميورقي ومن معه من العرب والغز في بلاد افريقية فتحرك الى تونس فلما وصل اليها وجه ابن عمه يعقوب بن ابي حفص بن عبد المومن في عسكر ضخم للقاء الميورقي فالتقوا بمقربة من قفصة فكانت للميورقي عليهم الوقيعة المعروفة بوقيعة عمرة قتل فيها اكثر جيوش المنصور وحمل من سلم من القتل فوصل الى قفصة فاستدعاهم الميورقي موهما لهم الامان فلما اجتمعوا اجال السيف على جميعهم فامتعض المنصور من ذلك ونكب واستبد برايه وتحرك من تونس واستخلف عليها اخاه السيد ابا اسحاق ونزل رادس متلوما وقد ظهر تكاسل الناس فعاقب اقواما على تاخرهم وتوجه فلما كان على فرسخين من الحمة سرح سرية الى منازل العرب الذين مع الميورقي فشنت الغارة عليهم ونهبت اموالهم ففل ذلك شوكتهم ثم لبس المنصور لامته وناجزهم الحرب مباشرا لها بنفسه فاستوصلت المارقة وافلت علي بن اسحاق وقراقش فتبعهما الموحدون سالكين سبيلهما حتى اشرفوا على توزر فوجدوهما قد توغلا في صحرائها فرجعوا عنها وانصرف المنصور الى قابس فاحاط بها برا وبحرا الى ان فتحوا له ابوابها مستسلمين وفي ذلك يقول ابو بكر بن مجبر من قصيدة طويلة —

لقد برزت الى هول المنايا   وجوه كان حجبها اللثام

وما اغنت قسي الغز عنها   وليست تدفع القدر السهام

وهي ثابتة في ديوان شعره ٠ ومما قاله هو والجراوي في هذه الوقيعة وثبتت القصيدة في ديوان الجراوي —

راى الشقاء ابن اسحاق احق به   من السعادة والمحدود محدود

وكيف يحظى بدنيا او بآخرة   مخالف عن طريق الرشد مطرود

اعمى ونور الهدى باد له وكذا   من لم يساعده توفيق وتسديد

والسيف ابلغ في من ليس يردعه   من الغواية ايعاد وتهديد

اولى له لو تراخى ساعة لغدا   وريده وهو بالخطي مورود

انحى الزمان على الاغزاز واجتهدت   في قطع خضرائهم احداثه السود

ونازعتهم نفوس الهند انفسهم   فلم يفدهم على الهيجاء تغريد
فهم على الترب صرعى مثله عددا   ان كان يقضى بان الترب معدود
ولوا فلا صاحب عن نفس صاحبه   يغني ولا والد يرجوه مولود
يوم جدير بتعظيم الانام له   فما يقاس به في حسنه عيد
اضحت على فضله الايام تحسده   ان النبيه الرفيع القدر محسود

ثم توجه المنصور الى قفصة فحاصرها حصارا شديدا الى ان خرج اليه اهلها راغبين اليه في العفو فشارطهم على تامين اهل البلد انفسهم خاصة وتبقى املاكهم بايديهم على حكم المساقاة وجميع من عندهم من الحشود والغرباء ينزلون على الحكم فوقع الاتفاق على ذلك وخرج جميع من في البلد من اهله وغيرهم حتى لم يبق فيه الّا النساء فميز اهل البلد وامروا بالرجوع الى بلدهم وبقي من كان به من الغرباء والحشود والاجناد ومن جملتهم ابراهيم ابن فراتكين المعروف بسلاح دار المتقدم فثقفوا ساعة ثم جلس المنصور باثر صلاة الظهر بموضع جلوسه واخذ الناس مراتبهم وامر باولئك المثقفين فقيدوا اليه فامر بذبحهم فذبحوا بين يديه اجمعين لم يفلت احد منهم وكان الاعمى الفهمي حاضرا وهو نحوي فاضل وكان الخليفة يعينه لقراءة اولاده نطلب المنصور ان يسمح له بشخص منهم يتولى ذبحه بيده فاجابه الخليفة الى ذلك ولما اضجع له طلب يسيرا من الملح والصعتر كما يفعله العامة بالضحايا فاضحك بهذا الفعل جميع من حضره وامر المنصور بهدم سور قفصة وقسمه على جميع من بالمحلة فاعادوه في مدة يومين اثرا بعد عين وفي هذه الخطرة هلك اكثر النخيل اذ كان المنصور قد عهد الى ايام حصاره لها ان يقطع كل يوم الف نخلة وفي هذا الفتح يقول ابو بكر بن مجبر —

ما غر قفصة الّا انها اجترست   فلم يكن عند اهل الحلم تثريب
ما بالها زار امر الله حوزتها   فلم يكن عندها اهل وترغيب
تلك البغي التي خانت فحاق بها   وبالزنات بها رجم وتغريب
قد فض شملهم عنها وقد نعبت   فيها من الحين غربان غرابيب

اهـا

اما برد سليما ما يباشـــــره وفيـه للنفس ترغيب وترهيب
هاذي اعاديه قد صارت مقسمة على البلايا فمقتول ومسلـــوب

وعلى قدر منزلة من الحمة لناحية نفزاوة قرية تعرف بمجزم وهي قرية كبيرة وعليها نخيل ممتدة وقصور ومنازل ضخمة بالنسبة الى البادية وبعدها منزلة تعرف بعيون رحال وهي قفرة تنبع بها عينان نضاختان والى جانبها نخيلات يسيرة ٠ وفي تلك المرحلة اليها تنتهي ارض بني احمد وتبتدي ارض زغب وزغب قبيلة تنسب الى زغب الاصغر بن زغب الاكبر بن جرو ابن مالك يجتمعون مع ذباب فبهذا المعنى يقول الذبابيون ان زغبا منهم يريدون لهذا القرب الذي بينهم في الكسب ٠ قـال التجاني وقد تبين من كلامنا هذا ومما تقدم ان زغبا الاكبر ولد ولدين زغبا الاصغر وربيعة ابا ذباب فذباب على هذا هو ابن اخي زغب الاصغر واذا تداعى الزغبيون بزغب فانما يعنون به الاصغر ولو عنوا به الاكبر لدخلت معهم في ذلك ذباب ولكانت ذباب من زغب ٠ قـال التجاني والاشهر في زائه الضم والاجدابي قد ضبطها بالكسر قـال التجاني وكذلك سمعت الفصحاء من اعراب زماننا ينطقون به وكذا ذكر الرشاطي هذا النسب في كتابه قال هو منسوب الى زغب بزاي مكسورة وعين مهملة قـال الامير ابن ماكولاء في الاكمال له والى اليوم منهم خلق بالحجاز زغبيون ولهم غفارة في طريق مكة وبين مجزم هذه وبين طرة مرحلة وطرة احدى قاعدتي بلاد نفزاوة وهما طرة وبشرى ٠ قـال التجاني وقفت عليها ورايت بلدا بالاسم وقرية بالمعنى وهي محفوفة بالنخيل وبها التمر المفضل على جميع البلاد وليس فيها ما ينظر اليه على الجملة غير العين المعروفة بعين طرة فانها بركة ماء متسعة حسنة المنظر شارحة للنفس تدخل البهائم اليها عند الشرب الى محل معلوم لا تتجاوزه وان جاوزته غابت في مغائص لا قعر لها ويذكرون ان لها في كل عام رجلا تقتله لا بد لها من ذلك واكثر ما يكون ذلك في الغرباء ومن ماء هذه العين يكتسب صبغ بلاد نفزاوة عند الغسل ما يظهر

عليه من الرونق والطلاوة . وبمقربة من هذه العين قصبة البلد حيث كانت وقد اعادها الخراب دكا فلم يبق منها إلّا سورها المحيط بها وبخارج هذه البلدة نخيل منفرد يدعى بنخيل فرعون يعتقد جميع اهل ذلك الموضع انه غرس فرعون وهو غير مستملك وثمره مباح لمن اجتاز به من الغرباء . ومن الغريب ما اختصت به هذه البلدة من شدة عصف الريح واتصال ذلك غير مختص بتصل من فصول العام وهم ينسبون ذلك الى طلسم كان مدفونا بها وان بعضهم اخرجه وكسره فكان ذلك سبب دوام الريح هنالك ويزعم اهل نفزاوة ان الرياح انما يشتد عصفها ببلادهم عند نزول الجيوش عليها ويعدون ذلك من جملة الرفق بهم لان الجيوش تسرع الارتحال بسبب ذلك عنهم . ونفزاوة اسم نقل الى الموضع من اسم القبيلة التي سكنت به في اول الدهر وهم بنو نفزاو بن الاكبر بن زيد بن قيس بن الياس بن مضر بن نزار . قـــال الشريف في كتابه المولف لروجار ومن ولد نفزاو هذا جالوت الذي قتله داوود عليه السلام واسم جالوت ضريس بن الاصغر بن نفزاو . ومن نفزاو تفرعت زناتة كلها وهم في الاصل عرب وانما تبربروا بمجاورتهم للبربر من المصاميد ومخالطتهم لهم . وقد اختلف الشيوخ في ضبط نفزاو فبعضهم يفتح النون منها وبعضهم يكسرها ومن المنتسبين الى طرة هذه الشيخ ابو يعقوب الطري صاحب الرسالة التي اولها « الحكمة صناعة نظرية يستفيد منها الانسان تحصيل ما عليه الوجود في نفسه » قسم فيها مدلولات لفظ العقل ومراتبه تقسيما اخذ جله من كلام الامام ابي حامد الغزالي رحمه الله تعالى فوقف على رسالة الشيخ ابي علي النفطي رحمه الله تعالى فخاطبه بالرسالة التي اولها - الم يان للذين آمنوا ان تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق -

اما آن من صبح الرشاد تنفس وحتى متى ليل الضلال معسعس
تراني ارى فجر الهدى متعرضا وما لي اصباح ولا اشمط حندس
وما حذري إلّا شعوب مغـيـرة فينزع للترحال صب معرس

من شيبان الابلة الى الحبر ابي يعقوب اما بعد فان كتابك قد ورد مشتملا على

على ماهية العقل وحقيقته وقد اتيته وافيا بمقصودك غير واف بمقصودي ولست ممن منع عن الدر بالصدف واقتنى علوما لم يومر بها شرعا فاستغرقت فيها همته حتى نزلت به قدم الغرور في مهواة من التلف وكلما تذروه رياح الموت فالهمة تقتضي تركه وقد استشهدت بالحديث في النظر في تغير الاسباب والترقي منها الى متسببها فالامر كما ذكرت لكن ليست اسباب هي ظلمات ثلاث بل هي اسباب نورانية يستدل بها على متنورها بمعرفة النفس وهو مقام محمود وهو مقام المقربين الذين يمزج من شرابهم الصرف لاصحاب اليمين فالمقرب من عرف نفسه موحدا لربه وهاهنا نظر لا يسلم الّا لمن سلم من رعونات البشرية والحظوظ النفسانية ويمكن الارتقاء الى من عرف ربه موحدا لنفسه ۰ وقد من الله سبحانه بعلوم جليلة ربانية محمدية يعضدها الشرع ويشهد لها العقل السليم الجامع بين الاصل والفرع كالجمع والافتراق وخرق السبع الطباق وحقيقة المورخين — وما اشتملت عليه ارحام الانثيين — والترقي من الاين الى حيث لا اين وكيفية الارواح والاشباح وسكون الليل وانفلاق الصباح واختلاف الالسن والاصوات ومنطق كل شيء وعجائب الايات الى غير ذلك مما لم يلف قط مسطورا وقد اضمحل الوجود وبطل دعواه وبرز المكنون على كل شيء كلا بل هو الله واعرب بلسان ناطق فصيح غمزا او رمزا — هل تحس منهم من احد او تسمع لهم ركزا —

بل لو ترانا والاحبة بيننـــا لرايت غزلانا تصيد سباعـــا

بل لو ترى تلك البقاع وحسنها لظللت بالحسن البديع مراعا

كذا وقع مراعا وفعله ثلاثي فانما هو مروع —

شوقي طباع واصطباري كلفة وارى التكلف لا يزيل طباعا

وكثيرا ما يشير الى مطالعة كتب حرام الوقوف عليها عقلا وشرعا ولنا في رسول الله صلى الله عليه وسلم اسوة حسنة — من يطع الرسول فقد اطاع الله — وكفى بهذا جمعا والحنيفية السمحة قد اشرق سراجها وغمر نورها وقهر سلطانها كل اشوس عاتي القلب ليس له تحقيق اهل الاصول ولا ترقيق

اهل الوصول الهمج الرعاع الذين هم لكل ناعق اتباع قد اوثق الغي عقولهم
فهم في ريبهم يترددون عافتي معرفتي ارى الشر من ذي النباهة قريب
وكاني بسيدي يقول شب عمرو عن الطوق وما احوجه في حقيقة الشرع
وحالة التصوف الى شي من الذوق واعلم انه لا تظهر حالة حسنة الّا
بملازمة اصل صحيح فان كنت ممن اراد الاخرة وسعى لها سعيها واناب
الى الله بقلب سليم فها انا اقبل قدميك متبع لما يوحى اليك والّا فاطو عني
طومار الهذيان ولا تتعقع لي ــ يا ابت اني قد جاءني من العلم ما لم
ياتك فاتبعني اهدك صراطا سويا ــ يا ابت لا تعبد الشيطان ان الشيطان
كان للرحمان عصيا ــ يا ابت اني اخاف ان يمسك عذاب من الرحمان
فتكون للشيطان وليا ــ قال ــ سلام عليك سانستغفر لك ربي انه كان بي
حفيا ــ ولما استبان الصبح ادرج ضوءه بانواره انوار ضوء الكواكب اشرق
في الليل نور بهجته ولاح حتى طفات المصباح ــ

ما زلت انكر ايامي واعرفها   متى استبانت فلا بيض ولا سود
وجائل في بحار الكشف مختبطا   لا القرب قرب ولا الابعاد تبعيد

جعلنا الله واياكم من الموحدين المتبعين ولا جعلنا من الملحدين المبتدعين
ــ وما كان لنا ان ناتيكم بسلطان الّا باذن الله وعلى الله فليتوكل المومنون ــ
وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيئين وعلى ءاله وصحبه اجمعين *
قال ابن الشباط رحمه الله اعلم ان نفزاوة تشتمل على بلاد كثيرة اعظمها
مدينتان احداهما يقال لها بشرى والاخرى يقال لها طرة وبها تنزل العمال
وكلتاهما فيهما العيون والمياه الجارية والنخيل والثمار ويصنع بها انواع من
الملابس الحسنة مما يتنافس فيه . قال البكري رحمه الله ولمدينة نفزاوة
عين تسمى بالبربرية تاورغى وهي كبيرة لا يدرك لها قعر . قال ابو الحكم
صلت ابن الدلاءي يرمى فيها الرمح فيرتفع فوق الماء بقدر ما غاص فيه .
قال البكري رحمه الله ولمدينة نفزاوة سور صخر وطوب ولها ستة ابواب
وبها جامع وحمام واسواق حافلة وهي على نهر كثير النخيل والثمار وحواليها

عيون

عيون و بتبيلها مدينة اولية تعرف بالمدينة وعليها سور وبها جامع وحمام وسوق وحولها عيون وبساتين وبين مدينة نفزاوة وقابس ثلاث مراحل وبينها وبين قفصة مرحلتان وهي على ثلاث مراحل من قيطون بياضة فمن قيطون الى نفطة مرحلة ومنها الى توزر مرحلة ومنها الى نفزاوة مرحلة ومنها تسير الى بلاد قسطيلية وبينهما ارض سواخة لا يهتدى للطريق فيها إلّا بخشب منصوبة فان ضل احد يمينا او شمالا غرق في ارض ديماس تشبه في الرطوبة بالصابون وقد هلكت فيها العساكر والجماعات ممن دخلها ولم يدر امرها وتصل هذه الارض السواخة الى مدينة غدامس . وفي ميلومة الفاضل مما يتعلق بذكر طرة — قـال وفي سنة ست وثمانين وخمسمائة وصل الخبر بان الميورقي حصر ياقوتا نائب قراقش في طرة حتى اخذه واخذ من الغز الذين كانوا معه مائة فارس اضافهم الى جنده فاطبقت على طاعته العربان واستولى على بلاد الجريد . وفي فصل من تاريخ ابن نخيل قال ولما وصل الناصر الى افريقية في سنة احدى وستمائة خرج الميورقي من تونس ووصل بعسكره الى القيروان فاقام بها اياما ثم انتقل منها الى قفصة ومن قفصة الى جبل دمر وفي خلال تنقله الى تلك الجهات بلغه من اهل طرة من اقليم نفزاوة ما غيره عليهم فوصل اليها وقاتلها حتى افتتحها ثم اطلق الجند عليها فقتلوا الرجال وانتهبوا الاموال وافتضوا الابكار وخربوا المنازل والديار ووجد الميورقي بها رجلين من اجناد الموحدين كانا قاطنين بها منذ زمان فضرب رقابهما صبرا وتركت طرة خاوية على عروشها وخرج من سلم من اهلها فتفرقوا في بلاد نفزاوة . وممن ذكر قفصة ابراهيم الزوال الاندلسي ذكره الصفدي في الجزء الحادي والعشرين من كتابه الوافي في حرف الهمزة بما نصه : ابراهيم بن علي بن ابراهيم بن محمد بن عبد الله بن اغلب الخولاني الاديب الاندلسي المعروف بالزوال بالزاي والواو والالف واللام سمع ... وقال الشعر وتوفي سنة ست عشرة وستمائة بمراكش ومولده في ... سنة اربعين وخمسمائة ومن شعره في فتح قفصة — ... التي وردت

سائل بقفصة هل كان الشقي لها   بعلا وكانت له حمالة الحطب
لا كان من كافر بالله الهبها   فكان بالكافر الاشقى ابا لهب

وكان يقال فيه الزويلي بالياء آخر الحروف كان معربا اديبا شاعرا مورخا راوية روى عن ابي مروان بن قرمان ولازمه كثيرا وكان اقعد الناس به وروى عن ابي الحسن بن هذيل وجماعة كبيرة واخذ الناس عنه لعلوه بابن قرمان وهو آخر من حدث عنه بالسماع وسمع منه ابن عساكر وابو إسحاق بن عبيد الله الخطيب قاله ابن الزبير ابو جعفر الاستاذ وكان ثقة . ومن اهل قفصة اسماعيل بن علي ابو طاهر المعروف بكاتب الكرامة . قال ابن رشيق في الانموذج شاعر لطيف حلو الكلام كتب الكرامة للعزيز بالله ثم فارقه وتوجه الى ناحية الشرق سنة ثلاث عشرة واربعمائة ولم يظهر له خبر ولا حفظ له إلّا قوله —

ولقد قطعت الليل في دعة   من غير تأثيم ولا ذنب
باعز من بصري على بصري   واحب من قلبي الى قلبي

وكان مستعفا مشهورا بذلك ولا ادري هل اتى عليه او لا . وعلى مقدار اثني عشر ميلا من طرة قرية بشرى وهي القاعدة الثانية من اقليم نفزاوة يمر الواصل اليها على قرى كثيرة منها قرية تعرف بكليكل وقرية تعرف بياسك وقرية تعرف ببني ابي يوسف وقرى سواها . وقرية بشرى قرية ضخمة بالنسبة لما قبلها من قرى نفزاوة وبخارجها عين تعرف بعين تاورغي اعظم اتساعا من عين طرة واقوى ماءً إلّا ان في تلك حسنا ليس في هذه وبها السفرجل قل ان يناظره في جميع البقاع او يقرب منه طيب مطعم وضخامة جرم وكثرة ماءٍ وخلوص صفاءٍ وليس يشبهه إلّا السفرجل الموجود بتاجورة من قرى طرابلس . قال التجاني وصليت العيد في مصلاها فسمعت خطيبا صلت . الفصاحة وخطبة في نهاية البلاغة فقيل لي انها من انشاء ابي ... قال البكري ... حيون من اهل نفزاوة . وبعد قرية بشرى السبخة المعروفة وبها جامع وحمام ابو الحجاج يوسف ابن المنصور هي من غرائب الدنيا التي

اغفلها

اغفلها المورخون واهمل وصفها الاخباريون فانها اميال في اميال سطحا واحدا كالعجين المسبوك او المرمر المحكوك يكاد ينفذه البصر لصفائه وكانما هو غدير جمد بمائه قال وان وقت صلاة الصبح والناس يمشون فيها كانهم صلوا منها على بساط من الكافور او سطح من البلور وبها معالم من جذوع النخل تمنع السالك من الخروج عن طريقها المسلوك يمينا وشمالا لان ما على يمينها وشمالها من الارض لا تثبت عليه قدم ولا يسلكها احد جهلا بها إلّا غاص فيها لما لا قعر له . قال البكري في المسالك وقد هلكت فيها الجماعات والعساكر ممن دخلها ولم يدر امرها واذا غاص فيها احد التامت عليه الارض في الحين وعادت كما كانت . وذكر محمد بن ابراهيم بن جامع المرداسي قال سلكتها قافلة لنا فيها الف جمل فنفر بعير منها عن الطريق وتبعه باقي الابل فلم يكن اسرع من ان ساخت الارض وغاص فيها الالف جمل ثم عادت الارض كما كانت وكان لم يكن لتلك الابل اثر . قال ابو الحجاج يوسف وكنا خططناها وتمادى بنا المشي الى وسط النهار وتولى علينا تكرار الحافر وتردد الاثار وغرق منها نحو مائة ذراع فيما يقرب من البر فكل ما تاخر من الحمولة والاثقال ابتلعته وساخت الجمال باحمالها فما اخرجت إلّا اشلاء بعد نحرها حيث ساخت فهلك بذلك جملة من الزاملة وذهب اكثر الحمولة . قال التجاني واما انا فشاهدت الرجل يضع سافلة الرمح على الارض ويعتمد عليها الى عاليته ولو زاد دفعا لازداد نزولا فاذا جذبه عادت الارض الى حالتها الاولى . قال ووجدنا كثيرا من تلك المعالم قد سقطت وابعدتها الريح عن مكانها وتحت كثير منها عظام والى جانب عمود منها امراة قد ضمت يديها على طفلة فماتا معا . ويذكرون عنها انها غاضبت زوجها بنفزاوة وحلفت ان لا تبيت يومها ذلك إلّا بتوزر او غاضبته بتوزر وحلفت ان لا تبيت إلّا بنفزاوة وخرجت من حينها مع ابنتها فماتا بطريقهما ومما العجب ان هذه السبخة لا يمكن ان يشرب فيها ماء عذب والنخل استصحب فيها عاد بهوائها مالحا اجاجا على طبعها . قال التي وردت

احسن ما قــال وانشدنيه لنفسه الفقيه الحكيم الفاضل ابو ابراهيم بن حسينة يصف هذه السبخة وما لقيناه في قطعها —

قطعنا التاكمرت سرى وسرنـا صبيحة يومنـا حتى الزوال

فلا تسال بما قاسيت فيــه من الاهوال والوكب الثقـال

عناء ليس يشبهه عنـاء يضيق لديه متسع المقـال

وليل لا تسير به نجــوم كان نيطت الى بعض الجبال

وارياح تصم الاذن منهـا تهب من اليمين مع الشمال

تصد عن الطريق القصد قصدي وتضرب حر وجهي بالرمـال

ولا اسطيع فتح العين فيهـا لبعض الامر الّا باحتيـال

واجهد في دفـاع النوم عني لخوفي من سقوط او ضـلال

وما زلنا نكابد في سرانـا مهالك لا تقابل باحتيـال

الى ان لاحت الغابات ظهرا بظاهر توزر مثل الخيـال

فهنا بعضنا بعضا سـرورا ونلنا راحة بعد الكـلال

وبعد هذه السبخة بقريب مدينة توزر خارجها يجمع نوع الحسن ويستوفيه وداخلها يصدق ما قاله ابن زنون فيه واشعار ابي عبد الله محمد بن زنون فيه اشهر من ان تذكر ها وتوزر هي قاعدة البلاد الجريدية وليس في بلاد الجريد غابة اكبر منها ولا اكثر مياها واصل مياهها من عيون تنبع من الرمل وتجتمع خارج البلد في واد متسع تتشعب منه جداول كثيرة تتفرع عن كل جدول منها مذانب يقسمونها بينهم على املاك لهم مقررة ومقاسم من المياه معروفة ولهم على قسمتها امناء من ذوي الصلاح فيهم يقسمونها على الساعات من النهار والليل بحساب لهم في ذلك معروف وامر مقرر مالوف وعلى ذلك الماء ارحاء كثيرة منصوبة . ومن العجب ان هذا الوادي يحتمل ما يحتمل صلك عراو غيره فاذا انتهى ذلك الى المقسم افترق هنالك اجزاء بالسوية قال البكري ابواب فمضى كل قسم منها الى مسرب منها قال التجاني وهذا وبها جامع وحمام عيانا . وكثير من اهلها انما يسكنون بغابتها ولا مناسبة

بين

بين مباني الغابة ومباني داخل البلد فمباني الغابة اضخم واحسن . وبداخل البلد جامعان للخطبة وحمام واحد ومتفرجهم بموضع يعرفونه بباب المنشر وهو من احسن المتفرجات لان مجتمع الماء هنالك ومنه يتفرع كما تقدم ويجتمع به القصارون فينشرون هنالك من الثياب الملونة والامتعة الموشية ما يعمه على كبره فيتخيل للناظر انه روض تفتحت ازهاره واطردت انهاره . وليس بتوزر احسن من هذا الموضع وهو خارج عن غابتها والغابة ملاصقة لسور المدينة وبذلك تمت حصانتها . وقد وصفها بعض شعرائها فقال من قصيدة طويلة ارتبها على حسب ما اخترت منها —

زر توزرا ان شئت روية جنة ... تجري بها من تحتك الانهار
نهر على رمل يسيل كانه ... رقة تماع على النظار تمار
ابدا وفاكهة حوت وحدائقا ... غلبا تغرد فوقها الاطيار
جناتها مثل الجنان فارضها ... مسك ونشر نسيمها معطار
دوح يزف ومنظر يسبي النهى ... وبرود روض وشيها الازهار
ومذانب مثل القواضب جردت ... خلعت عليها لونها الاشجار
وتناثرت مثل الدراهم فوقها ... انوارها فتضاعفت انوار
فاذا يهب نسيمها ذاعت به ... من نشر ازهار لها اسرار
والنخل مثل عرائس مجلوة ... تبدي بدائع حليها الاطوار
واذا هززت بجذعهن تساقطت ... رطبا جنيا نثرهن نثار
قطر من الاقطار اشرق حسنه ... فكانما الليل البهيم نهار
كم فيه من معنى جمال رائق ... تصبو لروية حسنه الابصار
كملت محاسنه وطاب حديثه ... فبذكره تتزين الاسمار
يا ايها الثاوي به من اهله ... او غيره ممن حوته الدار
لا تصبون الى سواه فانه ... للدين والدنيا هدى ومنار
هو جنة قد اصبحت محفوفة ... بمكاره هي للقلوب شعار
يا جنة لولا شوائب صفوها ... تم النعيم بها وعز الجار

ايامنا مصقولة اطرافهـــــــا بك والليالي كلها اسحــــار

قــال التجاني واهل توزر من بقايا الروم الذين كانوا بافريقية قبل الفتح الاسلامي وكذلك اكثر بلاد الجريد لانهم في حين دخول المسلمين اسلموا على اموالهم وفيهم قوم من العرب الذين سكنوها بعد الافتتاح وفيهم ايضا من البربر الذين دخلوها في قديم الزمان عند خروجهم من بلادهم فان بلاد البربر انما كانت ارض فلسطين وما جاورها من بلاد الشام وكان ملكهم جالوت المذكور في القرءان العظيم فلما قتله داوود عليه السلام تفرقوا في البلاد وتوجه اكثرهم الى افريقية وبلاد المغرب وكانت افريقية للروم فاجلتهم البرابر الى جزائر البحر كصقلية وغيرها ثم تراجعت الروم الى بلادها على مواعد وصلح مع البربر فاختارت البربر سكنى الجبال والرمال واطراف البلاد وصارت الروم الى البلد والعمائر حتى جاء الاسلام وافتتحت البلاد ففر جميع من فيها الّا من اسلم او ادى الجزية كاهل الجريد هولاء . وقد اشتهر عندهم ما اشتهر من بيع فضلاتهم وهم يعيرون بذلك كما يعير اهل قابس . ويعير هولاء ايضا باكل لحوم الكلاب . قــال التجاني ولم ار منهم الّا مقرا باكلها مستطيبا للحومها وقديما ما هجي من هجي باكل لحوم الكلاب . وممن اشتهر بذلك من قبائل العرب بنو اسد ثم بنو فقعس . وقد قال الفرزدق —

اذا اسدي جاع يوما ببلـــدة وكان سمينا كلبه فهو ءاكله

وقال مساور بن هند —

اذا اسدية ولدت غلامـــــا فبشرها بلوم في الغــــلام
يخرسها نساء بني دبيـــــر باخبث ما يكون من الطعام
ترى اظفار عقد ملقيـــــات براضنها على وضم الثمـــام

يخرسها اي يجعلن لها الخرس بضم الخاء المعجمة وسكون الراء وهو طعام صلـ[illegible]رة وقال مساور بن هند ايضا —

قــال البكري[illegible] ان تمحل العام فاقعسن فهذا اذن دهر الكلاب وعامهـــا

وبها جامع وحمام ثابت يذكر هذيلا ويعيرهم باكل لحم الكلاب ولحوم الناس —

ان

ان سرك القدر صرفا لا مزاج له   فات الرجيع وسل عن دار لحيان
قوم تواصوا باكل الجار بينهم   فالكلب والشاة والانسان سيان

وليس يوقف لوقت بناء توزر على تحقيق لقدم العهد في ذلك وبعض المورخين يقول ان بناءها من زمن الطوفان من نوح عليه السلام . قال التجاني ولما افتتح المسلمون توزر بنوا بازاء كل كنيسة مسجدا قال ابو محمد محمود العيني في كتابه عقد الجمان توزر بضم التاء وسكون الواو وفتح الزاي وفي آخرها راء مهملة قاعدة بلاد قسطيلية ولها نخل ومحمصات ونهر يسقي بساتينها . قال ابن سعيد وبلادها جزائر في وسط الرمل والصحاري المكتنفة بها وبها الكتان والحناء . وفي صلة السمط قال الفقيه ابو العباس الدلاءي رحمه الله في وصف مدينة توزر ناقلا عن اختصار اقتباس الانوار بعد تقديم ما جاء من الفضل في النخل ما نصه : اعلم ان من ذلك ما جاء في الكتاب العزيز الذي هو القرءان والحجة البالغة والفرقان ومنه ما جاء في السنة السوية عن سيد البرية صلى الله عليه وسلم ومنه ما جاء عن الصحابة الابرار وغيرهم من ذوي الحكمة والاعتبار فاما ما جاء من ذلك في الكتاب العزيز فقوله جل جلاله وتباركت اسماوه — فيهما فاكهة ونخل ورمان — فعد ذلك سبحانه في نعيم اهل الجنة وقوله جل وعز لمريم ابنة عمران — وهزي اليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا — وقوله جل وعز — وضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة اصلها ثابت وفرعها في السماء توتي اكلها كل حين باذن ربها — قيل الكلمة الطيبة لا اله الا الله والشجرة النخلة وقوله عز وجل — ومن ثمرات النخيل والاعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا — وقوله عز وجل — ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من اعناب — وقوله عز وجل — وفي الارض قطع متجاورات وجنات من اعناب وزرع ونخيل — وقوله عز وجل — واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لاحدهما جنتين من اعناب وحففناهما بنخل — وقوله عز وجل — والنخل باسقات لها طلع نضيد رزقا للعباد — الى غير ذلك من الايات التي وردت

منبهة على وجه المنة والنعمة بخلق النخل . وابو العباس الدلاءي منسوب
الى دلاية قرية من قرى الاندلس من اعمال المرية وهو احمد بن عمر بن
انس العذري محدث مشهور جليل القدر سمع من ابى ذر وابي العباس
الرازي وغيرهما ومن طريقه يروي الفقيه ابو حفص التوزري رحمه الله
كتاب مسلم مولده ليلة السبت لاربع خلون من ذي القعدة سنة ثلاث
وتسعين وثلاثمائة توفي بالمرية ليلة الاربعاء وبها دفن بعد صلاة العصر
لعشر بقين من شعبان سنة ثمان وتسعين واربعمائة وصلى عليه ابنه انس .
وكتاب الفقيه ابي العباس في البلدان من اجل ما صنف في هذا الشان
قال صاحب السمط وقد وقفت على بعضه وكتب الفقيه ابو حفص في
آخر الكتاب من صحيح مسلم قال ابو علي يعني شيخه ابا علي الصدفي
رحمه الله انتهيت بالسماع على ابي العباس العذري في قراءة ابي الحسن
طاهر مفرز بن احمد بن مفرز المعافري بمسجد المرية من شرقي الاندلس
من كتاب العذري قال وانا امسك بكتابي هذا ايضا بعد ان علم بعلامة
العين واراها لشيخه ابي علي رحمه الله قراته على الفقيه ابي العباس
احمد بن عمر بن انس العذري المعروف بابن الدلاءي ببلنسية سنة اربعين
واربعمائة قال وحدثني به عن ابي العباس احمد بن الحسن بن مغدار
ابن جبريل الرازي قال حدثنا ابو احمد الجلودي قال حدثنا ابراهيم بن
احمد بن سفيان قال حدثنا مسلم بن حجاج قال صاحب كتاب تشبيهات
القرءان بعد ما ذكر ما قيل من انه تعالى عني بالشجرة الطيبة النخلة
ويشهد لهذا التاويل ما جاء في الاثر من فضيلة النخل وان النبي صلى الله
عليه وسلم بارك وقال ـ خير المال سكة مابورة وفرس مامورة ـ السكة
الطريقة المصطفة من النخل والمابورة بالهمزة الملقحة من الابر وهو القاح
النخل يقال ابرها بالفتح يابرها بالكسر ابرا بالسكون والابار بكسر الهمزة الاسم
والتابير مصدر ابر بالتشديد . وقوله صلى الله عليه وسلم وفرس مامورة
ويروى ومهرة مامورة وهي الكثيرة الولادة والنسل واصله عند بعض الادباء

مومرة

موبرة من آمرت الشيء آمره بالمد اذا اكثرته يقال امر الشيء بالكسر وامرته ثم غير على رايه للاتباع لقوله صلى الله عليه وسلم مابورة . واعلم ان هذا التغيير لا ينبغي ان يسار اليه الّا بدليل وقد جاء امرته بالقصر بمعنى آمرته بالمد اي كثرته فيحتمل ما جاء في الحديث على هذه اللغة لا على الاتباع والحديث حجة على ما سواه . واما السنة فمنها ما جاء في الموطا وفي كتاب مسلم بسنده عن عبد الله ابن دينار انه سمع عبد الله ابن عمر رضي الله عنهما يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم — ان من الشجر شجرة لا يسقط ورقها وانه مثل المسلم فحدثوني ما هي — فوقع الناس في شجر البوادي قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما فوقع في قلبي انها النخلة فاستحييت ثم قالوا حدثنا ما هي يا رسول الله قال فقال — هي النخلة — قال فذكر ذلك لعمر قال لان تكون هي النخلة احب الي من كذا وكذا . وفي حديث آخر في كتاب مسلم ايضا — مثلها مثل المومن . ومنها ما جاء في كتاب مسلم ايضا في فضائل ابي طلحة الانصاري رضي الله عنه انه جاءه صلى الله عليه وسلم بالمولود الذي ولد بعد موت ولد كان له قبله قال فوضعه في حجره صلى الله عليه وسلم ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بعجوة من عجوة المدينة فلاكها في فيه الشريف صلى الله عليه وسلم حتى ذابت ثم قذفها في فم الصبي فجعل الصبي يتلمظها قال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم — انظروا الى حب الانصار التمر — قال فمسح وجهه وسماه عبد الله . واعلم ان كل حديث ورد في هذا المعنى فهو دليل على فضل النخل والتمر . ومنها ما جاء في كتاب الشبهات من قوله صلى الله عليه وسلم — نعم المال الراسخات في الوحل المطعمات في المحل . وقوله صلى الله عليه وسلم خير المال سكة مابورة وفرس مامورة . ومنها في الموطا عن ابي هريرة انه قال كان الناس اذا راوا اول التمر جاءوا به الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاذا اخذه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال — اللهم بارك لنا في ثمرنا وبارك لنا في مدينتنا وبارك لنا في صاعنا وبارك

انا في مدنا اللهم ان ابراهيم عبدك وخليلك ونبيك وانا عبدك ونبيك وانه دعاك لمكة وانا ادعوك للمدينة بمثل ما دعاك به لمكة ومثله معه — ثم يدعو اصغر ولد يراه فيعطيه ذلك التمر . وفي رواية اخرى عن مالك فاذا اخذه رسول الله صلى الله عليه وسلم وضعه على وجهه ثم قال — اللهم الى ءاخره . ومنها ما ذكره صاحب تشبيهات القرءان قال كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول — اذا اقبل الرطب فهنئوني فاذا ذهب فعزوني — وقال — اطعموا نفساءكم الرطب فان الله عز وجل لو علم شيئا خيرا منه لاطعمه مريم حين نفست بعيسى — عليه السلام . قال انس بن مالك اولم النبي صلى الله عليه وسلم على صفية بتمر وسويق . وذكر كمال الدين الدميري رحمه الله في مادة الدود من كتاب حياة الحيوان ما نصه وروى ابن عدي بسند فيه عصمة بن محمد بن فضالة عن ابن عباس رضي الله عنهما ان النبي صلى الله عليه وسلم قال — كلوا التمر على الريق فانه يقتل الدود — . واما ما جاء عن الصحابة رضي الله عنهم فمنه ما جاء في الامالي عن ابي علي القالي قال ذكروا عند عمر رضي الله عنه ايما افضل الرطب ام الزبيب قال — ليس كالصقر في رءوس الرقل الراسخات في الوحل المطعمات في المحل تحفة الصائم وتعلة الصبي ونزل مريم ابنة عمران وينضج ولا يعني طابخه ويحترش به الضب من الصلعاء ليس كالزبيب الذي ان اكلته ضرست وان تركته غرثت — . والقالي منسوب الى قاليقلا مدينة من مدن ارمينية وابو علي يقال له ابو علي البغدادي لسكناه ببغداد والله اعلم وقيل له القالي لانه ورد بغداد مع قوم من اهل قاليقلا فكانوا يكرمونه لمكانه من الشعر ومكانهم قريب من بلده فانتسب اليهم فغلب عليه القالي وهو مشهور لا يحتاج الى الاطناب . والصقر بفتح الصاد المهملة وسكون القاف الدبس بكسر الدال وسكون الباء الموحدة وهو عسل التمر وليس المراد بقوله ليس كالصقر والله اعلم الصقر نفسه وانما المراد التمر فسماه صقرا لاشتماله على عسله وان ذلك يقطر من بعضه وهو على رءوس النخل بخلاف الزبيب

الذي

الذي ليس له عسل ولذلك ليس كالصقر الذي في رؤوس الرقل والصقر انما يخرج من التمر بعد ما يزول من رؤوس النخل ويبقى مدة • وقال في الصحاح الدبس ما يسيل من الرطب • وقال ابن قتيبة واهل الحجاز يسمون الدبس الصقر • وقوله ليس كالصقر كلام فيه حذف ويحتمل وجهين احدهما ان يكون المراد ليس شيء من الثمار كالصقر الثاني ليس الزبيب كالصقر • والرقل بفتح الراء المهملة وسكون القاف الطوال من النخل واحدها رقلة وقوله الراسخات اي الثابتات والوحل بسكون الحاء وفتحها الطين والمراد انها تنبت بالطين وتنمو على ذلك ولا يتزحزح اصلها بخلاف اكثر الاشجار ولا يضرها كونها في الوحل دائما بخلاف غيرها • وذهب بعضهم الى ان المراد بالراسخات في الوحل التي تشرب بعروقها من الارض والاول اظهر والله اعلم • والمحل الجدب يقال امحل فهو ماحل وقد جاء ممحل في الشعر وقوله تحفة بفتح الحاء والتعلة بفتح التاء وكسر العين المهملة وتشديد اللام ما يعلل به المرء والمعنى ان الصبي يعلل به عن اللبن او غيره فيذهب بكاره وعلته • وقوله ونزل مريم بضم النون والزاي قال ابو علي في تفسيره والنزل ما ينساغ من الطعام وقيل الاولى أن يحمل قوله النزل هنا على ما يهيا للنزيل من الطعام والنزيل هو الضيف يقال نزل بالضم والسكون • وقوله وينضج بفتح الضاد اي يطيب يقال نضج اللحم والتمر بالكسر نضجا بضم النون ونضجا بفتحها اذا ادرك فهو نضيج وناضج وانضجته انا • وقوله ولا يعني بالتشديد اي لا يتعب والعناء التعب • وقوله ويحترش بالحاء المهملة والشين المعجمة اي يصاد والضب حيوان معروف والصلعاء الارض التي لا نبت فيها هذا قول ابي علي البغدادي رحمه الله • وقال البكري الصلعاء ارض لبني عبد الله بن غطفان قال والارض التي لا نبات فيها ضب والصلعاء هذه مضبة • قال ابن الشباط يحتمل ان يكون قول ابي علي محمولا على الضب التي تكون خالية من النبات ويكون فيها وجار الضب وان كان ما حولها فيه النبات وحملت على هذا اولى من ان يخص ذلك

بصلعاء بني عبد الله بن غطفان فان ذلك التخصيص لا فائدة فيه والله اعلم ٠ والصلعاء هنا بالصاد والعين المهملتين وقد جاء في غير هذا الخبر الصلفاء وهي الارض الصلبة وقد يكون ارضا بعينها ايضا ٠ وقوله ضرست اي تألمت اضراسك وفي الصحاح الضرس بالتحريك كلال في السن من تناول شي حامض وقد ضرست اسنانه بالكسر وقال ابن القوطية وضرس الرجل ضرسا وجعته اضراسه من اكل الحامض ٠ قال ابن النشباط والمراد بالضرس في هذا الخبر والله اعلم تألم اضراس آكل الزبيب من رض عجمه واما الحموضة وان كانت توجد في بعض اصنافه فلا يبلغ حالة آكله مع ذلك الى الضرس الا ان يكون الكلام خرج على جهة المبالغة والله اعلم ٠ وقوله غرثت بكسر الراء اي جعت يقال غرث الرجل بالكسر غرثا بالفتح فهو غرثان * واما ما جاء عن غير الصحابة رضي الله عنهم فمنه ما ورد في الاخبار ومنه ما ورد في الاشعار اما ما ورد في الاخبار فمنه ما يحكى ان ملك الروم كتب الى عمر بن الخطاب رضي الله عنه — بلغني ان بارضكم شجرة تطلع مثل آذان الحمر ثم تنشق عن مثل اليقق الابيض او الدر الابيض ثم تخضر عن مثل الزبرجد الاخضر ثم تصفر عن مثل الذهب الاصفر ثم تحمر عن مثل الياقوت الاحمر ثم ترطب فتكون احلى من الفالوذج اكلا ثم تيبس فتكون قوتا للمقيم وزادا للمسافرين فان صح ذلك فهذه شجرة من الجنة ٠ فكتب اليه عمر رضي الله عنه بما معناه ما اخبرتك به رسلك صحيح وهي الشجرة التي امر الله عز وجل مريم بنت عمران ان تهز بجذعها حين نفست بعيسى عليه السلام فاتق الله ولا تتخذه الاها من دون الله ٠ وقوله تطلع بالفوقية اي تخرج طلعها يقال اطلعت النخلة اذا ابدت طلعها وقوله عن مثل اليقق الابيض كذا سمعته من بعض اصحابنا فيما يغلب على ظني الا ان فيه اشكالا فان اليقق هو الشديد البياض الناصع فاذا قلنا اليقق كان في تقدير شديد البياض فكان قوله الابيض بعد قوله اليقق تكرارا لا فائدة فيه لكنه يحمل على المبالغة والتاكيد وقد

عارض

دارين ذلك ما شك انه سمع مثل اليقق الابيض او الدر الابيض . وقوله ثم ترطب بضم التاء يقال ارطبت النخلة اذا صار بسرها رطبا وارطب البسر صار رطبا . والفالوذج بفتح الذال المعجمة وبالجيم وهو الجاري على الالسنة والوارد في بعض الاخبار وهو طعام يصنع بالعسل والسمن . قيل للحسن البصري رحمه الله تعالى ان فلانا يعيب الفالوذج فقال ايعاب البر بلعاب النحل بخالص السمن ما اعاب هذا مسلم ذكر ذلك ابن قتيبة في عيون الاخبار والحافظ في البيان وفي تفسير القرءان للثعالبي رحمه الله في شرح قوله تبارك وتعالى — لا تحرموا طيبات ما احل الله لكم — روي عن عائشة رضي الله عنها وابي موسى الاشعري ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ياكل الدجاج والفالوذج وكان يعجبه الحلو والعسل وقال المومن حلو يحب الحلاوة وقال في بطن المومن زاوية لا يملاها إلّا الحلو . وروي ان الحسن كان ياكل الفالوذج فدخل عليه فرقد السبخي فقال يا فرقد ما تقول في هذا فقال لا اكله ولا احب اكله فاقبل الحسن على غيره كالمتعجب وقال لعاب النحل بلباب البر مع سمن البقر يعيبه مسلم . وجاء رجل الى الحسن فقال ان لي جارا لا ياكل الفالوذج قال ولم قال يقول لا نودي شكره فقال الحسن ايشرب الماء البارد قال نعم قال ان جارك جاهل ان نعمة الله تعالى عليه في الماء البارد اكثر من نعمته في الفالوذج . وقوله ان تهز بجذعها الجذع كان يابسا وكان زمن شتاء فهزت به فعاد نخلة وتساقطت عليها رطبا جنيا . قال جامعه عفا الله عنه واحياء موات النخلة لاجل عيسى عليه السلام تاكيد لدفع ما يريب مريم عليها السلام واقامة دليل على من ينكر صديقيتها . ولسان حال الخارقة يقول ان من شانه ان يطلع هذه النخلة من جذع يابس لا مطمع في حياته بعد ان اجرى ماءها فاحياها ثم انبت لها ورقا فطلعت واطلعت ووشى صفحتي عذارها باقراط جمارها —

جسم وطيب اللمس لكنـــــه قد لف في ثوب من الصوف

وانبت زرعه واطلع طلعه —

كصدر فتاة ناهد شف قلبها سماع فشقت عنه ثوبا ممسكا

ونشر على طويل ذلك المتن شرحه وطرز بحواشيه باحسه

مكاحل من زمرد خرطت مقمعات الرؤوس بالذهب

وخلع على صبير جذعه لطيف يسره واطلع تحت اهلة جريده ثريا بسره

كانما خوصه عليه زبرجد مثمر عقيقا

وملا موائد رتبه بجفان رطبه

اهليلج من لجين مسمر بالنضار

حتى آن انضاج ثمره فجنوا بانامل الشكر يواقيت تمره

يشف مثل كؤوس مملوة من عقار

لا يستكثر في باهر قدرته جل جلاله خلق عيسى عليه السلام من غير اب من بنت عذراء ولكن جعله عليه السلام آية فرقت بين من سمع وعصى يوم السمت وبين من اكد الطاعة بالامتثال البت — وما كنا لنهتدي لولا ان هدانا الله — ، ورحم الله شرف الدين ابا عبد الله محمد بن سعيد بن حماد بن محسن بن عبد الله بن منهاج بن هلال الصنهاجي البوصيري ونفعنا به آمين في قوله —

كيف وحدتّم الهًا نفى التو حيد عنه الاباء والابناء

أَاِلَهٌ مركب ما سمعنا باِلَهٍ لذاته اجزاء

الكل منهم نصيب من الملـ ـك فهل لا تميز الانصباء

وذيلت هذا المقام ببيتين —

ورفضتم جميل جذع اتى منـ ـه لمعبودكم غذا وغناء

كان من سبركم عبادة عيسى فاعبدوا ما به لديه غذاء

ويقال هاهنا ما الفائدة في دخول الباء في قوله تعالى — وهزي اليك بجذع النخلة — والجواب من وجهين احدهما ان يكون المفعول محذوفا اي هزي العرجون او التمر بجذع النخلة الثاني ان تكون صلة في المفعول كما قال — « نضرب بالسيف ونرجو بالفرج » وعلى هذا فلها فوائد احدها الالصاق والثانية

والثانية التاكيد والثالثة الدلالة على المباشرة كما قالوا في قوله عز وجل ـ فامسحوا برءوسكم ـ وهنا وجه رابع وهو ان يكون « وهزي بيدك جذع النخلة » ثم حذف ذكر اليد للعلم به فيكون هذا كما قيل في قوله تعالى ـ وامسحوا برءوسكم ـ ان الاصل وامسحوا رءوسكم بالماء ثم قلب فصار وامسحوا بالماء رءوسكم ثم حذف ذكر الماء للعلم به وبقي وامسحوا برءوسكم وهذا من باب مفهوم العكس واستشهد له ببيت كتاب سيبويه وهو ـ كنواح ريش حمامة نجدية ـ والاصل فيه ومسحت اللثتين بعصب الاثمد ثم قلب على نحو ما تقدم ، وقوله حين نفست ويقال نفست المراة بالكسر اذا اصابها النفاس وهو وجع الولادة ويقال نفست المراة غلاما على بناء ما لم يسم فاعله والولد منفوس كذا في الصحاح ، قال وفي الحديث ما من نفس منفوسة إلّا وقد كتب مكانها من الجنة او النار ، وذكر ابن القوطية ان قولك نفست بفتح النون وكسر الفاء اذا ولدت ونفست على ما لم يسم فاعله حاضت وولدت وذكر غيره انه لا يقال في الحيض إلّا بالضم ، وذكر صاحب كتاب تشبيهات القرءان هذه الحكاية التي تقدمت في كتاب قيصر الى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ـ ان رسلي اخبروني ان قبلكم شجرة تخرج كآذان الحمير ثم تنفلق عن مثل اللولو المنظوم في مثل قضبان الذهب فيصيبون منه مع ذلك ثم يكون كالياقوت الاحمر والاصفر ثم ينضج كالفالوذج فهو عصمة للمقيم وزاد للمسافر فان تصدق رسلي فهي شجرة من الجنة ـ فاجابه عمر رضي الله عنه ـ هي النخلة التي انبتها الله على مريم عليها السلام حين نفست بعيسى عليه السلام فاتق الله ولا تجعله من دونه الٰهًا ـ ان مثل عيسى عليه السلام كمثل ءادم خلقه من تراب ـ : ومنه ما يحكى عن ابي العلاء المعري انه قال ـ قلت لاعرابي اسدي من اهل عمان أنىّ لك هذه الفصاحة ـ قال ـ سكنا ارضا لا نسمع فيها ناجخة التيار ـ هي بالنون والجيم والخاء المعجمة صوت البحر والتيار البحر والاسدي بفتح الهمزة وسكون السين ويقال ازدي ايضا بالزاي وهم اسد عمان وازد

عمان وعمان هنا بضم العين وتخفيف الميم وهو موضع باليمن فاما عمان بفتح العين وتشديد الميم فهو موضع بالشام . قال ابو العلاء المذكور للاسدي صفها قال : سيب افيح . وفضاء صحصح . وجبل صودح . ورمل اصبح . فقال له فما مالك . قال النخل . فقال له فاين انت من الابل . قال ان النخل حملها غذاء وسعفها ضياء وجذعها بناء وليفها رشاء وخوصها وعاء وقرءها اناء . قوله سيب هو بكسر السين المهملة الشاطي وفيه اشكال ان اراد به سيب البحر فانه يناقض ما قبله وان اراد سيب نهر من الانهار فلا اشكال وقد يكون قوله سيف بالفاء اخت القاف تصحيفا من سيب بالباء الموحدة وهو مجرى الماء فيكون قوله افيح اي واسع والصحصح المكان المستوي والاصبح الذي تعلو بياضه حمرة والقرء وعاء من جذع النخل ومنه قول عمران الكاهن حين اعلم اهل سبا بتفريقهم في البلدان وتشتيتهم كما قال الله عز وجل — ومزقناهم كل ممزق — ووصف لهم البلدان ليتخيروا منها المواضع التي ينزلونها فقال — ومن اراد الراسخات في الوحل المطعمات في المحل فليلحق بيثرب ذات النخل — فلحقت بها الاوس والخزرج ابناء حارثة بن ثعلبة بن عمرو وعمران الكاهن هو اخو عمرو بن عامر الملقب بالمزيقياء لانه كان يمزق كل يوم حلة اذا لبسها فلا يعود اليها . ومنه ما حكاه صاحب تشبيهات القرءان قال ابو حاتم من فضيلة النخل ان الله تعالى لم يجعله في بلد كفر وما منه شيء الّا في بلاد الاسلام او ما قد وصل اليه الاسلام * واما ما ورد من ذلك في الاشعار فمنه قول سويد بن الصامت الانصاري وقد ذكره دعبل بن علي الخزاعي في طبقات الشعراء —

ادين وما ديني عليك بمغرم ولكن على الشم الجلاد القرواح

على كل خوار كان جذوعها طلين بقار او بحماة مائح

لها قابل اوعى الجوائح كلها تناول كفاه البسار الجوانح

وليست بسنهاء ولا رجبية ولكن عرايا في السنين الجوائح

وقبل هذا البيت بيت ءاخر وهو —

واصبحت

واصبحت قد انكرت قومي كانني   جنيت لهم بالدين احدى الفضائح
وبعده بيت ءاخر ايضا وهو —

ادين على اثمارها واصولهـــا   لاولى قريب او لاخر نـازح

وقوله ادين بفتح الهمزة اي آخذ الدين واما ادين بضم الهمزة بمعنى اعطى الدين يقـال دان الرجل اذا اخذ الدين وادان بمعنى اعطى وفي حديث الموطا ادان معرضا والشم بضم الشين العالية المرتفعة والجلاد الصلاب الشداد وقال ابن قتيبة في كتاب معاني الشعر له معناه القوية الصبر على العطش والقراوح جمع قرواح والاصل القراويح بالياء فحذفها لضرورة الشعر والخوار الناقة الغزيرة اللبن والقار الزفت وقـال ابن قتيبة ان النخل اذا اسودت جذوعها كانت اصلب والمائح بالهمزة الذي ينزل البئر فيملا الدلو اذا قل ماء البئر والماتح بالمثناة الفوقية الذي يزيل الدلو من اعلا البئر . قـال صاحب تثقيف اللسان الاعلى للاعلى والاسفل للاسفل من حيث النقط . وقوله لها قابل اوعى قـال ابن قتيبة القـابل الذي يتناول الدلو يعني لسقي النخل والجوانح عظام الصدر وقوله تناول بضم اللام وحذف احدى التاءين تخفيفا للعلم بها . والبسار بكسر الباء وبالسين المهملة والراء المياه التي في الدلاء وسمي الدلو بسارا لاشتماله عليها . والسنهاء التي تحمل عاما وتحول عاما . والرجبية بضم الراء وتشديد الجيم ويروى بتخفيفها النخلة التي يخشى عليها ان تسقط فيبنى باسفلها رجبة وهي مثل الدكان والرجبة بضم الراء وسكون الجيم جمعها رجب كركبة وركب ومنه قول حباب بن المنذر — يوم سقيفة بني ساعدة — انا عذيقها المرجب — وجذيلها المحكك . والعرية النخلة يعطي الرجل اهل البيت ياكلونها . قـال ابن الشباط وهذا البيت ينشده الفقهاء شاهدا على العرية ثم قـال واعلم ان ما تقدم ذكره من تفسير السنهاء والرجبية هو الذي ذكره اللغويون في ما علمت الّا ان البيت عندي فيه اشكال وهو ان حكم « لكن » ان يكون مـا بعدهـا مخالفا لما قبلها كما تقول اكرمت زيدا لكن عمرا لم اكرمه وما اكرمت

زيدا لكن عمرا اي لكن اكرمت عمرا والبيت وردت فيه لكن على خلاف
هذا الحكم فان قوله ليست بسنهاء ولا رجبية معناه على ما فسر ليست
بمنقطعة الحمل في بعض الاعوام ولا بمدعمة بدعامة فكان يجب على هذا
ان يقول لكنها متصلة الحمل غير محتاجة الى دعامة لاستقامتها وشدتها فهذا
هو المناسب على ذلك التعبير السابق . واما قوله ولكن عرايا في السنين
الجوائح فانه لا يناسب ذلك قال واذا ظهر لك ذلك فاقول الاولى ان يفسر
السنهاء بانه لا يباع ثمرها مسانهة ورجبية بانه ليست عندهم معظمة
يدخرون ثمرتها لانفسهم فان الترجيب هو التعظيم بل هي مبذولة عرايا في
اوقات الحاجة لاهل الخلة والمسكنة فعلى هذا يلتئم صدر البيت وعجزه
وتكون لكن جارية على حكمها فيكون المعنى انهم لا يبيعون ثمرتها
مسانهة ولا يدخرونها لانفسهم ضنانة وبخلا لكن يخصون بها ذوي الحاجات
في اوقات الضرورات . ومنه قول الآخر في نعت النخل وقد نسبها علي
ابن حمزة البصري في كتاب التنبيهات على اغاليط الرواة لذكوان العجلي
وذكر انه من جيد النعت للنخل —

نواضر غلبا قد تدانت رؤوسها   من النبت حتى ما يطير غرابها
ترى الباسقات العم منها كانها   ظعائن مضروب عليها قبابها
تدر اذا ما الشول لم يرج درها   وامست من الالبان صفرا وطابها
بعيدة بين الزرع لا ذات حسرة   قصار ولا صعل سريع ذهابها

قوله نواضر اي نواعم وغلبا اي غلاظ ويحتمل ان يريد غلاظ الرقاب فانه
دليل على قوة النخل والاغلب من الرجال الغليظ العنق فاما قولهم حديقة
غلباء فمعناه ملتفة كما في الصحاح ومنه « وحدائق غلبا » . وقوله ما يطير غرابها
يحتمل وجهين احدهما لكثرة حملها او خيرها كما يقال « خير لا يطير غرابه »
معناه يقع الغراب عليه فلا ينفر والثاني ان يريد بذلك تكاثف جريدها
والتفافه حتى لا يجد الغراب في الغالب مطارا بينها . والباسقات هي
الساميات العاليات والعم الطوال والظعائن جمع ظعينة وهي المراة في الهودج

وهي التي يسافر بها . واعلم ان تشبيه هذا الشاعر النخل بالظعائن هو والله اعلم لما تشتمل عليه من خضرة الجريد وحمرة الثمار وصفرتها كالهوادج التي تزين بالرقم وانواع الالوان ولذلك قال مضروب عليها قبابها . وقوله تدر بضم الدال وذلك يحتمل وجهين احدهما ان يكون ذلك استعارة شبه حمل النخلة بلبن الشول والمراد انه اذا عدم در الشول وجد در هذه يريد في عام الجدب الثاني ان يريد بذلك الدبس الذي هو عسل التمر يسيل منها فشبهه بدر الناقة والاول اولى . والشول التي جف لبنها وارتفع ضرعها ومضى عليها من وقت نتاجها سبعة اشهر او ثمانية والواحدة شائلة وهو جمع على غير قياس والصحيح انه اسم جمع لا جمع . والصفر الخالي والوطاب جمع وطب وهو زق اللبن . وقوله بعيدة بين الزرع يجوز فيه وجهان احدهما نصب بين والثاني خفضه اما النصب فعلى ان المضاف محذوف للعلم به اي بعيدة ما بين الزرع ثم حذف المضاف اليه وهو ما وهذا الوجه فيه ضعف وقد لا يجيزه بعض النحويين او اكثرهم وحجتهم ان الموصول لا يحذف لانه مع صلته كالشيء الواحد فكما لا يجوز النطق ببعض الكلمة كذلك لا يجوز النطق ببعض الصلة ولا بالموصول دونها ولا بما دون الموصول وهذا الاحتجاج وان كان واضحا إلّا ان هاهنا ما يعارضه وهو قولهم ان الموصول مع صلته كالشيء الواحد وهو دليل المنع . قال ابن الشباط وما استدللتم به في المنع هو الدليل على الجواز . فانه لما كان مع صلته كالشيء الواحد كان النطق بالبعض دليلا على الباقي المحذوف وذلك مسوغ للحذف لا مانع منه . واذا كانت القرينة الحالية مسوغة للحذف مع انها لا اثر لها في اللفظ فما يكون اللفظ دالا عليه اولى ان يسوغ حذفه . واما قولهم لا يجوز النطق ببعض الكلمة فكذلك الموصول ففيه تفصيل . قال ابن الشباط لا يسوغ النطق ببعض الكلمة هذا اذا لم تدل دلالة على المحذوف اما اذا دلت فمسلم . وقد جاء ذلك في قوله صلى الله عليه وسلم . كفى بالسيف شا — اي شاهدا وفي قول الشاعر —

بالخير خيرات وان شرا فشا   ولا نريد الشر الّا ان تشا

يريد ان شرا فشر فاكتفى ببعض الكلمة . فان قلت حذف الموصول وابقاء صلته والاكتفاء بها لم يرد في سماع فالجواب بل ورد في السماع وجاء في الكتاب العزيز وهو قوله عز وجل — والذي جاء بالصدق وصدق به — اي والذي جاء بالصدق والذي صدق به . قيل الذي جاء بالصدق هو النبي صلى الله عليه وسلم والذين قالوا هذا القول اختلفوا في الذي صدق به فقالت طائفة هو ابو بكر الصديق رضي الله عنه وقالت طائفة هو علي ابن ابي طالب رضي الله عنه وكرم وجهه وقالت طائفة الذي صدق به المومنون وعلى كل تقدير فالموصول محذوف وقد اكتفي بصلته . فان قلت تقدم الذي في صدر الاية دل على المحذوف بخلاف المسالة التي نحن فيها فالجواب هذه قرينة مقالية وتلك حالية ولا فرق بينهما عند ذوي الاعتبار من اهل النظر . واذا عرفت ذلك فاعلم ان المراد بالزرع هنا النخل انفسها اي انها بعيدة في الزرع والغرس . واما الخفض فعلى وجهين احدهما ان تجعل بين بمعنى البعد والثاني ان تجعل بين بمعنى الوصل فان البين من الاضداد اي بعيدة وصل الغرس والمراد انها لا وصل بين غرسها بل هي متباعدة الوصل . وهاهنا وجه ثالث وهو ان تجعل الاصل بعيدة ما بين الزرع ثم تحذف ما للعلم بها كما تقدم ثم تخفض الظرف على الاتساع لفهم المعنى من دلالة الحال عليه . وفي الكتاب العزيز — لقد تقطع بينكم — قري بالفتح وهي قراءة نافع وحفص والكسائي وبالضم وهي قراءة باقي السبعة . فاما قراءة النصب فاولت على وجهين احدهما ان الفاعل محذوف اي تقطع وصلكم بينكم اي ما انتم عليه من الشرك بينكم والثاني ان يكون الفاعل هو قوله عز وجل بينكم . واختلفوا في مجيئه على الفتح فقيل لان اصله الظرفية واكثر استعماله كذلك فابقي في حال الرفع على هيئته وقيل ان الظرف هنا مبني لبناء ما اضيف اليه لان المضاف قد يكتسب صفة البناء باضافته الى المبني كما قال الشاعر —

لا يمنع

لا يمنع الشرب منها غير ان نطقت حمائم في غصون ذات اوقال

واما قراءة الرفع فاولت ايضا على وجهين احدهما ان الظرف اتسع فيه فرفع برفع الفاعل الثاني ان البين هنا بمعنى الوصل فالرفع على بابه لا على الاتساع . واعلم ان ما جاء على الاتساع ما ذكر بعض النحويين من قولك هذا رجل حسن بين العينين لا قبيحه بخفض بين هذا اذا لم تنطق بما فان نطقت بها ففي ذلك وجهان احدهما ان تجعلها زائدة فيبقى الحكم على حاله فتقول هذا رجل حسن ما بين العينين لا قبيحه بخفض بين الثاني ان تجعل ما بمعنى الذي وحينئذ لا يجوز في بين الّا النصب على الظرفية . ثم قال ابن الشباط واعلم ان ما اجازه النحويون من الاتساع ابعد من حذف ما وابقاء الظرف على حاله فان هذا المعنى ليس فيه الّا مجاز واحد وهو حذف ما فقط للعلم بها . واما الاتساع ففيه وجوه من المجاز احدها حذف المضاف الثاني اقامة الظرف مقامه الثالث ايصال الفعل اليه ونصبه الرابع اخراجه من باب الظرفية الى باب الاسمية حتى ارتفع فاعلا وانتصب مفعولا على الاتساع . ثم بعد ذلك كله لا يفهم المعنى حتى يرد الى اصله وينطق بما في تقديره ويبين وجه الاتساع فيه . وهذه الوجوه كلها معدومة في الوجه الاول ولا شك انه مهما قل العمل في المجاز كان ارجح الّا في باب الاستعارة المستحسنة . ولهذه العلة والله اعلم مال النحويون الى هذا الطريق على طوله وكثرة العمل فيه وتركوا الاول على قربه وقلة العمل لما في هذا من الاستعارة وعدم ذلك في الاول . وقوله لا ذات حسرة يحتمل وجهين احدهما ان يستعير له الحسرة وهي اشد التلهف على الفائت اي انها ليست بقصار فتتلهف على ما فاتها من الطول كما تتلهف المراة القصيرة على ذلك اذا رات الطوال الثاني ان يريد بالحسرة الانقطاع والاعياء من قولك حسر بعد الشيء لحاقا بالنصب اذا اعياها كان النخل القصار اعياها ان تلحق الطوال فنفى ذلك عن هذا النخيل وهذا كله من باب الاستعارة . وقوله قصار جمع وهو نعت لقوله ذات

حسرة وان كان قوله ذات حسرة مفردا لان قوله ذات حسرة لا يراد به الواحدة وانما يراد به الجمع والاصل ذوات حسرة فوضع المفرد موضع الجمع . والصعل بضم الصاد وسكون العين المهملتين جمع اصعل وصعلاء وهو في هذا المكان يحتمل وجهين احدهما ان يريد الصغار الرؤوس والصعل صغر الراس في الناس والنعام يقال رجل اصعل وامراة صعلاء فنفى عنها صعل الراس لانه دليل على ضعف النخل الثاني ان يريد بالصعل العوجاء من النخيل الجرداء اصول السعف الّا ان هذا فيه اشكال لان فعلاء لا يجمع على فعل لكن يحتمل ان يجمع فعلاء على فعال ويجمع فعال على فعل . ومنه قول الاخر وقد نسبه علي بن حمزة البصري لعمارة بن عقيل بن بلال بن جرير -

دهم الخوافي منطقات خرس   تحار في اظلالهن الشمس

* كانهن الفتيات اللعس *

والخوافي اصلها في ريش الجناح فاستعارها لجريد النخل وجعلها دهما لشدة خضرتها حتى تميل الى السواد وهو دليل قوتها ونعمتها . ومنه قوله عز وجل ـ مدهامتان ـ وقوله منطقات خرس وصفها بالنطق وذلك يحتمل وجهين احدهما ما يسمع لها من جفيف الجريد عند هبوب الرياح الثاني ما يسمع بها من اصوات الطيور التي تالفها . قال الاعشى ـ

طريق وجبار رواءٌ اصوله   عليه ابابيل من الطير تنعب

والطريق جمع طريقة وهي اطول ما يكون من النخل بلغة اليمامة والجبار من النخل التي تفوت اليد والابابيل الجماعات قيل واحدها ابول وقيل لا واحد لها وابابيل مما يستعمل في الكثرة والجنات التي تكون ملتفة الاشجار تالفها الطيور وتوصف بذلك فيستعار النطق لاجل ذلك كما قالوا روضة غناء اي يغني بها الذباب . وقوله خرس وهو جمع اخرس وخرساء وهو الذي لا ينطق وقوله تحار في اظلالهن بالظاء المعجمة جمع ظل يصفها بالتفافها وتكاثف جريدها . قال علي بن حمزة البصري ولا تحار فيها الشمس الّا لتكاثف الجريد واطراق الخوص . وقوله كانهن الفتيات اللعس

شبههن

شبههن بالفتيات اللعس وهن السمر الشفاه لنضارتهن وشدة اخضرار اعاليهن واللعس في الشفاه من الصفات المستحسنة وهو ان يضرب لون الشفة الى السواد قليلا ومنه قول الاخر —

فان لنا حظائر ناعمات عطاء الله رب العالمينا
طلبن البحر بالاذناب حتى شربن جمامه حتى روينا
تطاول محرمي صدي اشي بوائك ما يبالين السنينا
تخرمها العطاء فكل يوم يجاذب راكب منها قرينا
كان فروعها في كل ريح جوار بالذوائب ينتصينا
بنات بناتها وبنات اخرى صواد ما صدين وقد روينا

والحظائر الحدائق واحدتها حظيرة والاصل في الحظيرة ما حظر بحائط او غيره وقوله عطاء الله رب العالمين منصوب لانه صفة لقوله حظائر ويجوز ان ينصب باضمار فعل اي اعطانا الله سبحانه ذلك ويجوز فيه الرفع على اضمار المبتدا اي تلك الحظائر عطاء الله عز وجل والرب المالك والعالمين جمع عالم بفتح اللام والعالم تارة يطلق على كل موجود سوى الله عز وجل وبهذا الاعتبار هو جنس لا يصح فيه تثنية ولا جمع وقوله طلبن البحر بالاذناب معناه انهن طلبن الماء بعروقهن واراد بالبحر الماء الملح وانشد بعضهم للنابغة في معناه —

من الواردات الماء بالقاع تستقي باذنابها قبل استقاء الحناجر

والجمام بكسر الجيم جمع جمة بالفتح وهو ما اجتمع من الماء والاصل في الجمة والله اعلم انه الموضع الذي يجتمع فيه الماء والجمة البئر الكثيرة الماء والمحرم بفتح الميم وكسر الراء منقطع انف الجبل وصداه جنانباه واشي بضم الهمزة وفتح الشين المعجمة وتشديد الياء قال ابن قتيبة واشي واد معروف وقال البكري واد او جبل في بلاد بني العدوية من تميم وقال عمارة بن عقيل اشي واد البراجم وقال غيره بلد قرب اليمامة وقال زياد بن جبل وهو الرار العدوي —

وحبذا انت يا صنعاء من بلد ولا شعوب هوا منا ولا نعم

وحبذا حين تمسي الريح باردة وادي اشي وفتيان به نُعُم

وقوله بوائك قال ابن قتيبة والبوائك الحوامل وفي الصحاح السمان من النوق ومن كلامهم انه لمنحار بوائكها وعليه انها النخل القوية الغلاظ وقوله ما يبالين السنين اي اعوام الجدب لانهن يشربن بعروقهن وقوله قرينا يحتمل وجهين احدهما ان يريد نخلة تجاورها اختها فهي مقرونة بها الثاني ان يريد جريدة تقارنها اختها وقوله كان فروعها في كل ريح البيت قال ابن قتيبة يريد ان سعف النخلة منها ينال سعف النخلة الاخرى لقرب بعضها من بعض والمناصاة المجاذبة يقال تناصى الرجلان اذا اخذ كل واحد منهما بناصية صاحبه وقوله بنات بناتها و بنات اخرى صواد اي طوال وقوله ما صدين اي ما عطشن والصدا العطش وهو من ابيات المعاني وقوله وقد روينا مع ما قبله ايطاء وهو من عيوب الشعر ومن مستحسن التشبيهات كما نقليه ابن الشباط عن صاحب كتاب تشبيهات القرءان قول كعب ابن الاشرف —

ونخيل في ملاع جمة تخرج الطلع كاشال الاكف

وقول الاخر في حسن تاليفها وتشبيه لينها —

جاءت على غرس طبيب ماهر عشرين عشرين بذرع وافر

ترى لها بعد ابار الابر مآزرا تطوى على مآزر

ولعبد الصمد بن المعذل يصف حمل النخل —

كانه في ناظر الاغصان زمرد لاح على تيجان

حتى اذا تم له شهران وانسدلت عثاكل القنوان

رايته مختلف الالوان مثل الاكاليل على العقيان

وقال ابن المعتز يصف النخل —

اعددت للجار وللعفات روازقا في المحل مطعمات

تصل فيها الطير ناغمات كواذب الاقوال صادقات

ذرات

ذوات اطواق مرصعات فيها يصفقن مثقلات
تصفيق نسوان على اصوات ما بين اكمام مهدلات
بدت من الكافور ضاحكات حتى اذا صرن الى ميقات
رحن من الجوهر موقدات بالذهب الرطب مكللات
ثم تبدلن باوعيات للعسل الماذي ضامنات
بخالص التبر مقنعات

قال ومن ملح التشبيهات قول بعض العرب —

ونمر كاطفال الزنوج اتوا بها وقد عمموا بالتبر منها رؤوسها
فما زالت الانياب تفري بطونها كما فرت الاساد يوما فريسها

ومن الطف التشبيه ما ذكره بدر الدين الحسن بن عمر بن حبيب الدمشقي في كتابه نسيم الصبا حيث قال فمنها نخيل بتحفة غير بخيل :

فجماره —

جسم رطيب اللمس لكنه قد لف في ثوب من الصوف

وطلعه —

كصدر فتاة ناهد شف قلبها سماع فشقت عنه ثوبا ممسكا

وباحه —

مكاحل من زمرد خرطت مقمعات الرؤوس بالذهب

وبسره —

كانما خوصه عليه زبرجد مثمر عقيقا

ورطبه —

امليلج من لجين مسمر بالنضار

وتمره —

يشف مثل كووس مملوة من عقار

قال ابن الشباط واخبرني بعض شيوخ بلدنا ان الفقيه القاضي ابا محمد عبد الله بن عبد العزيز البسكري عن الشيخ الصالح ابي الفضل البسكري

انه قال ـ صعدت المنار بتوزر مع الفقيه ابي الحسن ابن التقيوسي فاشرفنا على الجنان فقال الفقيه ابو الحسن « كانما البست من سندس حللا » فقلت ـ وقلد الله في اجيادها ذهبا ـ . قال ابن الشباط وهنا وجه آخر من التفضيل وهو ان المدينة التي اختارها الله عز وجل لمهاجرة نبيه صلى الله عليه وسلم اختصت بالنخل وهو خير الانبياء وامامهم وخاتمهم الذي به تم عقدهم وكمل نظامهم وجعلها الله عز وجل مقرا له بعد الهجرة في حياته ومحلا لجسده الطاهر المبارك بعد وفاته واظهر الايمان والاسلام منها وجعل فتوح البلاد ورحمة العباد صادرة عنها فكل بلد اشتمل على نخل فله شرف فشبه المدينة بشرف لا ينكر وفخر لا يزال على الايام ينشر ويذكر . واذا عرفت ذلك فاعلم ان بلاد الجريد انفردت بمزايا الاولى ان اموالها ثابتة لا يخشى عليها التغير مع غيبة صاحبها عنها الثانية لثباتها وعدم تغيرها يداين صاحبها ويعامل حيث كان شرقا وغربا الثالثة ان اهلها لا تنالهم مضرة المجاعة في اوقاتها الرابعة ان اثمان الرباع بها واكريتها لا تنقص في ايام المجاعة الخامسة ان مناصبهم ومراتبهم محفوظة ما لم تنتقل عن ايديهم السادسة ان اهلها لا يخشون فقرا ولا حاجة ما دامت املاكهم باقية لهم السابعة ان اموالها كافية لكل احد بقدره فان من كان عنده قليل او كثير كفاه الثامنة ان اهلها لا تتعذر عليهم الاوطان كما تتعذر على غيرهم بكثرة الامطار التاسعة ان بعضهم قال ليس في الارض شجرة يصنع منها للبعير اكافه ورحله وجميع ما يحتاج اليه ثم يوقر حمله منها غير النخلة قال ابن الشباط ومع ذلك انه يعلف منها العاشرة انها في بلاد عبادة وزهادة لوجود المياه في كل المواضع وتيسير الاقوات في اكثر الاوقات . واذا تبين ذلك فقد قال الفقيه المحدث ابو العباس احمد بن عمر العذري الدلاءي رحمه الله وتوزر هي ام بلد قسطيلية قال في صلة السمط والصواب بلاد بالجمع وهي كبيرة وبها جامع شريف واسواق عامرة حولها ارباض كبيرة وهي حصينة منيعة وذلك لقرب النخل من سورها وفي بساتينها جميع الثمار حاشا قصب السكر . وتمير توزر

افريقية

افريقية بالتمر يخرج منها في اكثر الايام الف حمل واكثر من ذلك فيتفرق في نواحي افريقية وبها اترج خارج عن الحد في عظم خلقه وطيبه وكثرة مائه . وفي اختصار اقتباس الانوار في حرف القاف القسطلاني ينسب الى قسطيلية وقسطيلية قربي قفصة وهي اربع مدائن في ارض واسعة فيها النخل والزيتون فالمدينة العظمى توزر بضم التاء وفتحها كما تقدم وبها تنزل العمال والثانية الحمة بفتح الحاء المهملة وتشديد الميم سميت بذلك لان بها عين حارة والثالثة تقيوس بفتح التاء وسكون القاف وضم المثناة التحتية وبعدها واو وءاخرها سين مهملة والرابعة نفطة وهي بفتح النون وسكون الفاء وطاء مهملة وهاء ساكنة وحول هذه المدن اربع سباخ ذكر ذلك اليعقوبي منها جماعة من اهل العلم منهم خالد بن نصر كان سمع من سحنون واصبغ ذكره الشيخ محمد بن احمد التميمي وهو ابو العرب وذكر منها جماعة . قال في اختصار اقتباس الانوار توزر ينسب اليها بجبج بباءين موحدتين وجيمين هو ابن خراش ابو سعيد المغربي المقري يروي عن سحنون وروى عنه ابو العرب محمد بن احمد التميمي وكان علي ابن اسحاق الميورقي نزل عليها هو واخوه يحيى فحاصراها مدة وقطعا غابتها ولولا الخيانة من اهلها لما تملكا عليها ولما افتتحاها سالما اهلها الذين باطنوهما على فتحهما واستاصلا اموال الاخرين ثم الزماهم بعد ذلك اموالا اخرى يفتدون بها انفسهم فكان الرجل منهم ينادى عليه فان وجد من يفديه اطلق والا رمي بعد قتله في بئر هناك يسمونها بئر الشهداء اضيفت الى هولاء الذين رموا بها وكان هذا بعد فرارهما من بجاية عند وصول جيش المنصور اليها سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة ولما بلغ المنصور منهما ما فعلاه في توزر انفذ ابن عمه يعقوب بن ابي حفص بن عبد المومن اليهما فكانت للهوارقة عليه الوقيعة المعروفة بوقيعة عمرة فتحرك المنصور بنفسه واوقع بهما الوقيعة المشهورة بظاهر حمة مطماطة وقد تقدم ذكرها عند ذكر الحمة وتبعهم الى توزر فتوغلوا في صحرائها فرجع عنهم وقدر ان مات علي بعد ذلك على توزر وجاءه سهم فاتو في

ترقوته فمات منه . والاشهر في اسمها توزر بفتح التاء وبعض الناس يضبطها بالضم ولا وجه لذلك فان المستند في اختيار الضم الى مذهب من راى ان الالفاظ الاعجمية في اي وزن كانت تُخلى على ما وقعت في كلامهم ولا يغير منها الّا ما غيرته العرب واما الى مذهب من راى انها ان لم توافق وزنا من اوزان العرب غيرت ونقلت الى اقرب ذلك منها . قال التجاني وارض توزر في زماننا هذا من العرب لبني مرداس وقد تقدم ان رئاسة مرداس في بني جامع منهم وهم اشهر عرب افريقية قدما ورئاسة . وبتوزر مصلى كبير يحدق به حائط عظيم مرتفع وبمقربة هذا المصلى مقبرة الفقيه ابي محمد بن يعقوب رحمه الله وهي بدار اعدت هنالك لدفن من يموت من الغرباء ذوي الاخطار ومعه فيها جماعة سواه وقبر الفقيه ابي محمد في بيت صغير مكتوب عند راسه تاريخ وفاته وكانت في السابع من جمادى الاخرى عام اثنين وسبعمائة . قال التجاني ووصلنا بتوزر قصيدة الفقيه الاجل الاديب ابي بكر محمد بن احمد بن شبرين الجذامي السبتي من مستقره غرناطة وهذا الرجل من اعظم من رايت تحقيقا واحسنهم في النظم والنثر طريقا قال وكنت اجتمعت به في تونس وقد وصل الينا في الخامس لذي القعدة من عام ثلاثة وسبعمائة وكان في نيته التوجه الى الحج فلم يقض له ذلك فاقام بتونس مدة ثم ارتحل عنها عائدا الى وطنه سبتة وكان رحيله في التاسع عشر من المحرم مفتتح عام اربعة وسبعمائة فاتفق بعد وصوله الى بلده من اخذ البلد ما اتفق وطرق اهله من التشتت بسبب ذلك ما طرق فكان هو وابوه ممن انتقل الى غرناطة فتخطط هنالك بكتابة الرئيس الوزير ابي عبد الله بن الحكيم الرندي وبعث الي بهذه القصيدة لتونس معرفا بذلك فوجهت الي من تونس وقد كان حصل بيني وبينه مدة اقامته بتونس من المخاطبة والمجاوبة ما ملا سفرا جمعته وسميته نفحات النسرين في مخاطبات ابن شبرين ونص قصيدته هذه —

ما ذا على صوب الحيا المتبجس   لو جاد رسما بالكثيب الاوعس

ايه

ايه على الحي الذين تحملـــوا والشوق يتبعهم دماء الانـفـس
من كل اغلب محرز خصل العـلا يوم الرهان وكل اشنب العس
لا يوحش الله المنازل بالحمــــى وسقى عهود الغانيات الانـــس
سقيا وتكرمة لما اسلفت مـــن عهد بذات الرقمتين مقـــدس
واثن نسيت فليس انسى جيرة واصحتهم در المنى في تونــــس
هيهات ما ان شاقني بعد النوى زمن تصرم للظباء الكنـــس
لكن تذكر سادة قد انطقوا بصفات مجدهم لسان الاخرس
يا نسمة سحبت فضول ذيولهـا ما بين ورد بالعذيب ونرجس
والورق قد صدحت على افنانهـا والارض قد لبست ثياب السندس
حطي رحال تحيتي في معهـــد بين الجوانح منه عهد مـانسي
والحي من تجان فاشرح عندهـم فرط اشتياقي نحو ذاك المجلس
واذا هم سالوك فاذكر انــــني قد لذت بالعز المكين الانفس
وحللت ساحة ماجد متهلل من يعتصم بعلاه يحم ويحرس
لابن الحكيم مآثر ما زال بالـــ سلف الكريم الاصل فينا يأتسي
ءانست نار الجود من ناديه في ليل الشجون فكنت اسعد مونس
لولا تألق نور تلك النار مـــن ناديه طال تخبطي في الحندس
يا ليت قومي يعلمون بانــــني في دوحة العلياء طاب معرسي
اابا محمد العزيز وانـــــــه لدعاء ود في علاك موســـس
لله درك من بليغ لابـــــس من حلة الاداب اسبغ ملبس
حاشاك ان تنسى على شحط المدى عهدا نقي العرض غير مدنس
دعني اسدد من حديد ملاقـــتي سهما يفوت المرسلات من القسي
هل انت ذو علم بما اصبحت من كاس الشجون لاجل بعدك احتسي
ما زلت مذ نزحت ديارك اسال الـ ركبان بين مهجر ومغلـــس
اوحشت من سحر البلاغة محضري ولقد عهدتك في القديم مونسي
ابديت لي هجرا لغير جنايـــة والهجر منك بخاطري لم يهجس

وانا الذي مازلت احصلك الهوى | وامت بالحسب الزكي المغرس
اسعى حسود بيننا فاستشعرت | علياك من جراي خيفة مونس
لا تحقرن ذمام اخلاصي فقد | اظفرت بالزجر الخطير الانفس
ان لم تحرك لي فوادك هذه | نضرب على الود القديم ونيساس
استغفر الرحمن لا انساك ما | لم اطو في شق الضريح وارمس
يا معملين من البدائع اكوسا | عاطوا الغريب الدار فضل الاكوس
وتعطفوا برسائل من نحوكم | تاتي باحسان على العبد المسي
واذا هفت من نحوكم نجدية | تهدي نسيم المسك عند تنفسي
فلتبعثوا للمستهام تحية | تسدني مسراقي وتذهب ابوسي
لا زلتم تلقون في اطواركم | عزا تدين لديه شوس الارؤس

واتصل بهذه القصيدة من الكتب: سيدي دامت سعودك . وحرس لاحياء الاجادة جودك . ان فوقت سهام العتب . فاصنتك بالكتب . وان هممت بالسلام . فلابطاء بلاغ السلام . فقد استحالت فيما اظن عندك الاحوال . وجفتنا انباوك ثلاثين شهرا في ثلاثة احوال . حتى كانك تعرفت بعدي . ما احالك عن عهدي . وتلقيت من انباءي . ما صرفك عن ولاءي . وقد اكثرت بالمخاطبات . واثقلت بالمراسلات ظهور المواخذات . فما روجعت بحرف . بل عبدت مودتي على حرف . واتخذتها نسيا منسيا . ونبذتها في الظاهر لا اقول في الباطن ظهريا . ومع هذا فلا اشك ان عند سيدي علما بما جرت به احكام الليالي . وتشوفنا الى تعرف ما تزيد من خاصيتي مرحالي . فقد حلبت الدهر في هذه الحادثة اشطره . وخبرت الناس في حالتي العسرة والميسرة . الى ان اقتادتني السعود بزمام . واحلتني الامال الناجحة بمثوى امام يا له من امام . حيث الامر الموبد العالي مرفوع منارة . واضحت للسالكين اثاره . والسيادة الوزيرية . الحكمية العلمية . ملتقى الامال . ومحط الرحال . وناسخت احكام الادبار بالاقبال . فهنالك اضاءت لي البركات املي المدلهم . ونادت بي المكرمات اَلا هَلُم اَلا هَلُم .

لا زال

لا زال هذا الامير العزيز مقصودا منصورا ، بالغا من ءاماله الشريفة ما يقر من المومنين اعينا ويشرح منهم صدورا ، والسلام ـ . كتم الفقيه ابو بكر في هذا الكتاب اخذ بلده وطواه ، واوما فيه اليه اكتفاء بما في سواه ، فلقد كان كتب الي قبله كتابا يصف فيه ذلك وكان صدره بهذه الابيات ـــ

يا ايها الراكب الذي طلعا القيت مستوطنا ومنتجعا
انزل وحدث بما تشاء فقد وجدتني للحديث مستمعا
لعل في مقتضى حديثك من انباء ما قد وددته لمعا
استودع الله لا اقول هوى قطع قلبي بصده قطعا
لاكن صديقا حمدت خلته لدن شربنا كاس الصفاء معا
من غير ثخانة له خلق على المعالي مزاجها طبعا
انعم صباحا على البعاد ابا محمد لا برحت مصطنعا
واحفظ فوادي لديك انه قد تركته في حماك منقطعا
اما ودادي الذي علمت به فانه في الضمير قد ربعا
لولا ولاء ظفرت منك به لكنت اشدو بتونس جزعا
وارحمتا للغريب بالبلد الـ ـنازح ماذا بنفسه صنعا

قال التجاني فصدرت الجواب عن كتابه هذا بقولي واشرت الى بسط القصية

حدث عن الحادث الذي وقعا تلفي مصيخا اليك مستمعا
وهاك ما قد سمعت منه وان تركت قلبي بذالك منصدعا
هل معهد الانس كيف كان فقد عهدته للكمال مجتمعا
وهل حمى العز فيه محترم ام سليب العز منه وانتزعا
واين ناس هناك اعهدهم على المعالي جميعهم طبعا
من كل طلق اليدين مبتسم ارضع در السماح فارتضعا
تلقيه كالنجم رفعة وسنا لا بل كبدر الدجى اذا طلعا
فاضطرهم حادث ففرقهم واذهب الناس والبلاد معا
وجر عدوانه فجرعهم به من الهم والاسى جُرَعا

يا ليت شعري وفي المنا سعة ان ابقت الحادثات متسعا
هل يرجع الدهر ما مضى فلكم قد عاد من ذاهب وقد رجعا
ام لا يرى عائدا فوا اسفا على زمان مضى وواجزعا
هيهات تم القضاء وارتفعت مطامع النفس عند ما ارتفعا
فلست مما طلبت عودته اول من في المحال قد طمعا
مهدي بهم والشجون تقلقهم لاجنب منهم يزور مضطجعا
منتشر في البلاد نظمهم يا من راى السلك بعد ما انقطعا
امر من الله لا مرد له لم يبق كهلا منهم ولا يفعا
وخدعة تم امرها فمضت وكم سديد الاراء قد خدعا
هاك سلامي على البعاد ابا بكر بقلب اليك قد نزعا
وثق بود ادين فيك به ملتزما منه كل ما شرعا
ان حال خل عن المودة او اجاب داعي السلوحين دعا
فانني ما قطعت ذكرك بل ما زلت للشكر فيك منقطعا
اقسمت بالركن والمقام ومن قد طاف بالبيت نحوه وسعا
ما طاب لي بعدك البقاء ولا وجدت لي في الحياة منتفعا

قال وكتبت ايضا من توزر للشيخ المكرم محمد عبد الواحد بن ابي يغمور الهنتاتي وهو بنفزاوة كتابا صدرته بهذه الابيات —

يا نسمة صدرت عن روضة ظهرت في برد رقم بصوب السحب منشور
فكلما يممت في سيرها جهة مرت بذيل على الازهار مجرور
انهي اشتياقي وتسليمي لمجد ابي محمد بن ابي زيد بن يغمور
واعلميه بما يطوي الضمير له من اعتقاد وتعظيم وتوقير
وانني بين قلب للوداد له مفرغ وفم للشكر مقصور
وقوري ذاك تقريرا يثبته ولست فيه بمحتاج لتقرير
لا زال في نعم موصولة وعلا باق وحظ من الاسعاد موفور

قال التجاني واكثر الفقيه الطبيب الفاضل ابو ابراهيم بن حسينة من لطائف

لطائف نظمه لي فمنه قوله —

اعبد الله فقت ذوي المعالي حباك الله اياما سعيدة

ونلت منال ءاباء كرام لهم في المجد ءاثار حميدة

اردت اليك ارسالا بشعر لاسمع من جوابك لي مزيدة

فانك مستمد من بحور سواحلها غدت مني بعيدة

فان جاوبت عن نظم بنظم بعثت بقطعة ايضا جديدة

ولا ابقيت اطلب منك نظما ولا ابقيت تطلب لي قصيدة

قال واجبته عن ذلك بقولي —

امحرز كل منقبة حميدة ومن لم نلف في الدنيا نديدة

اعنت على النظام بحسن طبع وافكار مويدة سديدة

وتسالني الجواب وان فكري ليقصر عن مجاريك المديدة

فمهد لي على التقصير عذرا وهون من مطالبك الشديدة

ودم في عزة وبلوغ قصد وسعد دائم وعلا جديدة

قال وخاطبني الفقيه الاجل ابو بكر بن فتح المتقدم الذكر بقوله —

لقاؤك فتح فهل لابنه وقد حل بابك اذن كريم

فنحذ منه فالا ومقلوبه تفاول كل حسود رجيم

واجتمعت به فاذا هو شيخ ظريف المنزع حلو المحاورة لطيف الاشارة وكان سبق بيني وبينه وعد لارب من جناب مخدومنا فارسل لي في ذلك قصيدة بعد الملافاة يشير بها الى ان الحجاب صدوه عن الوصول —

وقفت بباب عز لا يسامى مليا وقفة الرجل الذليل

لوعد كان قرت منه عيني جميل جاء عن سعي جميل

وكان القصد تسليمي على من اليه قطعت ميلا بعد ميل

على كبر وضعف انت تدري بما عانيت منه ومن نحولي

وما ءاليت عند الباب جهدا معينا للملاطف والمسول

فابدى الوازعون هناك نَجْهًا وقالوا ما لقصدك من سبيل

فرحت وقيت حالي لست ادري دبيري ما ايمم ام قبيــــلي
وها انا قد عزمت على انطــلاقي الى صفف وليسوا بالقليــــل
تركتهم على قدم الترجــــي وكل مد سالفة التليــــل
الى فرج قريب من ايابــــي كما يرد الطبيب على العليــــل
فما ظني اذا ما قيل اكــــدى على بحر الندا امل العيــــل
هناك شماتة الاعدا وتاتــــي باجهار وضيق في مقـــــول
وداعا يا حبيبي فاحفــظ بــــي لعهد قد وثقت به مثيــــل
ســلام سالمتك يــد الليالــــي وعش للعز في ظل ظليـــــل
وبلــغ دمت تسليمي ولثمــــي هنالك مواطئ الشرف الجليــــل
قـــــال فاجبته —

احرز غاية الشرف الاثيــــل ومن قد جل عن كفء مثيل
اتتني منك ابيات حســــان شمائلها ارق من الشمـــــول
يعز علي ما بينت لي مــــن وقوفك وقفة الرجل الذليــــل
فاقسم بالهدايا مشعــــرات تجوز الارض ميلا بعد ميــــل
اذا اشتكت الطوى بلسان حال قرين بالوخيد او الذميــــل
تؤم بسيرها اسنى محـــــل به نزل الكتاب على الرســـول
او انك بالذي استحققت تجزى لما جوزيت الا بالجزيــــل
وها انا اشتكي لعلاك شكــــوى تنبئك ببعض ما بي من غليــــل
ارى الايام تمنعني مــــرادي وتلقاني بقصد مستحــــيل
واطلب للعلا فيها وصــــولا فيصعب للعلا فيها وصــــولي
ويمضي الامر غيري وهو دونــــي وامري لابس ثوب الخمــــول
وان تلك قد انالتني قليــــلا فمثلي ليس يقنع بالقليــــل
وما ظني لها الا لعــــلى اسوء عداي او ارضي خليــــلي
وليس ينال حظ باجتهـــــاد ولا يجري على قدر العـــقول
فحسب المرء تسليم وصـــــبر ييمم منهما اهدى سبــــيل

ولكن

ولكن لي على الاقدار دين لويت بقضائه لي المطول
فان هي بلغتنيه فكم لي مع الايام من خبر طويل
خرجت عن المراد الى حديث نفثت بشرحه نفث العليل
اودع ودك الاصفى فانسى دعاني للنوى داعي الرحيل
واطلب منك زادا من دعاء تواصله ومن ذكر جميل
وقد اصفيت نحوك باعتقاد صحيح من فواد لي عليل

وكملت له مامول وعده وكانت ليلته اول ما اجتمعنا وآخر ما افترقنا *
ومن العلماء الافاضل الذين ينسبون الى هذه العمالة الجريدية الحمي
قال في اختصار اقتباس الانوار في حرف الحاء الحمي ينسب الى حمة
قسطيلية روى عنه ابو عثمان سعيد بن محمد . وفي حرف النون نفطة في
قسطيلية من افريقية منها ابو عبد الله محمد بن الحسن سكن القيروان وكان
له بها سماع من محمد بن بشر الوراق ومن سفيان بن بشر الكوفي وكان فيه
تشيع ذكره ابو العرب قال وما سمعته يذكر احدا من الصحابة بسوء مات
بنفطة سنة اربع وتسعين ومائتين . وفي حرف الفاء الفرشاني ابو الحسن
ابن اسماعيل من اهل فرشانة قسطيلية سكن القيروان وكان قديم السماع
من سحنون سمع منه سنة سبع عشرة ومائتين وسمع من اصبغ بن الفرج
ومن سعيد بن اسد بن موسى وغيرهما وسمع منه احمد بن ابي سليمان
وموسى بن عبد الرحمن وجماعة غيرهما من اصحاب سحنون وغيره توفي
في رجوعه من الحج سنة ثلاث وستين ومائتين ذكره ابو العرب . وقال
البكري رحمه الله مدينة نفطة مبنية بالصخر عامرة بها جامع ومساجد
وحمامات كثيرة وهي كثيرة المياه السائحة وشرب جميع بلاد قسطيلية بالوزن
إلّا نفطة فان شربها جزاف وتسمى الكوفة الصغرى . واما فرشانة فكانت
في القديم من عمل نفطة وهي اليوم خراب وخرب معها من عملها غيرها ولم
يبق لها إلّا درجين . وبلاد قسطيلية كلها بها المياه المطردة الكثيرة . واما
توزر فان نهرها ينقسم على ثلاثة انهار كبار وينقسم كل نهر منها على ستة

جداول واحد انهارها يدخل المدينة ويجري في مواضع فيدخل الى القصبة ثم يخرج الى ساقيتين واحدة للرجال واخرى للنساء ثم ينعرج فيدخل القصبة من ناحية اخرى ثم يمر بدار من دور القصبة فيجري تحت سور المدينة الى ان ينتهي الى باب من ابوابها في ربع ثان فينقسم الى ساقيتين واحدة للرجال وواحدة للنساء فينتهي الى قسمين احدهما الى الجنات والاخر تحت السور الى ربع ثالث فيدخل الى ساقيتين ثم ينعرج الى موضع آخر يجتمع فيه مع السابق ثم الى موضع يسقي جنات ذلك الجناب . ويقال ان جامعها بني على رتبة جامع القيروان وان كان جامع القيروان يفوته عظما وفخامة . وبتوزر من غرائب البنيان والاتقان ما يقصر عنه الوصف . ولمدينة توزر اربعة ابواب ولا يعرف وراء قسطيلية عمران ولا حيوان الّا الفنك انما هي رمال وارضون سواخة وهم يخبرون ان قوما ارادوا معرفة ما وراء بلادهم فاستعدوا وتزودوا الازواد وذهبوا في تلك الرمال اياما فلم يروا اثر العمران وهلك اكثرهم في تلك الرمال . وذكر الفقيه ابو عمرو عثمان بن ابي القاسم عبد الرحمن بن حجاج رحمه الله في تاريخه ان ابتداء الصومعة بجامع توزر كانت سنة ثماني عشرة واربعمائة وتمامها سنة اثنتين وعشرين واربعمائة وقد اختصت باربع قباب جملة اعلاها وكملت جلاها كانها عرائس جليت على منصة وجبيت من بدائع الحسن باوفر حصة وبها من غرائب البنيان وبدائع الاتقان ما يقف عليه الطرف ويقصر عنه الوصف يقول كل من رءاها ممن جال شرقا وغربا بعد او قرب ما رايت مثلها ولا عاينت في الاقطار شكلها . قال ابن الشباط واخبرني بعض شيوخ بلدنا ان الباني الذي بناها شرع في بنائها الى ان انتهى في موضع منها بالقرب من اعلاها وكان يبني كل ما بناه بالصخر العظيم حتى انتهى الى ذلك الموضع فجهزته الوفاة فقيل له الى من ترشدنا يتم هذه الصومعة فقال لهم رجل بالقيروان وسماه ثم صور لهم ثلاثة جوامير من شمع يختار منها ايها احب يصنع مثله فلما قضى بانيها نحبه قدمت رفقة من القيروان والرجل المشار اليه صحبتهم

فذكروا

فذكروا له الوصية وتمم الصومعة بصغر دون ذلك الضخم وهو الان مميز بالبديهة واختار من الجواميير شكلها الموجود الان . قـــال ابن الشباط وشبيه بهذه الحكاية ما اخبرني به بعض الشيوخ من البنائين ان القبة التي على البـاب الشرقي من الجامع الذي يخرج منه الى سوق الخرازين سقط بعض جوانبها السفلية وبقيت معلقة فطلبت لها دعائم تدعم بها فما وجد ما يساوي ارتفاعها فاتفق ان سقطت تلك الليلة دار ووجدت فيها دعائم قدر الحاجة كانها صنعت لها فدعموها بها وبنيت وفيها يقول الكاتب ابو علي بن ابراهيم رحمه الله في وصفها ــ

خير البلاد لمن اتاها تـــوزر   يا حبذا ذاك الجناب الاخضر
والنخل مثل عرائس بجلـــوة   في سندسيات اللباس تبختــر
وكانما نظم الحلي لنحرهـــا   من لولو وزبرجد يتخـــير
نشات لآلي سلكها من ذاتهـا   وتحولت كزبرجد يتطـــور
وترى الزبرجد عسجدا و يواقتا   ذا احمر قان وهذا اصفـــر
فاذا انتهت ارطابه ابصرتــه   متزججا والاَرْيُ منه يقطـــر
رطب يريك نواه وهو دوينهـا   من دونه لشفيفه اذ يبصـــر
يجنيك من ثمر صنوفا جمـــة   لا يستقل بوصفها متفكـــر
احلى من العسل المصفى طعمه   ومذاقه لا يدعيه السكـــر
والدوح قد لبست غلائل سندس   تختال في ايدي النسيم وتخطر
حلت هواديها عقود ازاهـــر   فتبرجت عجبا لمن يتبصـــر
ملكت عيون الناظرين بحسنها   فدنا اليها كل طرف ينظـــر
والطير قد رقيت منابر قضبهـا   خطباوها تشدو بلحن يسحر
والقضب يثنيهـا النسيم فتنثني   بعض يقبل بعضها ويقهقـــر
كعقائل تبغي السرار فتلتقـــي   لصغي الحديث وتارة تتاخـــر
والارض عاطرة تزف كانمـــا   فشى نواحيها عبير ينشـــر
وتارجت ارجاوها فكانهـــا   مسك يضوع خلالها او عنبـــر

وكان ريحان الحياة وروحهـا   مستنشق من عرفها ومعطـر
فكانما كسيت بساط زبرجـد   نشرت يواقيت عليه وجوهـر
زهر كزاهر كوكب لالاوهـا   يزهو به ذاك البساط الاخضر
من ابيض يقق واصفر فاقـع   ذا ازرق زاه وهذا احمـر
والماء تتبعه اليك جـداول   قـد مدها النهر الزلال الاكبر
نهر تقسم بالسواء ثلاثـة   في كل ثلث ستة لا اكثـر
تلك الجداول تسعة مع مثلهـا   كل على الحد السواء مقـدر
صاف على صفة المها يجري على   رمل النقا عذب قراح كوثـر
وكانما حصباؤها في رونق الـ   ـماء الذي يجري عليه جوهر
وخلاله سمك كصنعة خنجر   وكانه من فضة متصـور
ومسارح ومزارع ومبـاقل   وفواكه من كل نوع يذكـر
وجداول بمناسب وازاهـر   كاراقم هجماتها لا تذعـر
زرق النطاف يدور في ارجائها   زهر كزهر كواكب اذ تزهـر

ومما شملته عمالة الجريد مدينة قفصة قال ابن الشباط قال البكري رحمه الله وهي مدينة كلها على اساطين وطيقان رخام قد بني خلالها بالصخر الجليل باحكم عمل ويذكر ان باني هذا السور غلام النمرود وذكر اسمه قال ابن الشباط فتركته لعدم صحة تقييده قال وقد زبر عليه اسمه وهو مقرو فيه الى اليوم وسورها كانما فرغ منه بالامس . وداخل مدينة قفصة عينان نضاختان تنبعان بنهرين خرارين يسقيان بساتينها ومزدرعاتها قال وفي داخل جامعها عين كبيرة مبنية بالصخر من بنيان الاولين اربعين باعا في مثلها . وقفصة اكثر بلاد الله فستقا ومنها ينتشر بافريقية ويحمل الى بلاد الاندلس وسجلماسة وبها تمر مثل بيض الحمام وهي تمير القيروان بانواع الفواكه والتمر وحولها اكثر من مائة قصر عامرة ءاهلة وحواليها المياه تعرف بقصور قفصة . قال ابن الشباط اما ما ذكره من العين التى بالجامع فليس به في عصرنا هذا عين وكذلك القصور التي ذكر انها كانت في القديم لم

يبق

يبق الآن منها إلّا القليل . قال وفي اختصار اقتباس الانوار قفصة مدينة حصينة عليها سور حجارة وفيها عيون ماء داخل المدينة وهي مفروشة بالبلاط وحولها عمارة كثيرة وثمار موصوفة ذكر ذلك اليعقوبي ينسب اليها جماعة منهم ابو سعيد جميل بن طارق القفصي الافريقي يروي عن سحنون ويكنى ابا سعيد . واما نفطة ففيها نهر كبير شديد الجري * واما تقيوس فتحتها مدن بها بقايا قصر مبني بالصخر المنحوت وحوله نهر ويقال انه كان قصر الملك وبعض اهلها يقول انها سميت باسم ملكها دقيوس وكانت خيله تغير على سبيطلة فبنى صاحب سبيطلة مدينة قفصة وشحنها بالخيل والرجال والعدة ليمنع غارة دقيوس ولذلك بناها بين الجبلين اللذين يسلك منهما الى نواحي سبيطلة وافريقية والله اعلم بصحة ذلك . واما الحمة فهواؤها معتدل وبها عين عذبة يجلب منها الماء قَبْلُ للولاة بتوزر وبها دور جليلة عظيمة البناء ولكن اليوم على حسب وقتها وعمارتها وسبحان من تنزه عن الاولية ذات الابتداء وتعالى عن الاخرية ذات الانتهاء . والمتوجه من قابس الى ناحية غمراسن يمر بقرية تبلبو على ميلين من قابس ذات مبان قليلة وعليها غابة زيتون متسعة وكان بها قبل غابة نخيل فمحت رسومها الافتان . وبعدها قرية مارث وهي قرية حقيرة وعليها غابة نخل يسيرة وبعدها قرية اجاس وهي قرية ضخمة ذات مياه كثيرة ولها غابة متسعة وبها عين خوارة عذبة غير انها مستوباة ولكنهم احتفروا بئرا بعدها سالمة من الوباء فهم الآن يشربون منها ويسقون بهائمهم من ماء العين وبها مسجد يذكر اهلها ان له فضلا مشهورا عندهم وان الدعاء مستجاب عنده وجميع اهل هذه القرية على مذهب الخوارج وهذا المذهب هو الغالب على سائر البقاع التي بين قابس وطرابلس وبهذه القرية كانت اقامة جعفر بن حبيب حين وجهه باديس بن المنصور من المهدية لقتال يانس الصقلي لما اقبل من مصر مدعيا ولاية طرابلس فاقام جعفر بن حبيب بقرية اجاس هذه متلوما عليه نحوا من ثلاثة اشهر الى ان كانت الوقيعة بينهما بظاهر زنزور قرية من قرى طرابلس وذلك كله

في سنة تسعين وثلاثمائة . وبسط هذه الوقيعة ان باديس بن المنصور كان واليا على افريقية وكانت طرابلس مستثناة عليها لا يليها احد من قبله بل تتعين ولاتها من مصر فاحب والي طرابلس اذ ذاك ان يرتحل عنها الى مصر فيكتب الى الحاكم يطلب ذلك منه ليكون بين يديه وان يوجه اليه من يتسلم البلد من يده فوجه اليه يانس المذكور وكان واليا على برقة فلما وصل الى طرابلس توجه واليها الى مصر ومكنه من البلد فلما علم بذلك باديس وجه الى يانس يستفهمه عن سبب وصوله ويستدعي منه سجلا ان كان بيده بالولاية . فبعث اليه انما بعثت نائبا عن امير المومنين ومثلي يكبر عن ان يولى بسجل . فحينئذ وجه باديس جعفر بن حبيب المذكور لقتاله فاقام المدة المذكورة بقرب اجاس هذه متلوما عليه وبعث اليه في اثناء تلك المدة يخيره في واحدة من ثلاث اما بعث السجل ان كان بيده واما القدوم على باديس ليفاوضه فيما وصل اليه واما المناجزة بالحرب فعاد جوابه اليه يقول فيه اما الوصول فلا سبيل اليه واما سجل الولاية فانا اكبر من ذلك اذ كنت خليفة امير المومنين على ما هو اعظم من طرابلس واما الثالثة فانا اكفيك الحركة الي واوافيك بالحرب اليك . فتحرك جعفر ابن حبيب متوجها اليه ونزل قرب قرية زنزور وخرج اليه يانس ونزل بها ايضا من الجانب الاخر وغابة الزيتون بينهما ثم التقيا فكانت الهزيمة على يانس وقتل اكثر جنده واتخذ هو اسيرا فطلب ممن اسروه ان يحملوه حيا الى جعفر فابوا وقطعوا راسه ثم حملوه الى جعفر ونجا القليل من المنهزمين فلجاوا الى مدينة طرابلس وامتنع اهل طرابلس من تمكين جعفر من البلد ومن اللاجئين اليها الى ان وصل اليهم فلفل بن سعيد الزناتي فمكنوه من البلد وهو اصل ملك الزناتيين طرابلس . قال التيجاني ومررنا بالعقلة وهو واد يحمل اوقات المطر فقط واذا جف لم يبق به ماء الا فيما كان منخفضا والعرب تسمي ما انحبس من المياه عقلة . قال ورأينا فيها شدائد من شوك البهمى فقد منعنا النوم ما تخلل منه في ثيابنا وربما قتلت البهائم

التي

التي تبيت بمرعاها اذا تخللت اصوافها ويبس البهمى هو الذي تسميه العرب الصفار بفتح الصاد وتخفيف الفاء وتسمي شوكها سفا مقصورا . قال واخبرني ابو علي الشماخ بن ضرار يصف حمارا وانشدني —

رعى بارض الوسمي حتى كانما   يرى بسفا البهمى اخلة ملهج

البارض النبات في اول خروجه والوسمي المطر الذي يسم الارض بالنبات والاخلة جمع خلال والملهج الذي قد لهجت فصاله بالرضاع وكانوا يجعلون على انف الرضيع اذا وجب الفصال خلالا يمنعه من الرضاع فيقال ان هذا الحمار رعى بارض البهمى الى ان خف وظهر شوكه فلم يستطع رعيه اذ ذاك فعاد كانما يرى به اخلة ملهج كراهة له ونفورا عنه وعلى هذا البيت عول الاديب ابو الحسن حازم بن محمد بن حازم في قوله من قصيدة له جيمية .

تركت مطايا الاملين لما سقت   يمناه ما تسقيه الصوب زبرج

فتجم انفسنا لورد جمامه   بصدورها عن برد ماء الحشرج

وتصد عن رعي الجميم كانما   تلقى من البهمى اخلة ملهج

ومعنى الشعرين واحد والحشرج بحاء مهملة فشين معجمة فراء فجيم حسى يكون في حصى * ومن القلعة المذكورة الى جبل غمراسن مرحلة كاملة . قال التجاني ووصلنا غمراسن فوجدنا منزلا قد غضب الله على اربابه . فابتلاهم من سكناه والاقامة بمغناه باليم عذابه . وغمراسن اسم لمسافة من الجبل المتصل الذي اصله جبل درن بالمغرب وهو الجبل الاعظم الذي قل على وجه الارض ما يدانيه سموا وامتدادا وكثرة خصب واتصال عمارة ومبداه من البحر المحيط في اقصى السوس مارا مع المشرق مستقيما الى ان يصل الى موضع دمر ثم يمتد فيسمى مسافة منه جبل نفوسة فاذا حاذى طرابلس رق وخفي وامتد كذلك رقيقا الى ان يصل الى طرف اوثان من ارض برقة فينقطع هنالك وهو من مبداه الى منتهاه مخصوص بسكنى البربر وبه كل طريفة من الثمار وغرائب الاشجار والماء ينبع فيه من مواضع معروفة . وهذه المسافة التي تسمى منه غمراسن هي متصلة بالمسافة التي تسمى منه دمر من جهة شرقها

وقد يقال في غمراسن انه من دمر . ومسافة غمراسن تحتوي على قلاع كثيرة اشهرها قلعة نفيق بكسر النون وتشديد الفاء وقلعة حمدون وقلعة نفيق احصنهما واليهما يلجأ جميع اهل البلاد اذا حل بهم عدو او وصل اليهم جيش وهو جبل مرتفع في السماء قد سهلت فيه طرق ضيقة لا يسلكها السالك الّا على غرر . وقد تدرب اهلها على سلوكها فهم يتنازون فيها تنازي العصم وكذلك غنمهم وابلهم يسلك البعير منها مسالك لا يستطيع الادمي سلوكها الّا بالحيلة وتودي تلك الطرق الى بيوت منحوتة في الجبل بعضها فوق بعض من وسط الجبل الى اعلاه فيسمونها الغيران واكثر جهاته مغارة الجهة الشرقية وتليها في ذلك الجهة القبلية وفي الجهة الغربية ايضا مساكن قليلة الّا انها الان غير مسكونة والنسور كثيرا ما تاوي اليه وتجتمع فتُصْطَفّ عليه . وتحف بهذا الجبل مزارع فيها نخل كثير لا يرى احسن من رطبه وبها ءابار ليست بالكثيرة يستقون منها بالغراغيز واكثر مزروعهم الذرة التي يسمونها القصب وسبب قلة ءابارهم ما يعانون في حفرها من شدة الارض وصلابتها حتى أن الرجل ليمكث في حفر البئر العام والعامين بحسب كبر البئر وصغرها وقوة اعتمادهم في ري الارض انما هو على ما ينحدر من سيول تلك الجبال في وقت الامطار فانها تجتمع في ابطح ذي حصباء متناسبة وتربة بيضاء كافورية تحدق بمزارعهم احداق السور والسوار وتخترقها مذانب متسربة منه اليها وليس في تلك البقاع مايرتاح اليه الخاطر سوى هذا الابطح و بموضع منه احساء عذبة ترد عليه نعمهم وعلى هذه الاحساء نخل كثير يتغالون في اثمانه اذا تبايعوه بينهم . واهل غمراسن قوم من البربر ورغميون وفيهم راحلة مع العرب المحاميد والعداوة متاكدة بينهما و بين اهل قربعة قرية قريبة منهم يعرفون بالمقدمين لا تزال الحرب قائمة بينهم . ومن سيرة هولاء المقدمين انهم لا يدفنون موتاهم الّا على هيئة الجالس في كهوف متسعة يحفرونها لهم و يتاكد عندهم الدفن على هذه الصفة في من توفي وترك ولدا فانهم يقولون ان عز الولد لا ينقطع

ما دام

ما دام ابوه جالسا هذه عقيدتهم . قال التجاني وليس لاهل غمراسن ولا لاكثر ساكني هذا الجبل في الحقيقة من الاسلام إلّا الاسم فقط ولا تجد منهم من يعرف للصلاة اسما فضلا عن ان يقيم لها رسما وكذلك جميع الشرائع قال واقمنا ما اقمنا معهم فلم نسمع عندهم اذانا ولا طرق صوته لنا اذانا وان كنت قد رايت في اعلى قلعتهم موضعا سموه مسجدا وليس يصلي فيه إلّا رجل غريب من اهل زوارة سكن عندهم وهم ينتحلون مذهب النكارة من البربر ولا يغسلون موتاهم ولا يصلون عليهم ولا يورثون البنت شيئا من مال ابيها وعيشهم من الغارة على العرب تخرج غازية منهم فتكمن في بعض المكامن لمن يمر بها من العرب وخصوصا الجواري . والمخالفة بينهم وبين المحاميد لان اباء جبارة كانت اعداء المحاميد وورغمة منهم ولا ينالون في الغارة على الجواري باصطلاح المحاميد معهم ولا باحترابهم ولهم ايضا حقد على النفاثين وبينهم دماء وهم اغير خلق الله على ضعيف واكرمهم له فاذا حل الغريب لديهم واستند اليهم جعلوه من ارأسهم وانزلوه فوق رؤوسهم وتحكم في انفسهم ولديهم الامن الذي لم يسمع بمثله في بقعة من بقاع الارض . قال التجاني وحسبك انا اقمنا ما اقمنا معهم فلم يضع لاحد منا شيء مع اني كنت ارى الثياب والامتعة واواني الصفر وغير ذلك ملقاة بين الاخبية لا يتعرض احد منهم لشيء من ذلك . ومن احكامهم ان الرجل منهم اذا ظهر عليه سرقة او خيانة فانهم لا يجالسونه ولا يكلمونه إلّا فيما لا بد منه ولا يخرجونه من بلدهم اذا كان منهم فان كان من غير بلدهم قتلوه . قال واخبرني جماعة منهم ان رجلا ضاعت له دنانير ووجدها رجل اخر منهم فتركها في المسجد الذي في قلعتهم فبقيت في ذلك المسجد لا تمتد اليها يد الى ان دخل صاحب الامانة بنفسه واخذها . قال التجاني ووصل الي باقامتي هنالك كتاب من الفقيه الاجل ابي زيد بن نزار جوابا عن كتاب كنت بعثته اليه وكان في آخر التسليم عليه بخط الفقيه ابي ابراهيم بن حسينة فوصل كتاب الفقيه ابي زيد يتضمن

مخاطبتنا معا وكان على عنوانه —

للسيد ابن اخ ونجل بـــارع اسحاق مع عبد الاله يسلما

لا زال كل منهما متحليـا بالفضل والاداب دابا مكرما

وفي داخل الكتاب —

حيى المعاقل والرعان بجمعها ورعيا لدهر اذ رعى الاحبابا

سكنوا الرعان وسكنوه فما لهم ساروا الغداة بحلبة خلابا

من اجل من حل الحمى اهوى الحمى واحب لي من لبه الالبابا

مولى كبدر والنجوم صحابه نجل وخدن اوحشا الاصحابا

حلوا بافاق العلاء كواكبا ايقادها يستعبد الالبابا

وكذا الثوابت نورها يسعى لها تابى الجفاء وتالف الادابا

تكفي من المولى جلالة قدره من ان احيل بذكره الاسهابا

ولذا المهدي حكمة نبوية تبري السقام وتذهب الاوصابا

وحوى البراعة والبلاغة ما نسي عبد الاله وقد نسي الاترابا

فالله يسعدنا بهم ويومهم وينيل كلا منهم الآرابا

وعليهم مني السلام مقبلا تربا يرب ترابه الاترابا

قال وكنت كتبت لابن عمي الفقيه الاكرم ابي زكرياء ابن الفقيه الاجل ابي علي التجاني كتابا مصدرا بهذه الابيات —

اذا الله حيى معشرا بتحية يقصر عنها المسك في الطيب والند

فحيّى بني عمي الذين فخارهم فخاري ومجدي حين اسمو لهم بجد

وخصص منهم من تخصص فيهم باوصاف فضل ليس يحصرها العد

ابا زكرياء الرضى الارفع الذي له مني الشوق المجدد والود

احبتنا هل يجمع الدهر بيننا فقد طال هذا النأي واتصل البعد

يذكرنيكم وقت انس لنا مضى وعهد ائتلاف حبذا ذلك العهد

فيبدو قليل من غرام الحب وفي القلب للاشواق اضعاف ما يبدو

لقد بلغت مني النوى كل مبلغ ففي ادمعي ودق وفي اضلعي وقد

فهل

فهل تقرب اللقيا وتنصرم النوى ‏ ‏ ويُنجز للآمال من قربكم وعــد

لئن جمعت ايدي التفرق بيننا ‏ ‏ فقد تمت النعما وقد كمل السعــد

قال التجاني وورد على مخدومنا الخبر من برقة عن جدب سنتها وعظيم فتنتها ووصل اليه رسم بشهادة عدول طرابلس وخطاب قاضيها بما مضمونه ان ركبا فيه ما ينيف على سبعمائة نفس لم يبق منهم الا نحو مائة وان سبب ذلك انهم لا يجدون هنالك ما يقتاتون به الا لحوم الحياة فعدا عليهم سمها باكلهم اياها واخبر الذين نجوا انهم كانوا يمرون في كثير من ارضها والخيام بها مضروبة وجميع من بداخلها موتى من رجال ونساء واطفال الى غير ذلك حتى بلغ الامر ان اكلوا لحوم بعضهم ونظم في ذلك الفقيه ابو ابراهيم بن حسينة قصيدة مطولة يحض فيها المخدوم على الثاني بالحج في تلك السنة لانه كان قاصدا الحج فيها وكان اول القصيدة —

عـرج يا صاحبي على الطلـل ‏ ‏ واسكب اجفانك في الحلـل

قال التجاني ولا يحضرني الان كمالها * وقد عارضتها —

طلعت كالبدر المكتمـل ‏ ‏ فتوارى البدر من الخجـل

واماال اللحظ تمائلهـا ‏ ‏ عن غصن البان المعتـدل

حوراء يحار الصب بهـا ‏ ‏ ويخلي السلوة كل خـلي

حكمت هواها في فلم ‏ ‏ يعـدل في الامرة حين ولي

فابحت النفس لما احتكمت ‏ ‏ وحميت السمع عن العـذل

جمعت اشتات الحسن فقد ‏ ‏ زادت بالحسن على المثـل

كابي يحيى تلقى منـه ‏ ‏ اشتات الفضل لدى رجـل

مولى زهت الايام بـه ‏ ‏ وتحلت من بعد العطـل

ينميه ابو العبـاس الى ‏ ‏ حسب في مرقى المجد علي

شرف بالارث تملكـه ‏ ‏ فتنقل احسن منتقـل

باس كالنار اذا اضطرمت ‏ ‏ وندى كالغيث المنهمـل

قد القى الله بحكمتـه ‏ ‏ بيديه مقـاليد الدول

يمضي لآراء مسددة | في قول انفذ أو عمل
مولاي قصيدة ممتدح | وافاك بشعر مرتجل
طلبت ايضاح فضائلكم | فحكت منها بعض الجمل
فاذا احسنت فذاك لكم | واذا قصرت فذلك لى
وافت علياك معارضة | عرج يا صاح على الطلل
مع ان قصيدة اولنا | فاتت سبقا شاو الاول
وارجع لمحل حال بها | يشكو لفراقك من علل
فاقم للدين تجدده | في عز باق متصل
واخلع اثواب السقم بما | تكسى للصحة من حلل
فشروط الحج قد ارتفعت | لزوال القدرة والسبل
مهدي بعبيدك فيه وقد | مدوا يد داع مبتهل
يرجون ايابك عن كثب | ودنو لقيك عن عجل
كانوا من مهدك في ظلل | فغدوا من بعدك في خلل
فانلهم منك مرادهم | وادفع بالقرب صدى العلل
واجمع شملا بالاهل فقد | ماتوا شوقا قبل الاجل
واسعد واصعد وتسام وزد | وترق ونل اقصى الامل
والله يوفق رايك في | حل ازمعت ومرتحل

فابى إلا سلوكا لنهجه وقصد ان لا يرجع الى تونس إلا بعد تحصيل حجه قال وكان المخدوم وجه لوالدي كتابا بخطه يعرفه فيه بحالتي معه ويصفني فيه بما يليق بذاته الشريفة ومرتبته المنيفة فوجه اليه والدي عن ذلك كتابا نصه —

يا نسمة الفجر والازهار قد رويت | مما ادار عليها الوابل الساقي
والروض قد مسك الامساء منه ثرى | نمت عليه به انفاس احباق
ولا قرارة إلا قررت خبرا | بان دارين منا راى احداق
لو انه نشر طيب للتجارة قد | سبقت لطائمه منه باوساق

والنور

والنور تسري الينا من عمامــــده انفاس ند ولكن هي احــراق
بالله هي على ناد تبـــــــواء من للندى في يديه سحب ارزاق
فان ظفرت بقرب منه فلتصفــي بالسن الورق في الاوراق اشواقي
ولتسالي لي وعدا باللقاء عســى وعـــد التلاقي يجلي ما انا لاقي
وقبلي يا نجوم الافق راحتــــه عـني فبين الدراري قدرها الراقي
يا راحلين وقلبي راحل معهـــــم عني وان كان لي جسم هنا بــاقي
لولا رجاء التداني لم اعش زمنــا فردا ولا وصفت بالصبر اخــلاقي
عسى الليالي التي بالبعد قد حكمت يجلى دجاها من اللقيا باشـــواقي
لله رفعة مولى قد علقت بمـــــا اولت من النعمة العظمى باعــلاقي
تضمنت ذكر مملوك ووالـــــــده من مالك لهما بالفضل سبـــاق
فالامن واليمن والاقبال ما بقيـــت دنياهما لهما من اجله بـــاقي

واتصل بهذا النظم من النثر — يا ايها الملاء اني القي الي كتاب كريم — ويا شاكري الايادي اني لا ابرح عن شكر هذه اليد ولا اريم . ومن لي ان اقوم بواجب حقها . او استطيع السلوك في لاحب طرقها . وهي يد خطتها يد اعلى الله قدرها . فما يقدر احد ان يقدرها قدرها . تصول بالقلم والحسام . وتصرف على الايام كصرف الغمام بالنعم الجسام . ولما وصلت العبد احرف مولاه . واولاه واولى ولده من لا والد ولا ولد له من التشريف بذكرهما فيها ما اولاه . لم يجد لها كفيا . ولا عملا مرضيا . الّا تضرعا الى من تمد اليه ايدي الرغبات . وتستمد من فضله المنح الجزيلة من الهبات . فقلت اللهم يا ارحم الراحمين . اجعلني على السلام على تلك العزة واستسلام تلك اليمين الكرة بعد الكرة من المزاحمين . ثم رفعت البراءة المباركة على راسي اكليلا . واوسعتها شوقا لليد التي خطتها لثما وتقبيلا . ولم ازل اتنعم بمطالعتها بكرة واصيلا . ثم وصلت الدعاء بان قلت اللهم ان يكن في علمك الخير التام في بلوغ ما ام له واملـه فهون عليه كل صعب . وروه من نمير لطفك بكل عذب . واسعد غيبته . وسيره على اتم وجوه السلامة واعم انواع الكرامة وعجل

اوبته . واناله خيرا وافرا جليلا . والّا فاذن عزمه عما امه ورده الى وطنه ردا جميلا . وانسم له اجله حتى يستشني ذلك له في الوقت الذي تومن فيه الغوائل . وتتساوى في تهوين صعوبته وتسهيل حزونته الاواخر والاوائل والبكر والاصائل . فانت يا ربنا تعلم ما الاسلام . ولاحة سيدنا محمد نبيك عليه افضل الصلاة والسلام . في نظره السديد المبارك السعيد من الخير التام والصلاح العام . وناهيك به من دعا تنزه به عن السمعة والرياء . ورفعت به الايدي الى رافع السماء . وختم بالحمد لله رب العالمين . والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيئين والمرسلين * قال التجاني وحضرنا بغمراسن عيد الاضحى ونحن بحالة قد غاب عنها السرور باسره . فقطعناه ولا اعياد بن عباد في اسره . واستهل بعده شهر المحرم من عام سبعة وسبعمائة قال وفي اوائل هذا الشهر وصل الينا الخبر بقتل ملك المغرب ابي يعقوب المريني على يد احد فتيانه ثم قتل ولده ابو سالم ثم قتل اخوه ابو يحيى واستقر الملك لحفيده ابي ثابت عامر بن عبد الله وكان قتل ابي يعقوب على ما تحقق من الكتب الواصلة من هنالك في تاسع قعدة من عام ستة وسبعمائة وقتل ابنه ابو سالم بعده بايام يسيرة وكذلك اخوه ابو يحيى وانتقل ابو ثابت الى مدينة فاس بعد ان سلم مدينة تلمسان الجديدة لابي زيان محمد بن عثمان بن يغمراسن بن زيان المحصور بتلمسان القديمة في اكثر ولاية ابي يعقوب . قال التجاني وفي هذا الشهر كتب الى شقيقي ابو العباس احمد التجاني بهذه القصيدة الفريدة من نظمه —

لاهل الحمى اصبو وان جد لائم	واني على ورد به الدهر حائم
وما القلب خال من هوى ساكن النوى	وان اقفرت منهم واقوت معالم
فلي اثهم جفن من الدمع مترع	وقلب على حكم الصبابة هائم
حمى الله قلبي كم يحن الى الحمى	ويطرب عهدا للولا المتقادم
يحن اشتياقا او يئن صبابة	اذا لاح ضحاك من البرق باسم
وان غردت ورقاء في غسق الدجى	يميل بها غصن من الايك ناعم

تذكر

تذكر عهدا قد تقاضى نعيمه   كأن لياليه المواضي مواسم
الا في ضمان الله قلبي فقد غدا   يشب عليه من لظى الشوق جاحم
وبالنفس افدي جيرة قد تحملوا   فلا القلب مرتاح ولا الجفن نائم
ناوا فنى صبر المتيم اثرهم   واي اصطبار بعد حب يلازم
سروا يقطعون البيد والليل عاكف   كانهم فيه نجوم عواتم
على كل فتلاء الذراعين جسرة   سواء لديها سهلها والمخارم
تباري عليها القفر جدا كانما   قوائمها عند النجاء قوادم
جديلية للاباء موثوقة القوى   سليمة ما نيطت اليه القوائم
ويا قاتل الله المطي وانما   نات باحباءي المطي الرواسم
لقد خلفوا من بعدهم ذا صبابة   يروح ويغدو وهو باق وهائم
اذا ما جرى ذكر العقيق جرت له   دموع حكت لون العقيق سواجم
فيا جيرة الوادي قراء متيم   تعدى عليه الدهر والدهر حاكم
اعندكم اني على العهد ثابت   اذا ضيع العهد القديم مصارم
واني على رعي الذمام محافظ   واني على حفظ الوداد مداوم
ويا من مع الترحال تحمل كورة   على بعد ما ينوي قلاص سواهم
لك الله عون والنجاح مرافق   وبلغت في دنياك ما انت رائم
تحمل رعاك الله مني تحية   كما انشق عن زهر الرياض كمائم
تضوع في وسط النداء كانما   تنشق مسكا من شذاها العرائم
وان سرت مجتازا بداربع دمر   ولاحت به للعين منك المعالم
فخص بها عني شقيقي وانني   بحكم النوى والبعد فيه لراغم
وصف ما الاقي بعده من تشوق   ووجد غدت تنقد منه الحيازم
تمثله للاشواق لي فكانه   وان كان ناء بين عيني قائم
وما ظبيات اضرم الغيظ لدغها   فهن على ورد الشراب حوائم
اذا لاح برق في عنان سحابة   فهن لما يلتاح منه شوائم
رات نطفة زرقاء في قلب صخرة   ممنعة قد غادرتها الحمائم

يفيء عليها الظل كل عشيـــة ۞ وتسترها اغصان دوح نواعـــم
باعظم من شوقي لرويته الـتي ۞ بها اهلي يدنو وسعدي يلائــم
لقد طال هذا البعد واشتطت النوى ۞ وجار علينا الدهر والدهر ظالــم
اذا ما تذكرت الليالي التي مضت ۞ تخيلت انني في ادكاري حالــم
احن لمسرى البرق من نحو ارضكم ۞ اذا ما سرى والليل اسود ساجــم
وكم هيجت شوقي سواجع ايكــة ۞ يجاوبها الف لها ويناغــم
اطارحها رجع الحنين صبـابة ۞ واعرب عن وجدي وهن اعاجــم
فيا ليت شعري هل يعود بقربكــم ۞ زمان نعمنا فيه والشمل نـاظــم
ويا حبذا دهر قضى باجتماعنـــا ۞ كريم وايام تولت كرائــم
بحيث قطعنا العيش وهو مهنـــا ۞ ونلنا الاماني والزمان يسالــم
وكم قد ادرنا اكوس المن والمــنى ۞ علينا وما غير السرور منـــادم
فهل مبلغ ذاك السرور الذي مضى ۞ سلاما تؤديه الرياح النواســم
اذا حملته عطر الجو عرفـــه ۞ كما عطرت يوما عليك اللطائــم
سقى الله صوب المزن اعـلام دهر ۞ وروى ربـاه العارض المتراكــم
ولا زال ممطور الثرا مخصب الذرا ۞ تردد فيه اللحن ورق حمائــم
اذا السحب اذرى فوقه الدمع اصبحت ۞ تضاحك للازهار فيه مباســم
وما طلبي سقياه الا رعـــاية ۞ لمن حله والدهر معط وحـــارم
ومن اجل من حل الحمى يذكر الحمى ۞ والا فما تجري الدموع الطواســم
فيا نائيا عني ومثواه في الحشـــا ۞ ومن اعجب الاشياء نـاءٍ مـلازم
الى م نوى لا يستطاع احتمالــه ۞ وحتى م بُعْدٌ هوله متفاحـــم
الا زورة تهدي الشفاء على النوى ۞ ويهدي لنا منها المسرة قـــادم
وشن لي باللقيا ودون منالهـــا ۞ فيافي تحامى جوبهن المناســم
اروح واغدو والصبا متنســم ۞ عسى خبر ياتي به منك نـاســم
وكم لي على بعد النوى من تحية ۞ تحملها عني البروق النواســم
فيا ليتني طارت بكوري على النوى ۞ خواف شديدات القوى وقـــوادم

لاحظى بحظ من روياك مقنــع وانى اذا ما نلت ذالك لغانــم
احن اذا ما مر ذكرك خــاطرا بقلبي كما حنت نياق روائــم
عسى الله ان يدني ايابك عاجــلا فيحسم هـذا البعد والبين حاسـم
ومــا يسلي النفس انك مـودع بحيث تحاماك الخطوب الهواجم
ومن يك بالمولى العماد اعتــلاقه فقد نكبت عنه الدواهي الرواسم
همام توقاه الاسود مهابــــة وتحسد كفيه البحور الخضــارم
عماد بني الدنيا ومولاهــم الذي يصادر عنه من عدا ويصــارم
من آل بني حفص الذي قد غدا به حمى الدين في امن وذلّ المراغـم
حمى حوزة الاسلام قدما بعزمـه فعزت له بالله تلك العزائــم
لقد شمخت تلك الربوع بماجد نمته الى العليا جدود كرائــم
يقاسمه في ماله كل مجتــد وليس له في مجده من يقـاسم
كريم اذا ما السحب ضنت بقطرها حليم اذا ما خف بالحلم راقــم
يرى البخل عصيانا اذا سال سائل كان عطاياه فروض لـــوازم
يذكر يوم الجود والروع حاتمــا وعمرا ومن عمرو لديه وحاتــم
حوى قصب العلياء والغاية التي يرى كل خلق دونه وهو حاكـم
فمن كابي يحيى ندى وشجاعة اذا امة عافت ودارت ملاحـم
هو الجود حتى لو تخلف مجتــد لسارت اليه من يديه المكارم
لقد غاب عن ترشيش اذ غاب انسها ولاحت من الاشواق ما لا تنــادم
تغير منهـا كل حسن واصبحت يلوح لها وجه من الشوق قـاتم
حياة ابي يحيى حياة بني الدنــا وءاراوه من كل خصب عواصـم
فلا زال في عز وسعد مجــدد تقابله الايــام وهي خــوادم
ودام على مر الليالي وكرهــا ينادي مجيبا للمنى وينــادم

قال التجاني ومما انشده في مخدومنا الفقيه ابو ابراهيم ابن حسينة —

سخى بنفسي عن ايثار صحبتكم يوم الوداع وما لي منكم خلف
إلّا فوادا خطيرا حل بي شـرك ودمعة مثل منهل الحيا تنكف

اكفها عن مجاريها فيبعثهـا حـاد من حرهـا الاضلاع تنقصف

خلالها زفرة تشتد طالعـة تـكاد من حرها الاضلاع تـنقصف

علم اليقين باني ان صحبتكـم اردى وشيكا ولم يمـهلني التلـف

فقلت يا صحبة دان تصرمهـا بعدي بفرقـة وقت مـا لـه طرف

وفي رجوعي رجـاء لا بقـاء لـه ارجو حصول التلاقي حين تنصرف

فاختار عبدك بعدا بعده صلـة على اتصال ببعد الدهر يكتنـف

فانظر بعين اعتبار ما اتيت بـه يقم لي العذر في عليـاك والنصف

واترك مقالة اقوام ذوي غرض يردهم قصدهم عن بعض ما عرفـوا

قـال التجاني ومما كاتبني به صاحبنا الفقيه المتصوف الفاضل ابو عبد الله محمد بن عبد الله المعروف بالهواري —

ومن السعـادة وصل خل صـالح عن كل فعل سيء ينهـاني

من لي بخل كان يونس وحشتي ويومني بالبشر اذ يلقـاني

صـاحبته في الله احسن صحبة فشكرت منـه كل مـا اولاني

ورايت منه تـوددا ومحبـة وفضائلا زادت على الحسبـان

لا غرو ان حـاز الكمـال فانمـا وقف الكمال على بني تجـان

كم زهرة في روضتيه سمحت بـه فرايت بستانـا لدى بستـان

فوداده عندي نظير دائـم وثنـاؤه غض بكل اوان

امقدم الابـاء دون منـازع وسلالـة الحسباء والاعيـان

واجل حبر قـد سمـا في عصرنـا بالعلم والاداب والاتقـان

قد جاءني منكم كتاب سرني بالبشر والترحيب اذ حيـاني

اني لاحيى اذ سمعت بذكركـم فيميتني شوقي اذا احيـاني

ولربما ادمى جفوني ذكركـم فاخال قلبي فاض من اجفـاني

فالله يجمع شملنا بلقائكـم ويزيدكم بالعفو والغفـران

وعليكم مني سلام دائـم متعطر ما اهتز غصن البـان

قـال وكان تحت هـذه القصيدة اسطر في مخاطبتي بخط صاحبنا الفقيه

الفقيه ابي عبد الله محمد بن ابي بكر بن ابي زكريا‌ء البلوي تتضمن تجديد الوداد وتاكيد الاعتقاد فكتبت اليهما في الجواب وجمعتهما معا في الخطاب —

ان لم تفض بدمائها اجفاني لفراق من اهوى فما اجفاني
او لم اواصل ذكر اخواني فقد اصبحت معدودا من الخوان
من مبلغ عني السلو بان لي في الحب قلبا عند ذي سلوان
عندي لاحكام الوداد شريعة اضحى القصي بحكمها كالداني
لا ارتضي إلّا الوفاء طريقة ما الغدر من خلقي ولا من شاني
وائن نسيت فلست انسى صاحبا يصل التذكر لي ولا ينساني
خلي الذي عزت به هوارة عزي بصحبته على اخداني
من قد صرفت اليه وجه مودتي وصرفت لحظي عن فل وفلان
ذا المنزع الاحلى الذي اجرى به في الناس حالته على ميزاني
ذات قد اختصت بكل فضيلة فاختصها بالشكر كل لسان
يسدي تفضله الى اخوانه ويعد فيه الفضل للاخوان
كم خصني من نصحه بفوائد اهدى الي حليها فهداني
ولكم ابان لي الحقائق فكره فاقام صورتها مقام عياني
ولقد اتاني من لدنه على النوى كتب اتاني الانس حين اتاني
قد وُفِّيَتْ فيه البلاغة حقها ما بين الفاظ وبين معاني
جمع الصنيعة والصناعة مازجا تبيين احسان بحسن بيان
ورايت في اقصى الصحيفة اسطرا ألفن بين الحسن والاحسان
من ماجد اسدى الي اياديا ما لي بواجب شكرهن يدان
جاءت تقرر من كريم وداده ما حل من قلبي اجل مكان
لما قرات خطابها ففهمته ناديت والسراء ملء جناني
قد الحقتني بالوداد بنو ابي ابراد فخر يا بني تجنان

قال ولما وصلتهما قصدتي المذكورة راجعني الهواري بقوله من نظمه —

كتابكم اهدى من الوجد ما اهدى — فلا تحسبوا اني نقضت لكم عهدا
سرى لي بسر منه عرف معرف — افاد بمسراه الصبابة والوجدا
حباني بحب سيد فيه ماجد — به شرف الله السيادة والمجدا
نسيم الصبا بالله سر بتحية — فضضت بها من شكره المسك والندا
وحَيِّ بها عبد الاله على النوى — وادرج له اثناءها الشكر والحمدا
كاني به لما جرى البين بيننا — ومد حجاب البعد ما بيننا مدا
يقول جفا او مل او مال او سلى — وحال عن الاخلاص او نسي الودا
غرامي غرامي بالحبيب وان نأى — وحبي له حبي دنا لي او صدا
واني لمشتاق اليك وصابر — اذا لم اجد مما اكابده بدا
اذا خطرت ذكراه يوما بخاطري — وجدت لحر الشوق في اثرها بردا
الا نفحة منكم تبرد باطني — فان لقلبي من اليم النوى وقدا
الا موعد منكم يعلل مهجتي — فارتاح للقيا واستنجز الوعدا
لئن جاءني يوما بشير بقربكم — وهبت له نفسي واهون بها نقدا
واني لاستجدي ودادك انه — اجل نفيس والافاضل تستجدا
واني لاستهدي سلامك جالبا — بمعناه انسي والاكارم تستهدا
واني لاستدعي جوابك راغبا — ليفتح باب القرب من بعد ما سدا
لقد ضيع الاصحاب عهدي ولا نوى — وانت بظاهر الغيب تحفظ لي الودا
ساشكركم شكر الرياض لسحبها — وانظم فيكم من حلى مجدكم عقدا
واجهد في شكري تهجدكم عسى — بفضلكم ان تقبلوا مني الجهدا

ومن المدن التي نامت في الاسلام وكانت مقر الاحكام مدينة المهدية قال التجاني دخلتها فاذا هي مدينة جليل قدرها شهير في قواعد الاسلام ذكرها وهي من بناء عبيد الله المهدي اول خلفاء العبيديين واليه تنسب وكان ابتداء بنائه لها سنة ثلاث وثلاثمائة ولما اكمل بناءها امن بزعمه على الفاطميات . قال ابو اسحاق ابراهيم بن القاسم بن الرقيق في كتابه خرج عبيد الله المهدي بنفسه في سنة ثلاثمائة الى مدينة تونس فاجتاز

على

على قرطاجنة وغيرها ومر على جميع السواحل يرتاد موضعا على ساحل البحر يتخذ فيه مدينة تحصنه وتحصن بنيه من بعده وقد كان عنده علم حدثاني بقيام قائم على ذريته فاقام يلتمس ذلك مدة فلم يجد موضعا احسن ولا احصن من موضع المهدية فبناها هنالك وجعلها دار مملكته قال وكان اول ما ابتنى منها سورها الغربي الذي فيه ابوابها وعند ما وضع اول حجر منه وهو حاضر امر ناشبا كان بين يديه ان يوتر سهما ويقف على ذلك الحجر ويرمي ففعل الرامي ذلك فانتهى السهم الى المصلى ووقع قائما على نصله فقال المهدي الى ذلك الموضع ينتهي صاحب الحمار يعني ابا يزيد فقدر ان وصل ابو يزيد الى ذلك الموضع ولم يتجاوزه . قال معلم الفتيان في تاريخه وامر المهدي بقياس المسافة التي سقط عنها السهم فكانت مائتي ذراع وثلاثا وثلاثين ذراعا فقال المهدي هذا منتهى ما تقيم المهدية في ايدينا من السنين . قال ولما تم بناء السور هناه اولياوه بذلك فقال لهم ان جميع ما ترون انما عمل لساعة واحدة يعني ساعة وصول ابي يزيد الى المهدية . قال وكان يقف على فرسه فيامر الصناع بما يصنعون قال وامر بباب الحديد للمدينة فجعل صفائح مصمتة ثم اثبت فيها المسامير فبقيت تتقلقل فقال للصناع ما عندكم في هذا فقالوا لا ندري فامرهم بتسميرها ثم امر بايقاد النار تحت الباب حتى التهب واتصلت المسامير بالصفائح فعادت كلها قطعة واحدة فكان ذلك مما عد من معارف المهدي وهذا تعصب ممن نقله وادنى معرفة الصناع ان يعرفوا هذا القدر ولما تم الباب على هذه الصفة احب اختبار وزنه فاجمعوا على انه لا سبيل الى ذلك لافراط ثقله فامرهم ان يضعوا احد مصراعيه على ظهر سفينة ففعلوا ذلك ونظر الى منتهى غوص السفينة في الماء ثم انزل وشحنت السفينة بالرمل والحجارة الى ان وصل الماء منتهى ما وصل اولا واستخرج الرمل منها ووزن على كرات فكان زنة كل مصراع منهما مائة قنطار وفي كثير من نسخ المورخين الف قنطار وكذا حكى ابو عبيد في المسالك . ولما علموا قدره

وحاولوا تركيبه صعب عليهم فتحه واغلاقه فلم تكن المائة من الرجال تحركه فامر المهدي ان يكون مداره على الزجاج فهان امره وعاد الرجل الواحد يتولى منه ما كانت المائة تعجز عنه فعجب كل الناس من فطنة المهدي وغوص فكرته وامر المهدي بحفر مرسى المدينة وكان حجرا صلدا فنقر نقرا وجعله حصنا لمراكبه الحربية واقام على فم هذا المرسى سلسلة يرفع احد طرفيها عند مرور السفن ثم تعاد كما كانت تحصينا للمرسى من طروق مراكب الروم وابتنى دار الصناعة وهي من عجائب الدنيا ثم شرع في حفر الاهراء بداخل المدينة وبناء الجباب والمصانع واختزن الاهراء بالطعام وملا الجباب بالماء ثم امر بحفظها ولم تفتح الّا في ايام ابي يزيد ولولا ذلك لما اطاقوا الحصار وكان اتساع المهدية في اول بنائها من الجوف الى القبلة قدر غلوة سهم فاستصغرها المهدي عند ذلك فردم من البحر مقدارها وادخله في المدينة فاتسعت . والجامع الاعظم الان والدار المعروفة في القديم بدار المحاسبات من جملة ما ردم من البحر . واخذ عبيد الله في بناء قصوره بها فبنى قصره الكبير المعروف به الذي كان به طيقان الذهب وبنى ابنه ابو القاسم بازائه قصره المعروف به ايضا وفيها فسحة وبشرق قصر عبيد الله حيث كان هي دار الصناعة الان ولما كمل سور المهدية وقصورها اراد عبيد الله الانتقال اليها فثقل ذلك على اوليائه وجنده وصعب عليهم استبدالهم بالموضع الذي استوطنوه فقال لهم ان صعب ذلك عليكم فنحن ننتقل ونترككم ههنا ونجري عليكم الارزاق والصلات وعما قليل ستنتقلون الينا مسارعين . قال المورخون فلم يكن بعد ذلك الّا زمن يسير حتى ارسل الله السماء بامطار غزيرة اخربت مساكن رقادة وهدمت دورها واهلكت خلقا عظيما من اهلها فخرج الناس في الاخبية وكتبوا الى المهدي يسالونه الانتقال الى المهدية فاجابهم الى ذلك فانتقلوا اليها وتمت عمارتها وانزل المهدي جنده وخاصته فيها وابتنى لعامة الناس المدينة الاخرى المسماة بزويلة وهي احدى المهديتين وبينهما قدر غلوة سهم وجعل الاسواق والفنادق بها

وادار

وادار بها خنادق متسعة تجتمع بها مياه الامطار فكانت كالربض لمدينة المهدية . وقد كان المعز بن باديس جعل عليها سورا عند دخول العرب الى ارض افريقية سنة اربع واربعين واربعمائة وقد خربت هذه المدينة الان فلم يبق لها اثر وكان بخارجها الحمى المعروف بحمى زويلة وكان كله جنات وبساتين بسائر الثمار وانواع الفواكه فافسدته العرب . واقام المهدي ساكنا بالمهدية مدة حياته ثم مات بها سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة فكان جملة اقامته بها تسع عشرة سنة وتولى ابنه ابو القاسم القائم وفي آخر دولته ثار عليه ابو يزيد مخلد بن كيداد النكاري وسياتي ان شاء الله في الفصل الثاني من الباب السادس في دولة العبيديين الفاطميين ايضاح نسبه وتاريخ بناء المهدية مع طرف من خلاف بين هذا الذي نقلته من التجاني وبين ما ياتي وكل عهدته على من نقل عنه وقد تقدم طرف من حروبه معه . فما زال يفتتح المدن ويخرب البلاد الى ان افتتح القيروان وهزم جيش القائم الاعظم واقبل يريد حصار المهدية وكتب الى اهل البلاد الداخلين تحت طاعته يستنفرهم لحصار المهدية وذلك سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة . فعلم القائم بذلك فامر بحفر خندق حول ارباض المهدية وزويلة ووصل ابو يزيد في جيوشه فاحاط بالمهدية وكان عسكره بموضع بخربة جميل على اميال قريبة منها فكانت خيله تصل الى ارباضها فتقتل وتنهب فلجا جميع الناس الى المهدية واخلوا ارباضها . وابصر القائم ذات يوم غِـرَّةً من ابي يزيد لتفرق جيشه للنهب فاخرج طائفة من جنده الكتاميين وغيرهم فقصدوا ابا يزيد وسبق الخبر بذلك الى ابي يزيد فوافق وصول ابنه فضل اليه بجمع عظيم من ضريسه فامرهم بلقائهم وان يكف عن قتالهم ما كفوا عنه فان ابوا إلّا قتاله وجه اليه من يعلمه بذلك فالتقوا بالموضع المعروف بسوق الاحد وهو فيما بين المهدية ومعسكر ابي يزيد وسطا فابى الكتاميون إلّا قتال فضل فوجه الى ابيه يعلمه بذلك فركب ابو يزيد من حينه بجميع من معه فوافاهم وهم يقتتلون وقد هزم ابنه فضل وقتل

جماعة من اصحابه فلما رءاه الكتاميون انهزموا من غير قتال ولجاوا الى
المهدية فدخلوا اليها ووصل ابو يزيد في اثرهم الى ان اشرف على المهدية
فاحب نقل اخبيته الى موضعه ذلك فاشار عليه اصحابه بالرجوع الى
معسكره وان تكون اقامته به الى ان يستقصي الامور فرجع اليه واقام هنالك
اياما ثم انتقل منه وزحف الى المهدية فوصل الى خندقها واقتحم الماء
بمن معه فوصل الماء الى صدور خيلهم وجيوش القائم هنالك متقهقرة عنه
ووصل ابو يزيد بنفسه في تلك الخطرة الى مصلى المهدية فلم يبق بينه
وبين المهدية الّا رمية سهم حسبما انذر به المهدي عند بناء سورها . فلما
راى الناس ذلك لم يشكوا في تغلبه على المهدية فاجتمعوا الى القائم وعظموا
عليه الامر وسالوه الخروج الى ابي يزيد فقال لهم انه قد بلغ اقصى غايته
ولن يتجاوزها ولينجزن الله وعده ثم قال لبعض ممن بين يديه اصعد الى
السور فاذا رايت ابا يزيد انتقل عن مكانه من المصلى فاشر لنا باشارة
نعرف ذلك بها ففعل الرجل ما امر به ولما اشار لهم قال لهم القائم ابشروا
فلن يعود ابو يزيد الى مكانه ذلك ابدا وانتقل ابو يزيد الى الموضع المعروف
بترنوط وهو على خمسة اميال من المهدية فعسكر هنالك واتصل حصاره لها
فقتل بين الفريقين في ذلك على توالي الايام امم لا تحصى اكثرها من
جيوش القائم . وذكر البكري ان في كتاب الحدثان ـ اذا ربط الخارجي خيله
بترنوط لم يبق لاهل السواد محلول ولا مربوط ـ اهل السواد اهل الساحل .
قال وفيه ايضا ـ ويل لاهل السواد من محلة ابن كيداد ـ ويقال من مخلد
ابن كيداد . ولما طال على براز ابي يزيد المقام وسئموا التغرب عن بلادهم
وتحققوا تحصن المهدية وامتناعها عنهم انفصلوا عن ابي يزيد باجمعهم فلم
يبق معه الّا طوائف من هوارة وزناتة فحينئذ اقلع عن المهدية وذلك في
صفر سنة اربع وثلاثين وثلاثمائة . ومات القائم في ءاخر هذه السنة وابو
يزيد محاصر لسوسة وقد قدمنا ذلك قبل هذا فولي بعده ابنه اسماعيل
الملقب بالمنصور فبادر بانفاذ جيش بري وجيش بحري الى ابي يزيد بعد

ان

ان احب النهوض بنفسه فمنعه اولياوه منه فتوجهت جيوشه الى سوسة وكان ما تجمع لابي يزيد من الجند لحصار المدينة حسبما قدمنا قبل هذا مائة الف خص يسكن في الخص الواحد من الثلاثة اشخاص فصاعدا وكان جيش المنصور البري اربعمائة فارس لا يزيد على ذلك فهجموا على عسكر ابي يزيد في يوم كثير الغيم واطلقوا النار في مجتمع حطب كان هنالك فتطاير شرره الى اخصاص ابي يزيد فاظلم الجو وتخاذل البربر فانهزموا واسلموا ابا يزيد فقتل من اتباعه امم كثيرة وتوجه ابو يزيد منهزما الى القيروان فلم يقبلوه وقتلوا جماعة من اصحابه فهرب عنهم وخرج المنصور من المهدية في طلبه بشجاعة نوه بها المورخون فلم يزل يهزمه ويقتفي اثره الى ان اخذه جريحا في جبل كتامه وذلك في المحرم من سنة ست وثلاثين وثلاثمائة فسلخ جلده وجعل فيه ما ملاه حتى صار صورة هائلة وطيف به من جبال صنهاجة بالمغرب الاوسط الى المهدية ثم صلب بها الى ان مزقته الرياح بعد ان مزق شمل العالم في البلاد وكان يبيح دم المسلمين ويستحل الفروج ويفعل في الراحة اشد مما يفعل في دار الحرب .

ولما تم للمنصور امره ولم يبق له من ينازعه احب الانتقال من المهدية الى مدينة صبرة وهي ملاصقة للقيروان قال ابن الشباط لم يكن بافريقية مدينة اعظم من صبرة قال ذكر بعض المورخين ان عمرو بن العاصي رحمه الله غزا طرابلس بعد ان افتتح برقة وانه لما علم من بها من الروم قدومه استغاثوا بقبائل من البربر يقال لهم نفوسة وكانوا قد دخلوا في دين النصارى فاقام عليهم عمرو حتى افتتحها ثم وجه عبد الله ابن الزبير الى صبرة فبالغ في حصار اهلها وقتل كثيرا من ابطالها فلما راوا ذلك لجاوا الى مراكبهم وشحنوها بما عندهم وقصدوا صقلية وتركوا المدينة خالية فجمع لها عبد الله من معه من المسلمين واحرقوها قال ابن الشباط وعلى هذا فصفتها التي كانت عليها قد تغيرت . وقد ذكرها الطبري رحمه الله حين ذكر الطريق من طرابلس الى قابس قال فمن طرابلس الى صبرة وهو بلد معمور تسكنه

زواغة فهذا ما ذكره في صفتها وصبرة هذه غير صبرة التي بالقيروان فانها محدثة بناها بنو عبيد وكانت تسمى بالمنصورة . قال ثم انصرف فوجهه عمرو الى عمر بن الخطاب رضي الله عنهم فامره برد الجيش وقال اني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول افريقية مفرقة لاهلها غير مجمعة ماؤها قاس لا يشربه احد الّا افترقت كلمتهم فامر عمرو العسكر بالرجوع الى مصر. قال فلما استشهد عمر رضي الله تعالى عنه واستخلف عثمان رضي الله عنه ولى عبد الله بن ابي سرح مصر وعزل عنها عمرو بن العاصي وكانت ولاية عبد الله سنة ست وعشرين وكان المسلمون يغيرون على اطراف افريقية فيغنمون وكتب عبد الله الى عثمان رضى الله عنه يعلمه بذلك فجمع عثمان رضي الله عنه اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ورضي الله عنهم اجمعين واستشارهم في ذلك فاشاروا عليه بغزوها فندب الناس لذلك فتسارعوا . وخرج المهاجرون الاولون وخرج عبد الله بن الزبير بن العوام وعبد الله بن عمر ومروان بن الحكم ومن سائر قبائل العرب واجمع المسلمون على المسير وذلك في سنة سبع وعشرين . فجمع عثمان رضي الله عنه الناس وخطبهم وقال في خطبته بعد ان حمد الله عز وجل واثنى عليه اما بعد فاني قد عهدت الى عبد الله بن سعد ان يحسن الى محسنكم ويتجاوز عن مسيئكم وان يرفق بكم ولا قوة الّا بالله وقد استعملت عليكم الحارث بن عبد الحكم حتى تقدموا الى عبد الله . فلما قدموا عليه خرج بمن كان معه وبمن قدم عليه فكانوا عشرين الفا فسار يقدم الطلائع امامه حتى بلغ طرابلس وقد اجتمع من بها من الروم فكره عبد الله ان يشتغل بها عما قصد اليه من امر افريقية فامر الناس بالرحيل واقبلت مراكب حتى ارست بالساحل فشد عليها المسلمون ففر كل من كان فيها الى الماء فاخذ المسلمون جميع من كان في السفن فكانت اول غنيمة بافريقية . وقد كان المنصور بنى سور صبرة وجعل فيها قصرا لنفسه فكان انتقاله اليها سنة سبع وثلاثين وثلثمائة وذلك اصل تسمية صبرة بالمنصورية ولم تزل

صبرة

صبرة دار ملكهم الى ان انتقلوا الى مصر بتغلب المعز ابنه عليها سنة اثنتين وستين وثلاثمائة فصيروا ولاية افريقية الى زيري بن مناد الصنهاجي فسكنها هو وبنوه الى ان خالف المعز بن باديس على بني عبيد وصرح على المنابر بلعنهم وذلك سنة اربع واربعين واربعمائة فجهز اليه وزيرهم المعروف بالبازوري الاعراب الذين غلبوه على امره واخذوا اكثر بلاده من يده . فلما راى المعز اختلال الاحوال وتغلب الاعراب على البلاد وان صبرة لا تحصنه منهم بنى على الانتقال الى المهدية فولى ابنه تميما عليها وذلك في سنة خمس واربعين واربعمائة وجعل ينقل اليها اهله وذخائره شيئا فشيئا وقد كان رجاله وخاصته حذروه من تولية ابنه تميم وخوفوه من ان يستبد بنفسه ويمتنع بالمهدية على ابيه المعز فلم يسمع منهم . ووصل تميم الى المهدية فوجد بها عبيدا لابيه كانوا هنالك اضبطها وقد قويت شوكتهم وبين عبيده وبينهم فتنة ومنازعة فبينما هم في ذلك اذ دخل عليه شاعره محمد بن حبيب القلانسي فانشده قصيدة منها —

السيف يسبق قبل الحادث العذلا　　لا تغمد السيف حتى تغمد السفلا

نقل عداتك من دنيا لاخـــرة　　فكلهم ظن هذا الملك منتقـــلا

فحركه لابادة اولئك العبيد فاطلق عليهم ايدي العامة فقتلوا اكثرهم وفر من بقي منهم الى المعز بصبرة فاتبعهم تميم طائفة من الاعراب لحقوهم قبل وصولهم الى صبرة فقتلوهم اجمعين وبلغ المعز ذلك فقوي في نفسه ما كان يذكر له عن تميم من الاستبداد والاستيثار بما حصل لديه من الذخائر ولكنه لم يجد بدا من مداراته والاغضاء له عن فعلته هذه . فلما كانت سنة تسع واربعين واربعمائة توجه المعز الى المهدية في خفارة رجلين من العرب قد كان صاهرهما ببنتيه يعرف احدهما بالفضل بن ابي علي وهو مرداسي ويعرف الاخر بفارس بن ابي الغيث توجها اليه فاستخرجاه من صبرة سرا واحس باقي الاعراب بخروجه فاحتفوه في اثناء الطريق فواقفهم فارس بن ابي الغيث في جماعة من قومه وجعل ينبههم على الاستخفاف

بخفارته فقالوا له انك قد اعظمت التحامل علينا في خفارة مثل المعز وتركنا له عظيم والفائدة في اخذه كبيرة فلا تمنعنا منه فلم يزل يوافقهم ويراجعهم الى ان خلص المعز وصاحبه الفضل ابن ابي علي ودخل المهدية . ويقال انه كان قد اخرج بعض قطعه البحرية وسيرها في البحر محاذية له خوفا مما عساه ان يعرض له في طريقه فلما لحقه الاعراب كما قدمنا ناداه ارباب المركب البحري بالبدار اليهم ليلتحق بهم ويعتصم بالبحر من اولئك الاعراب فلج في السير وابى من الدخول اليهم انفة منه وجلدا الى ان خلص وحصل بالمهدية ودخلها وهو خائف من ولده تميم ان يقبض عليه . فخرج تميم للقائه وترجل وقبل الارض بين يديه ومشى امامه ولم يزل في خدمته وبره الى ان مات المعز سنة اربع وخمسين فحينئذ استبد تميم بالملك . وغلبه الاعراب على امره فلم يكن له الّا حمايته لاسوار بلاده سوى انه كان في بعض الاحايين يحالف فريقا من الاعراب فيجد السبيل بذلك الى الخروج لقتال من يقصده وحصار من يثور عليه ببلد من بلاده . وقد قدمنا ان حمو ابن مليل البرغواطي ثار عليه بصفاقس واستبد بها واراد الوصول الى المهدية لمحاصرته فخرج تميم للقائه فالتقيا بظاهر المهدية فهزمه تميم وعاد حمو الى صفاقس خائبا فاتبعه تميم ابنه يحيى فحاصره بصفاقس واستوفينا ذلك عند ذكرنا صفاقس . ولما كانت سنة ست وسبعين واربعمائة وصل لحصاره ابراهيم بن محمد الناثر بقابس ومعه جمع عظيم من الاعراب اميرهم ملك بن علوي الصخري فنزلوا على المهدية فارسل تميم الى احلافه من الاعراب اموالا فهجموا على عسكر ابراهيم وخرج تميم بمن معه من جنده فهجم عليه من الجهة الاخرى فانهزم ابراهيم هزيمة فاحشة ورجع ابراهيم الى قابس وفر ابن علوي الى القيروان فتوجه اليه تميم ومن معه من الاعراب فحصروه بها الى ان خرج منها تحت الليل هاربا ثم عاد تميم الى المهدية . فلما كانت سنة ثمانين واربعمائة وقع ما وقع من نزول اهل بيس وجنوة من النصارى على المهدية فاستولوا عليها وعلى زويلة وسبوا اهلها وقتلوا من

شاءوا

شاءُوا منهم واحرقوا بالنار وكانت عدة المراكب التي وردت النصارى فيها ثلاثمائة قطعة تشتمل على ثلاثين الف مقاتل . قال ابو الصلت وكسفت الشمس في هذا العام ببرج الاسد وهو طالع تخطيط المهدية كسوفا كليا فجرى بها هذا الواقع باثر ذلك . قال وكان من اعظم الاسباب فيه مع قضاء الله الذي لا يرد ومشيئته التي لا تدفع غيبة عسكر السلطان عن المهدية ومفاجاة الروم دون استعداد لهم واخذ اهبة للقائهم وخلو كافة الناس من الاسلحة والعدد وقصر الاسوار وتهدمها وتكذيب تميم مع ذلك بما يرد عليه من اخبار النصارى وسوء راي فلان متولي تدبير البلد اذ ذاك في المنع من الخروج اليهم ولقائهم في الماء فتركوا الى ان نزلوا في البر فكان من تغلبهم على المهديتين وعيثهم فيهما ما هو مشهور معلوم . قال ولجا تميم الى القصر المعروف بقصر المهدي وهو قصر حصين فاقام به الى ان وقع الصلح بينه وبينهم على مائة الف دينار تدفع لهم ويقلعون بما حصل في ايديهم من المسلمين فدفعت لهم واقلعوا باموال المسلمين ونسائهم وابنائهم قال ولقد استوفى وصف ذلك ابو الحسن بن محمد الحداد في قصيدة طويلة اولها —

انى يلم الخيال او يقف ... وبين اجفاننا نوى قذف

ويقول فيها —

غزا حمانا العدو في عدد ... هم الربا كثرة او النغف

عشرون الفا ونصفها ائتلفوا ... من كل اوب لبئسما ائتلفوا

جاءُوا على غرة الى نفر ... قد جهلوا في الحرب ما عرفوا

وهم من العيش في بلهنية ... وليس للدهر اعين طرف

فايقظوا من سنات غفلتهم ... لهم عيونا اجفانها وطف

في سفن كالجبال ليس لها ... الّا من السمر والظبا شغف

هبت رخاءً رياحها فجرت ... كما اشتهوا وهي عندنا عصف

فان ونت في الهبوب حركها ... مجاذف كالصلال تلتقف

واقام تميم بعد ذلك بالمهدية الى ان مات بها سنة احدى وخمسمائة .

فقلت ان الذي مات في هذا التاريخ هو تميم . فولي ابنه يحيى فكان مما حدث في ايامه من الاسباب المودية الى تغلب النصارى على المهدية التغلب الثاني الذي ادى الى انقراض دولة صنهاجة منها ان نصرانيا اسمه جرجير بن فلان الانطاكي كان قد هاجر من المشرق الى تميم وكان قد عرف لسان العرب وبرع في الحساب وتهذب بالشام بانطاكية وغيرها فحكمه تميم في دخله وخرجه وجعل مصاريف الاموال لنظره فصارت اموال المسلمين كلها في يده ويد اقاربه وكان للاتساع فيه من الاموال . فلمّا مات تميم خاف هذا النصراني من يحيى فخاطب روجار صاحب صقلية واعلمه انه يحب الانتقال اليه فوجه روجار اليه قطعة اظهرت انها وصلت في رسالة فخرج هذا النصراني واقاربه في جمعة عند اجتماع الناس للصلاة وتزيوا بزي البحريين فطلعوا اليها وتم لهم امرهم فلم يفطن الناس لهم الّا وقد اقلعوا ولما وصلوا الى صقلية حكمهم عبد الرحمن النصراني صاحب اشغالها في الجبايات فنصحوا وظهروا . واحتاج روجار ان يوجه رسولا الى مصر فاشار عليه عبد الرحمن بجرجير هذا فارسله فنصح واقبل بذخائر ملوكية حظي بها عند روجار . ثم مات يحيى بن تميم بالمهدية سنة تسع وخمسمائة وولي بعده ابنه علي بن يحيى فوقعت الوحشة بينه وبين روجار بسبب سفينة انشاها رافع بن مكن بن كامل بقابس حيث منعه منها علي فاستنصر رافع بروجار فوقعت المقاتلة بين اسطول علي واسطوله بسببها وقد تقدم ذكر ذلك مستوفى عند ذكرنا لقابس . ووصل بائر ذلك رسول روجار الى علي يقتضي اموالا كانت تنفقت له بالمهدية وكان علي عند تلك الوحشة قد امسك وكلاءه فسرحهم له علي ووجهم اليه باموالهم فلما وصلت اليه وجه رسولا ثانيا بمكاتبة فيها اغلاظ وتهديد وتقصير على العادة واساءة في الادب فاغضب ذلك عليا وصرف رسوله دون جواب . و بلغ عليا ان النصراني يتهدده ويوعده فامر باستجداد الاساطيل والاستعداد لقتاله فانشا اسطولا قويت انفس الناس به ومدحته الشعراء بسببه فقال محمد بن بشير من قصيدة له -

واعددت

واعددت للاعداء كل مصمصم يسير اليهم قاصدا وهو اهـوج
كمثل الرواسي منعة غير انها على ثبج ادماء تردى وتولج
كان القنا والنبل في جنباتها سبال باكناف الهضاب وعوسج
يعيد مضيء الجو اقتم حالكا دخان لظى من نارها يتوهج
اذا نضنضت من السن لهيبة بمارج نار يستقل ويعرج
رايت صلالا اخرجت من جهنم تحرق اكباد العداة وتنضج

ثم ولي بعده ابنه الحسن فكاتب امير الملثمين بالمغرب علي بن يوسف ابن تاشفين واتفق باثر ذلك ان وصل اسطول علي بن يوسف مع قائده علي بن ميمون الى بلاد روجار فاستفتح منها حصونا وسبى منها سبايا كثيرة . فلم يشك النصراني ان الباعث لعلي بن يوسف انما هو الحسن فاستجاش من قبله وحشد اجناده ومقاتليه وبالغ في كتم امره بمنع السفر الى سواحل المسلمين ولم يخف عن الحسن مقصده وخشي ان يطرق بلاده دون تاهب له فامر باتخاذ الاسلحة وتشييد الاسوار واستقدام القبائل من العرب وغيرهم للجهاد فوصلت الحشود اليه من كل جهة ونزلت الاعراب بظاهر المهدية . فلما كان يوم السبت لخمس بقين من جمادى الاولى سنة تسع عشرة وخمسمائة وصل اسطول روجار الى المهدية فارسى بالجزيرة المعروفة هنالك بجزيرة الاحاسي وهي على عشرة اميال من المهدية ونزل قائده عبد الرحمن وجرجير الى الجزيرة وضربت لهما ولمقدمي الافرنج مضارب هنالك وكان وصولهم آخر النهار فخرج منهم الى البر تلك الليلة خلق كثير وانبسطوا حتى بعدوا عن البحر اميالا ثم عادوا الى الجزيرة ووصل القائدان في اليوم الثاني في البحر في بعض قطعهما الى المهدية فطافا بها وانتهيا الى ساحل زويلة فهالهما ما رايا بالاسوار والسواحل من الناس وانصرفا عائدين الى الجزيرة فوجدا طائفة من العرب ومن الاجناد قد دخلوا اليها وكشفوا من كان بها من الروم عن مواضعهم وقتلوا منهم قوما وانتهبوا بعض اسلحتهم . فلما كان في اليوم الثالث تمكن النصارى من القصر المعروف

بقصر الديماس وحصل به زهاء مائة منهم باعانة بعض العرب لهم على ذلك لما مناهم به عبد الرحمن وصاحبه وقد كان روجار امرهما بذلك من النزول بجزيرة الاحاسي والتحيل في اخذ قصر الديماس بتطميع العرب ثم يكون الزحف من هنالك في البر بالرجال والخيل الى المهدية . فلما كان اليوم الرابع اجتمع المسلمون وخرجوا من المدينة وكبروا تكبيرة راعت من في الجزيرة فظنوا انهم داخلون اليهم فانهزموا الى مراكبهم وقتلوا بايديهم كثيرا من خيلهم ودخل المسلمون الجزيرة وليس بها احد منهم فوجدوا فيها خيلا وآلات واسلحة اعجلهم العرب عن حملها واحاطوا اغاثة بقصر الديماس يقاتلونه والاسطول في البحر يعاين ذلك ولا يستطيع اغاثة من في القصر لكثرة ما اجتمع في البر من عساكر المسلمين . فلما علموا انهم غير قادرين على استنقاذ من في القصر اقلعوا عائدين الى صقلية واقام المسلمون يقاتلون من حصل بقصر الديماس منهم الى ان اشتد عليهم الحصار وفني ماوهم وطعامهم فخرجوا منه ليلة الاربعاء الرابع عشر من جمادى الاخرى فتخطفتهم سيوف الاعراب فقتلوا عن آخرهم . وهني الحسن بهذا الفتح ولم يدر ما تحت طيه من المحنة التي خصت وعمت المسلمين بسببه . وكتبت عنه في ذلك كتابا الى سائر الجهات منها كتاب يقول في بعض فصوله — وان صاحب صقلية لج في طغيان غيه . واستمر على عدوانه وبغيه . وحمله سوء تدبيره . وفساد تقديره . على اهتضام جانب الاسلام . وتوهم ان ذلك سهل الملتمس قريب المرام . فاستجاش وحشد . واستغزر واستمد . ولما استتبت له في ظنه اموره وكمل تدبيره . الذي كان فيه تدميره . سير اسطوله نحو المهدية حماها الله في نحو من ثلاثمائة مركب حمل على ظهرها ثلاثون الف راكب وزهاء الف فارس وكان اقلاعه في طالع مقارن للنحوس . قاض عليه باتلاف الاموال والنفوس . فمن اول ما انشاه الله فيه من صنعه الجميل . واظهره من عنايته التي لا يودى حقها بغير الشكر الجزيل . ان ارسل عليهم ريحا صيرت جميعهم الى التيار . وواصلتهم برد الماء حر النار .

ونابت

ونابت في اهلاكهم مناب زرق الاسنة وبيض الشفار . وكان روجار قد رام اخفاء كيده ومكره . بمنع السفن تسفر الى نواحي سواحل المسلمين وحصره . فسقط الى الساحل مركب من جملة اسطوله يعرفنا من ركابه صورة امره . وما يسر الله سبحانه وتعالى من تشتيت شمله ونثره . ولم نكن قبل ذلك مهملين لما يقتضيه هذا الحادث من التاهب والاستعداد . واستضافة الاجناد الى الاجناد . فاستظهرنا باستقدام قبائل العرب المطيفة بنا فاقبلوا افواجا افواجا . وجاء وهجيراء السيل يعتلج اعتلاجا . ويتدفق امواجا . وكلهم على نيات في الجهاد خالصة . وعزائم غير راهبة من مواقف الموت ولا ناكصة . ووصل الاسطول المخذول بمن اسلمه السوق الى حد الحسام . وتخطاه الغرق فنجا من الحمام الى الحمام . ونزلوا على عشرة اميال من المهدية بجزيرة هنالك ذات احساء بينها وبين البحر مجاز متداني البرين . قريب ما بين الشطين . هين مرامه . سهل على الفارس والراجل خوضه واقتحامه . فتسرع اليهم من جندنا . ومن انضاف اليهم من العرب المنجدة لنا . طائفة اوسعت اعداء الله طعنا وضربا . وملات قلوبهم خوفا ورعبا . فلما عاينوا ما نزل بهم انزلوا عن ظهور مراكبهم . ما كان ابقاه الغرق من افراسهم . وكانوا نحو خمسمائة فرس وظنوا انهم ان امتطوا متونها مستبسلين . وصدموا بها جيوش المسلمين . امكنهم بها انتهاز فرصة فاكذب الله ظنونهم وخيب امالهم . وجعل الدائرة عليهم لا لهم . وخامرهم من الرعب الذي نصر الله به المسلمين . وخذل به المشركين . ما ولوا منه ادبارهم يرون الهزيمة غنيمة والهرب غلبا . وتركوا كثيرا من خيلهم واسلحتهم نهبا مقتسما . وفيئا مغتنما . واتفق في مدة مقام هذا الاسطول بالجزيرة ان رجلا من طغاة العرب ومردتهم دعاه فساد دينه . وضعف يقينه . ان اغتال لهم قصرا على المجاز المذكور شديد الامتناع فحصل به منهم زهاء مائة علج . وتسربت العرب اليهم من كل فج . فجردنا من خيلنا من تولى امره . وباشر حصره . اذ كانت العرب لا تباشر مثل هذا وانما تعرف الحصر لا الحصون . ويعظم عندها بالسهول

لا المحزون . ثم اقلع جميع الاسطول حين علم عجزه عن استنقاذ اصحابه ولبثوا بعدهم والقتل يمحقهم والنار تحرقهم . الى ان استاصلوا عن آخرهم ركبهم الحتف على جباههم ومناخرهم . وجرى امر هذا العدو المخذول من اوله الى آخره وفاتحته الى آخره ما قاله سبحانه ـ يا ايها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم اذ جاءتكم جنود فارسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها ـ فالحمد لله الذي ايد الاسلام ونصره . واعلاه واظهره . واباد الشرك ودمره . واذله وادحره . ولما اقلع الاسطول الى صقلية خائبا خاسرا غاظ روجار ذلك ثم اتفق باثره ان وصل اسطول الملثم من الغرب وقائده محمد بن ميمون المذكور قبل فعاث في بلاد روجار وقتل وحمل نساءها سبيا الى بلاده وكان روجار كلما وصل اسطول من الغرب الى بلاده نسبه الى الحسن فعزم العزم المصمم على غزو المهدية وانشا في ظاهر الامر بينه وبين الحسن صلحا وفي نفسه ما فيها لتتم خديعته ويتمكن من مراده . وكان بين الحسن وبين ابن عمه يحيى ابن المعز بن باديس بن المنصور بن الناصر بن علناس بن حماد صاحب بجاية من المخالفة ما اوجب ان يبعث يحيى في هذه المدة لمحاصرته بالمهدية اسطولا في البحر وجيشا في البر قائده مطرف بن علي بن حمدون الفقيه فحصر المهدية برا وبحرا ونزل مطرف بن علي بجيشه بظاهر زويلة فاستمد الحسن روجار فامده باسطوله فعلم مطرف بذلك فارتحل عن المهدية مسرعا . وكان لروجار جواسيس بالمهدية فكتبوا اليه يعلمونه ان بمرساها مراكب قد استوفت وسقها فامر جرجيرا قائد الاسطول المتوجه للنصرة بالهجوم عليها واخذها ففعل ذلك غدرا وحملها الى صقلية . ثم هجم بعد ذلك على مرسى المهدية فاخذ منه مركبا كان الحسن قد احتفل فيه وشحنه بذخائر ملوكية ليوجه بها الى الحافظ العبيدي صاحب مصر وكان ذلك المركب يسمى بنصف الدنيا . ولم يزل يوالي الغزو عليه باساطيله والمقدم عليها جرجير المذكور وهو العارف بالمهدية حاضرة وبادية الى ان دخلت سنة ثلاث واربعين وخمسمائة فلم يشعر الحسن صباح يوم الاثنين الثاني

من

من صفر إلّا وقد وفد عليه جرجير المذكور في ثلاثمائة مركب للافرنج فارسى على بعد من المهدية وكانت الريح قد منعته من الدخول الى المرسى فارسل الى الحسن يخادعه ويذكر له انه انما وصل لطلب عسكر يستعين به على اهل قابس ليوليها ابن راشد . هذا فيما سلف من هذا التقييد وقد بينا سبب خروجه من قابس . فعلم الحسن ان هذه مخادعة الى ان تتهيا له ريح يدخل بها وانه لم يصل إلّا بعد علمه بخلاء المهدية من العسكر وقد كان الغلاء المتوالي على افريقية اضعف اكثر جند الحسن واهلك خيلهم ومع ذلك فكانت بقية العسكر في محاربة ابن خراسان صاحب تونس عضدا لمحرز بن زياد الفارعي صاحب العلقة فعزم الحسن على تسليم المهدية للنصارى وامر في الحين بالرحيل عنها وخرج من القصر بما خف معه ومن امكنه من اهله وولده وحشمه وتبعه الناس فارين بما قدروا عليه من اهل ومال وولد وجرى عليهم في هذه الضغطة ما لم يكونوا يقدرونه . وذكر ابن شداد من كلام الحسن عند خروجه ـ سلامة المسلمين من القتل والاسر خير الي من الملك والقصر ـ وبقي الاسطول على ظاهر البحر لا يمكنه الدخول الى البلاد بسبب الريح الى الساعة السابعة من حين وصوله ثم لانت الريح فدخل ووجد المهدية خالية فتملكها دون مدافع . ووجد جرجير قصر الحسن على حاله لم يحمل الحسن معه إلّا ما خف له فراى فيه من الذخائر الملوكية ما هاله وتحكم على ذلك كله . وامر ان ينادى في المهديتين فارتفع النهب منهما واخرج جميع النصارى من المهديتين فانزلهم فيما بينهما في مضاربهم واخبيتهم فكان من بقي بالمهدية احسن حالا ممن فر منها في دنياه فان الفارين لقوا من المشقة وعدم الماء ما اهلك اكثرهم الى ان تداركهم جرجير فبعث لهم خيلا يعلمونهم بالامان فرجعوا الى بلدهم وفرق عليهم مالا وطعاما اقرضهم اياه فصلحت احوالهم واغتبط الناس بالمهدية لما راوا من عدل النصارى فعمرت احسن عمارة . واما الحسن بن علي فانه سار الى عسكره الذي قدمنا انه كان في نصرة محرز بن زياد فلقيه محرز بالبر واكرمه

وانزله عنده فاقام هنالك اشهرا وهو كاره في الاقامة لما يرى في عيني محرز من السآمة فاحب الانتقال الى مصر وواليها اذ ذاك الحافظ عبد المجيد بن محمد بن المستنصر بن الظاهر بن الحاكم بن العزيز بن المعز بن المنصور بن القائم بن المهدي وباسمه كان الحسن يخطب في بلاده . فابتاع من تونس مركبا اعده لسفره . فعلم جرجير بذلك فاعد له عشرين قطعة ترقب اقلاعه فتتبعه وعلم بذلك الحسن فعدل عن السفر لمصر ونظر في التوجه الى الخليفة عبد الموحن بن علي بالمغرب وانفذ كبار ولده يحيى وتميما وعليا الى ابن عمه يحيى بن العزيز صاحب بجاية وكتب له يستاذنه في الوصول الى حضرته وان يكون توجهه الى عبد المومن من بعد اجتماعه به . فتلقى بنيه ميمون بن حمدون وزير يحيى احسن تلق وكتب لهم على لسان يحيى الى الحسن بالتوجع على ما جرى عليه والتحريض على الوصول والعدول عما خطر بباله من قصد غيره . فاعلم الحسن محرز بن زياد بما كتب اليه ابن عمه فاشار عليه بالتنكيب عنه وان يتوجه حيثما احب فهو خير له منه فلم يطعه الحسن وتوجه الى بجاية . فلما قرب منها ندب يحيى وزيره الى لقاء الحسن فامتنع عن ذلك ثم امر اخاه قائد بن العزيز بالخروج الى لقائه مع مشيخة البلد وان يعدلوا به عن بجاية الى الجزائر فيكون مقامه بها ففعل اخوه ذلك وانزله هو واولاده بمدينة الجزائر في امكنة لا تليق بهم واجرى عليهم جرايات لا تكفيهم وامر ميمونا بمراعاة احوال الحسن ومنعه من السفر والكتب الى الخليفة عبد المومن بن علي لما توقعه من استعانة عبد المومن به في اخذ بجاية فبولغ في التشديد عليه في ذلك . واقام ساكنا بها الى ان نزل عبد المومن من المغرب الاوسط وقد تغلب على جميع بلاد المغرب الاقصى وجميع جزيرة الاندلس وذلك عام سبعة واربعين وخمسمائة فتغلب على مليانة والجزائر فاجتمع به الحسن هناك وسار اليه وهو بمدينة متيجة . فاقبل عبد المومن عليه وقربه اليه واستصحبه معه وجعل الحسن يغريه باخذ بجاية حسدا لابن عمه ورغبة في خروج الملك

من

من يديه ليتساويا في ذلك فنزل عبد المومن الى بجاية والحسن معه فاستولى عليها وعلى جميع عمالتها وذلك بعد هزيمته لعساكر صنهاجة بجبل زبري واعان يحيى ايضا على نفسه بانهماكه في لذاته واهماله تدبير دولته وتفويضه الامر لغيره . فلما استولى عبد المومن على بجاية فر يحيى ابن العزيز منها في البحر وكان مرامه التوجه الى بونة والنفوذ من ذلك الى بغداد لعلمه ان الخليفة العبيدي بمصر ينقض عليهم الخلع الاول . فلما وصل الى بونة جعل الحارث يتافف منه ويونبه على اهمال الملك فخرج عنه الى قسنطينة وبها اذ ذاك اخوه الحسن بن العزيز فاكرمه وتخلى له عن الامر فاقام بقسنطينة يعمل رايه الى ان اناب الى الطاعة ودخل في ايالة الموحدين ووصل الى الخليفة فاكرمه وانزله مع ابن عمه الحسن بن علي . ثم كانت لعبد المومن على الغرب الوقيعة المعروفة بوقيعة سطيف هزم فيها طوائفهم وطلع الى الحضرة بجميع من حكم عليه ومن جملتهم الحسن ويحيى فاسكنا بمراكش في رفاهية ورزق جار . فلما كانت سنة ثمان واربعين وخمسمائة وصل الخليفة الى سلا واستصحب يحيى معه فاسكنه بها في بعض قصور بني عشرة واقام بسلا الى ان مات هنالك ودفن في مقابرها الجوفية مما يلي البحر . واما الحسن فانه اقام بمراكش الى ان عاد عبد المومن اليها فلم يزل يغريه بالحركة الى افريقية ويحضه على استنقاذ المهدية من ايدي النصارى الى ان تحرك اليها سنة اربع وخمسين وخمسمائة ففتح تونس واذهب دولة بني خراسان منها . وقد كان عند وصوله الى باجة عرض عسكره فكانت الخيل ازيد من مائة الف فارس واما الرجال فما يحصون كثرة . فاقام بها ووجه الى اهل تونس بالتامين والعفو فلم يزدادوا الّا عصيانا وكانوا قد قاتلوا ولده عبد الله قبل ذلك ومزقوا جيشه وفعلوا فيه الافاعيل لما وصل الى محاصرتهم سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة وانفصل عنهم اسوء انفصال . فارتحل عبد المومن من باجة ونزل على طبربة واعاد عليهم الترغيب والترهيب فلم يقبلوا فارتحل الى تونس وكان

نزوله عليها يوم السبت العاشر من جمادى الاولى من السنة المذكورة واتصلت الاخبية من الحنايا الى حلق الوادي وعاين اهل تونس امرا عظيما وايقنوا بالهلاك واقام العسكر ثلاثة ايام لا يقاتلون فنزل الى عبد المومن اشياخ السلام من اهل تونس منهم بنو عبد السيد عمر ومعاوية وعبد السيد ومنهم ابنا منصور اسماعيل وابن عمه عتيق ومنهم الخارجي محمد وحمزة بن حمزة وعبد العزيز القمودي وغيرهم وكانوا اثنى عشر رجلا فوصلوا الى عبد المومن وطلبوا العفو فاسعفوا به بعد مكابدة شديدة وامتناع عظيم من عبد المومن . ولما عفا عن اهل تونس اشترط مسالمتهم في انفسهم ومشاطرتهم في رباعهم واموالهم كلها للمخزن ما عدا ملبوس رقابهم وغير اهل تونس من قراها وسائر بلادها يشاطرون في اموالهم وكذلك صاحب تونس علي بن احمد بن خراسان إلّا انه اشترط عليه الخروج من تونس والانتقال الى بجاية فوقع الشرط على ذلك وتسلم عبد المومن تونس واخرج ابن خراسان منها من يومه فمات في الطريق .

واقام عبد المومن بعد الفتح ثلاثة ايام ثم ارتحل الى المهدية وخلف بتونس ابا محمد عبد السلام الكومي ومعه اشياخ من الموحدين لاستخلاص الاموال من تونس فوقع البحث عن اموالهم ودخلت دورهم فحمل جميع ما فيها وبيع ما امكن بيعه من رباعهم واملاكهم وخرج الامناء الى سائر بلاد افريقية لمشاطرة الرعية في جميع ما بايديهم حتى لم يبق من افريقية بقعة إلّا عمها ذلك . ومن تاريخ ابن شداد قال ان عبد المومن لما سار الى تونس بالجموع العظيمة كانوا يمرون بالمزارع في الطرق الضيقة فلا يوذون شيئا منها وكانت هذه المحلة تمتد اميالا وكلهم يصلون الصلوات الخمس وراء امام واحد بتكبيرة واحدة ولا يتخلف احد منهم عن الصلاة كائنا من كان . وكانت مقدمة هذه العساكر اثنى عشر الفا قد كلفوا بحفر الابار واستخراج المياه فكانوا يتقدمون قبله بيومين فلا ياتي إلّا وقد هيئت الفلات وملئت الحياض بالمياه ولولا هذا التدبير لم يقدر على قطع هذه المسافة البعيدة بهذه الجيوش العظيمة . وكان كلما مر بارض فيها عرب بادروا

اليه

اليه ويستصحب اعيانهم معه وكانت وقعة سطيف اذلتهم وكان اسطوله في البحر سبعين مركبا قوادها محمد بن عبد العزيز بن ميمون من البيت المشهور في قيادة البحر وابن الخراط وابو الحسن الشاطبي وغير هولاء ممن هو مثلهم في المعرفة والشهرة . قال وعرض عبد المومن الاسلام على من بتونس من اليهود والنصارى فمن اسلم سلم ومن امتنع قتل . ومن غير كلام ابن شداد ان عبد الله بن عبد المومن لما فعل به اهل تونس ما فعلوا حين نزل عليهم قبل هذا حلف ان يدخلها بالسيف ويقتل جميع من تقع عينه عليه من اهلها فامر الناس في هذه الخطرة ان يدخلوا دورهم ولا يخرج احد حتى يسمع النداء ليدخل عبد الله الى البلد فدخل وسيفه في يده فلم يلق الّا شيخا قتله وانصرف وقد برت يمينه . قال ابن شداد ثم توجه عبد المومن الى المهدية فكان وصوله اليها ضحوة يوم الاربعاء الثاني عشر لرجب وبها حينئذ اولاد ملوك الافرنج وابطالهم وقد اخلوا زويلة فنزلها عبد المومن بجملة من معه من خواصه ومن اهل الاسواق فعادت مدينة معمورة من يومها . واقبل الناس يقاتلون المهدية مع الامام فلا يوثر ذلك فيها لحصانتها وضيق ماخذ القتال منها لان البحر دائر باكثرها . وكان الافرنج يخرجون منها فينتهبون اطراف العسكر فامر عبد المومن ببناء سور بين عسكره والمدينة كي يمنعهم من الخروج . وركب عبد المومن في مركب ومعه الحسن ابن علي الذي كان اخرج منها وطاف بها من البحر فهاله امرها وعلم انها لا تفتح بقتال وليس لها الّا مطاولة الحصار وتوقع الاقدار فتمادى حصاره لها ستة اشهر . وقال عبد المومن للحسن ما الذي اخرج هذا المعقل من يدك فقال له اخرجه انقضاء الامد وعدم الثقة باحد فصدقه عبد المومن واستحسن كلامه وكان الحسن فصيحا معروفا بذلك . ووصل من طاغية صقلية اسطول فيه مائة وخمسون مركبا غير الصغار فحضر مقدمو اسطول عبد المومن بين يديه فقالوا له ان هذا الاسطول قد اقبل وهو لا يصل الّا متفرقا بحكم النوء فلتاذن لنا في الخروج اليه فسكت عبد المومن فاغتنموا

سكوته وبادروا الى القطع فملأوها بما احتاجوا اليه وخرجوا واصطفت عساكر المسلمين على الساحل وعبد المومن يبكي ويسجد في الارض ويقول اللهم لا تضعضع دعائم الاسلام . ولما قرب اسطول الافرنج من دار الصناعة خرجت اليه من المهدية قطعة لتلقاه فبادر ابن ميمون لاخذها وكان بعض اسطول الافرنج ايضا قد حط قلاعه للدخول فاعجله اسطول المسلمين عن الدخول واستولى على ثمان قطع منه فاجتمع بقية الاسطول وولوا منهزمين . فسجد عبد المومن شكرا لله تعالى وفرق في غزاة الاسطول اثني عشر الف دينار مومنية . ويئس اهل المهدية من النصرة فنزل اواخر ذي الحجة عشرة من فرسانهم فوقفوا بين يدي عبد المومن وسالوه الامان لمن بها في الانفس والاموال وان يسمح لهم بالخروج منها وكانت قوتهم قد فنيت . فعرض عليهم عبد المومن الاسلام فقالوا ما جئنا لهذا وانما جئنا لنطلب فضلك . وترددوا اليه اياما وقالوا ما عسى المهدية ومن فيها من الافرنج الى ملكك العظيم وامرك الكبير وان انعمت علينا كنا ارقاءك في بلادنا . فراى منهم كمالا في الاجسام وتوءدة في الكلام فاعطاهم ما ارادوا وجهزهم في سفن الى بلادهم وكان الفصل شتائيا فلما قربوا الى صقلية هال البحر عليهم فهلك اكثرهم . وتسلم عبد المومن المهدية وعاد اليها الاسلام في يوم عاشوراء من سنة خمس وخمسين وخمسمائة . ورغب الحسن الى الخليفة في ولايتها فاولى عليها ابا عبد الله محمد بن فرج الكومي واسكن الحسن زويلة فاقام بها عشر سنين الى ان توفي عبد المومن وولي ابنه ابو يعقوب يوسف فوصل امره بطلوع الحسن الى المغرب فطلع باهله وولده وحاشيته وذلك في سنة ست وستين وخمسمائة فلما وصل الى الموضع المعروف بتماسنة توفي هنالك ببقعة تعرف بآبان وقبره هنالك وكانت وفاته في رجب من العام المذكور . ثم توفي ابو يعقوب وولي ابنه المنصور ابو يوسف فثار عليه بالمهدية محمد بن عبد الكريم الرجراجي واستبد بنفسه وقبض على واليها اذ ذاك وهو الشيخ ابو علي يونس بن الشيخ ابي حفص وذلك سنة خمس وتسعين وخمسمائة . وكان محمد بن عبد

الكريم

الكريم هذا ممن نشا بها وكان ابوه من جندها الساكنين بها المتوطنين فيها وهو من قبيل كومية وكانت لمحمد هذا شجاعة وبسالة ظهرت له في مواطن كثيرة مع الاعراب وغيرهم وكان قد جمع لنفسه خيلا ورجالا من الرعايا يضرب بهم على الاعراب المفسدة فيكف ضررهم واعتداءهم وعلم غناوه واقدامه فقدمه الوالي على ذلك واطلق له يده فيمن عنده منهم في جميع الامور فكان يقبض ويقتل ولا يطلق من حبسه منهم إلّا بعد قبض الاموال الكثيرة منه واعطائه العهود والمواثيق على الكف عن العناد وعن الفساد فكانت العرب تهابه ولا تنتجع ارضا من ارضه إلّا باذنه فبعد صيته بذلك وسما قدره وحصل الامن به في تلك الجهات وكان يدعى له في المساجد في عقب الصلوات . واتفق ان قدم الشيخ ابو سعيد ابن الشيخ ابي حفص على افريقية من قبل المنصور فولى ابو سعيد على المهدية اخاه ابا علي يونس بن ابي حفص . فلما وصل اليها واطلع على حال ابن عبد الكريم بها طالبه باسهامه فيما يغنمه من اموال العرب المفسدين فامتنع ابن عبد الكريم من ذلك وطلب من الشيخ ابي علي ان يجريه على ما اجراه عليه الولاة من قبله . فقبض الشيخ ابو علي عليه واهانه فبعث ابن عبد الكريم الى اخيه الشيخ ابي سعيد يستشفع فيه فاعرض الشيخ ابو سعيد عنه . وعظم بعد ذلك فساد العرب بالساحل وكثر التشكي منهم فالح الناس على الشيخ ابي علي في اطلاق ابن عبد الكريم وكادت تقوم بسبب ذلك فتنة فاضطر الى اطلاقه ورد اليه جنده الذين كانوا متميزين بصحبته وامره بالخروج لكف اولئك العربان عن الفساد . فاغتنم ابن عبد الكريم ذلك وخرج مبادرا وضرب اخبيته بظاهر المدينة واقام هنالك يومين الى ان اجتمع اليه من شكا اليهم بما فعله الشيخ ابو علي معه وعرفهم انه عازم على الغدر به ان وقعت منهم موافقة له فاجابوه الى ذلك وصوبوا له رايه فنهض بهم في ثلث الليل الاخير الى المهدية . فلما فتح بابها دخل اليها بمن احب من جنده وامر باغلاق الباب ثم بادر الى قصر الشيخ ابي علي وكان ابن عبد الكريم متلثما

فانكره البواب واغلق باب القصر فحسر عن وجهه نعرفه وفتح له الباب وفر هاربا . فدخل ابن عبد الكريم وجماعته الى القصر وسمع الشيخ ابو علي اصواتهم فخرج الى رحبة القصر هاربا فقبض عليه ابن عبد الكريم واراد قتله فتشفع فيه بعض اصحابه. فاستحياه وثقفه في موضع من القصر وذلك في شعبان من سنة خمس وتسعين وخمسمائة . فلم يزل هنالك الى ان وصل فداوه من قبل اخيه ابي سعيد بن ابي حفص على يد محمد بن عبد السلام الكومي وذلك خمسمائة دينار فاطلقه ابن عبد الكريم بشفاعة ابن عبد السلام المذكور لانه صهره . ووصل الشيخ ابو علي لاخيه الشيخ ابي سعيد بتونس فاهمله واستبد ابن عبد الكريم بالمهدية وسمى نفسه من الاسماء السلطانية بالمتوكل على الله وكذلك يكاتبونه وقوي امره . ووصل الى تونس السيد ابو زيد بن ابي حفص بن عبد المومن واليا فعزم ابن عبد الكريم على محاصرته فحشد جموعه ووصل الى تونس وذلك في المحرم سنة ست وتسعين وخمسمائة وكان الشيخ ابو سعيد اذ ذاك بها معزولا فدار ابن عبد الكريم بعسكره الى جهة قرطاجنة فضرب اخبيته وخيامه عند مدخل البحر الى البحيرة وهو المكان المعروف بحلق الوادي . فامر السيد ابو زيد بن ابي حفص عند ذلك بتعبير القطع في البحر وخروج العسكر في البر وكان ابن عبد الكريم قد اكمن للجيش كمينا في بعض المواضع فلما وصل عسكر تونس ووقع القتال بينه وبين ابن عبد الكريم خرج ذلك الكمين فولى العسكر منهزما وقتلت منه مقتلة عظيمة ولم ينج منه إلّا القليل وترامى منه جماعة في البحر فقتلوا هنالك . وانبسطت جموع ابن عبد الكريم في تلك الجهات فاخذوا من المرسى المعروف بمرسى البرج اموالا كانت للناس هنالك وامتعة وانتهبوا من تلك القرى ما قدروا عليه . وبعث السيد ابو زيد والشيخ ابو سعيد الى ابن عبد الكريم اشياخا من الموحدين يعيبون عليه فعلته ويذكرونه انتماءه للموحدين ويسالونه الرجوع عنهم فاجاب الى ذلك ورجع الى المهدية فاقام بها اشهرا . ثم حدثته نفسه بحصار يحيى بن اسحاق

الميورقي

الميورقي وهو اذ ذاك بقابس وقد حدثت بينهما وحشة فخلف على المهدية ابنه عبد الله وتوجه الى قابس فلما اشرف عليها هاله امرها وعلم ان لا طاقة له بها فارتحل عنها الى قفصة وحكم عليها وعند استقراره ورد عليه الخبر ان الميورقي خرج من قابس في اتباعه فخرج ابن عبد الكريم بجيوشه ونزل بقصور لالا ووصل اليه الميورقي . فالتقيا هنالك وكانت الهزيمة على ابن عبد الكريم وولى هاربا لا يلوي على شيء الى ان حصل بالمهدية وتسرب الى من سلم من جنده فحصنوا بها واحتوى يحيى على اخبيته وجميع امواله واتبعه الى المهدية فنزل عليها محاصرا له وذلك في اول سنة سبع وتسعين وخمسمائة . وكان من دهاء الميورقي ان بعث الى السيد ابي زيد بتونس يساله السلم ويطلب منه في اثناء كتابه الاعانة بقطع من البحر يتمكن بها من ابن عبد الكريم وكان السيد ابو زيد حقد على ابن عبد الكريم فاجابه الى ذلك وبعث اليه قطعتين . فلما رءاهما ابن عبد الكريم سقط ما في يده فاجمع على توجيه ابنه عبد الله الى الميورقي ليصالحه على تسليم المهدية اليه ويشترط المسالمة في نفسه واهله وماله فاجابه الى ذلك ورجع عبد الله فاخرج اباه من المهدية وتوجه ليحيى للسلام عليه فلما وقعت عينه عليهما امر بهما فصرفا الى خيمتين ثقفا بهما مفترقين وحصل يحيى بحصن المهدية واستولى على ما كان لابن عبد الكريم بها من الذخاير السنية ثم ادخله هو وولده الى المهدية فثقفهما ببعض سجونها . فلما كان بعد ايام يسيرة اخرج الاب من السجن ميتا لا اثر به فسلم الى اهله فدفنوه بقصر قراضة وبقي ابنه عبد الله يتوقع الموت كل ساعة الى ان اخرجه يحيى واظهر نفيه الى جزيرة ميورقة ليكون هنالك تحت نظر اخيه فعمر له قطعة توجه فيها فلما حاذى به ارباب السفينة القل بمقربة من قسنطينة القوه بقيده في البحر . فانقضى امر ابن عبد الكريم وولده وحصلت المهدية للميورقي ولم يبق له بافريقية منازع وحصلت تحت بيعته طرابلس وقابس وصفاقس وبلاد الجريد كلها والقيروان وتبسة ووصلت بيعته بونة فبقي

على محاصرة تونس وكان نزوله على تونس في يوم السبت من الشهر المذكور فنزل بالجبل الاحمر من جهة جوفيها واقام هنالك اياما ثم انتقل منه فنزل بين بابي السويقة وقرطاجنة ونزل اخوه الغازي ابن اسحاق على الموضع المعروف بحلق الوادي حيث يصب البحر في البحيرة فردمه ردما حتى عاد ارضا يبسا وقطع تصرف القوارب الداخلة اليه والخارجة عنه وترك عليه من يحرسه وتوجه فنزل بقبلي المدينة بمقربة من باب الجزيرة وردم الخندق الذي هنالك ردما ونصب امام الباب منجنيقا وءالات من ءالات الحرب واقام محاصرا لها كذلك اكثر من اربعة اشهر . فلما كان يوم السبت السابع من ربيع الاخر من سنة ستمائة استولى على البلد وقبض على السيد ابي زيد وولديه وجماعة من اشياخ الموحدين وثقفهم بدار بنيت لهم داخل القصبة وجعل عليهم من يحرسهم وامن اهل تونس في انفسهم ورباعهم واغرمهم مائة الف دينار ذكر انها هي لزمته في النفقة عليها قسطها اهل تونس على انفسهم بحسب احوالهم وسعة اموالهم وجعل قابضها ابا بكر بن عبد العزيز بن السكاك من اهلها ولحقهم في استخلاصها من العنف والشدة على يد ابن عصفور ثقة الميورقي وكاتبه ما ادى الى قتل جماعة منهم انفسهم وراوا ذلك اروح لهم ومن جملتهم ابن عبد الرفيع وكان مقدما على مال المخزن من الناس . ولما علم الميورقي بهذا الامر رفع عنهم الطلب فيما بقي من المال قبلهم وكان الباقي خمسة عشر الف دينار ورفق بالناس ونادى فيهم بالامان . وفي اثناء ذلك بلغه عصيان اهل نفوسة وتابيهم عن ادائهم فخرج بنفسه اليهم واستصحب معه السيد ابا زيد وابنيه الى ان استوفى من اهل نفوسة مغرمهم ورجع الى اهل تونس واستقر بقصبتها . واتصل بالناصر ما دهم اهل افريقية منه ومن ابن عبد الكريم قبله فامتعض لذلك واخذ في الحركة اليها وكانت الاخبار ترد على الميورقي بحركته فيدفعها الى ان وصل رجاله فاخبروه بوصول الناصر الى بجاية فوجه حينئذ ذخائره وامواله الى المهدية لتكون تحت نظر ابن عمه علي ابن الغازي وخرج من تونس فوصل

الى القيروان

الى القيروان واقام بها اياما ثم انتقل منها الى قفصة فاجتمع بالعربان هنالك واخذ مواثيقهم ورهونهم على الخدمة معه . وبلغه في خلال ذلك ايضا عن اهل طرة من بلاد نفزاوة ما اوجب ان ارتحل اليها فاطلق ايدي الجند عليها فقتلوا كثيرا من اهلها وانتهبوا اموالهم واطلقوا النار في بعض دورها . ثم انتقل الى حمة مطماطة ووصله الخبر ان الناصر نكب عن طريق تونس واخذ على طريق قفصة في اتباعه فانتقل الى جبل دمر متحصنا به . ووصل الناصر الى قفصة فاقام بها اياما ثم توجه الى قابس مستفهما عن احوال يحيى الميورقي فعرف بانتقاله الى جبل دمر . فولى على قابس بعض ولاته وتوجه الى المهدية فبرز عليها بجموعه ونصب عليها آلات الحرب . وقدم في اثناء ذلك الشيخ ابا محمد عبد الواحد بن ابي حفص لقتال الميورقي فتوجه الشيخ ابو محمد بجيش ضخم اليه فاراد يحيى الفرار من الجبل الى الصحراء فشجعه اصحابه وحرضوه على الثبوت له فالتقيا فكانت للشيخ ابي محمد عليه الوقيعة المعروفة بوقيعة تاجرا وقد تقدم ذكرها قبل هذا استاصل فيها كثير اجناد يحيى واجلت الحرب عن قتل اخيه جبارة وكاتبه علي بن اللمطي وعامل له يقال له الفتح بن محمد . وفر يحيى في شرذمة قليلة وكان قد قدم عياله واهله على قدر خمسة فراسخ من المعركة فلما فر اخذهم بين يديه ولولا ذلك لسبوهم . واستنقذ الشيخ ابو محمد من يده السيد ابا زيد حيا بعد ان ضربه الموكل به بسيفه ضربات قصد بها قتله واستنقذ ايضا جماعة من الموحدين سواه كانوا في يده واخذ رايته السوداء واحاط الموحدون بجميع ما في العسكر من الاموال والابل فانتهبوها . ورجع الشيخ ابو محمد بجميع ذلك الى الناصر وهو محاصر للمهدية فاركب الامين الموكل بثقاف الشيخ ابي زيد على جمل سام شهرة له و بيده الراية السوداء فطيف به على المهدية . وكانت الهزيمة في الثاني عشر لشهر ربيع الاول سنة اثنتين وستمائة . ورجع حماد المالقي المشهور بالابداع في قطع الكاغد هذين البيتين مقطوعين في الكاغد —

راى يحيى امام الخلق ياتي ففر امام من وافى اليه
فشبهت الشقي بواو يغزو ولام الامر قد دخلت عليه

وكمل التبريز بالغنائم على ملاحظة من المحصورين بالمهدية وهم مع ذلك مكذبون بهزيمة يحيى . والح الناصر في قتالهم وجمع المنجنيقات على جهة واحدة في السور حتى كثر الموت والجراحات فيهم وتحققوا انهزام يحيى فسقط في ايديهم وطلبوا الامان فاسعفوا به . ونزل علي بن الغازي واتباعه وشيعته على ان يخلى سبيلهم ويسلموا البلد ويكونوا في امان الموحدين الى ان يصلوا الى يحيى حيث كان وكان ذلك في السابع والعشرين من جمادى الاولى فكان بينه وبين هزيمة تاجرا اربعة وسبعون يوما . وخرج علي بن الغازي عن المهدية بجملته وحاشيته فضرب اخبيته بقصر قراضة وبات هنالك تحت الليلة ثم دعته نفسه الى الدخول تحت طاعة الموحدين فبعث الى الناصر يعرفه بذلك ويقول الان اطعت بعد ان ضوبت في حكم نفسي فاستحسن الناصر ذلك منه واستدعاه واحسن اليه وانزله عنده . ووافق ذلك وصول المملوك ناصح صاحب ديوان سبتة بالهدايا العظيمة التي جمعها في المدة الطويلة وكان فيها ثوبان قد نسجا بانواع الجواهر وجعلت فيهما اعلام من اليواقيت والاحجار النفيسة فامر الناصر بحمل جميع الهدية الى علي بن الغازي فمات ناصح على اثر ذلك كمدا وترك بنين كالبدور قال فيهم ابو الحسن بن جحدر الاشبيلي —

ناصح قد كان عبدا ناصحا في جميع الامر حتى في البنين
لم يلد الّا هلالا نيرا فاتانا حيث بدا للناظرين

واقام علي بن الغازي مع الناصر الى ان توجه الى تونس فتوجه صحبته ثم طلع معه الى مراكش وتحرك الموحدون للغزو بجزيرة الاندلس فاستشهد بها مع من استشهد من الموحدين رحمهم الله تعالى . وعفا الناصر عن جميع من كان بالمهدية من المقاتلين وغيرهم وامر برم سورها وترتيب امورها ثم ترك الشيخ ابا عبد الله محمد بن يغمور الهنتاتي واليا عليها من قبله . وكان انتقاله

عنها

عنها في الموفى عشرين لجمادى الاخرى سنة ثنتين وستمائة وانفذت كتب الفتح الى المغرب والاندلس من منزل ابي نصر في الثاني والعشرين من الشهر المذكور واستقر بتونس في رجب فاقام بها بقية السنة المذكورة والكثير من التي تليها وهي سنة ثلاث وستمائة . ولما كان شهر رمضان منها اشاع الحركة الى المغرب وتحدث مع اشياخه ومدبريه في دولته في من يترك بافريقية فاجمعوا على الشيخ ابي محمد ابن الشيخ ابي حفص ولم يختلف في ذلك اثنان وكانهم ارادوا بعده عن الخلافة ليجدوا السبيل الى اغراضهم . فامر الناصر بعض خدامه في الحديث معه في ذلك استحياءً من مواجهته به فامتنع ولم تسمح نفسه بمفارقة وطنه ففاوضه الناصر في ذلك بنفسه فاعتذر له ببعد الشقة عمن خلفه بمراكش من اهل وولد وبما يستلزم ذلك من مفارقة الخليفة والبعد عنه ونظر الناصر فلم يجد عوضا عنه ولم يرد اكراهه على المقام . فحكى نبيل مملوك الشيخ ابي محمد رحمه الله تعالى قال بينما انا جالس على خباء الشيخ ليلة اذا بضوء قد خرج من مضارب الخليفة فاذا بشرذمة من الخدم والفتيان قد قصدوا نحو خباء الشيخ قال فعرفته بذلك فقال اذا وصلوا فافتح لهم فلما وصلوا فتحت لهم فدخل ولد الخليفة الناصر ومعه ولد الشيخ ابي محمد من ابنة المنصور وهو المعروف بالسيد ابي الحسن وكان الناصر خاله قد رباه مع ولده يوسف المنتصر ولي عهده واختصه كولده فوجه مع ولده ليقرر انه بمنزلة الولد ومعهما سالم الفتى مربي الناصر وفتيان ءاخرون سواه فقام الشيخ ابو محمد لولد الناصر واجلسه معه وقال له ما حاجتك ايها الطالب ولو كان عندي غير نعمتكم لقابلتك بها فقال له الفتيان كرامته قضاء حاجته فقال نعم حاجته مقضية فقال له الولد وسيدنا يخصك بالسلام ويقول لك هذه البلاد هي من اول هذا الامر العزيز مع هولاء الثوار في امر عظيم ونحت ليل بهيم وقد وصل اليها سيدنا عبد المومن وسيدنا ابو يعقوب وسيدنا المنصور وما منهم إلّا من انفق عليها اموالا وافنى في الحركة اليها رجالا والمشقة شديدة والشقة بعيدة وما عاد

واحد منهم الى حضرته إلّا وعاد له الويل واظلم ذلك الليل وهذه الدعوة كما يجب علينا القيام بها والذب عنها كذلك يجب عليك وقد طلبنا في جميع اخوانك واعيان هذا الجمع مَن ينوب عنا في هذه البلاد فلم نجد عنك معدلا فانحصر الامر الينا واليك فاما ان تطلع الى حضرة مراكش فتقوم هنالك مقامنا ونقيم نحن بهذه البلاد او نطلع نحن الى حضرتنا فقال الشيخ يا بني اما القسم الاول فهو مما لا يمكن واما القسم الثاني فاجبت اليه على شروط فسر الولد بذلك وقبل يده وقبل الشيخ ابو محمد راسه وانفصلوا وكانما كان عندهم تلك الليلة فتح جديد بالسرور الذي عمهم والطمانينة مما كان اهمهم ثم خلا الناصر به مستفهما عن شروطه فاشترط ان لا يتولى افريقية إلّا بقدر ما تصلح احوالها وينقطع طمع الميورقي عنها ويتحرى الناصر في رجاله مَن يوجهه عوضا عنه وجعل النهاية في ذلك ثلاث سنين وانه يعرض عليه الجيش فيبقى معه من يقع اختياره عليه وانه ان فعل فعلا كائنا ما كان لا يسال عنه ولا يعاتب فيه وان مَن بقي بعد انفصال الناصر واليا على بلد من بلاد افريقية فهو فيه بخير النظرين ان شاء ابقاه وان شاء عزله الى غير هذه الشروط والناصر مقبل عليه قابل لشرطه . وبعد تقرر ذلك خرج الناصر متوجها الى المغرب وذلك في السابع من شوال وصحبه الشيخ ابو محمد ثلاثة ايام رحل معه فيها الى باجة . وكان اهل تونس عند خروج الناصر قد وقفوا ورفعوا اصواتهم بين يديه مشفقين من الميورقي وخائفين ان يصل اليهم بعد انفصال الخليفة عنهم فاستدعى الناصر وجوههم وقربهم منه وكلمهم بنفسه فقال انا قد اخترنا لكم مَن يقوم مقامنا فيكم وءاثرناكم به على شدة حاجتنا اليه وهو الشيخ ابو محمد فتباشر الناس بولايته . وكان الشيخ ابو محمد اذا ركب لا يكاد يسمع له كلام إلّا اذا نزل حتى انهم كانوا يلقبونه بالصامت ورجع الشيخ ابو محمد من باجة الى تونس واليا على جميع بلاد افريقية وكان اول جلوسه للناس في القصبة يوم السبت العاشر من شوال سنة ثلاث وستمائة . وبقي ابن يغمور حافظا بالمهدية الى ان نزل عنها

بعد

بعد ذلك وتولت عليها حفاظ من الموحدين . وولى الامير ابو زكرياء رحمه الله عليها باخوة ابن عمه ابا علي عمر بن عيسى ابن الشيخ ابي حفص وذلك في رجب من سنة ثمان وثلاثين فبقي واليا عليها الى ان توفي بها في الثاني عشر من صفر الخير من سنة ست واربعين وكان ابو علي هذا واليا على بسطة فلما دعى ابو العلاء لنفسه وكتب الى ولاة البلاد بالدخول تحت طاعته امتنع ابو علي من ذلك وقال لا ابايع حتى ارى ما يكون من الامام بمراكش وكتب لابي العلاء في جوابه عن كتابه قوله سبحانه وتعالى — قل يا ايها الكافرون — الى آخر السورة . فلما ثبت عنده موت عبد الواحد المخلوع بايع ابا العلاء وتوجه اليه الى اشبيلية فدخل عليه وقبل يده وكان ابو زيد ابن يوجان حاضرا فجعل يثني وكان من جملة ما اثنى عليه به ان قال وهو حافظ للقرءان . ففهمها العادل وقال واظنه لسور المفصل اعظم منه لغيرها . ولم يضره ذلك عنده بل ولاه جيان . ولما عزم ابو العلاء على تسليم جيان للنصارى وكتب بذلك لابي علي تورع ابو علي ان يفعل ذلك وجمع اهل البلد فقال لهم شانكم وبلدكم فانني لا اخرجه من يدكم لاحد من اعداء الملة ولا من اعدائكم . فاخبروه ان ارادتهم مبايعة ابن هود فبايعه معهم ثم ارتحل اليه بنفسه فاعظم قدره ولم يزل عنده تحت بر واكرام الى ان ركب البحر الى افريقية فولاه الامير ابو زكرياء على بجاية ثم نقله منها الى بونة ثم الى المهدية كما تقدم . وهو شاعر جيد وقفت على ديوان شعره في مجلدين ومنه قوله وبعثه الى قبر النبي صلى الله عليه وسلم من اشبيلية —

اليك القي بعذر محتشم ... مرتحل القلب ساكن القدم
اصبح من قصده على اسل ... ومن لظى شوقه على السلم
يتبع ركب الهدى اليك اسى ... ما شاء من حسرة ومن ندم
يروح به شوق اليك فما ... ينفك ما لم يزرك في ضرم
الوى به عن بلوغ نيته ... حكم زمان عليه محتكم
فعزمة تلتوي على عقب ... وهمة ترتمي الى امم

يا خير من قفل المطي له عذري في اللبث غير متهم

عبدك لو يستطيع جاب اليك القفر في غيهب من الظلم

يمسح ما بين حمص منه الى يثرب برا بوجهه وفم

ولي ذنوب عقنني ثقلا لولا اذى ثقلهن لم اقم

يرجوك يا شافع البرية ان تشفع فيه لباري النسم

عسى قبول لديك يلحقني بقبرك المستنير والحرم

وصاحبيك اللذين خصهما بنعمة القرب منك ذو النعم

فقد توسلت بالذي لك عند الله من رفعة ومن عظم

صلى عليك الاله ما اتصفت اوصافكم بالجلال والكرم

قال ابن الابار في الحلية السيراء وكتب الي مع تمر اهداه —

اتتك خليقات بحسن الخلائق بها غنية عن كل ما في الحدائق

سليلات جيان حكى وسط درجة خوافق بالمرّان بين الفيالق

ووقع له في قصيدة مدح بها ابن عمه الامير ابا زكرياء —

وان من اقبح شيء يرى عقيلة يملكها وغد

او حلة تلبسها غادة وجيبها في صدرها لبد

فكان الامير ابو زكرياء وشعراوه يتضاحكون بهذا . وينسب كثير من الناس له هذين البيتين —

يكفيك يا معتقل السمهري ما نالنا من طرفك الاحور

ان كنت من جندك في قلة فانت من لحظك في عسكر

وانها لاخيه عبد الرحمن بن عيسى . وقد ذكره ابو عبد الله محمد التجاني في كتابه الدر النظيم باتم من هذا . وفضلاء المهدية وشعراوها كثيرون ولو اخذنا في استقصائهم لطال الكتاب بهم . قال التجاني وفي انموذج ابن رشيق منهم من له البدائع كعبد الله بن ابراهيم بن مثني وعلي بن عبد الكريم بن ابي غالب ومحمد ابن حبيب . ولابن رشيق كتاب الروضة الموشية في شعراء المهدية ذكر فيها منهم من يطول تعداده . ولعثمان بن ابي القاسم بن عبد الرحمن بن

حشرون

حشرون المهدوي كتاب المختار فيما انتقاه لاهل عصره من الاشعار . وفي كتاب خريدة القصر لعماد الدين ايضا جماعة من اهل المهدية وتتبعهم يطول . قال التجاني ولا باس بذكر من امكن منهم ممن ادركنا بعصرنا وادركه شيوخنا . وكفى المهدية فخرا عالماها وصالحاها ابو القاسم بن علي ابن عبد العزيز بن عبد البر التنوخي وابو عبد الله محمد بن علي بن ابراهيم ابن الخباز اللواتي . اما ابو القاسم منهما فكان مولده بها في حدود الثمانين والخمسمائة وكان رحمه الله احد العلماء الاعلام الحفاظ المشاركين في انواع العلوم وكان في اول امره زاهدا في الدنيا وابنائها معرضا عن ملوكها وامرائها ثم جرت امور اوجبت مراجعة ما كان معرضا عنه من الدنيا فحين اقبل عليها اقبلت عليه . وانتهت اليه بالحضرة رئاسة العلم ورئاسة القرب من السلطان وكانت وفاته بها يوم الخميس العاشر من شوال من سنة سبع وسبعين وقد كان ارتحل الى المشرق سنة اثنتين وعشرين فسمع بالحرمين الشريفين وبالقاهرة ومصر واسكندرية من جماعة يطول تعدادهم وقد ذكرهم في جزء خاص بهم قال التجاني ولم اقف له على شعر الّا على قوله وقد ضربت اجزاء الدنانير العشارية والخماسية في عام ثلاث وسبعين —

بدا الذهب الابريز من كف ماجد سما بالمعالي والكبير كبير

امام ترى الاملاك يصغر قدرها اذا ذكرته والصغير صغير

وتحتقر الدنيا باجمعها لدى ندى راحتيه والحقير حقير

لقد جل قدرا ملكه واعتلاؤه فليس يضاهي والخطير خطير

واما ابو عبد الله فكان من اجل اهل زمانه دينا وعلما وفضلا ولد بالمهدية سنة ستمائة وتفقه بها على ابي زكرياء البوني وارتحل الى المشرق فاخذ به عن جماعة يطول تعدادهم وحج وتوجه الى بغداد فقرا بها الحاصل على مولفه تاج الدين ابي عبد الله محمد بن الحسين الارموي وعاد الى حمة بعلم جم فدرس وافتى ثم نقل الى الحضرة فتقلد قضاء الجماعة بها سنة ستين وستمائة ثم صرف عنه في شهر رمضان سنة اثنتين وستين ثم رد له

في السابع عشر من ذي القعدة سنة سبع وستين وستمائة وكانت وفاته رحمه الله ببلده في السابع والعشرين من جمادى الاخرى سنة ثلاث وثمانين وستمائة وكان ولده ابو القاسم طيب النفس عالي الهمة حسن الاخلاق وكان بيده تخطيط العلامة الصغرى بتونس قال التجاني وله شعر ضعيف انشدني منه لنفسه يتغزل ـ

تبدت فقال القوم قد طلع البدر | مهاة بقتل العاشقين لها خبر
سرت فاسرت في فواد محبها | سرائر وجد يستبين بها السر
واحيته اذ حيت ومنت بامنها | لنفس كئيب كاد يتلفه الهجر
لها الله من فتانة الحسن طرفها | تقصر عنه النبل والبيض والسمر
اذا ما بدت طاشت عقول ذوي النهى | فيقتحم البلوى ويستعذب المر
فكم سلبت لبا وكم وهبت ظما | وكم فعلت بالعقل ما تفعل الخمر
وكم نقضت عهدا وكم عقدت جفى | وكم وعدت لكن شيمتها الغدر
ومهما شكوت الحب قالت هو الهوى | فاوله قرب وءاخره قبر

ومن شعراء المهدية وعلامائها الذين حدث اجلة العلماء عنهم ومنهم مشايخ ابي عبد الله محمد التجاني ابو عبد الله محمد بن ابراهيم بن عثمان الزناتي المعروف بالحنفي ولد بها وهو من اعيانها وارتحل الى المشرق فدرس بدمشق مدة ثم انتقل الى الموصل فانتحل مذهب ابي حنيفة واشتغل به حتى صار اماما فيه واشتهر بالنسبة اليه فلا يعرف في افريقية إلّا بذلك ولم يكن في تلك الاعصر كلها ببلاد افريقية غيره ولما عاد من المشرق لزم سكنى المنستير المتعبد المشهور بالفضل تحت جراية من الامير ابي زكرياء رحمه الله وكان له به حسن ملاقاة قال التجاني وحدث عنه اشياخنا الفقيه ابو يحيى ابن عبد الكريم العوفي وابو عبد الله محمد بن ابي القاسم القيسي الازدي قال وانشدنا ابو عبد الله محمد الازدي المذكور قال انشدني الحنفي لنفسه يذم بلده ويصف اهلها بالبخل الابيات المشهورة ـــ

اذا حل بالمهدية الضيف نازلا | يروم القرى زفت اليه الكوامل

اذا

اذا حسروا عنها المناديل انشدت   وما السيف إلّا غمده والحمائل

قال البيت الذي اضرب عن ذكره قوله —

صحاف حكت عن ام موسى فوادها   يغالط فيها حسه ويباطل

قال وانما اضرب عن ذكره رحمه الله لما عجرفه بالتشبيه بالصديقة ام موسى عليهما السلام وخلط الجد بالهزل . قال التجاني وبين هذين البيتين بيت اضربت عنه . وكان بالمهدية قاض ذبح قردا لاذايته فقال فيه ابن ابي الحواجب المهدوي وهو احد شعرائها نفاه الامير ابو زكرياء رحمه الله منها الى المشرق —

غرائب الدهر قد كثرن ولا   اغرب من حكم ذابح القرده
احل ذبح القرود محتسبا   وحرم الفضل بئس ما اعتمده

فقال الحنفي —

دابّ عليه في صنعه نفر   وما درى الجاهلون ما قصده
يذبح من كان مثل صورته   لكي ترى في الوجود منفرده

وكانت وفاة الحنفي في الثالث عشر من صفر سنة خمس وخمسين وستمائة * ومن بلغاء المهدية اسماعيل بن علي بن يوسف ابو طاهر الحميري من المغرب من المهدية هكذا ذكره صاحب الوافي بالوفيات في الواحد والعشرين قال سكن مصر وقرا بها الادب وحصل طرفا صالحا وقدم بغداد قال محب الدين بن النجار وسمع من شيوخنا وكان شابا وذكر انه من اولاد المعز بن باديس امير المغرب علقنا عنه في المذاكرة شيئا من شعره وشعر غيره وكان فاضلا حسن الاخلاق قال واجتمعت به في مصر ايضا واورد له في جارية صور على وجهها صورة حية بغالية —

تبدت لنا من جانب السجف غادة   لها الشمس وجه والكواكب خال
فقلت وقد لاح الهلال بوجهها   متى طلعت شمس الضحى وهلال

الهلال الاول من اسماء الحية والثاني احد النيرين قال الصفدي قلت ولعل هذه الجارية هي التي نظم فيها الشعراء بمصر ومنهم الاسعد بن مماتي فانه قال —

نقشت حية على روض خد مزخرف
فبدت ءاية الكليم على وجه يوسف

وقــال ابن مماتي ايضا ــ

قتيلك ما اذكى الهوى جل ناره الى ان تجلى الخد في جلناره
راى حية في وجنتيك وعقربا نــعم جنة محفوفة بالمكاره

وللاسعد بن مماتي في هذا المعنى عدة مقاطيع وتوفي ابو طاهر الحميري سنة خمس وثلاثين وستمائة ودفن بالقرافة . ومن شعرائها وروسائها المنسوبين الى بعض منازلها الكاتب الاديب ابو العباس احمد بن ابراهيم القيسي اللياني وهو منسوب الى قرية من قرى المهدية تعرف بلليانة بضم اللام الاولى وكسر الثانية قال هكذا تعرف وكان ابوه مشتغلا باعمال المهدية ونشا ابو العباس نشاة طلب وادب فتفقه بالمهدية على البرقي وتادب ثم نهض الى الحضرة فولي بها الاعمال الجليلة وساعدته الدنيا فبلغ من الرئاسة فيها الغاية القصوى وكان يحدث نفسه بامور كثيرة يدل عليها قــولـه ــ

في ام راسي حديث لسامع لا يبصـــر
فان تطاول عـــمري وســـاعد الجد يظهر
ارى جموعا صحاحــا ومــذهبي ان تكسر

وشاع من كلام العامة ـ ويل للامة ـ من سبع حمة ـ فلما كان المحرم من سنة تسع وخمسين دخل ابو العباس احمد بن ابراهيم الغساني على الخليفة المستنصر وكان ذلك اليوم يوم مطر فقال السلطان مستدعيا للاجازة ــ اليوم يوم المطر ــ اجز يا احمد . فقال ــ واليوم رفع الضرر . فتنبه السلطان لما سمع وقال ايه فما بعدها فقال

والعام عــام تسعة كمثل عام الجوهري

وكان القبض على الجوهري في يوم مطر وقتله في عام تسعة وثلاثين فكانت هذه الاجازة سببا في القبض على اللياني وطلب بدفع الاموال وكان يدفعها

شيئا

شيئا فشيئا فلما استخلص ما عنده عذب الى ان مات وذلك كله في المحرم من العام المذكور ۰ ومن شعر اللياني قولـــه —

هــذا العذيب وهــذه نجــد ... اين الذي يقضي به الوجــد
مـا هكـذا حـال المحب اذا ... اعــــلام ربع حبيبه تبدو
سرح دموع العين مبتـــدرا ... واذكر مواضي عهدهم فانشد
والثم على شغف مواطنهـــم ... ان عاق عن مقصودك البعد
لم انس يوم وداعهـــم سحرا ... والدمع اســـام دره العقد
هز الصبا اغصان بانهـــم ... فتعانقت وتواجد الرنــــد
هذا العذيب بدت له عذب ... في ظلهـا قـد خيم المجـــد
لا يخفق المسعى اذا خفقت ... اعــلامها بل ينجح القصــد
فعسى اللقاء يكون مقترنــا ... ان انجدت كلفا بهـا نجـد
ولعل مـا نرجو تجــود بـه ... كف الزمان ويسعد الجـــد

وقــــوله —

خليـــاني يـا صاحبي ونجـدا ... هجتما بالملام شوقا ووجــــدا
فلتجـــــدا بين الجوانح ودا ... مستجدا مـا دام ربعـا لسعـــدا
لا تقولا مرام ســعـــدا بعيــــد ... رب سعد انى فقرب بعـــــدا
اهل ودي ما خلت عن حفظ عهدي ... وهواكم ما غير النـاي عهـــدا
كيف انسى عهـدا قريبـا وانسـا ... بزلال من خالص الود شهـــدا
ارشفاني ما شفني وشفــــــاني ... من بـرود احبب بـذلك بـردا
خير عيش مصقول تلك الليـــــالى ... حبذاه من طيب عيش مفــدا
اذ يعاطيني المدامة بـــــــدر ... يخجل البدر نوره ان تبــدى
ان ديني ومذهبي في التصـــابي ... لا ارى غيره مدى الدهر رشـدا
فاغتنم رابحـا مسرة يـــــوم ... ولتبادر سير الزمـان مجـــــدا

وقــــوله —

شادن في القلب مرتعه ... حظه في الحسن ابدعه

لامني فيه اخو سفه بملام لست أسمعه
رد لي قلبي لتعذله فهو في كفيه اجمعه
هل يرى دهري يجود به بعد ما قد كان يمنعه
وشقيق النفس يتحفني بحديث قد جل موقعه
لفظه در يساقطه ونطاق السمع يجمعه

وكتب اليه ابو العباس بن ابراهيم الغساني المتقدم الذكر عن نفسه وعمن حضر مجلسه من اخوانه —

يا سابق الناس الى غاية في ذيلها يعثر صوب الغمام
اخوانك الكتاب يرجون ان يلفى بكم شملهم ذا انتظام
فاطلع على السرب فهم انجم يرتقبون منك بدر التمام
وسرهم منك بسر المنى وزرهم عند اختلاط الظلام

فبعث اللياني اليهم دنا وشمعا وكتب مع ذلك من نظمه —

قد دام للاخوان نيل المنى في خفض عيش وحميد انتظام
وقرب الدهر لهم كل ما راموه من انس بغير انصرام
في لذة معسولة المجتنى وغبطة موصولة بالدوام
ما اشوق الصب الى انسكم واشغف اللب بذاك المقام
لاكنه عاق الفتى عذره فالشيخ منه عوض والسلام

فراجعه الغساني بقوله —

قد اقبل الشيخ بعذر الفتى مفتي المعالي والرئيس الهمام
وامطرتنا من سماء الندا يد له بيضاء تجلو الظلام
لا زال يهدي لاودائه سنا الايادي واجل النظام

ومن شعراء المهدية وفضلائها الفقيه القاضي ابو عمرو عثمان بن عتيق بن عثمان القيسي المعروف بابن عربية احد العلماء الاعلام كان حافظا للحديث مقدما في علوم الادب فحلا من فحول الشعراء وله تصانيف مفيدة منها كتاب جوامع الكلم النبوية على صاحبها الصلاة والسلام على

طريقة

طريقة الشهاب ، وكتاب الزهرة في مستند العشرة ، وكتاب آثار السحابة في شعراء الصحابة ، وكتاب سنن القوم في ءاداب الليلة واليوم ، وكتاب المستوفى في رفع احاديث المستصفى ، وديوان نظمه المسمى بقصائد المدح ومصائد المنح ، وغير ذلك من التآليف ، وكان الامير ابو زكرياء رحمه الله استدعاه مع جماعة من خواصه وشعرائه لنزهة في رياضه المسمى بـابي فهر فنظموا في وصفه قصائد ورفعوها الى الامير ابي زكرياء فاجابهم عنها بـابيات تتضمن تفضيل شعر ابي عمرو هذا على شعر جميع من حضرها وفيهم ابن الابار وغيره ونص ابيات الامير ابي زكرياء رحمه الله ــ

الا ان مضمار القريض لممتد	به شعراء السبق اربعة لد
فاما المجلي فهو شاعر حمصة	اتى اولا والناس كلهم بعد
واما المصلي فهو حبر قضاعة	بآدابه تزهو الامارة والمجد
واما المسلي فالمعاوي اسمه	اتى ثالثا لكن يلين ويشتد
وبعدهم الكومي اقبل تاليا	وكم جاء سباقا مسومه النهد
هم علماء الناس ما عنهم غنى	وهم شعراء الملك ما منهم بد

حبر قضاعة هو ابو عبد الله محمد بن عبد الله بن ابي بكر القضاعي ابن الابار والمعاوي هو الفقيه الخطيب ابو القاسم بن محمد بن معاوية اليحصبي كنيته اسمه ويكنى ايضا ابا الفضل . والكومي ابو زكرياء يحيى بن محمد بن الغليظ . واصل اتصال ابي عمرو بالامير ابي زكرياء ان بعض الصلحاء من اهل القيروان وكان معلوما بالصدق والامانة في ذلك الاوان رفع الى الامير انه راى النبي صلى الله عليه وسلم في النوم وامره ان يبلغ اليه ان يستوصي خيرا لمخمس القصيدة الشقراطسية فبحث الامير ابو زكرياء عمن خمسها من ادباء ذلك الوقت فلم يجد غير ابي عمرو وسال عن صاحب الرويا فشهد الكثير بصلاحه وصدقه فاستدعى ابا عمرو واكرمه وامر له بمركوب وصلة سنية وقال لا تشكر احدا ولا تجعل لغير رسول الله صلى الله عليه وسلم عليك يدا . قال التجاني وهذه القضية تشبه قضية صفوان

ابن ادريس في الرويا التي ريثت له . ومولد ابي عمرو ببلد المهدية في سنة ستمائة قال التجاني ورايت ذلك بخطه . وتوفي بتبرسق وهو متول القضاء بها في الثامن والعشرين للمحرم من سنة تسع وخمسين وستمائة ودفن بجبل الرحمة هنالك وشعره مدون مشهور وهو القائل يذكر المهدية ويتشوق اليها والى من خلف بها من اهله وذلك بعد انتقاله منها الى حضرة تونس —

اقول لركب قافل عن معرس　بجمة تردي بالحمول مشاججه
لك الله امتعنا عن البلد الذي　اكابره اسلافنا وابالجه
وعن وطن لولا المنى وطلابها　لعز على شواي اني خارجه
وعن رسم ايوان تداعت عراصه　ودكت حناياه وخرت معارجه
وما صنع القصر العبيدي والحمى　وسور المصلى والكنيب وعالجه
وشاطئه انى تنوع حسنه　وخضرمه انى تدفع مائجه
سلام على المهديتين فيهما　ابُ بنْتُ عنه قاصر الخطو عارجه

وله في ذلك من قصيدة يمدح بها الامير ابا زكرياء ويطلب توليته قضاء بلده —

ذكرت جمة والذكرى تهيج لي　واين جمة مني والمنستير
وما مناي لياليها التي سلفت　وما مناي محانيها المعاطير
لكن بها رحم مجفوة يئست　من ان تقربني منها المقادير
فان راى من ادام الله نعمته　عليه لي خطة فيها فماجور

وانشد عبد الرحمن بن ابراهيم الاصولي في كتابه المسمى بتبكيت الناقد قال انشدني لنفسه —

نسيم الصبا حدث عن البان والحمى　وعن ساكني حزوى من الخرد الدمى
وعن معهد اقوى من العفر والمهى　وعن ركب جيران الغضا اين يمما
ايمم ذات البان ام بطن رامة　ام الجزع ام بالاجرع الفرد خيما
الا فرعى الله الحمى ونسيمه　وان جل ما القاه من ساكني الحمى

ايمكم

ايمكم يا اهل نجد فانني اراكم تلومون المشوق المتيما
اما ولمى لعس الدمى لو لحظتم طلاب الحمى طلت لواحظه دما
وذياكم الثغر الذي يستبي النهى تبسمه ما كنتم لي لوما
هجعتم وسن لي بالهجوع فربما الم بكم منكم خيال مسلما
ايطرق جفنا لي يُبَيِّتُ ساهرا ويترك اجفانا لديكم نوّما
اغرشنيب ما اعيذب ثغره واحلى اليفاظ النداء وارخما
هو الظبي لكن لا اسميه باغما اذا رشا ناغاه بل متكلما
تبدى لنا والبدر ليلة تمه فلم ادر من بدر الدجنة منهما
هو البهج الاضوى الذي استكمل السنا ام الغنج الاحوى الذي راق مبسما
ولما استطار البرق قلت لصاحبي اقلبي هفى ام ثغره قد تبسما
اغار وميض البرق حسن ابتسامه وما ذا عليه لو اثار له اللمى
او البرد العذب الذي لن تذيبه حرارة انفاس امرئ قبل الفما
تعلم منه خلب البرق خلفه فمن ايما برق تراه تعلما
تجنى فجئنا خضعا لجماله عسى عطفة نحظى بها ولعلما
فهز الصبا والدل معطفه كما تهز الصبا الغصن الرطيب المنعما
فابنا وخلفنا طيور قلوبنا على ثغره العذب المقبل حوما

وكان لابي عمرو ولد يسمى عتيقا ويكنى ابا يحيى برع في الطلب وتقدم في حفظ مسائل الفقه وتوجه الى المشرق فتخطط هنالك وله شعر حسن منه قوله —

يا واحد الحسن انت السمع والبصر عطفاك ان فتكت عيناك لي وزر
أبعد ما كان ليلي كله سحرا صيرته بالتجني ما له سحر
قد رق لي في الهوى كل الانام سوى من حاز رقي وما لي عنه مصطبر
فان شكوت له يفتر مبتسما عن عشرة قد حواها ثغره العطر
طلع اقاح صباح جوهر برد درحباب لجين بارق زهر

ولما قضى فريضة الحج واقام مجاورا بمكة كتب الى اهله بتونس —

حججت وزرت المصطفى خاتم الرسل | نبي الهدى ذا المجد والجود والفضل
ومرغت خدي في مواطي نعـــلـه | وقابلت ذاك العز مني بالـــذل
ومتعت الحاظي برؤية سيـــد | سري كريم طاهر الذات والاصـــل
وبوات نفسي من معاهد مكـــة | مكانا عن الدنيا باجمعها يسـلي
اقام بها قوم يناجون ربهـــم | وقد نبذوا كل العلائق والشغـــل
فدعوتهم مقبولة وصلاتهــــم | بالف كما قد جاء عن سيد الرســل

ومـــنهم الفقيه الاديب الصالح ابو يعقوب يوسف بن علي بن عبد الملك بن السماط البكري المهدوي واخوه هو الشيخ الصالح ابو علي يونس الكبير القدر العالي الدرجة في الصلاح والفضل وكان ابو يعقوب هذا قد قصر شعره على مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا يوجد له في غير ذلك شعر إلّا التافه النزر مما قاله في صباه . ويذكر ان اخاه الشيخ ابا علي رحمه الله اخبره انه راى النبي صلى الله عليه وسلم في النوم فساله عن حال اخيه وكساه حلة وهو عالي الطبقة في الشعر جدا وشعره مدون مشهور . قـــال التجاني وقد اخبرني بجميعه الشيخ الفقيه ابو محمد بن علي بن فائد الكلاعي بقراءتي عليه قال سمعته يقرا على ناظمه رحمه الله تعالى . وكانت وفاته رحمه الله بالمهدية في العشر الاوسط من شعبان سنة تسعين وستمائة ومولده بها سنة ثلاث عشرة وستمائة وعنوان شعره قوله من قصائد ربما اختصرنا من كل واحدة منها بعض ابيات منها قوله —

سريتم وطرفي من كرى النوم ما هبا | وطرف انتهاضي في مدى الحزم ما خبا
وثرتم طلاب العز من دون نـاصر | فصاراه ذيل الذل يسحبه سحبـــا
واخليتم هالاتكم من بدورهـــا | فما عوضت إلّا الغياهب والسحبـــا
وعاني هواكم لا معين له ســوى | صدى صوته في الربع ما ردد الندبا
وما كان ندبا يستلذ وانمـــا | يلذ سماع الندب من فارق الندبا
ولي مهجة تفنى لتذكاركـــم اسى | وجفن يراعي في مراكزها الشهبـــا
يعللني مسرى صباكم عليلـــة | فيا لعليل منه التمس الطبـــا

رحلتم

رحلتم وغادرتم غريبا عزوبــــه   تصب مصون الدمع مذ بنتم صبا
وخلفتم داء التواني محــالفي   واني لناءي الركب ان يصحب الركبا
وهجتم هوج الغرام فانتجــت   لكم من فحول الصدق في قصدكم نجبا
فسارت وحاديها احتدام زفيرهــا   فما ميزت وعرا ولا فدفدا رهبــا
وسيقت وما قاست كلالا ولا وجــا   وقد سقتم مع كل راحلة قلبــا
وما ادلجت تثني الى العشب ليتها   ولاكن في وادي العقيق رات عشبا
فهم جيرة اطلق براجي جوارهــم   ولو باد في البيداء ان يحمد الغبا
منيف على السبع الطباق علاهــم   وان اسكنوا فيما يراه الورى التربا
دعوني ولم يرضوا سماعي دعاءهــم   ولو اسمعوني كنت اول من لــبى
ومن كان حفظ العهد سيماه اقبلوا   عليه والّا اسبلوا دونه الحجبــا
ومن كلفت عين العناية رعيــه   حمته المقام الرخص والمرتقى الصعبا
ومن عاقه نيل المقادير لم تطــق   بارض المنى اقدامه اقدامه ضربــا
على انني لا انزل الياس ساحتي   وقلبي على بعدي يهيم بهم حبا
وقد جاء ان المرء مع من احبــه   عن الصادق المصدوق فيما به انبا
فحسبي رجاء ان يمنوا بعطفهــم   وان يعقبوا لي البعد من وصلهم قربا
ولم لا ونيران الندا في ذراهــم   تنادي الى ناديهم العجم والعربــا
ولا غرو ان يلقى الطفيلي ماجـد   بوجه به يلقى المعارف والصحبا
وان هم جفوني سوف اهدي اليهــم   سلامي لعل منهم بالرضا احــبى
ومن صد عنه الحب فليفش مدحه   فان امتداح الحب يستنزل الحبا
وما القصد والمعنى بالرمز والكــنى   سوى من على كل النبيين قد اربى
ومن شاهدت عيناه من ملك ربــه   وءاياته ما يعجز الكتب والكتبا
فسبحان من اعطى النبي محمــدا   من الفضل ما لم يعط من قبله انبا
فيا غوث من غال الحمام حميمــه   ويا خير من ءاوى اليتامى ومن ربى
احاشيك يا كل المنى ان تذودني   عن الحوض يوم العرض او امنع الشربا
ورب كريم غض عن رد واغــل   حياء اذا وافاه يتبع السربــا

لئن قصرت خطوي اليكم خطيئتي وذبتني الاوزار عن بابكم ذبـــا
فمن شيمة العبد الفرار لربــه ومن شيم السادات ان يغفروا الذنبا

ومن ذلك قــولـه —

وهي الحقوق كما علمت حقيــق والصبر عن وادي العقيق عقيــق
ولاهل ذياك الحمى بقلوبنـــا شغف يسوق نفوسنــا ويشوق
ولذكرهم برد على طي الحشـــا تشفى به مرضاهم وتفيـــق
واذا ثنى عطف الشريب صبوحه فلنا صبوح باسمهم وغبـــوق
قوم بهم طاب النسيم بطيبــة حتى انثنى كالمسك وهو فتيـــق
وغدا ثراها للشفاه مراشفـــا وبقاعها كل البقاع تفـــوق
ومزارها اشهى الى عشاقهـــا من شاطئ ياوي اليه غريـــق
شغفا باشرف مرسل واعــز من شرفت به فيئة وعز فريـــق
هو صفوة الله الشفيـــع ومن له خلق بكل المكرمات خليـــق
سند العصاة اذ الصحائف افصحت ونبا اب واخ وفر رفيـــق
هـو احمـــد ومحمد والمصطفى والمجتبى والصادق المصـدوق

ومن ابيات هذه القصيدة —

كم ذا اومل ان ازور ضريحـــه والحظ يكبو والقضـــاء يـعوق
ويد المشيب تناولت حلل الصبـا فاخلولقت وفشا بها التمزيـق
لاكنه ذخري لموقف فـــاقتي ومضاجعـاه الصهر والفـــاروق
صلى عليه الله ثم عليهمـــا ما زان جيد حمامة تطويـــق
وارت تباشير الصباح تبسمـــا وانقاد غصن للنسيـم وريـق

وقـــولـه —

لعل نسيمات الضحى والاصائـــل تودي الى مغنى الحبيب رسـائلي
وتهدي اذا مرت سحيرا بسرعـــة سلامي الى بدر بطيبة افـــل
علي لدى الاعلى لذلك اصبحـت منازله تعلو فخر المنـــازل
وكل الاماني في غدو رواســم الى رسمه اوفى رواح رواحـــل

اذا

اذا يمم الحادي بها حضرة العلا ارتك انسياب الفلك تحت المحامل
والقت الى كف السرى مقود الكرى كما لطوى طابت مطي المراحل
وان مال ذو وجد الى شعبه هوى تجدها لذاك الشعب اول مائل
وما سوقها بل شوقها يستحثها حثيث اخي الاملاق يدعى لنائل
ومن عجب هوجا تهيج لها الصبا صبابة عذري لطيف الشمائل
وتهوى بروقا بالعقيق تالقت كما جردت بيض بايدي الصياقل
حنينا لمن في كفه سبح الحصى وانسى خطاب النصب سحبان وائل
وكم ءاية دلت على صدقه فما الب لها الانكار في لب عاقل
وكم قاصد اقصى مدى معجزاته تلقاه بحر لا يحد بساحل
رسول اتى والغي وارت غيومه نجوم الهدى والرشد عن كل عاقل
ووافى ودين الكفر قامت دعائمه بابطال تحقيق وتحقيق باطل
فلما بدت ءاياته وهباته بدا النقص فيما ابرموا في المحافل
وضاق الفضا ضيق اللحود عليهم فلا بال الا وهو رهق البلابل
تلقى كتابا شرع ذي العرش شرعه وحد التناجي فيه حد التكامل
تولى امين الوحي جبريل حمله فاكرم بمحمول اليه وحامل
حوى وعد وهاب وانفاذ قاهر وتنزيه قدوس واحكام عادل
ووعظا باهوال المعاد مخوفا وعلما بانباء القرون الاوائل
ودينا الى دار المقامة مدنيا وبشرى بكل السعي من كل عاقل
وزجرا بما يلقاه من زاغ من لظى اذا قيد قوم نحوها بالسلاسل
وفي كل ما يتلو الرسول دلالة على صدقه من واضحات الدلائل
هو المصطفى من قبل تكوين ءادم على الخلق من ءابائهم والحلائل
حبيب وحبات القلوب كناسه اذا بوئ المحبوب خير المنازل
له غابة من صحبه هو ليثها لديهم غدير الموت عذب المناهل
صدور اذا حلوا بناد وفي الوغى صدورهم تلقى صدور العوامل
اشداء والهيجاء حام وطيسها ذوو رحمة بالبائسات الارامل

فكم من عديم صار فيهم كمترب وكم من غريب صار فيهم كآهل

كذا فليكن حسن الثناء لسادة متى املوا لم يخلفوا ظن ءامل

على من به ساد الورى وعليهم سلام كنشر الروض بين الخمائل

فحتى متى اشتاقهم وتشغرني اماني واجمالي بتسويف ماطل

وما المرء الّا ظاعن مترحل معار لاوقات تمر قلائل

واسفار صبح الشيب عن ليل لمتي دليل على ظل من العمر زائل

ولما تقضت في التواني شبيبتي واصبحت من جرائها في حبائل

ولم يبق لي الّا التفاتي بادمع على طول تفريطي هوام هوامل

وكل يرى ان المديح وسيلة لكل كريم من اجل الوسائل

مدحت الشفيع المصطفى غير قائم بمعشار ما يحصى له من فضائل

وما المدح ممن يحسن المدح باسمه واوصافه الّا كتحصيل حاصل

ولاكنه جهد المقل لقاصر عن الفرض من تعظيمه والنوافل

الم يك قول الله في رفع ذكره وهل بعد قول الله قول لقائل

وقوله —

اعد الحديث فليس بالملول عن خير مبعوث وخير رسول

واملا مسامعنا بطيب حديثه فهو الشفاء لحر كل غليل

واداب عليه مصليا ومسلما فكذا اتى في محكم التنزيل

واخصص بترداد السلام ضريحه في كل شارقة وكل اصيل

واذا رايت العيس تحدو نحوه فاختر مواطئهن للتقبيل

واشفع بمن حملت من اكوارها من حامل لغرامه محمول

واصحبهم بالقصد ان ونت الخطى ورايت باع الطول غير طويل

فعسى ينالك من زكاة زكائهم ما قرر القرءان لابن سبيل

ومن اقتدى بالصدق في انحائه قادته عزمته بغير دليل

ومن اشرأب الى لقاء حبيبه جذب المقادة من يد التعليل

واماط سوف وسح ريقة رقه بلهى العزيمة من فم التاميل

حتى

حتى يرى البيداء وثبة خائف　　والميل من قصر دوين الميل
ذاك الجمال متى اراك تزوره　　متبوءًا بذراه خير مقيل
فرحا بمغناك المقدس رتبة　　فرح المحب مبشرا بقبول
مترنحا طربا ترنح موسر　　هزت معاطفه شمال شمول
فهناك اظفر بالاماني والمنى　　وعلى الوجود اصول حين وصولي
وتهزني من طيب طيبة نفحة　　فيطيب لي مرحي وجر ذيولي
واذا اسات تادبا بحماكم　　صفوا فاني غبت عن معقولي
من ذا يرى حرم الحبيب فيهتدي　　لتميز المعلوم والمجهول
قمر له هضبات مكة مطلع　　والروضة الفيحاء افق افول
جاءت نعوت كماله منصوصة　　في الذكر والتوراة والانجيل
وبه تشفع ءادم لالهه　　لما احس بحالة التحويل
واتى بمبعثه المسيح مبشرا　　يوصي به للجيل بعد الجيل
وبليلة الاسراء كمل فضله　　ناهيك من فضل ومن تكميل
واليه نلجا في المعاد لاننا　　ناوي لظل للنجاة ظليل
ما زال في الاصلاب ينقل نوره　　حتى تبلج في اعز قبيل
من نبعة للجود رَوْضٌ نبتها　　وفروع مجد بارع واصول
صيد تحل من الاكابر هامها　　ويحل منها مفرق الاكليل
فانجاب غيم الغي عند ظهوره　　كالشمس في جو تلوح صقيل
واذل من بالكفر حاول عزة　　واعز بالايمان كل ذليل
الف الجميل فما يقابل سائلا　　الّا بوجه كالسراج جميل
لا يعدم السارون ان نزلوا به　　ريا لصاد او قرى لنزيل
سمح يشاكل حسنه احسانه　　لا تعتريه ملالة المسئول
يلقى الارامل واليتامى ان نات　　عنهم عشيرتهم بكف كفيل
ويبيحهم من حبه وحبائه　　ما يحمل المثري على التطفيل
هذا الفخار ومن يكن ذا وصفه　　فالمدح فيه كقطرة في النيل

وعلى اولي الالباب طرا ان يروا   بذل النفوس له اقل قليل
فعليه من ذي العرش كل تحية   وعلى صحابته ذوي التفضيل
ما افرع الروض الحيا وتصدعت   ويا نسيما في الغدو عليل

وقوله وذكر شهر مولده صلى الله عليه وسلم وشرف وكرم وعظم —

اعلمت انك يا ربيع الاول   تاج على هام الزمان مكلل
مستعذب الالمام مرتبع اللقا   كل الفضائل حين تقبل تقبل
ما عدت إلّا كنت عيدا ثالثا   بل انت احلى في القلوب واجمل
شرفا بمولد مصطفى لما بدا   اخفى الاهلة نوره المتهلل
وحويت مذ اصبحت ظرف زمانه   ظرفا به في برد حسنك ترفل
وملكت انفسنا بلطف شمائل   بنسيمها نفس العليل تعلل
واذا شدا الشادي بمنزلة الحمى   فالقصد سكان الحمى لا المنزل
فضل الشهور علا وفاخرها فسان   شمخت باطولها فانت الاطول
واستثنِ منها ليلة القدر التي   ثبتا بها نزل الكتاب المنزل
واصخ لقول الله فيها انها   من الف شهر في الانابة افضل
واستكمل البشرى بانك لم تزل   لك في القلوب مكانة لا تجهل
لم لا وعشرك واثنتاك اريتما   قمرا به شمس الضحى لا تعدل
ومن العجائب بدر تم يستوي   لتمام عشر واثنتين ويكمل
ويفوت اقمار السماء لانها   للنقص من بعد الزيادة تنتقل
وكمال هذا البدر لا يعزى الى   نقص ولا عن حاله يتحول
بل نوره يزداد ضعفا كلما   طفق المحاق سنا البدور يبدل
ويقي عثار الغي واضح رشده   ويبين من سبل الهدى ما يشكل
وتراع افئدة العداة له كما   يرتاع من شاكي السلاح الاعزل
فمتى تحيط بوصف بدر نبوءة   وافى وليل الكفر داج اليل
فجلا عن الافاق غيهبها كما   يجلو صدا العضب الحسام الصيقل
وهدى الى كنف النجاة براحة   فهدى المحق به وضل المبطل

وتظافرت

وتظافرت ايدي الرفاق فصيرت   شيع النفاق وضعفهن يـــذلل
وشدت بالسن حالها لاكوان من   طرب به هـذا النبيّ المرســـل
هذا الذي هو للمناصي علقـــم   ولماحض الود الرحيق السلسـل
وعلى العصاة من الخلائق ان جنوا   يبدو على الصفحات ستر مسبـل
وهو الشفيع المستجـار بجاهـــه   وكلام عمن ارضعته تذهـــل
قسما بمرسله الينـــا رحمـــة   انى عليه معولي ومعـــــول
لا ادعي علمـــا ولا عمـــلا ولـــكنني بجاه محمد اتوســـــل
فلربما صد الكريم حبـــــاوه   ان كان في ندمائه يتطفـــل
صلى عليه الله ما هب الصبـــا   ليلا وما نفحت سحيرا شمـال
وعلى صحابته وصفـــوة ءاله   ما لاح برق او ترنم بلبـــل

ورايـــت للتجاني في ختام رحلته قصيدة خدم بها جناب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وهي قـــوله —

كم انت في اللذات ذو استغراق   ونذير شيبك موذن بفـــراق
ولقلما يجـدي المتاب اذا اتى   داعي الحمام وقيل هل من راقي
يا صاح دعوة ناصح لك مشفق   والنصح يقبل من ذوي الاشفاق
بادر الى التقوى بدار مسارع   وانهض الى الطاعات نهض سباق
واغنم من الايام مهلة ساعـــة   قبل التفات الساق منك بساق
حدثت نفسك بالبقاء ولم يكن   في هذه الدنيا ليبقى بـــاقي
كل بها فـــان ومنقوص ولا   بقيا لغير الواحد الخـــلاق
واترك انـاسا ءاثروا لذاتهـم   واستمتعوا من دهرهم بخـلاق
ملقت نفوسهم بنزر عـاجـــل   واستبدلوه بانفس الاعـــلاق ؟
عوض كلا عوض وبيـــع كله   غبن وسعي ظاهر الاخفـــاق
يا ايهـــا الانسـان انك كادح   كدحا وانت لما كدحت ملاقي
والمرء مجزيّ بمـــا هو فاعـــل   وجزاوه جـار على استحقـــاق
فنعيم ذي الطاعـات غير مكيف   وعذاب ذي العصيان غير مطاق

لله اقوام اطاعوا ربهم ... ووفوا بما اعطوه من ميثاق
عظمت لهم همم وعزة انفس ... فسمت بهم نحو المحل الراقي
قوم لو اطلع الملوك عليهم ... لسعوا لخدمتهم على الاحداق
من كل بدر افقه محرابه ... لا يختشي ابدا لحاق محاق
يسمو اذا قام الانام لورده ... فيعود منه الليل ذا اشراق
خطبوا النعيم ببذلهم لنفوسهم ... والخطب لا يعطى بغير صداق
لم تحصل الاخرى لهم الّا وقد ... خرجوا عن الدنيا خروج طلاق
ان لم اكن بالفعل ملتحقا بهم ... فالحب فيهم مقتض للحاق
يا رب بالهادي الذي ارسلته ... نورا افضت سناه في الافاق
هاد اتى والجهل قد عم الورى ... والكفر قد غطاهم برواق
فجلى لهم سبل الهدى وانالهم ... من عزة كانت بهم وشقاق
ولقد حباه الله كل فضيلة ... وانالة العليا على الاطلاق
بنزول طست فيه نُوِّرَ قلبُه ... وعروج جسم وامتطاء براق
وكفى له شرفا بان الله قد ... اثنى على ما حاز من اخلاق
يَسِّرْ لنا في ما به كلفتنا ... عونا لنمتثل امتثال وفاق
وامنن علينا بالوصول لقبره ... فهو الشفاء لقلبي المشتاق
يا ليت شعري هل اراني ساعيا ... في شد اكوار وحذو نياق
فلكم تؤخر عزمي الاقدار مع ... فرق تسير لقبره ورفاق
قسما بعزته ورفعة قدره ... اني لزورته لبالاشواق
لكن سيّء ما جنيت اقوني ... عنه وقيد عزمتي بوثاق
لاهمّ انا لاتذون بجاهه ... فهو الشفيع لنا وانت الواقي
صلى عليه الله ما هب الصبا ... وترنمت ورق على اوراق

ومن مشاهير بلاد افريقية بلد باجة وهي مناخ الاقوات في كل الاوقات وهي بلدة كثيرة البر والعسل والبقر اذا كثر خيرها عم الرخاء بافريقية اذ هي عمدتها في هذا الامر . وقال ابو عبد الله محمد العبدري في رحلته ما نصه

ما نصه : ومدينة باجة ، مالحة اجاجة ، قد هتكتها الايدي العادية ، وفتكت فيها الخطوب التمادية ، حتى صارت وهي حاضرة بادية ، فخشوعها لائح وضراعتها بادية ، قال وقد حدثت بها ان اهلها لا يفارقون السور خوفا من العربان ، وانهم يستعدون لدفن الجنائز كما يستعدون ليوم الضراب والطعان ، قال ولم نقم بها الا ظل نهار ، فلم نختبر بذلك حالها حقيقة الاختبار ، قال وما رايت بها من له الى العلم انتماء او لهمته نحو المعارف ارتقاء سوى الاديب النحوي ابي علي حسين بن محمد الطبلي بالطاء وبالباء الساكنة بواحدة وهو رجل له مقول نقاد ، وذهن مشتعل وقاد ، حسن الخلق مقبول الصورة ، وسر همته فيما رايت على علم العربية مقصورة ، وقد جمع اكثر مولفاتها ، واحتفل في تحصيل مصنفاتها ، فاجتمع له في ذلك ما دل على نبله ، واعانه على تسديد نبله ، قال سالته عن نسبته المتقدمة فقال لي هو لقب جرى علينا قديما واشتهرنا به ، قال وقد قرات عليه بعض كتاب المقرب في النحو وانه حدثني بجميع قراءته على مولفه الشيخ الاستاذ النحوي ابي الحسن علي بن مومن بن محمد بن علي بن احمد بن محمد بن احمد بن عمر بن عبد الله بن منصور بن عصفور الحضرمي الاشبيلي وقال قيد لي هذا النسب بخطه وذكر لي ان ابن عصفور املاه عليه وان مولده عام السيل باشبيلية سنة سبع وتسعين وخمسمائة وتوفي بتونس كلاهما الله يوم السبت الرابع والعشرين من ذي القعدة سنة تسع وستين وستمائة ، قال العبدري وحدثني عنه بكتابه الكبير في شرح الجمل اجازة ، قال وحدثني به وبغيره من تآليفه اجازة عنه شيخنا الفقيه المحصل الراوية ابو زيد عبد الرحمن بن محمد الاسيدي بالقيروان ، قال وافادني ابو علي المذكور حكاية عن ابي محمد الحريري لم يذكر لها سندا وهي ان رجلا طلب منه اعارة كتاب كان يمسكه كثيرا للمطالعة فانشده ارتجالا —

سمير فوادي منذ عشرين حجة وصيقل ذهني والمفرج من همي

قبيح على مثلي اعارة مثلـــــه   وءاليته ان لا يفارقه كمي

قـال وقد ذكرتني هذه الحكاية حكاية اخرى عن الحريري حكاها لي الفقيه القاضي الحـاج ابو ميتة الدلاءي رايت تقييدها بهذا الموضع والحديث شجون وهي ان الحريري كان دميما قبيح المنظر فجاءه شخص غريب يزوره وياخذ عنه شيئا فلما رآه استزرى شكله ففهم الحريري ذلك منه فلما التمس منه ان يملي عليه قال له اكتب —

ما انت اول سار غره القمـر   ورائـد اعجبته خضرة الدمـن

فاختر لنفسك غيري انني رجل   مثل المعيدي فاسمع بي ولا ترني

فخجل الرجل منه وانصرف . فـان قلت خفف الدال من المعيدي وهو الاشهر والاصل فيه التثقيل وانما خفف الدال لكثرة الاستعمال قـال ابو عبيد وكان الكساءي يرى التشديد في الدال وقـال انما هو تصغير رجل منسوب الى معد . قـال ولم اسمع هذا من غيره . والمثل - ان تسمع بالمعيدي خير من ان تراه . قـال ابو عبيد والعامة لا تذكر ان ثم ذكر الاختلاف في من قاله وفي من قيل فيه . اه . ومـن علمائها عبد الله بن عبد السلام الباجي اخذ عن عيسى الغبريني ونقل عنه ابن ناجي في شرح المدونة . انتهى من سيدي احمد بن بابا . ومـنهم عبد الله الغرياني وقال ابن بابا قـال ابن ناجي صاحبنا الفقيه الحاج ابو محمد اخذ عن عيسى الغبريني * قـال جامعه عفا الله عنه وقول العبدري في ما تقدم وما رايت بها من له الى العلم انتماء او لهمته نحو المعارف ارتقاء فربما وافق ذلك ما اوجبه من كثرة ترادف الهموم عليها حسبما ذكره قبل ولكننا الان وزماننا الهازل الذي لم يات بما انت به الاوائل قـد اجتمعنا بفحول من مدلهم غابها . وابطال تفتن على حادي ركابها . منهم العالم العلامة والفاضل الفهامة المتضلع من موائد الفوائد ومن ندي اللطائف راوي . الشيخ سيدي صالح الغراوي . تتطلع بسراج فكره على اصول الاصول . فحصل منها اعظم محصول . وجمع من ثمار فروعها اي مجموع . فبلغ منتهى

الجموع

الجموع . الزمه امير الوقت دام علاه الى قضاء المحلة . وعمر بانوار معارفه محله . سنة (بياض) واظهرت احكامه خفي خباياه . واعلنت تحريراته باظهار مزاياه . كان لطيف الخلوات والجسيم . طويل الذات والعلم . واسع الخلق والحلم . عظيم الهمة والحكم . مليا من التقوى والورع . خليا من الرشا والطمع . حليا بالصداقة والعهود . جليا بالامانة في علومه ووفاء العهود . توفي في ...... وكثيرا ما رايته مجتمعا بشيخنا ابي عبد الله محمد الصغير داود وبايديهما ابو السعود . ولسان الحال يقول قد حل شمس ابي السعود منازل السعود . وتدور بينهما سلافة التذكار فتبدو منهما تحت جناح كل فصل . ظواهر مضمرات وصل . ما احق لحاقها بالاصل . ولو رصعت بطرر الحواشي . لاعجز حملها الحواشي . وتولى مكانه بقضاء المحلة الشيخ ابو العباس احمد بن نور الدين خبير باحكامه على الاوضاع . يدرك بلطيف ذوقه مطاعم لذيذ السماع . لطيف الخلوات ورع متباعد عما في يد الناس ذو همة عالية . ومرتبة سامية . حسن الملاقاة . رقيق المذاقات . تزايد بباجة ونشا بها * ومنهـــا الفاضل ابو عبد الله الشيخ محمد المغراوي بلغت الروايات عنه حد التواتر في انه بمقام الشيخ صالح المغراوي وربما فاقه وما حصل لي به اجتماع اصلا * ومنهـــا ابو الحسن علي شعيب ذو شدة في تصرف احكامه في القضاء كان تولى قضاء باجة سنة ...... ثم نقله الامير دام علاه الى الحضرة التونسية واطلق يده في الشهادة بها ثم اولاه قضاء محكمته بديار باردو لا يبالي في من يتصرف اذا جاء الحق . ولا يعتبر من عظم او دق . ذو فكرة وقادة . وتفريعات نقادة . وكثيرا ما كان يبلغني عنه روايات تصرفاته ويصفونها بالشدة المفرطة حتى تنفصل الرب واجتمعت به فوجدت حكيما جرد النفس من الهوى . ويضع لكل داء مناسب الدوا . له قوة فكر يغوص بها الى استخراج ما اعجز اولي النهى . كانت بوادر افكاره لغيره المنتهى * ومنهـــا الامام الهمام وعلم الاعلام . ابو المحاسن الشيخ يوسف الامام . امام الخمس بالحضرة

الحسينية والدولة الاحسنية . ولما تفرس الامير دام علاه في سيرته . واطلع بمرءاة الفراسة على خالص سريرته . وجده ذهبا مصفى وعليه طابع الاخلاص . ادناه وجذبه بانامل الخصوصية والاستخلاص . واتاه بالاعزة اولاده . وقطعة اكباده وثمرة فواده . وسلم له فيهم الامر . وذلك غاية شرف القدر . فبذل جهده . ووفى عهده . وارضعهم ثدي علوم اتخذ الاماجد ثمرتها حلى . وساسهم بلطيف النباهة الى ذروة هي منتهى العلا . وصقل اذهانهم فاغنتهم عن صقيل المرءاة . وكان لهم في عزيز خدمتهم بذب الابوة وراف الامهات . فما من فن الّا وكرعوا من جداول زلاله عللا بعد نهل . وهم اسعدهم الله لكل شوبة اشرفية اهل . وما ازداد في رعاية ذمام الاعزة ابنائه وبث شكر انعامه الّا وضاعف له في رفعة حظه وسَن يذاكر امه فاصبح يشدو كالورقاء شكر نعمائه واتخذ ورده في ترداد ثنائه —

كالبحر تمطره السماء وما له   فضل عليه لانه من مائه

تدرع دروع الخمول . وبها الى الله نعم الوصول . بليغ ان نثر تنظم الدرر . او نظم اخجل الغرر . او وشى الحواشي فاق الطرر . او ذب عن نجل ولي نعمته يرمي بشرر . له تاليف على ...... اجاد فيه وافاد . وادار منه على سامعيه مذاق سلافة مستجاد . وامد على بساط افادته نعم المستفاد . ولما كان في فنه الجمع المفرد . وصفه القلم بمفرد . فقال —

ما عيب الّا ان لطف صنيعه   اربى فلم يات الزمان بمثله

ومنها الشيخ سيدي حميدة بن المفتي وهو كنز علومها . والمفتي في معضلات حكومتها بين خصومها . تضلع من الفقه فحاز بلاغة . واقتدت به ايمة البلاغة . وتمكن من عرى العربية . وتسربل بالانوار الصوفية . له حسن ملاقاة وسمت يشعر بنور باطنه . عدا من لم نعرفه ولم نتشرف بملاقاته . وعلى كل حال فاللطف موجود على كل حال * وقال في صلة السمط ما نصه : اما مدينة باجة فقال في اختصار اقتباس الانوار باجة بافريقية وباجة بالاندلس . قال ورايت في بعض التواريخ ان تفسير باجة

في لغة

في لغة العجم السلم . وباجة افريقية بينها وبين القيروان ثلاث مراحل .
قال اليعقوبي مدينة باجة كبيرة عليها سور حجارة قديم وبها قوم من جند بني
هاشم وقوم من العجم . وقال البكري رحمه الله ومدينة باجة مدينة كبيرة
كثيرة الانهار وهي على جبل يسمى عين الشمس في هيئة الطيلسان فيها
عيون الماء العذب ومن تلك العيون عين تعرف بعين الشمس وهي تحت
سور المدينة والباب هناك ينسب اليها ولها ابواب غير هذا . وفي داخل
الحصن عين اخرى عذبة غزيرة . وحصنها اولي مبني بالصخر الجليل اتقن
بناءه يقال انه من عهد عيسى عليه السلام . ولها ربض كبير في شرقي
الحصن وسور الحصن مما يلي الربض مهدوم . وبها جامع متقن البناء قبالته
سور المدينة . وفيها خمسة حمامات ماوها من العيون . وفنادقها كثيرة وبها
ثلاث رحاب لبيع الاطعمة وعيون خارجها لا تحصى كثرة . ولها نهر من
جهة المشرق جار من الجوف الى القبلة على ثلاثة اميال منها . وحولها
بساتين عظيمة تطرد فيها المياه وارضها سوداء متشققة يجود فيها جميع البزور
وبها حمص وفول قلما يرى مثله . وتسمى هرى افريقية لريع زرعها وكثرة
رباعها وهي خصبة لينة الاسعار امحلت البلاد او اخصبت واذا كانت
اسعار القيروان نازرة لم يكن للحنطة بها قيمة . ويردها كل يوم من الدواب
والابل العدد العظيم الالف واكثر لنقل القمح فلا يوثر ذلك في سعرها لكثرة
خيرها . اه . وفي اختصار اقتباس الانوار ويقال ان من باجة القيروان ابا محمد
عبد الله بن محمد بن علي بن شريعة بن رفاعة بن حصن بن سماعة
اللخمي الباجي يقال اصله من باجة القيروان سكن اشبيلية وهو فقيه
محدث مكين جليل سمع من ابن لبابة ومحمد بن قاسم واحمد بن خالد
وعبد الله الزبيدي صاحب ابي عبد الله محمد بن علي بن الجارود وابي سعيد
عثمان بن جرير صاحب محمد بن سحنون وغيرهم روى عنه ابنه احمد
واحمد بن عمر بن عبد الله بن عصفور وخلف بن سعيد بن احمد المعروف
بابن المنفوخ الفقيه وابو عثمان سعيد بن نصر واسماعيل بن اسحاق واحمد

ابن محمد الخراز الاشبيلي الزاهد ومحمد بن حسن الزبيدي وعبد الله بن ابراهيم الاصيلي وغيرهم كان مولده ليلة سبع وعشرين من شهر رمضان سنة احدى وتسعين ومائتين وتوفي يوم الاربعاء السابع والعشرين من شهر رمضان سنة ثمان وسبعين وثلاثمائة ودفن يوم الخميس بعد العصر وصلى عليه ابنه الفقيه ابو عمرو رحمة الله على جميعهم · وقال العيني باجة بتخفيف الجيم وهي على البحر مسيرة يوم · وفي المشترك باجة خمسة مواضع الاول كورة ببلاد الاندلس تتصل ببلاد مارده الثاني باجة القمح بافريقية لكثرة قمحها الثالث باجة الزيت بافريقية الرابع باجة من قرى اصبهان الخامس باجة في ارض مصر بالفيوم والله اعلم ولو تتبعنا ذكر كل بلدة على طريق الاستقصاء لادى ذلك الى ما لا يحصى * ومن بلاد افريقية شقبنارية وهي المعبر عنها في زماننا ببلد الكاف قال ابن الشباط وهي مدينة اولية من بناء الاوائل وهي في سند جبل وبها عين ماء يتفجر من صخر وينبعث الى صهريج من صخر محكم البناء وبها آثار من بناء الاول عجيبة وباب المدينة عليه سطر مكتوب بالقلم الاول لا يدرى ما هو وهذا القلم هو المكتوب به في تبسة وفي صومعة القصرين وغيرهما وهي صومعة الراهب مكتتبة من جميع جهاتها · قال ابن الشباط واخبرني بعض علماء بلدنا ان ذلك القلم كان قبل الطوفان والله اعلم وهذا القلم يخالف القلم المكتوب به على سور قفصة يتبين للناظر باول نظر انه ليس به لاختلاف اشكاله وحروفه فسبحان من لا يبيد ملكه ولا يفنى عزه لا اله الّا هو · وبشقبنارية دار عظيمة مبنية بالصخر العظيم فكانما فرغ منها بالامس الّا ان بعضها قد وهى وسقط وصخورها مع عظمها في غاية الاحكام والالحام وبها مجلس على يسار الداخل اليها بحنايا واقباء عجيبة وبقرب باب البلد مسجد بين الباب وبين العين المذكورة · واما جامعها فهو في اعلى السند يشرف على اقطارها ونواحيها · واما مدينة الاربس قال ابن الشباط قال البكري رحمه الله بينها وبين القيروان مسيرة ثلاثة ايام وهي

مدينة

مدينة مسورة لها ربض كبير وبارضها يكون الطيب الزعفران وهي اولية وبعض اساس سورها صخر محكم البناء من عمل الاول وبها عمد عظيمة وكان ذلك الموضع الذي هي فيه مجلس الملك صاحب تبسة وفي تبسة مثله الّا ان الذي في تبسة الطف واغرب واحسن واعجب . وكذلك في طبقة بعمد ضخام ايضا كلها مجالس الملك . ولاربس كثيرة الخير وبها جامع حسن وصومعة قديمة البناء بالصخر المحكم لا قسي لدرجها بل كلها صخر من اصلب الصخور مرتب بعضها فوق بعض فاغنى ذلك عن القسي . وبها اسواق حافلة وحمام لينة الاسعار في غالب الازمنة وليس بها عين ولا واد وانما يشربون من الآبار على مسافة قريبة وبها نهر يعرف بنهر الصفا يجري على صفا وهو في غاية الصفا وفي وصفه قال بعض ادباء العصر —

ماءٌ ونهر على الصفا ظل يجري في صفاء كالدرة البيضاء
فاصفه لما اشتهيت فحق هو نهر الصفا ونهر الصفاء

وذكر صاحب الطبقات موسى بن نصير من اهل الاربس قال وكان ثقة سمع من عبد الله بن وهب كتابي البيعة وقد عمر بعد سحنون حتى سمع منه من لم يسمع من سحنون وكان اعار كتابي البيعة لسحنون وطلبهما منه فماطله بهما فاتاه مرة فحلف بالطلاق ان لا يبرح الّا بهما فاخرجهما اليه سحنون وقد سمع منه عون بن يوسف كتاب الاهوال لابن وهب .

الفصل الثالث

في سبب تسميتها بلفظ افريقية

وذلك امر اختلف فيه فقيل ان افريقش بن ابرهة غزا نحو المغرب حتى انتهى الى طنجة وهو الذي بناها فسميت افريقية باسم منشئها وقيل انما سموا الافارقة وبلدهم افريقية لانهم من ولد فارق بن مصر وفارق يجوز فيه على ما اصله ابو الفتح وجهان فتح الراء وكسرها لان هذين الوزنين موجودان في اسماء العرب وقد جاء الوجهان فيما هو على وزانه وهو لفظ خاتم وفي الخاتم عشر لغات وقد نظمها العلامة ابن حجر فقال —

خذ نظم عد لغات الخاتم انتظمت ثمانيا ما حكاها قبل نظـــام
ختام خاتم ختم خاتم وختـــا م وختيام وخيتوم وخيتـــام
وختم مفتوح تاء تاســـع واذا شاع القياس اتم العشر خاتـــام

الا ان الكسر اشهر وارجح لانه الاكثر . وقيل انها ابريقية بالباء الموحدة من البريق اي انها صاحية السماء . قـال ابن الشباط واحسب اني رايت بخط بعض الشيوخ بفتح القاف وقوله سموا الافارقة يعني اهل افريقية في هذا الوقت . والاشهر في الافارقة انهم الروم الذين كانوا بافريقية قبل الاسلام . ومن الصحابة الذين حلوا بافريقية وسكنوا بها المنيذر الافريقي رضي الله عنه ذكره الشيخ ابو عمر رضي الله عنه في كتابه فقال المنيذر الافريقي روى عنه ابو عبد الرحمن الحبلي قال حدثني المنيذر وكان يسكن افريقية وكان صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول — من قال رضيت بالله ربا وبالاسلام دينا وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا فانا الزعيم له فلآخذن بيده فادخله الجنة — . وقوله وكان يسكن بافريقية يوذن انه انما سمي الافريقي لذلك والله اعلم * وقـال صاحب عقد الجمان سميت بافريقش ابن ابرهة ملك اليمن لانه غزاها وافتتحها . وقـال ابن خلكان افريقية سميت باسم افريقش بن قيس بن صيفي الحميري وهو الذي افتتح افريقية وسميت به وقتل ملكها جرجير ويومئذ سميت البربر قـال لهم ما اكثر بربرتكم ويقال افريقش وافريقيش والله اعلم . وحكى الهمداني انه افريقش بالشين المعجمة ثم عرب قـال وحمير تقول كان اسمه قيسا فلما بنى افريقية قـالت العجم افريقش *

الفصل الرابع
في فتح افريقيـــة

قـــال السلطان المويد عماد الدين ابو الفدا اسماعيل ابن الملك الافضل نور الدين ابي الحسن علي ابن السلطان الملك المظفر تقي الدين ابي الفتح محمود ابن السلطان الملك المنصور ناصر الدين ابي المعالي محمد ابن السلطان

الملك

الملك المظفر تقي الدين ابي الخطاب عمر ابن السلطان نور الدولة شاهان شاه ابن السلطان الملك الافضل ابي الشكر نجم الدين ايوب في كتابه المختصر في اخبار البشر ما نصه : وفي سنة اثنتين وعشرين من الهجرة في ايام عثمان بن عفان رضي الله عنه سار عمرو بن العاص الى برقة فصالحه اهلها على الجزية ثم سار الى طرابلس الغرب فحاصرها وفتحها عنوة . وفي سنة ست وعشرين عزل عثمان عمرو بن العاص وولى مكانه عبد الله ابن سعد بن ابي سرح العامري وكان اخا عثمان من الرضاعة وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد اهدر دم عبد الله بن سعد المذكور يوم الفتح وشفع فيه عثمان حتى اطلقه رسول الله صلى الله عليه وسلم وسار عبد الله بن سعد بن ابي سرح الى افريقية ففتحها وبعث بالخمس الى عثمان رضي الله عنه فاشتراه مروان بن الحكم بخمسمائة الف دينار فوضعها عنه عثمان وهذه من الامور التي انكرت عليه وفي ذلك يقول عبد الرحمن الكندي —

ساحلف بالله جهد اليميـــن ما نزل الله امرا سدى

ولكن خلقت لنا فتنـــة لكي نبتلي بك او تبتلى

دعوت اللعين فادنيتـــه خلافا لسنة من قد مضى

واعطيت مروان خمس العبا د ظلما لهم وحميت الحمى

ولما فتحت افريقية امر عثمان رضي الله عنه عبد الله بن نافع ابن الحصين ان يسير الى جهة الاندلس فغزا تلك الجهة وعاد عبد الله بن نافع الى افريقية فاقام بها من جهة عثمان ورجع عبد الله بن سعد الى مصر . وفي سنة خمسين بنيت القيروان وقدمنا ذكرها فيما سبق في فصل افريقية . وفي سنة اربع وثمانين ومائة ولى الرشيد حمادا البربري اليمن ومكة وولى داود بن يزيد بن حاتم المهلبي السند وولى يحيى الحرشي الجبل وولى مهروية الرازي طبرستان وولى افريقية ابراهيم بن الاغلب وتوفي ابراهيم المذكور سنة سبع وتسعين ومائة وتولى بعده ولده ابو العباس عبد الله بن ابراهيم وسياتي استطراد ولانها في الباب السادس مفصلا ان شاء الله

تعالى . قــال ابن الشباط رحمه الله تعالى قد ذكر ابو الحكم في سياق كلامه من البلاذري ولاية عبد الملك بن مروان واستعماله اخاه عبد العزيز على مصر وان عبد العزيز ولى افريقية زهير بن قيس البلوي فـفتح تونس كما سياتي بيانه في فتح تونس ان شاء الله تعالى . وقـال غيره ثم ان زهيرا راى افريقية ملكا عظيما فكره الاقامة بها وقال - انما خرجت للجهاد واخاف ان اميل الى الدنيا فاهلك ولست ارضى بالدنيا لاجل ملكها ورغد عيشها . وكان رحمه الله تعالى من روساء العابدين وكبار الزاهدين فرجع قـافـلا الى المشرق - فلما انتهى الى برقة وكان الروم حين سمعوا برحيله الى افريقية خرجوا اليها بالمراكب فاغاروا عليها وسبوا وقـتلوا ونهبوا وافق ذلك قدوم زهير قافلا من افريقية فاخبر بذلك وامر العسكر بالمسيـر على الطريق وسار هـو على الساحل طمعـا ان يدرك اسارى المسلمين فاشرف على الروم وهم في خلق عظيم فلم يقدروا على الرجوع واستغاث به الاسارى والروم يدخلونهم المراكب فامر اصحابه بالنزول فنـزلوا وقصدوا الروم والتحم القتال حتى عانق بعضهم بعضا وكثرت النصارى فـقتل زهير ومن معه وادخل الروم جميع السبي مراكبهم وارتحلوا الى القسطنطينية . ولـمـا انتهى الخبر الى عبد الملك بن مروان عظم ذلك عليه وبلغ منه المبلغ الاعظم لفضل زهير ودينه وكانت مصيبته كمصيبة عقبة بن نافع رحمهما الله وغضب اشراف المسلمين وسالوا عبد الملك ان ينظر في سداد ثغر افريقية فقال - لا اجد اعظم لافريقية من حسان بن النعمان الغساني . وكان حسان بمصر في عسكر عدده اربعون الفا عدة لمـا يحدث فكتب اليه عبد الملك بن مروان يامره بالتوجه الى افريقية وانه اطلق يده على اموال مصر يعطي منها من ورد عليه من الناس ما شاء فـقدم حسان في عسكر عـظيم لم يدخل افريقية قط مثله وذلك في سنة تسع وسبعين . قــال جامعه عفا الله عنه وكان قدومه في ذلك التاريخ بعز وسار حتى بلغ القيروان فسال اهل افريقية من اعظم ملكا بها فـقيل له صاحب قرطاجنة وكانت مدينة عظيمة تضرب امواج البحر سورها وهي من

تونس

تونس على اثني عشر ميلا . ثم ان حسان لما استوفى فتح قرطاجنة حسبما ياتي بيانه بلغه ان النصارى تجمعوا للغائه وامدهم البربر فزحف اليهم فقاتلهم قتالا شديدا فانهزموا وهرب البربر الى ناحية برقة وقدم حسان مدينة القيروان فلما استراح الناس قال لهم دلوني على اعظم ملك تبقى بافريقية ومن اذا قتل خافت البربر والنصارى وهابت المسلمين فلا تقدم عليهم فقالوا ليس بافريقية اعظم من امراة بجبل اوراس يقال لها الكاهنة واسمها حسبما ذكره الشهيبي في مختصر الجمان في اخبار الزمان دامية بنت نيفا والبربر والنصارى لها مطيعون ومنها خائفون . فلما اخبر بذلك توجه لقتال الكاهنة وبلغ الكاهنة امره فارتحلت من جبل اوراس في عدد عظيم الى بلد باغاية فاخرجت منها الروم واخربت حصنها وظنت ان حسان انما يريد معقلا يتحصن به واقبل حسان في جيوشه حتى دنا بعضهم من بعض وكان ذلك آخر النهار فكره حسان لقاءها في ذلك الوقت فبات الناس على سروجهم حتى اصبح فزحف بعضهم الى بعض واقتتلوا اشد قتال وانهزم حسان وقتل من العرب خلق كثير واسرت من اصحاب حسان ثمانين رجلا منهم خالد بن يزيد العبسي وكان رجلا شريفا واتبعت الكاهنة حسان حتى خرج من عمل قابس واقام ببرقة وكتب الى عبد الملك بما لاقى المسلمون فوافاه كتابه يامره بالمقام حيث ادركه الجواب وادركه وهو في عمل برقة فاقام هنالك خمسة اعوام بموضع يعرف بقصور حسان وبه سميت قصور حسان . ثم اعمل عبد الملك رايه في من ينتخب لافريقية واستشار في ذلك فلم يجد مثل حسان فبعث اليه جيشا عظيما ومالا وسلاحا . وكانت الكاهنة اطلقت اصحابه الذين اسرت واحسنت اليهم الا خالد ابن يزيد امسكته . وكان لها ولدان فقالت لخالد اني اريد ان ارضعك مع ولدي فتكون اخا لهما فقال لها كيف يكون ذلك وقد ذهب منك الرضاع فقالت . انا جماعة البربر لنا رضاع نتوارث به اذا صنعناه . ثم عمدت الى دقيق الشعير فلتته بزيت ثم جعلته على ثدييها ثم امرت ولديها

ان ياكلا مع خالد من ذلك الشعير فاكلوا فقالت انتم اخوة من الرضاع . ثم ان حسان وردت عليه العرب فدعا رجلا فبعث معه الى خالد كتابا وكان واثقا بان خالدا لا يرجع عن الاسلام . فلما اتى رسول حسان خالدا وقف عليه في زي سائل فعلم انه رسول فاعتذر له وقال تعود لي غير هذا الوقت . فلما انفض المجلس اخذ الكتاب فقراه وكتب في ظهره - ان البربر متفرقون لا انضمام لهم ولا راي عندهم وانما ابتلينا بامر اراد الله عز وجل ان يكرم به من مضى فاطو المراحل وجد في السير فان الامر لله ولن يسلمك الا الله ولا حول ولا قوة الا بالله - وجعل الكتاب في خبزة ومضى الرسول فلم تلبث الكاهنة بعد ذهابه ان خرجت ناشرة شعرها تضرب صدرها وتقول ويلكم ذهب ملككم فيما يوكل فافترقوا يمينا وشمالا يطلبون ذلك فستره الله تعالى . فلما وصل الى حسان اخرج الكتاب من الخبزة فوجده قد احترق فقال له حسان ارجع فقال اني اخاف على نفسي فان المراة كاهنة فكتب له كتابا جعله في نقرة قربوس سرجه وغطاه بالشمع فمضى الرسول حتى اتى خالدا فدفع اليه الكتاب وعرفه ان الاول احرقته النار فرد جوابه واعاده في قربوس سرجه ومضى . فخرجت الكاهنة ناشرة شعرها تضرب صدرها وتقول ذهب ملككم في نبات الارض واراه بين لوحين . قال وكانت الكاهنة ملكت افريقية خمس سنين منذ انصراف حسان عنها فلما رات ابطاء العرب عنها قالت للبربر ان العرب يطلبون من افريقية المدائن والذهب والفضة والشجر ونحن انما نطلب منها المزارع والمواشي ولا نرى لكم الا خراب افريقية حتى ييأسوا منها ويقل طمعهم فيها فوجهت قومها الى كل ناحية يقطعون الشجر والزيتون ويهدمون الحصون . ويحكى عن بعض المورخين عن عبد الرحمن بن زياد بن انعم رحمه الله تعالى ان افريقية كانت ظلا واحدا وقرى متصلة عامرة فاخربت جميع ذلك ثم قال سمعت من يقول انه كان بافريقية مائة الف حصن ما بين قصر ومدينة وان ملكها اذا اراد الغزو بعث الى كل حصن فياتيه منه فارس ودينار فيجتمع له مائة الف

فارس

فارس ومائة الف دينار ولا ينقص من بلاده شيء . ومن تامل هذه المدن والقصور المخربة بافريقية وتداني بعضها من بعض راى من ذلك ما يفضي الى العجب ويستدل به على كثرة عمارتها في السالف . وكذلك الشعراء التي بها اذا تامل اشجارها رآها في مواضع على اعتدال وترتيب تنبي بانها مغروسة لا نباتية . ويقال ان ما فيها من بطم انما كان فستقا وانما استحال الى الصغر والى طعم آخر لطول ما اتى عليه من السنين ولا شك ان من اكل البطم اخضر وجد طعمه كطعم الفستق . قال فلما بلغ كتاب خالد الى حسان رحمه الله تعالى خرج بالجيوش فتلقاه في طريقه ثلاثمائة رجل من النصارى يستغيثون به من الكاهنة فيما نزل بهم من خراب ضياعهم ووصل الى قابس فخرج اليه اهلها وطلبوا منه الامان وكانوا قبل ذلك يتحصنون ويمتنعون من كل من مر بهم فامنهم وترك عامله عليهم وقاطعهم على مال معلوم والتفت الى طريق القيروان فمال الى قصور قفصة فنزلها واهدى اليه ملوكها وملوك قسطيلية ونفزاوة وبعثوا اليه يستغيثون به من امر الكاهنة فسره ذلك وقال رحمه الله تعالى قال مصنف هذا الكتاب وظاهر قوله فسره ـ ذلك يوذن بان هذا فتح واذا كان فتحا فهو صلح ـ ويحتمل ان يكون اهل هذا البلاد على عهد تقدم ولذلك اهدوا اليه . وقد بلغ الكاهنة قدومه فرحلت من جبل اوراس تريده في خلق عظيم فلما كان الليل دعت ابنيها واخبرتهما انها مقتولة وكانها تنظر الى راسها يركض به فارس الى ناحية المشرق وكان ترى راسها بين يدي ملك العرب الذي بعث هذا الرجل فقال لها خالد رضي الله عنه فاذا كان الامر كذلك فارحلي بنا وخلي له عن البلاد واشار عليها اولادها بمثل ذلك فقالت كيف نفر وانا ملكة والملوك لا تفر فاورث قومي عارا فقالوا افلا تخافين على قومك فقالت اذا انا مت فلا ابقى الله منهم احدا فقال لها خالد وابناها فما نحن صانعون فقالت اما انت يا خالد فستدرك ملكا عظيما عند الملك الاعظم واما اولادي فسيدركون سلطانا عند هذا الرجل ويعقد لهم على البربر . ثم امرتهم

ان يركبوا و يستامروا عليه فركبوا وتوجهوا اليه واعلمه خالد بقولها وانها مقتولة
و بوصول ولديها فامر بحفظهما وامر خالدا على اعنة الخيل . ثم خرجت الكاهنة
ناشرة شعرها تقول انظروا ما دهاكم وانظروا لانفسكم فانها مقتولة فالتحمت
الحرب واشتد القتال واستمر القتل في الفريقين حتى ظن الناس انه الفناء .
ثم انهزمت الكاهنة وتبعها حسان حتى قتلها وقطع راسها عند بئر تعرف ببئر
الكاهنة . قال ابن ناجي في معالم الايمان ويقال انها قتلت عند طبرقة
فتعجب الناس من خلقتها وولى حسان الاكبر من ولدي الكاهنة على
جماعة من البربر . ثم ان البربر استامنوا حسان فلم يقبل الّا على ان يعطوا
من قبائلهم اثني عشر الفا يكونون مع العرب مجاهدين فاجابوا واسلموا على
يديه فعقد لكل واحد من ولدي الكاهنة على ستة ءالاف منهم واخرجهم
مع العرب يجاهدون في سبيل الله عز وجل بافريقية ويقتلون الكفرة من
الروم والبربر وكان ذلك في شهر رمضان من سنة اربع وثمانين . ثم وجه
مولاه ابا صالح الى قلعة زغوان فنزل بموضع فحص ابي صالح وبه شهر
فقاتل اهلها ثلاثة ايام فلم يقدر عليهم فخلى حسان عسكره بطنبذة . ثم رحل
الى زغوان في خيل مجردة فافتتحها صلحا ودانت له افريقية وكتب الخراج
على من بقي من النصارى ومن كان على دين النصرانية من البربر وغيرهم
واقام بافريقية قاطنا بالقيروان لا ينازعه فيها احد الى ان عزل عنها وتولاها
موسى بن نصير كما ياتي بيانه ان شاء الله في ذكر ملوكها الذين كانوا بها
قبل ءال عثمان . وعلى يد حسان بن النعمان سنة تسع وسبعين كان افتتاح
توزر صلحا حسبما ذكر ذلك التجاني في رحلته قال وذلك بعد عوده من
برقة بالمدد الذي امده به عبد الملك . ووقع في تاريخ ينسب الى الامام
الحافظ ابي طاهر السلفي ان افتتاح توزر كان على يد عقبة ابن نافع
القرشي قال وذلك غريب وكانت ولاية عقبة على افريقية سنة ست
واربعين فان صح ما قاله ابو طاهر فيكون افتتاحها في زمن معاوية بن
ابي سفيان وعلى القول الاول يكون افتتاحها في زمن عبد الملك كما تقدم

ويحتمل

ويحتمل ان تكون افتتحت ثانيا في زمن حسان . ومما يدل على انها افتتحت صلحا بقاء مواضع كنائس النصارى قال التجاني ويروى ان عبد الله بن سعد بن ابي سرح لما بعثه عثمان رضي الله عنه الى افريقية لقي جرجير وكان من قتل عبد الله بن الزبير له ما كان واصاب الروم رعب كبير شديد فلجاوا الى الحصون والقلاع فاجتمع اكثرهم بحصن الجم وطلبوا من عبد الله بن ابي سرح ان ياخذ منهم ثلاثمائة قنطار ذهب على ان يكف عنهم ويخرج من بلادهم فقبل ذلك منهم وقبض المال وكان من شرطه ان ما اصاب المسلمون قبل الصلح فهو لهم وما اصابوه بعد الصلح ردوه يريد والله اعلم بعد الصلح *

الباب الرابع

في ذكر قرطاجنة وفيه ثلاثة فصول

الفصل الاول في ذكر قرطاجنة ومن بناها

قرطاجنة وان تلاشت الان وخربت فانها كانت من اضخم ممالك افريقية واكثرها عددا واقواها عددا واتقنها بناء واغربها انباء واوسعها مجالا واشدها قتالا واحكمها صناعة وارفعها بضاعة واطيبها ثمارا واطولها اعمارا . قال ابن الشباط عند ذكر دخول موسى بن نصير ارض الاندلس افتتاحها سنة اربع وتسعين لما قفل بالغنائم العظيمة منها ومن بعض غنائمها مائدة سليمان عليه السلام . قال العيني في عقد الجمان ان الوليد لما حملت اليه المائدة من طليطلة صنع منها ميزاب الكعبة وسقفها وضرب لها منها حلية . قال الكاتب ابو اسحاق ذكر لموسى ابن نصير شيخ كبير قرطاجني فدعا به فاذا هو شيخ قد وقعت حاجباه على عينيه فقال له اخبرني كم اتى عليك من السنين قال خمسمائة سنة قال له موسى ما هذه المائدة وكانت من ذهب وفضة خليطين وهي تتلون صفرة وبياضا مطوقة بثلثة اطواق طوق لؤلؤ وطوق ياقوت وطوق زمرذ فاجابه القرطاجني انها مائدة سليمان بن داود عليه السلام فقال له موسى وكيف وقعت بالاندلس قال لما ادعت

النصارى على اليهود قتل عيسى ابن مريم عليهما السلام زحف ملوكها الى
بيت المقدس وحاف بطرس الملك الذي كان بالاندلس ليردمن البيت
بالمزبلة فحمل عـدو الله الزبل في المراكب حتى رماه ببيت المقدس
وتحزبت النصرانية من كل مكان وقسموا ما في بيب المقدس فصار لاهل
الاندلس الدراري والمائدة وصار لاهل رومية تابوت داود عليه السلام وهو
تابوت السكينة وعصا موسى عليه السلام والتوراة وحلة ءادم عليه السلام
وصار لاهل القسطنطينية الياقوتة قال له موسى بن نصير وما الياقوتة قال
ياقوتة ذي القرنين التي يهتدي بها في الظلمات . وكان موسى بن نصير قد
اجاز ما كان عنده من الاموال والذهب والفضة والجوهر والياقوت والزمرذ
والذخائر النفيسة الى طنجة في المراكب ثم حملها على مائة عجلة واربع
عشرة عجلة تتداول عليها الازواج في كل مرحلة . ثم قال موسى بن نصير
للقرطاجني كم اقمت بقرطاجنة قـال عمرت بها ثلثمائة سنة وبالاندلس
مائتي سنة فقال له موسى بن نصير وكيف كان خبر قرطاجنة ومن
بناها . قـال القرطاجني بناها بقية من قوم عاد الذين هلك قومهم بالريح
فعمروها ما شاء الله تعالى ثم بقيت بعدهم خرابا الف سنة حتى اتى النمروذ
ابن لاوذ بن نمروذ الجبار فبناها على البناء الاول ثم احتاج الى الماء العذب
فبعث الى ابيه وكان ابوه بالشام والعراق وعمه على السند والهند فارسل
اليه ابوه المهندسين وهندسوا له الماء حتى اوصلوه الى المدينة . قـال
له موسى بن نصير فكم كان عمره قال سبعمائة سنة واتموا له جري الماء
في اربعين سنة وكانوا لما حفروا اساسه وجدوا فيه حجرا مكتوبا عليه بالخط
الاول . علامة خراب هذه المدينة اذا ظهر فيها الملح . فبينما نحن ذات يوم في
غدير بدار الصناعة من قرطاجنة وهي التي ترسي فيها المراكب اذ الملح على
الحجر منعقد فرحلت الى هنا ومن كان على مثل رايي في ذلك . وقال ابن
الشباط يقال انها بنيت زمن داود عليه السلام وان بين بنائها وبناء مدينة
رومية اثنتين وسبعين سنة وهي بالشاطيء تلاطمها الامواج وتكسيرها اربعة

عشر الف

عشر الف ذراع والله اعلم . ونقلت من البشائر ما كان اخبره به بعض قسيسي الافرنج ان وضع اساس قرطاجنة كان لمضي ثلاثة ءالاف سنة ومائة وستين سنة من هبوط ءادم عليه السلام ولما وقعت العداوة والحروب بين صاحب قرطاجنة وصاحب رومية الكبرى وكانت ثلاث وقائع الاولى مبتداها من سنة اربعين وستمائة وثلاثة ءالاف سنة من تاريخ العالم دامت بينهم ثلاثين سنة والحروب سجال ووقع بينهم صلح وهدنة الى سنة ست وثمانين وستمائة وثلاثة ءالاف سنة وهي المشهورة عندهم بواقعة الرمان وكانت الدائرة فيها على صاحب رومية وانهزم فيها اربع مرار . وكان صاحب قرطاجنة يسمى انيبال فجهز عمارته البحرية وقطع بها الى الافرنج وخرب بلادهم وقتل وسبى واحرق واثخن فيهم ومزقهم كل ممزق وقتل من عسكرهم ما لا يحصى عددا . وكان من شعائر اولائك الاقوام ان اصحاب الوظائف منهم والروساء الذين من شانهم التصرف يمتازون عمن دونهم بخواتيم يضعونها في اصابعهم ويمتاز بعضهم عن بعض على حسب مراتبهم بعدد الخواتيم فمن لابس خاتما واحدا ومن لابس خاتمين فاكثر على حسب ما هو ديدنهم فبلغ امر القتل بهم حتى انهم وسقوا ثلاثة صنادل بالخواتيم التي اخرجت من اصابع قتلى الروساء وعاد غانما الى بلاده . ثم ان صاحب رومية اخذته الحمية الجاهلية وجهز عمارة البحر واستنجد ملوكا من الناحية الغربية وقصد قرطاجنة وانزل عساكره البر وكان اول بلد ظفر بها تسمى ءاسبيس وبلد قليبة ولعلها المعروفة عندنا بقليبية وتونس وهذا دليل على ان مدينة تونس قديمة الايجاد وكانت هذه الواقعة سنة خمس وخمسين وثلاثمائة وثلاثة ألاف سنة من تاريخ العالم . ومن جملة من كان في نجدة صاحب قرطاجنة ملك من ملوك الروم اسمه ..... اخذ في هذه الواقعة اسيرا وحمل الى رومية الكبرى وانخذل فيها انيبال صاحب قرطاجنة وعاقبة امره تناول سما ومات . ثم انفصل الامر بينهما على مال يودونه لصاحب رومية في كل سنة ثم تجددت بينهم حرب اخرى ودامت ثلاث سنين وهي

الواقعة الثالثة وكان وزير صاحب رومية اسمه شيبيون امليانس وجهز
له سلطانه عمارة بحرية وارسله الى قرطاجنة فاستولى عليها وخربها بعد ما
قتل واسر وسبي وتمم خرابها وعاد الى سلطانه صاحب رومية فسماه شيبيون
الافريقي لاستيلائه على افريقية . ثم بعد ذلك ارسل صاحب رومية ثلاثة
الاف عائلة ليعمروا مدينة قرطاجنة فعمروها وكانت تحت طاعة صاحب
رومية الى ان فتحها الاسلام دام عزه . وكانت قبل الفتح تحت حكم صاحب
القسطنطينية والنصراني المتولي عليها اذ ذاك اسمه جستنيانس والله اعلم *
ومن تاريخ الافرنج اول من وضع مدينة قرطاجنة امراة تسمى اليسة ديدو
من بنات بعض الملوك وكانت زوجة ملك من كبار ملوك الروم الصابية ومات
زوجها ولم يكن له ولد وكان لها اخ يسمى بغماليو وكان ملكا ايضا فاراد
الاستيلاء على مملكة زوج اخته وما خلفه من الخزائن والاموال فماطلته حتى
جمعت مهماتها من عظيم الذخائر وركبت البحر وكان معها غلمان كثيرون
فطرقت جزيرة قبرص واخذت منها ثمانين بنتا وزوجت الغلمان بهن
ووردت مدينة قرطاجنة فاشترت ارضها وعمرتها وبذلت لاهلها الاموال واعانتهم
احسن اعانة وانشات الدور والجنات والقصور ولله عاقبة الامور فكانت هي
زينة الموسسة لها . والله يرث الارض ومن عليها وهو خير الوارثين *

فائدة

قرطاجنة بفتح القاف وسكون الراء وبعدها طاء مهملة والف وجيم
مفتوحة ونون مشددة بعدها هاء تانيث كذا وقع بفتح الجيم في النسخة التي
عليها خط الفقيه الحافظ ابي محمد عبد الحق من اختصار اقتباس الانوار
والجاري على الالسنة كسر الجيم . قال ابن الشباط وسمعت من يقول
ان اصله قرطاجنة بضم القاف وفتح الجيم وكانه يشير بذلك الى انها مشبهة
بقرطي جنة من القرط الذي يعلق في الاذن وهو ما علق من اسفل الاذن
والشنف ما علق من اعلاه وهذا يسوغ وقوعه لو كانت الكلمة في العربية
واما في لغة العجم فيبعد ذلك والله اعلم . وقال ابن بطوطة في رحلته

قرطاجنة

قرطاجنة في ثلاثة مواضع احداها بالاندلس عند جبل طارق الثانية
قرطاجنة الخلفاء بالاندلس ايضا من كرة تدمير الثالثة قرطاجنة افريقية
وهي اعظمها واجلها واشهرها . قال المسعودي لما ذكر البيوت المعظمة
عند اوائل الروم قال كان بيت معظم قبل ظهور دين النصرانية ببلاد
المغرب وهو بقرطاجنة * وبين قرطاجنة وتونس عشرة اميال او نحوها
ومرساهما واحد . وقرطاجنة من المدن المشهورة وفيها من الاثار وعجائب
البنيان ما ليس ببلد شرقا ولا غربا ولو دخلها انسان وهو يمشي فيها عمره
ويتامل آثارها لراى كل يوم اعجوبة لم يرها قبل ذلك وهي الان خراب
وكانت في وقت غزاها المسلمون من غرائب البلاد وفيها من عجائب البناء
وظهور القدرة في ذلك ما لم يبلغه احد * ويقال ان ملكها كان جبارا عظيم
الشان وكان ملك اكثر الارض فدخل بلاد الروم وقتل ملوكها واخذ بلادهم
وبعث الى قرطاجنة من خواتيم الملوك الذين قتلهم ثلاثة امداد وقد سبق
مكان الثلاثة امداد خواتيم ثلاثة صنادل والله اعلم . ويقال انه نازل مدينة
رومية فلما حصرها وضيق على ملكها وافسد اقطارها ارسل ملك رومية قائدا
من قواده فحشد من كان ببلاده من الروم والجيوش وامره بالوصول الى بلاد
افريقية والنزول على قرطاجنة فلم يكن فيها من يقاومهم فارسلوا الى ملكهم
يعلمونه بما حل ببلادهم من اهل رومية ويسالونه الاسراع لاغاثتهم فعجب
من ذلك ملك قرطاجنة وقال اردت قطع تلك الدواميس من الدنيا
واظن اله السماء اراد غير ذلك ثم رجع الى بلده فزعا فزحف اليه قائد
صاحب رومية فهزمه مرارا حتى قتله واستاصل عسكره ودخل قرطاجنة
فهدمها وخربها . وخرب المسلمون عند فتح افريقية بقيتها . وكان بها قصر
من اغرب ما يكون من البناء مفرط العظم والعلو اقباؤه معقودة بعضها فوق
بعض طبقات كثيرة وهو مطل على البحر حصن عظيم يسميه الناس الطياطر
شكل مهول في الاستدارة نحو من خمسين قوسا قائما في الهوى سعة كل قوس
منها ازيد من ثلاثين شبرا وبين كل قوس وآخر سارية سعتها اربعة اشبار

ونصف ويقوم على كل قوس من هذه الاقواس خمسة اقواس قوس في حلق
قوس صنعة واحدة وبناوها من الحجر الكدان وقد صور في الدائرة على
الاقواس انواع من الصور وضروب من التماثيل العجيبة الثابتة في الصخر
من صفات الناس والسباع والحيوانات والمراكب قد اتقن من ذلك بابدع
صنعة وسائر البناء الاعلى املس لا شيء عليه يقال ان هذا البناء كان ملعبا
ومجتمعا في فصل من السنة ٠ ومن غريب مباني قرطاجنة الدواميس التي
عددها اربعة وعشرون داموسا في سطر واحد طول كل داموس منها مائة
وثمانون خطوة في عرض ستة وعشرين في اعلاها اقباء وبين كل داموسين
منها خوخات يصل منها الماء الى جميعها بهندسة وحكمة وكان الماء الواصل
من عين جقار التي بناحية القيروان الى قرطاجنة يفرغ في هذه الدواميس
على عدة قناطير لا تحصى على وزن معتدل وكل القسي منها مبنية بالصخر
فما كان منها في نشز من الارض كان قصيرا وما كان في بطون الارض واحاديرها
كان طويلا في نهاية العلو ٠ وهذه القناة المذكورة من اغرب مباني الارض وانقطع
الماء عن هذه الدواميس لكسر القناة وخراب قرطاجنة ومن حينئذ لم يزل
الهدم فيها واستخراج الرخام الكثير منها الى الان ٠ قال واخبرني من راى
الواح رخام استخرجت منها ان طول الواحد اربعون شبرا في عرض سبعة
اشبار والحفر دائما في خزائنها لا ينقطع واخراج الرخام كذلك ٠ قالوا ويوجد
بها من اعمدة الرخام ما يكون دوره اربعين شبرا ٠ وفي قرطاجنة اقباء
معقودة على سواري رخام وعليها مثلها نحو اربع مرات قد احاطت بالدار
والدار دائرة من اغرب ما يكون من البناء ولها ابواب كثيرة قد صور على كل
باب منها صورة نوع من الحيوان وقد صوروا في الحيطان صور جميع ارباب
الصنائع بايديهم ءالاتهم وفي هذه الدور من الرخام ما لو اجتمع اهل افريقية
على نقله ما قدروا عليه لكثرته ٠ وكان فيها قصران يعرفان بالاختين ليس
فيهما حجر سوى الرخام ورخام الواحد لا يشبه رخام الثاني ٠ ويوجد فيهما
لوح رخام طوله ثلاثون شبرا وعرضه خمسة عشر شبرا ويقال انه وجد فيه

غارب

ضارب ببيت من لوح واحد والناس ينقلون من رخام هذين القصرين لحسنه على قدم الزمان وما فرغ الى لان . وبهذين القصرين ماء مجلوب ياتي من ناحية الجوف لا يعلم من اين منبعه وكانت عليه دواليب واجنة كثيرة وهي المعروفة اليوم عند اهل تونس بسكرة . وكان بها قصر عظيم يعرف بتدمش مطل على البحر وهو من اعجب ما فيها وهو مبني على سواري رخام مفرطة الكبر والعظم يجلس على راس السارية منها اثنا عشر رجلا بينهم سفرة طعام وهي مشطبة كالملح بياضا ولها ضياء ويكون دور السارية منها نحو الثلاثين شبرا في علو مفرط وعليها سواري اخر معترضة وقد بني القصر عليها وهي اقباء معقودة بعضها فوق بعض باغرب صناعة واغرب بناء . فكان هذا القصر حصنا عظيما وانما هدم على عهد قريب لانه تحصن فيه قوم من القطاع فكانوا يقطعون بتلك الجهات ويلجاون اليه فخرج اليهم اهل تونس فقتلوهم وهدموا القصر . وبقربه موضع فيه اقباء ودهاليز تحت الارض يهاب الدخول اليها وجثث الموتى فيها على حالها فاذا مست تلاشت لقدمها .
وداخل مدينة قرطاجنة مبني تدخله المراكب بشراعها وفيها مواجل كثيرة بعضها يسمى مواجل الحديد واخرى مواجل الشياطين بسبب ان من يقرب منها يسمع فيها دويا والناس يتنافسون في الدخول فيها فمن جسر على دخولها ليلا علم انه جريء القلب ثابت الجنان وهي منظر عظيم هائل من تكلم فيها بكلمة سمع لها دويا عظيما يحكي تلك الكلمة وذلك لاحكام بنيانها وهي ثمانية عشر صهريجا مقترن بعضها ببعض في ارتفاع نحو المائتي ذراع في عرض كثير والاظهر انها كانت مخازن للماء الجاري من العين التي من نواحي زغوان المجلوب اليها على راس الحنايا العادية التي لا نظير لها وهي من عجائب الدنيا *

الفصل الثاني
في ذكر القناة التي بقرطاجنة

قال ابو عبد الله محمد بن محمد بن علي بن احمد بن مسعود العبدري في

رحلته من المغرب حاجا ومبداها من بلده حاحة وكان ابتداء سفره في الخامس والعشرين من ذي القعدة عام ثمانية وثمانين وستمائة الى ان قال ما نصه : واما الساقية المجلوبة على زغوان فقد استاثر بها قصر السلطان وجنانه إلّا رشحا يسيرا ثم سير به الى ساقية جامع الزيتونة يرتشف منها في انابيب من رصاص ويستقي منها الغرباء ومن ليس له في داره ماء ويكثر عليها الازدحام . والساقية المذكورة هي من جملة غرائب الدنيا وهي قديمة من عمل الروم مجلوبة من جبال بجنوبي تونس على مسيرة يومين او نحوهما في اوعار واودية منقطعة وجبال وءاكام فاذا انتهوا بها الى جبل او تل خرقوه وسربوا الماء فيه واذا انتهوا الى واد او وهاد بنوه قناطير بعضها فوق بعض حتى يستوي مع مجرى الساقية بصخر منحوت اتقن ما يكون من البناء واغرب به واوثقه حتى ينسرب الماء منها في مستو معتدل . واتصلت هذه الساقية بهذا الاسلوب حتى دارت من وراء تونس الى الغرب وانتهت الى مدينة قرطاجنة وبينها وبين تونس نحو اثني عشر ميلا كما تقدم . ويذكر ان الروم اقاموا في تدبيرها والنظر في وضعها اربعمائة سنة وهذا بعيد وخصوصا مع توفر سعتهم مالا ورجالا . واما ابو عبيد البكري فحكى ان عملها الى ان استوى فيها جري الماء في اربعين سنة وهذا يسير مع الاعتناء التام والادوات الكاملة والقوة الوافرة . والماء الجاري داخل الحنايا يقوم بخمسة ارحاء او اكثر وعرض القناة مجرى مائها نحو ثمانية اشبار وارتفاعها نحو القامة ونصف هذا كله مقدار مجرى الماء فقط * وفي وسط المدينة صهريج عظيم حوله نحو الف وسبعمائة بالموحدة حنية سوى ما تهدم منها كان يقدم فيها الماء المجلوب المذكور ويخرج من الصهريج المذكور الى القصر . وفي بعض ارجل تلك القناطير كتابة في حجر قيل ان ترجمتها هذا من عمل اهل سمرقند . وقد كان بعض الامراء وهو المستنصر بالله احتاج الى اصلاح بعض هذه الحنايا مما يلي تونس ليوصل الماء اليها اذ كانت معطلة قبله فاقام في عملها مجتهدا باقصى ما يمكنه اعواما عديدة وما امكنه استيفاء اصلاحها على ما كانت عليه

بل اقتنع

بل اقتنع بتسديده كيف ما امكن . ولله در خاتمة الحكماء وبليغ العلماء واديب الروساء ورئس الادباء وتاج البلغاء وامام الفصحاء ابو الحسن حازم الانصاري الاندلسي في مقصورته التي مدح بها ابا عبد الله المستنصر امير تونس ويصف جري الماء الذي اتى به الى ان قال —

مكان به قد ساح وسط تونس وصاح بالناس ردوا ماء الندا
وزار ارضا طالما زرت على لباتها اطواقه فيما خلا
وروض الارض التي روضها وجاد بالسقيا عليها وجدا
وخر فيها ساجدا مسبحا لله فوق سبح من الحصى

وخراب قرى قرطاجنة اليوم قرى رفيعة مفيدة عامرة واصناف ثمارها متناهية في الطيب لا يكاد يرى ما يفضلها وما احقها بقول ابن عفيف —

حارت عقول الناس في ابداعها السكرها او شكرها تتاود
فيقول ارباب البطالة تنثني ويقول ارباب الحقيقة تسجد

ويظهر من سياق الشريف الغرناطي ان هذه الحنايا المذكورة ابتكرها المستنصر ولكن الناظم رحمه الله بين ذلك بقوله —

وكفرت طاعته لمومن طاعته لكافر فيما مضى

وبقرطاجنة ملاحة عليها قصر ورباط يعرف ببرج ابي سليمان * قال جامعه عفا الله عنه وهي اليوم بلدة عظيمة وتعرف بسليمان اسماها الاندلس في نزولهم افريقية وتجد بها — حبا وعنبا وقضبا وزيتونا ونخلا وحدائق غلبا وفاكهة وابا — بها جامع معتبر في مرتبة جوامع المدن ولو اقتصرت تونس على ثمار بلد سليمان لكفتها كثرة وطيبا . واهلها يكرمون النزيل . وقد اجتمعت مع ضابط احكامها الشرعية وهو تاجها وقاضيها . والدرة التي وقع بعد الاختبار اختيارها وتراضيها . المنتخب من سلالة بني هاشم . والمرجو في الاحكام القاضوية لتنوير ظلمة المظالم . المخفض جنابا . والمرتفع انتسابا . ابي الحسن علي طالما ثبت له في ميدان الاحكام حوزة السبق باطلاعه . وتحركت دواعي الشوق الى لطيف مسامرته واجتماعه * وبجو في قرطاجنة

جانب من قرى قرطاجنة هو اليوم المانوس المعبر عنه بالمرسى والمشهور في بديع النزاهة وبها البساتين المعروفة بالعبدلية ذات غياض ورياض طبقت الخافقين بضوع ضياعها . وفاخرت متنزهات البقاع بزاهر بقاعها . ولعت بها امراء تونس ولوعا بغير قصور . وشيدوا على رؤوس بساتينها اكاليل القصور وبها الماء العذب اللذيذ يوتى به على الراويات لدور الاكابر تمتعا * قال ابن الشباط وروي عن الثقة عبد الرحمن بن زياد بن انعم قال كنت وانا غلام مع عمي نمشي بآثار قرطاجنة ونعتبر بعجائبها فاذا بقبر مكتوب عليه بالحميرية - انا عبد الله بن الاوسي رسول رسول الله صالح . وفي رواية بعضهم شعيب بعثني الى اهل القرية ادعوهم الى الله اتيتهم ضحى فقتلوني ظلما حسيبهم الله - . وقال اسحاق بن ابي عبد الملك الملشوني لم يثبت عندي دخول نبي لافريقية وقد دخلها حواري عيسى عليه السلام . وبلد سليمان المذكورة هي في شرف من جزيرة شريك تنسب الى شريك العبسي احد عمالها في قديم الزمان وهو والد قرة بن شريك والي مصر من قبل الوليد بن عبد الملك الذي يقول فيه الشاعر —

عجبا ما عجبت ممن اتانا حين امرت قرة ابن شريك

وهذه الجزيرة لم تزل معروفة بالخصب والبركة وهي كما قال الشريف حيث وصفها في كتابه طيبة مباركة ذات دارات متصلات و بركات وخيرات ومياه وغلات وبالجملة ففيها خصب زائد على غيرها من الارضين . قال ابو اسحاق ابراهيم بن القاسم الرقيق في كتابه ولم تخل هذه الجزيرة من عابد وصالح وذكر ان عبد الله بن ابراهيم بن الاغلب اراد ان يحدث على الناس مظالم من جملتها ان يرفع عنهم طلب العشر و يضع على كل زوج ثمانية دنانير اصابوا او لم يصيبوا فاشتد ذلك على الناس وقدم حفص بن حميرا ومعه قوم صالحون من اهل الجزيرة وغيرها فاستاذنوا عليه وكان ابن الاغلب المذكور من اجمل الناس فكلمه حفص بن حمير وقال له - اتق الله ايها الامير وارحم جمالك وشبابك فان النار امامك - فلم يجبه الى شيء

مما اراد واظهر الاستخفاف به وبمن معه فخرج حفص ابن حمير واصحابه فلما صاروا ببعض الطريق قال لهم حفص انا قد ايسنا من المخلوق ولم نياس من الخالق فلم يفتح باب الدعاء حتى فتح باب الاجابة فنزلوا واسبغوا الوضوء وصلى بهم حفص ركعتين ودعوا على ابن الاغلب ان يمنعه الله مما اراد من اذاية المسلمين ويكف عنهم جوره قال وبعد خمسة ايام خرجت له قردة تحت اذنه فقتلته في اليوم السابع بدعائهم . قال وحكى المتولي غسله قال كشفت عنه الثوب فوجدته قد عاد اسود كانه زنجي بعد ذلك الجمال العظيم . وذكر ايضا عن فضل ابن ابي العنبر وكان واليا على الجزيرة قال تقدم غلماني مرة فنزلوا ببعض قصور الجزيرة التي على ساحل البحر فادخلوا الى مسجد من مساجد القصر السبالي وادخلوا طيورا كانت معهم وكلابا فوصل الى اسماعيل بن رباح من اهل الجزيرة وقال الا ترى ما فعل غلمانك في بيت من بيوت الله تعالى قال فزجرتهم واخرجتهم وامرت بادبهم فنظر الي اسماعيل وقال حقن الله دمك قال فشهد فضل بعد ذلك حروبا كثيرة وكان يقول والله لو سعيت على الاسنة ما خرجت مني محجمة دم لان دعوة الرجل الصالح قد سبقت الي ومات فضل بعد ذلك على فراشه . وبجزيرة شريك هذه اجتمع الروم عند دخول عبد الله بن سعد ابن ابي سرح المغرب وتبادروا منها الى مدينة اقليبية وما حولها ثم ركبوا منها الى جزيرة قوصرة وهي بين صقلية وافريقية وكانت اذ ذاك عامرة فاقاموا بها على ما يقال الى خلافة عبد الملك بن مروان فاغزى عبد الملك ابن مروان عبد الملك بن قطن في البحر فافتتح ما كان هنالك من القصور وقفل ظافرا * قال التيجاني وكانت جزيرة شريك هذه محتوية على بلاد كثيرة اعظمها المنزل الكبير المعروف بمنزل باشق بالباء المفردة والشين المعجمة المشددة وكان بلدا كبيرا آهلا به جامع وحمامات واسواق عامرة وبه كان قصر احمد بن عيسى القائم على بني الاغلب . وهذا المنزل الان خراب لم يبق منه الا مكانه . ويقال ان عمد الجامع الذي كان به وهي

من الرخام المنحوت المحكم الصنعة نقلت في هذا الزمان القريب الى
تونس فاقيم عليها جامع قصبتها • وينسبون الى مدينة باشق هذه صلحاء
وفضلاء منهم ابو عبد السلام مفرج بن بياصه * وفي تاريخ ابن شداد ذكر
شدة ما انتهى اليه حال افريقية ايام استيلاء علي بن اسحاق الميورقي عليها
فقال اخبرني ابو عبد الله بن عبد البر المهدوي وقد وصل الى دمشق في
سنة اثنتين وخمسمائة قال فسالته عن احوال افريقية فقال هلك العباد
وخربت البلاد ثم قال وساخبرك ببعض ما تستدل به على الحال - لما نزل علي
ابن اسحاق على منزل باشق من الجزيرة وهو على بعض يوم من تونس ساله
اهله الامان فامنهم ودخل عسكره الى المنزل المذكور فانتهبوا جميع ما فيه
وسلبوا اهله حتى ثيابهم التي تواريهم وامتدت ايدي العبيد وجفات الاعراب
الى البناء فاضطر اهله الى الفرار ففروا باجمعهم الى تونس ونزلوا بين
سوريها فدخل عليهم فصل الشتاء هنالك فاهلكهم البرد والماء وحصر من مات
منهم بتونس فكانوا اثنى عشر الفا • انتهى كلام ابن شداد على ما نقله التيجاني •
قال وفي مياومة الفاضل البيساني ان الخبر وصلهم في جمادى الاخرى
من سنة خمس وثمانين ان يحيى بن اسحاق الميورقي وابا زيد القري
دخلا الى جزيرة باشق بقرب من تونس واستاصلا اهلها فانتقلوا الى تونس
ودخلوا حفاة عراة فمات منهم بالجوع والبرد والانقطاع نحو اثني عشر الفا •
قال التيجاني هكذا ذكر الفاضل ان ذلك من فعل يحيى بن اسحاق
وتقدم انه من فعل علي اخيه فيمكن ان تكون قضية واحدة وقع الغلط في
نسبتها ويمكن ان تكون قضيتين وهذا هو الظاهر فان سنة اثنتين وثمانين
على ما ذكر ابن شداد انما كان الامر فيها لعلي ابن اسحاق وولي اخوه يحيى
والله اعلم • ومن تاريخ الفاضل المذكور ان الاجناد وصلت من الاسكندرية
في سنة ثمان وثمانين وان قاراقوش الارمني عاث في جزيرة باشق وافسد
نصرها ونصر صفاقس والمهدية • انتهى من التيجاني • وهذه الارض من منازل
الرياحيين بني دلاج وهم فرقة من بني عوف بن سليم ولم تزل وفود الاعراب

عند وصولها من المشرق تنزع من بين يديها من العربان الذين كانوا وصلوا قبلهم الى ان حصلت لهم هذه الارض وجور هذه الطائفة المعروفة بدلاج في فعلها وعيثها في البلاد واهلها اشهر من ان نشير اليهم او ندل بعبارة مختصرة او طائلة عليهم . وانصف الله من الجرجاني لاقطع فهو الذي مكن العرب من الدخول الى هذه البلاد وعن مكره السيء نشا بافريقية ما نشا من الفساد فانهم كانوا قبل ذلك نازلين بصعيد مصر لا يحدثون انفسهم بالجواز الى هذه الارض الى ان ندبهم الجرجاني الى ذلك وافرج لهم عن طريقهم فاض منهم اهل هذه البلاد بريقهم لحاجة كانت في نفسه من افساد هذه البلاد ـ تعجل قصاءها ووجد الله تعالى بما فعله جزاءها . ويأتي تفصيل ذلك وسببه عند ذكر المعز بن باديس . وبحذاء جزيرة شريك في البر نحو الجنوب جبل زغوان وهو جبل منيف مشرف ويذكر انه يرى على مسيرة الايام الكثيرة والذي يعلوه يرى السحاب دونه وكثيرا ما يمطر صفحه ولا يمطر اعلاه . وبزغوان قرى عديدة ءاهلة كثيرة المياه والثمار والبساتين . قال ابن الشباط ذكر بعض المورخين انه كان بزغوان قوم من البربر عليهم عظيم من عظمائهم فكانوا يغيرون على سرح المسلمين ويرصدون غرتهم ـ وبين زغوان وبين القيروان يوم الى الليل ـ فوجه اليهم موسى خمسمائة فارس عليهم رجل اسمه عبد الملك فقاتلهم فهزمهم الله وقتل اصحابهم وفتحها الله عز وجل على موسى فبلغ سبيهم عشرة ءالاف راس وكان ذلك اول سبي دخل القيروان في ولاية موسى . ثم وجه ابنه عبد الله الى بعض نواحيها فاتاه بمائة الف راس ثم وجه ابنا له يقال له مروان فاتاه بمثلها ثم توجه بنفسه فاتى بمثلها فكان الخمس يومئذ ستين الفا . وكتب موسى الى عبد الملك بن مروان يخبره بذلك ويعلمه بان الخمس بلغ ثلاثين الفا وهما من الكاتب فاستكثر ذلك عبد الملك وظنه وهما من الكاتب فراجع موسى بانه ظن الوهم من الكاتب وامره ان يكتب له بصحة الخمس دون وهم فكتب اليه موسى ـ بلغني كتاب الامير ابقاه الله يعلمني فيه انه استكثر

ما جاء من العدد الذي افاءه الله تعالى وانه ظن ان ذلك وهم من الكاتب فقد كان ذلك وهما كما ظن الامير والخمس ايها الامير ستون الفا بغير وهم - فامتلا عبد الملك سرورا *

الفصـــل الثالث من الباب الرابع
في فتح قرطاجنة

ولـــــا غزا حسان بن النعمان قرطاجنة وكان بها خلق كثير وكانت دار الملك بافريقية بعث الخيل اليها وكان البحر لم يخرق الى تونس وانما خرق بعد ذلك وعملت دار الصناعة فالتقى الفريقان والتحمت الحروب بينهم وضيق عليهم حسان وقاتلهم قتالا شديدا فاجمع رايهم على الهرب وكانت لهم مراكب قد اعدوها للهروب فخرجوا من باب يقال له باب الفتى وارتحلوا باهليهم فمنهم من ذهب الى جزيرة صقلية ومنهم من ذهب الى الاندلس . فلـــا انصرف حسان وعلم اهل بواديها تحصنوا بها فرجع اليهم حسان وحاصرهم حصارا شديدا حتى دخلها بالسيف وقتلهم قتلا ذريعا وارسل الى من حولها فامرهم بهدمها وكسر القناة التي كان ياتيهم الماء عليها . ويقـــال ان حسان لما غزاها في ايام عبد الملك بن مروان وخربها وكسر قناتها انه لما كان تحت الاسلام اذ ذاك بعيدا عنها والحالة ان لموقعها من قلوب النصارى الموقع الاعظم لم يكن بهم غفلة عن احياء مواتها ورجوعهم لمواساتها ومهما راجعوها يضاعفون في تحصينها ويعسر فكها مرة اخرى من ايديهم فعل بها ما فعل قطعا لآمالهم والحالة ان وراءه فتوحات اخر ولا يليق به تشتيت جنوده . وكانت تخلفت منها قلعة تسمى المعلقة سكنها قوم من العرب يعرفون ببني زياد لما طلع عبد المومن بن علي الى تونس قبض على اميرهم محرز بن زياد وضرب عنقه . قـــال جامعه عفا الله عنه ولما وقع الفتح العثماني واخرج الله مدينة تونس من الظلمات الى النور بسيف الاسلام المنصور حسبما ياتي تفصيله ان شاء الله تعالى في الباب السابع مستوفا بحسب الامكان كان من راي اميرها والمتصرف في اوجه

تدبيرها

تدبيرها ان زاد حصنا عظيما بقلاع حلق الوادي فاستعانوا بحجارة الحنايا المذكورة واسسوا به قلعة يستعان بها على الذب عن بلاد الله عز وجل ولم يمكن توصلهم لهدمها إلّا بالالغام لاحكام صنعها . ومما نقلته من خط استاذنا مفتي الانام ابي عبد الله محمد فتاتة رحمه الله تعالى ــ

تمتع من بقايا للحنايا بابدع منظر تصبو اليه
تامل صنع ارسمها البواقي وقد مر الفناء لها يديه
كسطر بعض احرفه وقوف وبعض لاح مضروبا عليه

الباب الخامس
في ذكر الحضرة التونسية وفيه ثلاثة فصول
الفصل الاول في فتحها

قال ابو عبد الله محمد بن علي المعروف بابن الشباط في كتاب صلة السمط وسمة المرط ما نصه : قال البكري رحمه الله دور مدينة تونس اربعة وعشرون الف ذراع واسمها في القديم ترشيش ويقال لبحرها بحر رادس وكذلك تسمى مرساها مرسى رادس . وبشرقي مدينة تونس بحيرة كبيرة دورها اربعة وعشرون ميلا في وسطها جزيرة تسمى شكلة مقدار ميلين تنبت الكلخ وبها ءاثار قصر خرب والمدينة في سفح جبل يعرف بجبل ابي عمر ويدور بالمدينة خندق صغير وكان لها سابقا خمسة ابواب واما في عصرنا هذا ففيها ثمانية ابواب بباب القصبة وهي مقر ملك المدينة في القديم ومجتمع جنده . ونقلت من خط استاذنا ابي عبد الله محمد فتاته مفتي الحضرة التونسية رحمه الله ناقلا عن ابن الشباط بما ملخصه : والقصبة موضع اجتماع الاجناد وغيرهم وما كان ضيقا مستعليا مستطيلا كالصومعة وقصبة القرية وسطها وقصبة السواد مدينتها ولذلك سمي موضع الملك من المدينة قصبة وتجمع على قصاب كرقبة ورقاب . وكان بها قديما خمسة عشر حماما واما الان فما ينيف على الاربعين . وابواب دورها كلها بالرخام العجيب او الكدال وهي

مما بناه بنو امية ، ورايت في البشائر انه تلقى من كبار القسيسين ان في
تاريخ تيتوليفيو احد المورخين الذين ارخوا بعد رفع عيسى عليه السلام ذكر
مدينة تونس كلاها الله وانها كانت موجودة في اوائل الفترة ، وذكر القسيس
ايضا للميلي اسعده الله انه وجد في بعض التواريخ القديمة على زمن نبي
الله سليمان عليه السلام ان مراكب قدمت من بيت المقدس لترشيش
لاستجلاب خراجات هذه البلاد وبها متاجر منها ما جلبوه في ذلك الوقت
اسنان الفيل وطيور الطاووس وان اتيانهم كان اذ ذاك من ترشيش ،
وقد شاع في السماع ان ترشيش من اسماء تونس ، وذكر ايضا ان ترسيس
بسينين مهملتين بينهما ياء مثناة تحتية هو اسم الذي كان اسس تونس وهو
ترسيس ابن خوان ابن يافث ، واستدل ايضا على قدمها بانه لما جهزت
العمارة البحرية من صاحب رومية المدائن لحرب قرطاجنة وكان المقدم
عليها ماركوس اتيليوس راغلوس استولى على مدينة تونس قبل قرطاجنة وكان
ذلك في سنة ست عشرة وثلاثمائة وثلاثة ءالاف من تاريخ العالم ،
وقال الشيخ ابو عبد الله محمد بن القاضي المفتي ابي العباس احمد ابن
الولي الصالح ابي عبد الله محمد المرجاني المنتالي شهير الشماع ما نصه :
تونس مدينة اسلامية احدثت عام ثمانين من الهجرة ، وذكر البكري ان
حسان بن النعمان افتتحها وذكر غيره ان زهير بن قيس هو الذي افتتحها ،
قال ابو الحكم في سياق كلامه عن البلاذري : ولاية عبد الملك ابن مروان
واستعماله اخاه عبد العزيز على مصر وان عبد العزيز ولى افريقية زهير بن
قيس البلوي ففتح تونس ولعل فتحها كان مرتين فحصل الجمع بين الروايتين
ونص البكري في سياقها ان حسان بن النعمان افتتح مدينة تونس وانه
قاتل النصارى بحصنها فسأله الروم ان لا يدخل عليهم وان يضع الخراج
عليهم ويقوموا له بما يحمله واصحابه فاجابهم الى ذلك وكانت لهم سفن
معدة من ناحية الباب الذي يقال له باب النساء فاحتملوا فيها اموالهم
واهليهم ليلا واسلموا المدينة فدخلها حسان فحرق وخرب منها وبنى فيها
مسجدا

مسجدا وابقى بها طائفة من المومنين . واشارت الروم من البحر على من
كان بقي بها من المسلمين ونزلوا من المراكب وقتلوا من فيها وسبوهم ولم يكن
للمسلمين حصن ياجاون اليه وانما كانوا معسكرين فبلغ ذلك حسانا فرحل
الى تونس وارسل اربعين رجلا من اشراف العرب الى عبد الملك بن مروان
وكتب اليه بما نال المسلمين فلما بلغ ذلك عبد الملك بن مروان عظم عليه
وكان معه من التابعين الجم الغفير وصحابيان وهما انس بن مالك وزيد
ابن ثابت رضي الله عنهما فقالا للمسلمين ـ من رابط يوما برادس فله
الجنة ـ وقالا لعبد الملك ـ ادرك هذه البلاد وانصر اهلها ليامنوا من العدو
ويكون لك ثوابها واجرها فانها من البلاد المقدسة المرحوم اهلها وهي حرس
لعموده يريدون القيروان . وذكر ابو اسحاق ابراهيم بن القاسم الرقيق في
تاريخه ان علماء المشرق وفقهاءه كتبوا الى اهل افريقية ـ من رابط عنا
برادس يوما واحدا حججنا عنه حجة ـ كذا ذكره التيجاني في رحلته من تونس
حاجا سنة ست وسبعمائة . وفيها ايضا عند قوله انس بن مالك وزيد بن
ثابت قال هذا مما زاده ابو عبيد ولم يذكره الرقيق قال وهو كلام غير صحيح
فان زيد بن ثابت توفي في ايام مروان بن الحكم وهو الذي صلى عليه لا
خلاف في ذلك بين المورخين على الجملة وان اختلفوا في تعيين السنة ولم
يكن الوليد اذ ذاك خليفة على قول الرقيق ولا عبد الملك على قول ابي عبيد
بل لعل الوليد اذ ذاك لم يكن وليدا فانما تصح الرواية بذلك ان صحت
عن انس فقط فان وفاته تاخرت الى آخر ولاية الوليد . قال التيجاني
وانا اعجب من ابي عبيد على اتساع باعه وقوة حفظه للتاريخ والوفيات
كيف يتعرض لمثل هذا الخبر مع ظهور وهنه ووهيه . وروي ان بحر رادس
خرق به الخضر عليه السلام السفينة وان الملك الذي كان ياخذ كل
سفينة غصبا الجلندى ملك قرطاجنة فخرق الخضر عليه السلام السفينة
برادس وقتل الغلام بطنبذ ويقال انها المحمدية . قال التيجاني في رحلته
كان هذا مخالفا لما ذكر المورخون من ان الانبياء عليهم السلام لم يدخل احد

منهم ارض المغرب ولكن خرج الحافظ ابو محمد بن عدي من حديث ابن
عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم « فلما بلغا مجمع بينهما » قال افريقية .
قال عبد الحق في الاحكام بعد ذكره لهذا الحديث يرويه محمد بن ابان بن
صالح وكان من رووس المرجئة يتكلم فيه من اجل ذلك ومع ذلك فيكتب
حديثه . قال الامام ابو الحسن بن القطان وفي سند هذا الحديث ايضا
ممن لم ينبه عليه عبد الحق يحيى بن عبد الحميد الحماني وهو رواية عن
محمد بن ابان اكثرهم يضعفه وكان احمد بن حنبل يرميه بالكذب ولم يوثقه
إلا ابن معين . قال ابن القطان وخرج عبد الحق هذا الحديث موقوفا على
ابن عباس وهو في كتاب ابي احمد ابن عدي الذي نقله عبد الحق منه
مرفوعا الى النبي صلى الله عليه وسلم . انتهى كلام ابن القطان هكذا ذكره
التيجاني قال ونحن انما وجدنا هذا الحديث فيما وقفنا عليه من نسخ
الاحكام مرفوعا الى النبي صلى الله عليه وسلم لا موقوفا على ابن عباس فنقد
ابن القطان هذا ساقط عنه . قال التيجاني وقول من قال ان السفينة انما
خرقت ببحر رادس وان الجدار اقيم بالمحمدية هو قول يخالفه اكثر
المفسرين فعن بعضهم ان القرية التى استطعم اهلها برقة وعن بعضهم ان
الجزيرة الخضراء بالاندلس وقال بعضهم انطاكية وعن بعضهم الايلة واهل
الايلة معروفون بالبخل ويروى انهم اتوا الى عمر بن الخطاب رضي الله تعالى
عنه فرغبوا اليه ان يثبت لهم في المصحف قوله سبحانه وتعالى « فابوا
ان يضيفوهما » بالتاء المثناة * واسم رادس على قرب منها الوادي المعروف
بوادي مليان وعليه القنطرة الشهيرة ضخامة وارتفاعا والتونسيون يذكرون
انها بنيت من مال رجل من الغرباء كان يتكفف الناس فيتصدقون عليه ولا
يعلمون بحاله وسعة ماله الى ان توفي فوجد له مال ممدود فامر الامير ابو
زكرياء ان يصرف في بنائها . وقبلتها العين السخنة المعروفة في القديم
بالحمة وتعرف اليوم بحمام الانف وماوها مفرط السخانة وهي موصوفة
بابراء ذوي العاهات يطلبون الجلوس على مائها للتداوي . قال البكري
في

في المسالك وهذه الحمة جليلة في النفع تجربة . قال التيجاني وكانت قبل هذا محجورة عن الناس ببناء محدق بها ثم ابيحت بعد للناس والبناء المحدق بها باق الى الان ومحلها منتهى الارض المعروفة بمرناق سميت باسم بعض من ملكها من النصارى بعد افتتاح المسلمين لارض افريقية وكان ملكه لها بخديعة تمت له على حسان بن النعمان رضي الله عنه . وذلك ان مرناق هذا كان صاحب قرطاجنة فلما دخل المسلمون الى ارض افريقية وافتتح حسان رضي الله تعالى عنه مدينة تونس نهض لقتال مرناق فكان يغدو كل يوم اليه ثم يروح الى تونس وكانوا اذا غدوا للقتال قابلتهم الشمس فآذتهم في اعينهم فكتبوا بذلك الى عثمان رضي الله عنه فامرهم بقتالهم بعد الزوال . فضاق الروم بها وكانت لهم سفن بباب النساء فحملوا فيها نساءهم واولادهم ليلا واسلموا المدينة ولم يبق بها الّا الملك المسمى بمرناق واهله وولده . فكتب الى حسان هل لك ان تعاهدني في اهلي وولدي واشترط لنفسي ما شئته من المنازل واسلم لك المدينة . ولا علم للمسلمين بفرار من فر منها . فاجابه حسان الى ذلك فاشترط هذه الارض المسماة به الان وهي اذ ذاك قرى كثيرة ثم فتح المدينة فلم يجدوا فيها غيره فوفى له حسان بعهده واقام مرناق مالكا لهذه الارض * وكان من امر عبد الملك انه عندما سمع الحديث من الصحابيين كتب الى اخيه عبد العزيز بمصر ان يوجه الى معسكر تونس الف قبطي باهلهم وولدهم وان يحملهم من مصر ويحسن عونهم حتى يصلوا الى تونس وكتب الى حسان بن النعمان يامره ان يبني لهم دار الصناعة تكون قوة وعدة للمسلمين الى آخر الدهر وان يصنع بها المراكب ويغور منها على سواحل الروم فيشتغل الروم عن القيروان اعانة للمسلمين وتحصينا لشانهم . فرحل القبط الى حسان وهو مقيم بتونس فاجرى البحر من مرسى رادس الى دار الصناعة وجعل فيها المراكب الكثيرة وامر القبط بعمارتها . وقد تقدم ان عبيد الله بن الحبحاب بنى بها دار الصناعة فلعل من روى ذلك يريد ان عبيد الله

جددها وزادها تحصينا . ويحكى ان عبد الملك مات بدمشق آخر سنة ست وثمانين فتولى بعده ابنه الوليد ابن عبد الملك . ثم ان الروم اغاروا على مرسى رادس وبلغ ذلك من المسلمين كل مبلغ . فكتب حسان الى الوليد يعرفه بذلك وان علماء المشرق كتبوا الى اهل المغرب من رابط عنا يوما برادس حججنا عنه حجة وعظم قدر رادس عند العلماء وازدادت مكانتها عندهم . ولما ورد الخبر على الوليد بعث الى عمه عبد العزيز وهو وال على مصر وافريقية ان يوجه الف قبطي والف قبطية ويحملهم الى بلاد افريقية وامره ان يخرق البحر الى تونس . وقيل ان الذي خرق البحر الى تونس هو موسى بن نصير وانه لما امر بدار الصناعة وخرق البحر لتونس عظم ذلك على الناس وقالوا هذا لا نطيقه فقام اليه رجل من مسلمي البربر ممن حسن اسلامه فقال — ايها الامير قد اتت علي مائة وعشرون سنة وابي حدثني ان صاحب قرطاجنة لما اراد بناء الحنايا اتاه الناس فعظموا عليه ذلك فقال له رجل اذا وضعت يدك فيها بلغت اربك منها فان الملوك باذن الله لا يعجزهم شيء لعزتهم فوضع يده فيها فبناها وليس ما تريد باشد منها فضع يدك ايها الامير فان الله سيعينك على ما نويت — . فسر بذلك موسى ووضع يده فبنى دار الصناعة فصارت ميناء للمراكب اذا هبت الانواء والرياح . ثم امر بصناعة مائة مركب . قال البكري ثم عزل عبد العزيز بن مروان حسان بن النعمان عن افريقية وامره بالقدوم عليه ويقال ان الوليد اراد رده الى عمله فامتنع من ذلك وحلف ان لا يعود . وكتب الوليد الى عمه عبد العزيز يامره ان يوجه الى افريقية موسى بن نصير . وكان ذلك في سنة ثمان وثمانين فوجد اكثر مدائنهم خالية لاختلاف امر البربر عليها فكان ينقل العجم من الاقاصي الى الاداني وخرج غازيا الى جهة طنجة فوجد البربر قد هربوا الى المغرب من العرب فتبعهم وقتلهم قتلا ذريعا وسباهم سبيا كثيرا حتى بلغ السوس الادنى لا يدافعه احد . فلما راى البربر ما نزل بهم منه استامنوا اليه وادوا الطاعة

فقبل

فقبل ذلك منهم وولى عليهم واليا استعمله عليهم ثم استعمل على طنجة وبلادها طارق بن زياد مولاه وتركه بها في سبعة عشر الف فارس من العرب والبربر منهم اثنا عشر الف بربري والباقون عرب وهذه العدة هي التي كان جعلها عليهم حسان بن النعمان وكانوا قد دخلوا في الاسلام . فتركهم موسى بها وانصرف بعسكر خاصة وكان في خلق عظيم وامر اعيان العرب الذين تركهم عند طارق بن زياد ان يعلموا البربر القرءان ويفقهوهم في الدين . ثم رجع الى افريقية فمر بطريقه بقلعة مجانة فتحصن منه صاحبها فراى موسى ابن نصير ان ليس عنده قدر ما يكفيه من الرجال فلما نزل القيروان دعا بشر بن ارطات فعقد له وقدمه على اعنة الخيل وسيره الى صاحب قلعة مجانة والله اعلم . انتهى من ابن الشباط *

الفصل الثاني من الباب الخامس في مسجدها
جامع الزيتونة وبعض ايمته ومدرسيه

جامع الزيتونة مسجد اذا بدا لك تبلج نوره اللامع . ايقنت انه الجامع المفرد والمفرد الجامع . روض العبادة ومعبد الرياضة . بستان علوم زهر دوحاتها الفتح وثمارها الافاضة . بحر بركات شحنت فلكها ببضائع الاسرار . وطور عنايات يقتبس من جانبها نور المدد بالعشي والابكار . ما سرح ناظر المومن في اثنائه . الّا امتلا علما من بادرات ثنائه . يحكي بجماله اجمل عروس . صيغ لها من معادن الطروس قلائد حلق الدروس . تحسب مدرسيها اسود غياض . ودوائر تلامذتهم حياضا في رياض . تجد النفوس فيه لانقياد الطاعة . خير مطواعة . لا عيب فيه غير انه غدا بين اقرانه بمرتبة الصدر . واختص بان يشرح لوارديه الصدر . فما ضاق صدر مهموم ودخله الّا انفرج . وانفتحت له بلطيف عنايته ابواب الفرج . به اماكن اشتهرت برجاء قبول الدعا . فطوبى لمن اخلص ودعا * فمن المتواتر بين الافاضل ان تحت الميزاب اللاصق للصومعة مكان يستجاب فيه الدعاء حدثني

كثير من الفضلاء ان النبي صلى الله عليه وسلم كثيرا ما يرى هنالك فاكرم بها مزية عظم شرفها . وروضة علت بايدي البركات شرفها * ومنها الركن الغربي عند الصف الاول تواتر النقل بين الفضلاء ان السيد الخضر عليه السلام يلازمه ويعرف عند الناس بركن الخضر عليه السلام . وكثيرا ما كنت اتمنى رؤياه لاستمد من عنايته حتى جلست عشية وتلوت لامية الاستاذ شيخنا ابي عبد الله محمد قنانة على عدد ابياتها وهي التي مطلعها —

اليك رسول الله بلغت ءامالي والقيت يا سولي ببابك احمالي

ونستوفي ذكرها ان شاء الله تعالى في ترجمته . فبينما انا جالس اذا برجل متقشف الحال عليه اطمار بيض ولحيته حمراء امتزجت شيبا قصد الركن المذكور ووقف على قدميه حصة طويلة ينظر الي كالمتعرف وانسى الله من قلبي انه الخضر عليه السلام ثم التفت ورجع من حيث اتى فبعد انفصاله انتبهت كمن كان نائما . وبقيت من غفلتي هائما . ولكنني ايقنت ان سوء اعمالي . صيرت افعالي كالافعى لي . واصبحت ثقل احمالي بنار البعد احمى لي . واتباع ما كان اهوى لي حرك اهوالي . واوجب بين الافاضل اهمالي . فليت وابل الدمع كان اهمى لي * ونقل ابن الشباط عن القاضي عياض رحمه الله ما نصه — اضطرب العلماء في الخضر عليه السلام هل هو نبي ام ولي واحتج من قال بنبوءته بكونه اعلم من موسى اذ يبعد ان يكون الولي اعلم من النبي وبقوله تعالى « وما فعلته عن امري » لانه اذا لم يفعله عن امره فهو وحي وهذه هي النبوءة واجيب بانه ليس في الآية تعيين من بلغه ذلك عن الله تعالى فيحتمل ان يكون نبي غيره امره بذلك . قال النووي حكى الماوردي فيه قولا ثالثا انه ملك قال ابو عمرو والقائلون بنبوءته اختلفوا في كونه مرسلا ثم قال فان قلت يضعف القول بنبوءته لحديث لا نبيء بعدي قلت المعنى انه لا نبوءة منشاة بعدي ولا يلزم في عيسى عليه السلام حين ينزل فانه بعده ايضا . قال النووي واما حياته فقال ابن الصلاح جمهور العلماء والصالحين على انه

حي

حي وحكايات اجتماعهم به في مواضع الخير واخذهم عنه وسوالهم اياه
وجوابه لهم لا تحصى كثرة وبعض المحدثين انكر حكاياته . قال الثعلبي
وقيل انه لا يموت إلّا في ءاخر الزمان حين يرفع القرءان . قال الابي
حياته الطويلة جائزة وفيها حكايات لا تحصى كثرة فمنها حديث ام سلمة
من دخوله عليها وقوله صلى الله عليه وسلم لها « ذلك الخضر » . وما ذكر
في الحديث ان زوجتيه احداهما بيضاء والاخرى سوداء وانهما الليل
والنهار قال سمعت ابن عرفة يقول اخبرني من اثق به انه راى من
رءاه قال فقلت لمخبري سل من اخبرك انه رءاه ان يساله هل له زوجة
فقال سالته فذكر لي انه ساله فقال لي زوجتان سوداء وبيضاء ولم
يذكر الليل والنهار . وذكر ابن عرفة ايضا ان الشيخ الفقيه الصالح ابا
الحسن المنتصر رحمه الله ونفع به كان يقول يحضر كل يوم في المقصورة
الشرقية في اول قراءة السبع فاذا كثر الناس قام . وحكى ابن عرفة ايضا
ان رجلا كان يبيع التمر باسفل شرقي الجامع رطلين بدرهم فوقف عليه
انسان فساله كيف تبيع فاخبره فساله ان يزيد نصف رطل فابى فاكثر
مراجعته في ذلك فقال صاحب التمر انصرف او اخبر الناس بانك الخضر
فانصرف وتركه . وكان ابن عرفة يقول يحتمل ان الرجل من اهل الخير
فاخذ يداعبه . وقضية ابن العكة مشهورة بتونس وهي ان صبيا صغيرا
ملتوي الرجلين ظهرهما يلي الارض لعب مع الصبيان بالجامع ثم جلس
يبكي في جهة من الصحن فاتاه رجل فساله ما يبكيك فشكى له بحال
رجليه وان الصبيان استطالوا عليه فقال له ارنيهما فاراه فمسح عليهما
فبري وقام من حينه يلعب . قال ابن عرفة ولما قدم الامير ابو الحسن
ملك المغرب عام ثمانية واربعين - ولم يذكر المائتين كم هي - وملك تونس
وكان ابن عبد السلام وغيره من التونسيين وشيوخ المغرب الذين قدموا معه
يعملون له الميعاد بالقصبة فيجلس كل واحد منهم يوما اتفق ان ذكرت
قصة ابن العكة بمجلسه ذلك فامرني ان ءاتيه بالصبي وخصني بالامر

بذلك لاني كنت اصغر اهل المجلس فخرجت واتيت به من الربض فسالـه فاخبره فاحسن اليه وصرفه . وقـال ابو عبد الله محمد الشظيبي في كتابه مختصر الجمان في اخبار الزمان ما نصه : واما الخضر عليه السلام فكان والده من الملوك واسم الخضر يامن واسم والده هلكان بن بالغ بن عابر . وقال جمهور العلماء اسم والد الخضر عافيا بن سماجير بن اربا بن علقم ابن عيص بن اسحاق وكان عامل ملك على الفرس وام الخضر عليه السلام اسمها ولهة بنت فارس من ملوك فارس وكان مسيرة ما بين الفرس وفارس ستة اشهر فلما سمع بها ملك الفرس خطبها من والدها فاعطاها له . ثم ان الملك شغف ببعض جواريه عنها فادركها ما يدرك الناس من الغيرة فهربت هي وحاضنتها وهي حبلى بالخضر فوضعته بالطريق والقته في مغارة واستودعته الله الذي لا تضيع لديه الودائع وانصرفت وتركت اربعة احجار من الياقوت . فلامتها حاضنتها فقالت والله ما ضاع في كفالة ربي شيء وما انصرفت عنه حتى اخضرت المغارة وما حولها بالخصب . وكان بالقرب من المغارة راع فراى الخضرة فاتى بغنمه اليها فوجد الصبي وشاة ترضعه فحمله واليواقيت وتبناه ورباه فنشا في اسرع وقت فادخل المكتب فلم يسبقه احد في تعلم الخط الحسن . ثم ان اباه اراد ان يكتب صحف ابراهيم عليه السلام فاطلق البحث عن الخطاطين فجاء الخضر عليه السلام في جملتهم ومعه الشيخ الراعي الذي تبناه . ثم ان الملك لم ير في الكتاب احسن منه وجها فقال للشيخ ان هذا الولد لا يشبهك في شيء فاصدقني فيه فليس هو ابنك فقال له ايها الملك ان امنتني صدقتك فامنه فاعلمه القصة وانه وجد عنده اليواقيت فعرف اليواقيت وقال والله انه ولدي وكان الملك قد كبر سنه فاعطى اليواقيت للشيخ الراعي واعطى المملكة لولده الخضر . فلما ملك الله الارض كلها لذي القرنين صار له وزيرا فلما دخلوا ارض الظلمة لطلب عين الحياة التي باكناف الظلمة وجده الخضر فشرب منه فهو حي الى خروج الدجال وهو الرجل الذي يقتلة الدجال ثم يحييه

الله

الله ليفتن به من سبقت له الشقاوة وليس على وجه الارض من ولي الا وله معرفة بالخضر فهو رئيس الاولياء ومقام الانقياء . وقد عزى اهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم عند موته فسمعوا صوته ولم يروا شخصه وذلك لما غسل رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد موته وكفن سمعوا قائلا يقول من زاوية البيت ـ السلام عليكم يا اهل البيت ان في الله خلفا من كل هالك وعوضا من كل تالف وعزاء من كل مصيبة فعليكم بالصبر فاصبروا واحتسبوا ـ ثم دعى لهم وانقطع الصوت فعرف صوت الخضر علي وعمر رضي الله عن جميعهم وكانا قد لقياه وطلبهما دعاء وذكر لهما فيه ثوابا عظيما فسمياه دعاء الخضر وهو لمن قاله دبر كل صلاة مغفرة ورحمة وهو « يا من لا يشغله سمع عن سمع (وفي رواية شان عن شان) ولا تغلطه المسائل ولا يبرمه الحاح الملحين اذقني برد عفوك وحلاوة مغفرتك » ذكره ابن ابي الدنيا في كتاب الهواتف وانه والياس يلتقيان كل عام في الكعبة ويقولان عند افتراقهما ـ بسم الله ما شاء الله لا يصرف السوء الّا الله بسم الله ما شاء الله كل نعمة فمن الله ما شاء الله توكلت على الله حسبنا ونعم الوكيل ـ . واما الياس عليه السلام فهو يونس بن متى وكنيته ذو النون وسبب حياته ان الله تعالى لما كشف العذاب عن قومه متعهم الى حين فهو حي اخبر به رسول الله صلى الله عليه وسلم وانما الخلاف في حياة قومه وهو المشهور . قال انس غزون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى اذا كنا بفج الناقة واذا بصوت يقول ـ اللهم اجعلني من امة محمد صلى الله عليه وسلم المرحومة المغفور لها المتوب عليها المستجاب لها ـ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم انظروا هذا الصوت فدخلت الجبل واذا برجل ابيض الراس واللحية عليه ثياب بيض طويل جدا فلما رءاني قال لي انت صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم قلت نعم قال لي ارجع وقل له اخوك الياس يريد لقاءك فاعلمت النبي صلى الله عليه وسلم وتاخرت فتحدثا طويلا ثم نزل عليهما شيء من السماء شبه الصفرة فدعيت فاكلت معهما فاذا فيها كماة ورمان وترس فلما

اكلت قمت وتنحيت وجاءت سحابة فرفعته وانا انظر وهي تهوي به قبل الشام فسالت النبيء صلى الله عليه وسلم عن ذلك الطعام فقال ياتي به جبريل لالياس عليه السلام كل اربعين يوما فهو ياخذ منه ما شاء ويتناول في كل حول ماء زمزم وقد رايته على زمزم * ومن المتواتر ايضا ان بالركن الذي يقابله من ناحية المشرق كثيرا ما يرى سيدي عبد القادر الجيلي وكثيرا ما تنفرد الافاضل فيه باحياء الليل فيرون من الاسرار ما يبهر العقل . قال جامعه عفا الله عنه ولقد اخبرني الشيخ حمودة العامري نائب الجامع المذكور الان عن اماكن الاجابة بالبيت المبارك جامع الزيتونة فقال ان ابا الفضل القصار رحمه الله تعالى كان اخبره انه راى بخط بعض الفضلاء ان بالجامع المذكور احد عشر موضعا يستجاب عندها الدعاء منها الخلوة التي تحت الميزاب المحاذية للصومعة . ومنها ركن الخضر عليه السلام . ومنها الركن الذي يقابله من جهة الشرق وينسب للاستاذ سيدي عبد القادر الجيلي . ومنها الدعاء بين صافتي المحراب . ومنها الدعاء عند سارية المرمر الحمراء التي تقابل الختمة . ومنها الدعاء بالمحل الذي يروى به البخاري وهو المعروف بباب الشفاء ومنها سارية زرقاء يغلب بياضها على زرقتها من جهة الباب الشرقي وتنسب للاستاذ سيدي محرز وكان شيخنا ابو عبد الله محمد فتاتة اذا دخل المسجد لا يجلس إلّا عندها . ومنها في المسكبة الاولى تحت نخلة النحاس التي في السقف من جهة المنبر . ومنها رخامة عند باب البهور تحت البرطال بها صورة قربة . ومنها محل في المجنبة التي تفتح للغرب محل معلوم لذلك . ومنها خلوة السيد الخضر بالصومعة * وان كان به بالزمن السابق اعيان فضلاء من المدرسين فانه اليوم على اضعاف ما كانت الدروس بنحو ستة او سبعة اضعاف من مدد هذا الامير الاسعد والحاكم الارشد * وعبيد الله ابن الحبحاب هو الذي اسسه وبناه سنة اربع عشرة ومائة . ومما اتفق فيه انه مفرد جامع وتاريخه « جامع » * وقال شيخنا ابو العباس احمد

برناز

برناز في شهبه مـا نصـه : وفي محفوظي ان الشيخ عبد الوهاب الشعراني رحمه الله تعالى قال في بعض كتبه وجامع الزيتونة ببلاد المغرب مما يلحق بالمساجد الثلاثـة * واخبرني بعض اخواني عن سيـدي سعيد الشريف رحمه الله تعالى انه حدثهم ان نوحا عليه السلام لما كان في السفينة على الطوفان وقـفت به يوما وسط البحر فاوحى الله اليه ان تلك بقعة يقال لها جامع الزيتونة فلما دخلها الصحابة وجدوا الرهبان في صومعتها لان صومعة الجامع قديمة كانت للرهبان . ثـم ان حمودة باشا ابن مراد باي زاد في طولها البناء الذي بالحجر الاحرش والاقواس التي فوقه كل ذلك حادث بعد البنـاء الاول . وكان قبلـة الصومعـة محل محصن بالحجارة والشوك فسال الصحابة اولئك الرهبان عن سبب ذلك فقالوا لهم انا كل ليلة نرى نورا من ذلك المحل ساطعا لعنان السماء فوضعنا ذلك صونا له من الكلاب ان يقذروا في ذلك المحل واتـفق ان كان ذلك المحل هـو المحـراب * ومـن غريب ما اتـفق في هذا الجامع انه لم يقع فيه الجمع بين صلاتين ذكر ذلك ابن الشباط في حاشيته على مسلم نـاقلا ذلك عن الابي عند قوله كان يجمع بين الصلاتين ما نصه : الجمع على المشهور من ان الجمع جائز فهل فعله ارجح من تركه وهو قول اللخمي والاكثر ان تركه ارجح وهو ظاهر مـا لابن رشد لانه علل قول مـالك ارجو لمن صلى في بيته لمطر او اذى بطريقه انه في سعة فان فضل الوقت اكد من الجماعة . ومـا نقل عن الاكثر من ان الجمع ارجح هو ما لم يجر العرف بتركه في موضع كما اتفق بالجامع الاعظم بتونس فانه لم يسمع انه جمع به قط . وقيل في علة ذلك انه لابد فيه من الاذان للاعلام بدخول الوقت . ومن كلمة الاذان ـ حي على الصلاة ـ ولا صلاة كان ذلك كذبا . والصواب في التعليل انه لعدم جريان العرف بذلك . وقـــــال الابي وكان الشيوخ يمنعون ان يصلى الفجر على الصحن الاعلى شرقي الجامع الاعظم بتونس الذي توضع به الاموات . ويقال ان المقصورة التي يجلس بها المحتسب انما بنيت ليصلي

فيها الفجر من جاء والامام يصلي . وقال - فان قلت الصحن المذكور اجاز الشيوخ ان يمر به الجنب وان يقف به من ينتظر الصلاة على الجنائز واذا لم يكن له حكم الجامع في ذلك فانه يجوز ان يصلي الفجر به من جاء والامام في الصلاة - قلت لا يلزم لانهم لا يمنعون الفجر به لان له حكم المسجد بل لقربه منه القرب الذي يسمع منه قراءة الامام اذا صلى في الصحن فتناوله النهي لحديث « اصلاتان معا » وقال ابو عبد الله محمد العبدري في رحلته لما وصل به الذكر الى جامع الزيتونة ما نصه : وهذا الجامع من احسن الجوامع واتقنها واكثرها اشراقا ودائر صحنه مسقف ووسطه فضاء قد نصبت فيه اعمدة من خشب على قدر ارتفاع الجدار وشدت اليها حبال متينة في حلق من حديد متينة فيها وفي السقوف شدا محكما فاذا كان يوم الجمعة نشرت عليها شقق الكتان المطبقة الموصولة حتى تظلل جميع الفضاء - ذلك دابهم فيها حتى ينصرم وقت الصيف . اه . وكان دخول العبدري سنة ثمان وثمانين وستمائة . قال جامعه عفا الله عنه واما الان فقد انقطعت تلك الاعمدة والشقق المذكورة . وفي عام ستة عشر وسبعمائة امر السلطان ابو يحيى زكرياء بعمل ابواب من خشب وعوارض منه للبيت فعملت على ما هي اليوم وكان ذلك في شهر رمضان من العام المذكور وكتب تاريخ ذلك على باب البهور . ولقد اذكرني اسم جامع الزيتونة تقييد مناسبة وجدتها بخط شيخنا ابي عبد الله محمد فتاتة في ما هو محلى بالتورية وهو قول الشاعر —

جمعت هوى ظبي وقد كان جامعا لزيتونة من فوق اغصانها استوى
ايا جامع الزيتونة الفاتن الورى تفضل بمعروف على جامع الهوى

وقد اختلف في حكم التحضير الذي يفعله موذنو هذا الجامع الاعظم فقد حكى ابن عرفة عن شيخه ابن عبد السلام قال رايت امام الجامع الاعظم وقد سالته امراة ان يدعو لولدها الاسير وذكرت عظيم مصابه في الاسر واتفق ان سالته والموذنون يحضرون فقال - الذي اصاب الناس في

هذه

هذه البدعة اشد مما اصاب ولدك . وكان ابن عرفة يرى جواز التحضير .
وفي سنة ست عشرة وسبعمائة ولد الاستاذ العلامة ابو عبد الله محمد بن
عرفة احد ايمة الجامع المذكور وصحبته عناية العلم والتوفيق حتى استقل
بمنبر الجامع المذكور . وممن اشتهر بصحبته احمد المريض شارح عقيدة
الضرير ذكره ابن بابا . وكانت ولايته له سنة اثنتين وسبعين وسبعمائة .
ومما انشده الابي رحمه الله تعالى لاستاذه الامام سيدي محمد بن عرفة
نفعنا الله بهما قوله —

اذا لم يكن في مجلس الدرس نكتة وتقرير ايضاح لمشكل صورة
وعزو غريب النقل او فتح مقفل او اشكال ابدته نتيجة فكرة
فدع سعيه وانظر لنفسك واجتهد واياك تركا فهو اقبح خصلة

قال الابي وقلت في جواب ابياته هذه —

يمينا بمن اولاك ارفع رتبة وزان بك الدنيا باكمل زينة
لمجلسك الاعلى كفيل بكلها على حين ما عنها المجالس ولت
فابقاك من رقاك للخلق رحمة وللدين سيفا قاطعا كل فتنة

قال واني لبار في قسمي هذا فلقد كنت اقيد من زوائد القائه وفوائد
ابدائه على الدول الخمس التي تقرا بمجلسه من التفسير والحديث والدول
الثلاث التي في التهذيب نحو الورقتين في كل يوم مما ليس في الكتب قدس
الله تعالى روحه . وشاهد ذلك ما اشتملت عليه تواليفه وناهيك بمختصره في
الفقه الذي ما وضع في الاسلام مثله لضبطه فيه المذهب مع الزيادة المكملة
والتنبيه على المواضع المشكلة وتعريف الحقائق الشرعية . انتهى ما نقله
ابن باديس عن الابي . وذكره ابو حامد بن ظهيرة في معجمه واثنى عليه
جميلا . قال وقرا بالروايات على ابي عبد الله محمد بن محمد بن حسن بن
سلمة وغيره وبرع في الاصول والفروع والعربية والبيان والمعاني والقراءات
والفرائض والحساب وسمع من ابن عبد السلام الهواري الموطا والفقه والاصول
ومن الوادياشي الصحيحين وكان راسا في العبادة والزهد والورع ملازما للشغل

بالعلم رحل اليه الناس وانتفعوا به ولم يكن في المغرب من يجري مجراه في التحقيق ولا من اجتمع له في العلوم ما اجتمع له وكانت الفتيا تاتي اليه من مسافة شهر وله مولفات مفيدة . وحكى البدر الدماميني في حاشيته على المغني قال كنت يوما بمجلس شيخنا ابن عرفة وذلك عند قدومه الى الاسكندرية في شهر رمضان المعظم من سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة وانا اقرا عليه درسا في كتاب الحج من مختصره وكان شخص من الطلبة الموسومين بالتمشدق والاكثار بما لا يجدي حاضرا في المجلس فمر موضع من كلام الشيخ عاد فيه ضميره على المضاف اليه فقال ذلك الشخص ـ كيف اعدتم الضمير على المضاف اليه والنحويون بخلافه . فاجابه الشيخ فورا ـ قال الله تعالى ـ كمثل الحمار يحمل اسفارا . قال البدر وفيه من اللطف ما لا يخفى . والحال ان النحويين يقولون ان وجد ضمير يمكن عوده الى المضاف او المضاف اليه فعوده الى المضاف اولى لانه المحدث عنه ولم يمنع احد منهم عوده الى المضاف اليه . انتهى من ابن باديس . وقال السيوطي رحمه الله تعالى في طبقات النحاة محمد بن محمد بن عرفة الورغمي التونسي المالكي امام علامة ولد بتونس وقرا بالروايات وبرع في الاصول والفروع والعربية والمعاني والبيان والفرائض والحساب وسمع من ابن عبد السلام الهواري الموطا واخذ عنه الفقه والاصول ومن الوادياشي الصحيحين وكان راسا في العبادة والزهد والورع ولم يكن بالمغرب من يجري مجراه بالتحقيق ولا من ادعى ولا من اجتمع له في العلوم ما اجتمع له وكانت الفتيا تاتي اليه مسيرة شهر مات سنة ثلاث وثمانمائة ولم يخلف بعده مثله وولد سنة عشر وسبعمائة . قال ابو العباس احمد برناز واظنه قال فيه ايضا لم ير الراءون مثله ولا راى هو مثل نفسه . قال وسمعت من شيخنا العلامة سيدي احمد بن عبد العظيم الزواوي رحمه الله تعالى انه نقل عنه انه كان يقول ـ مقاعد الطلبة في الدروس يقضي لهم بها عند التشاحح . وكان في زمنه رحمه الله من تلامذته الشيخ الابي قدم التراويح ليلة قبل

العشاء

العشاء ليجتمع به تلك الليلة فلما انفصل عن صلاة التراويح لقيه فقال له الامام من نوبت وكان الابي اماما بجامع الهواء فقال له قدمتها فقال له كنت اظنك اورع من هذا وكنت اظن اني اذا مت اخلف من يوخذ عنه العلم بعدي . ونقل ابن الشباط في حاشيته على مسلم ان الابي قال ومضى عمل الشيوخ بالجامع الاعظم من تونس على قراءة سورة السجدة في صلاة الصبح من يوم الجمعة ولا اكثر من جماعته وذلك لامن التخليط لتقرر العادة بذلك حتى صار ترك قراءتها موجبا للتخليط . قال ويحكى ان الشيخ ابن عبد السلام لا يقرا سورة في الصلاة فيها سجدة من غير العزائم مخافة اذا لم يسجدها على المشهور يقع في مخالفة القول بالسجود فيها قال الشيخ افعله في النجم اي لا اقرا بها لذلك حتى اخبرني من اثق به انه راى والدي في المنام وقال له قل له يقرا بها فصرت بعد ذلك اقرا بها في الصبح . ووجد بخط الامام ابن مرزوق ونحوه في نوازل البرزلي ان الشيخ الولي الصالح الزاهد ابا عبد الله محمد الدوكالي رحمه الله كان بمدينة تونس في حدود السبعين والسبعمائة فكان لا ينتسب للخلق ولا يخالطهم ولا عامتهم ولا خاصتهم ولا يحضر الجماعة ولا الجماعات ولا يصلي مع الناس في الجوامع في جماعة فرموه بالزندقة وشنع عليه الامام الاوحد ابو عبد الله محمد بن عرفة اقبح التشنيع وصار يبحث عن امتناعه من الصلاة مع الناس لماذا فقيل له انه انما امتنع لاخذ الايمة الاجرة على الصلاة فزاد بذلك اغلاظا في القول والتشنيع وتبعه العامة والخاصة في ذلك فرحل الامام ابو عبد الله الدوكالي الى المشرق فارا بنفسه فكتب الامام ابن عرفة كتابا لاهل مصر الى ان قال لهم يخبرهم بشانه ـــ

يا اهل مصر ومن في الحكم شاركهم تنبهوا لقبيح معضل نزلا
لزوم فسقكم او فسق من زعمت اقواله انه بالحق قد عدلا
في تركه الجمع والجمعات خلفكم وشرط ايجاب حكم الكل قد حصلا
ان كان شانكم التقوى فغيركم قد باء بالفسق حتى عنه ما عدلا

وان يكن عكسه فالامر منعكس قولوا بحق فان الحق معتدلا

فاجتمع العلماء والفقهاء من اهل مصر وما والاها وامتحنوا القول غاية الامتحان فاجابوه على ما كتب لهم في شانه —

ما كان من شيم الابرار ان يسموا بالفسق شيخا على الخيرات قد جبلا
لا لا ولكن اذا ما ابصروا خللا كسوه من حسن تاويلاتهم حللا
اليس قد قال في المنهاج صاحبه يسوغ ذاك لمن قد يختشي زللا
كذا الفقيه ابو عمران سوغه لمن تخيل خوفا واختشى خللا
وقال فيه ابو بكر اذا ثبتت مكانة المرء فليترك وما عملا
وقد روينا عن ابن القاسم العُتَقي في ما اختصرنا كلاما اوضح السبلا
ما ان ترد شهادات لتاركها ان كان بالعلم والتقوى قد احتفلا
نعم وقد كان في الاعلين منزلة من جانب الجمع والجمعات واعتزلا
كمالك غير مبد فيه معذرة الى الممات ولم يُلَمْ وَمَا عُذلا
هذا وان الذي ابداه متضح اخذ الايمة اجرا منعه نقلا
وهب بانك راء حله نظرا فما اجتهادك اولى بالصواب ولا

انتهى من شرح ميارة على المرشد . وذكر ابن غازي رحمه الله في سنده بالفية ابن مالك اخبرنا ابو عبد الله الى ان ذكر في سلسلته ابا عبد الله محمد ابن عرفة رحمه الله تعالى فقال إنه لما تولى الخطابة بالجامع المذكور اباه اهل تونس لانه ليس من مدينة تونس الى ان اشترطوا شروطا فقبلها . منها ان لا ياكل التين لعسر الانقاء منه فقال من فضل الله ما اكلته قط ومنها ان لا يمشي في الارض حافيا فقال لا اتركها ولا في المسجد ويقال انه هو الذي ابتكر مداس الحلفة يمشي به في المسجد للخروج الى الصلاة على الجنائز الى اليوم . واول مرة رقي المنبر قال ايها الناس —

يرفع الدهر اناسا بعد ان كانوا سفاله
من له في الغيب شيء لم يمت حتى يناله

توفي رحمه الله تعالى في الرابع والعشرين من جمادى الاخرى سنة

ثلاث

ثلاث وثمانمائة ودفن بجبل الجلاز تحت جبانة الشيخ الصالح ابي الحسن المنتصر . وابو الحسن هذا نقل عنه ابن الشباط في حاشيته ناقلا عن الابي قال ذكر ابن عات في الطرر عن ابن شعبان ان السمكة اذا وقعت في سفينة فهي لمن وقعت عليه وكان ابن عرفة يقول في السمكة الاظهر انها ان كانت بحيث لو لم ياخذها من سقطت اليه لنجت بنفسها لقوة حركتها وقربها من البحر فهو كما قال ابن شعبان وإلّا فهي لرب السفينة الى ان حكي عن طاهر المروزي قال قدمت في قارب من رادس من دفينة كنا بها ومعنا في القارب الشيخ الصالح ابو الحسن المنتصر فوقع في نفسي ان قلت اللهم ان كان هذا الشيخ وليك حقا فاجعل سمكة تخرج من البحر تسقط عندنا في القارب فخرجت السمكة فسقطت الينا فابتدرها غيري فقلت انا احق بها وذكرت لهم السبب وما وقع في نفسي فاخذتها . وكان عُمُرُ ابن عرفة سبعا وثمانين سنة واشهرا ولذلك قال في ابيات وخمسها في حياته تلميذه الامام الرملي وهي ---

علمت العلوم وعلمتهـــــا ونلت الرئاسة بل حزتهـــا
وهاك سنيني عـددتهـــا بلغت الثمانين بل جزتهـــا
فهـان على النفس صعب الحمام

فلم يبق لي في الورى رغبة ولا في العلا والنهى بغيـــة
وكيف ارجّي ولو لحظـــة واحاد عصري مضوا جملـــة
وعـادوا خيالا كطيف المنـــام

ونادى الردى بي ولا لي مغيث وحث المطية كل الحثيث
واني لراج وحبي اثيـــث وارجو به نيل صدق الحديث
بحب اللقاء وكره المقـــام

فيارب حقق رجاء الذليـل فيحظى بدارك عما قليـل
فيمسي رجاءي بموتي كفيـل وكانت حياتي بلطف جميـل
لسبق دعاء ابي في المقـــام

وفي كتاب ذيل الديباج وحلية الابتهاج في طبقات المالكية وذكر كمالاتهم البهية تاليف الشيخ العلامة ابي عبد الله محمد بدر الدين بن يحيى بن عمر بن يونس الانصاري القرافي المالكي رحمه الله ما نصه : محمد بن محمد الورغمي الشهير بابن عرفة ذكره ابن فرحون ووصفه بالامام العلامة شيخ الاسلام وشيخ الشيوخ وبقية اهل الرسوخ وذكر عدة من مشايخه وذكر من مولفاته مختصره الفقهي ومختصره في علم الكلام ومختصره في علم المنطق ومختصره النحوي وذكر مولده سنة ست عشرة وسبعمائة ولم يذكر وفاته . قال القرافي ذكر ابو الطيب محمد بن احمد بن علوان في التعريف بمشايخه ما نصه : ومن شيوخي بتونس ايضا الشيخ الامام العلامة الصالح المدرس الخطيب المفتي المحقق الحاج ابو عبد الله محمد بن محمد بن عرفة الورغمي رحمه الله ورضي عنه فاز من كل علم باوفر نصيب . وحاز في الاصول والفروع السهم والتعصيب . ورمى الى هدف كل مكرمة بسهم مصيب . واطلعت سماءُ افادته دراري علم غيثهم وابل ومرعاهم خصيب . فمنفعته بعد موته دائمة . وتلامذته واوقاته قائمة . اذا مات الانسان انقطع عمله إلّا من ثلاث . جمع بين طرف العلم والعمل . وشغل اوقاته بالخير فليس وقت منها بمهمل . وعمر ايامه بالصيام ولياليه بالركوع والسجود . وجاهد هجوم النوم وءاثر التهجد على الهجوع والهجود * ونقل السخاوي في الضوء اللامع ان شيخ الاسلام ابن حجر وصفه بشيخ الاسلام في المغرب . واما ابن عمار فذكر انه اجتمع به في سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة وقال واخذ عنه المصريون وهو امام حافظ وقته تفقه بمذهبه شرقا وغربا انتهت الرئاسة اليه بقطر المغرب اجمع في التحقيق والفنون والمشاورة مع خشونة جانبه وشدة عارضته وبراءته من المداهنة وحرزه من الحاشية . قال القرافي وتآليفه تدل على رسوخ قدمه وتقدمه . اما مختصره الفقهي فقد ضم فيه فروع المذهب موشحا بالمناقشات النفيسة لابن الحاجب وشرحه لشيخه ابن عبد السلام بنقول اهل المذهب مُصَدِّرًا جميع الابواب

بالحدود

بالحدود البديعة التي تقف فحول العلماء عند دقائقها وافردها بالشرح البديع العلامة محمد الرصاع واما مختصره المنطقي فشحنه بالاعتراضات على اماثل ذلك الفن ومختصره الكلامي عارض به طوالع البيضاوي . ونقل القرافي عن السيوطي في ترجمة ابي حامد بن ظهيرة ان صاحب الترجمة كان راسا في العبادة والزهد والورع ملازما للشغل بالعلم رحل اليه الناس وانتفعوا به ولم يكن في المغرب من يجري مجراه في التحقيق ولا من اجتمع له في العلوم ما اجتمع له وكانت الفتوى تاتي اليه من مسافة شهر ولم يخلف بعده مثله . قال السيوطي وغيره وتوفي ليلة الخميس الرابع والعشرين من جمادى الاخرى سنة ثلاث وثمانمائة وكانت مدة عمره نحوا من سبعة وثمانين سنة . وفي تفسير المسيلي في سورة الاحزاب ما نصه : وتهذبت بين يديه طائفة من الاعيان كابي عبد الله محمد الابي والمشذالي والوانوغي وابن ناجي وغيرهم . قال القرافي وقد زاد على ما ذكره صاحب الاصل العلامة احمد بن علوان في اجازته لابن مرزوق من تآليف صاحب الترجمة نظم قراءة يعقوب بروايتي الداني وابن شريح ونظم تكملة القصد لخلف ابن شريح وآخر في اصول الفقه . وزاد العلامة علي بن محمد الشريف التلمساني تلميذ ابن غازي في حاشيته على الشفاء ان له تفسير الكتاب العزيز . قال واخبرت انه بمكة بالمدرسة الشرابية وله نظم وسط وفي نظمه ما يدل على انه ناف على الثمانين وهو موافق لما ذكره السيوطي وغيره وذلك قوله على ما نقله عنه غير واحد من طلبته الاعيان منهم الرصاع ءاخر شرحه للحدود قال ما نصه : ومن احسن ما ختم به شعره ذكره في آخر عمره المبارك في آخر عام ثمانية وتسعين وسبعمائة قال بعض تلامذته انشدنا الشيخ رحمه الله ــ بلغت الثمانين الخ ــ وجرى بينه وبين شيخه ابن عبد السلام وحشة هجر مجلسه فيها حكاه البرزلي في فتاويه في مسالة دار قدامة * لطيفــــــة *

حكى ابن غازي في كتاب التعلل برسوم الاسناد عن شيخه ابي عبد الله

الصغير انه بلغه ان صاحب الترجمة كان يقعد للتدريس بمدرسته بتونس من بعد صلاة الغداة الى الزوال وكان يقرا فيها فنون يبتيدئها بالتفسير وان ابا عبد الله بن مرزوق اول ما دخل عليه وجده يفسر هذه الاية ـ ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له ـ فكان اول ما افتتحه به ان قال هل يصح ان تكون من هاهنا موصولة فقال ابن عرفة كيف وقد جزمت فقال جزمت تشبيها لها بالشرطية فقال له ابن عرفة انما يقوم على هذا بنص من امام او شاهد من كلام العرب فقال اما النص فقال ابن مالك في التسهيل كذا واما الشاهد فقوله ـ

فلا تحفرن بئرا تريد اخا بهـــا   فانك فيها انت من دونه تقع
كذاك الذي يبغي على الناس ظالما   تصبه على رغم عواقب ما صنع

فقال ابن عرفة فانت ابو عبد الله بن مرزوق قال نعم فرحب به . انتهى من القرافي رحمه الله تعالى . وكان اماما في العلوم صنف في كثير من مهماتها والغالب على كلامه الاختصار واعتنى في ءاخر عمره بالفقه وكان معتنيا بالمدونة غاية ملازما لنظرها محتجا بها قرا القرءان العظيم في صغره على ابن سلامة من طريق الداني وابن شريح وعلي ابن يزال من طريق الداني وقرا اصول الفقه على ابن غلبون واصول الدين على ابن سلامة وابن عبد السلام وقرا النحو على ابن نفيس والجدل على ابن الحباب والفقه على ابن عبد السلام وقرا المعقول على الشيخ الابلي وكان يثني عليه كثيرا هو والشريف التلمساني وكان محبا في الامور الدينية والدنيوية وابتدا تصنيف المختصر عام اثنين وسبعين وسبعمائة وكمله عام ستة وثمانين وسبعمائة وحج عام اثنين وتسعين وسبعمائة واستخلف على امامة جامع الزيتونة والفتيا قاضي الجماعة تلميذه الشيخ ابا مهدي عيسى الغبريني وعلى الخطابة بالجامع المذكور الفقيه المقري ابا عبد الله محمد البطرني وعاد من الحج في جمادى عام ثلاثة وتسعين وسبعمائة وقال ابو العباس احمد ابن بابا بن احمد بن احمد بن عمر بن محمد التنبكتي رحمه الله في كتابه

كفاية

كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج محمد بن عرفة الورغمي التونسي امام المغرب وشيخ الاسلام العلامة المحقق القدوة النظار العالم المبعوث على راس المائة الثامنة حسبما ذكر السيوطي في نظمه رحمه الله واثنى عليه في الديباج قال الرصاع هو شيخ الاسلام الامام الاعلم القدوة الصالح الفهامة البركة الحاج الانزه الاكمل كان والده خيرا صالحا متعبدا جاور بالمدينة الشريفة على ساكنها الصلاة والسلام ولازمها حتى توفي وكان يدعو ءاخر الليل لولده بعد تهجده ويصلي على النبي صلى الله عليه وسلم ثم يقول - يا نبي الله محمد بن عرفة في حماك - يقوله كل ليلة فصحبه اللطف الجميل في حياته وظهرت عليه ءاثار البركة بعده وكان ابوه صاحب جد وولاية يناول عصا الخطيب لولي الله خليل المكي فاذا ناوله يقول - يا سيدي ادع الله لمحمد ولدي فكانت له بذلك الكرامات قال الشيخ رحمه الله وكان في صغره مشهورا بالجد والاجتهاد والمطالعة والمذاكرة ملازما اجلة الشيوخ كابن عبد السلام لازمه كثيرا فاخذ عنه الفقه والحديث والقراءات العشر وعلما غزيرا وعلى السطي الفرائض وعلى ابن اندراس العلوم العقلية وعلى ابن الحباب النحو والمنطق والجدل وعلى الابلي الحساب وسائر المعقول وكان يثنى عليه وقرا بالسبع على ابن سلامة والفقه على ابن قداح وابن هرون واحمد اللطي وهو ابن حاتم السطي نزيل القاهرة اخذ بتلمسان عن العلامة محمد بن احمد بن قاسم العقباني ومحمد بن الجلاب وبتونس عن ابراهيم الاخضري وبطرابلس عن حلولو المغراوي وابراهيم الباجي ولد في جمادى الثانية سنة احدى وخمسين وثمانمائة هكذا نقله سيدي احمد بن بابا عن السخاوي . واما محمد بن سلامة قال في كفاية المحتاج محمد بن سلامة الانصاري تونسي فقيه عابد صالح اخذ عنه الامام المقري وابن عرفة قال بعض اصحابنا توفي سنة ست واربعين وسبعمائة . هكذا ذكره ابن بابا . رجع لابن عرفة . قال ابن بابا واما جده واجتهاده في صلاة وصيام وصدقة فيقال انه بلغ درجة كثير من التابعين وحكاية حاله في ذلك

تحتاج الى تاليف وله تآليف عديدة عجيبة كمختصر الفقه الذي لم يسبق اليه في تهذيبه وجمعه وحدوده ودقيق ابحاثه ومختصر المنطق وفيه من القواعد ما يعجز عنه الفحول وتاليفه في الاصلين واماليه الحديثية والقرءانية والحكم الشرعية وكان وليا صالحا زكيا قدوة سنيا عارفا محققا نهاية في المعقول والمنقول بقية الراسخين ءاخر المتعبدين ذا سعادة تواتر هديه مع غزارة علمه وقوة فهمه ومع ما له من المحبة والقبول شيخ كثير من شيوخنا يقفون عند حده معظمين له ومسلمين لفهمه تلقينا عنهم كراماته وحسن دينه وطريقته وكتبه جامعة مانعة مبرز الفقهاء من يفك رموزه ويفهمها يتفاخرون بذلك خلفا عن سلف مسعودا في دنياه مرضيا في اخراه مع طول عمره هابته الملوك وقاموا بحقه ومن سعاداته انه لم يبتل بتولية القضاء مع قدرته على تحصيله حفظا من الله تعالى له تولى امامة الجامع الاعظم سنة خمسين وسبعمائة وخطابته كما تقدم سنة اثنتين وسبعين وتولى الفتيا سنة ثلاث وسبعين . ونقل ابن الشباط عن الابي ان ابن سهل قال وانفس الخطط واشرفها القضاء لاسيما اذا انضاف اليها امامة الصلاة وظاهر كلامه هذا ان اجتماعهما حسن راجح وذكر ابن عرفة ان العرف بتونس في القديم والحديث منع قاضي الجماعة والانكحة للامامة بجامعها الاعظم قال وسمعت من يعلله بانه مظنة ان لا يرضى به الخصوم فيودي الى امامة من هو كاره له . وفي الترمذي ثلاث لا تجاوز صلاتهم ءاذانهم العبد الابق حتى يرجع - وامراة باتت وزوجها عليها ساخط - وامام ام قوما وهم له كارهون . ولم يقع له عذر في صلاة اصلا إلّا وقت مرضه وخروجه في مصالح المسلمين . قال ابن الازرق وقفت في مكتوب له وفيه انه قرا على ابن الحباب جملة من كتاب سيبويه قراءة بحث وتحقيق وجملة من التسهيل على بعض شيوخه وسمع التفسير من ابن عبد السلام لجميع القرءان وما يجب من تحقيق احكام الاعتقاد والفقه وقواعد العربية والاصول والبيان وغيرها مما تتوقف هذه المذكورات عليه مع بحث ومراجعة وقرا عليه جميع

صحيح مسلم إلّا يسيرا سمعه بقراءة غيره و بعض البخاري والموطا وقرا عليه جملة من التهذيب وسمع عليه سائره ازيد من ختمة قراءة بحث وفقه ونقل فروع الامهات واحاديث الاحكام مع التنبيه عليها تصحيحا وتحسينا وتضعيفا وغيرها مما قرا عليه مع افادة ءاداب الاشتغال بالتعليم خصوصا توجيه الاسئلة والبحث . وحاله في بلوغ اقصى مراتب الغاية العلمية لا ينكر ومقامه في مجاهدة العمل اشهر مما يذكر . وذكر الفقيه القاضي الاجل ابو عبد لله الزنديوي نزيل تونس قال كان ابن عرفة في العلوم كما دلت عليه تآليفه وفي العبادة بمزية اعلى قال سمعت شيخنا الامام ابا مهدي عيسى الغبريني يقول لم ير ولم يسمع بمثل سيدي ابن عرفة في ثلاثة ـ الصيام والقيام وتلاوة القرءان ـ ما هو إلّا ما يذكر عن رجال رسالة القشيري فلا تراه ابدا إلّا صائما و يقرا عشرين حزبا في ساعة وقيامه معلوم يقوم في جامع الزيتونة العشر الاواخر من شهر رمضان في كل عام حتى عجز قرب وفاته . قال الزنديوي واول ما لقيته عام ثلاثة وتسعين وله سبع وسبعون سنة وسمعت عليه صحيح البخاري بقراءة شيخنا ابي مهدي وحضره جميع اعلام تونس وطلبتها كبارا وصغارا وكان ذلك في شهر رمضان عام واحد وثمانمائة وكان متبحرا في دنياه موسعا عليه فيها مالا وجاها ونفوذ كلمة . وقال ابن الشباط في حاشيته على مسلم كان الشيخ امام الجامع الاعظم بتونس اذا احس بالمطر خفف رفقا بمن يصلي بالصحن . قال جامعه عفا الله عنه وتتبعت كثيرا اطلاقه لفظ الشيخ فوجدته مرادا به ابن عرفة . ومنها ايضا قال الابي وقد احتيج الى الاستسقاء بتونس مرارا وامام جامعها ابن عرفة ولم يصلها بالناس وقال خفت ان صليتها ان يشتد امر الطعام و يقوى الهرج والغلاء . وقال الابي عند بحث شراء الحجات لمن تعذر عليه الوصول ان هذا الذي يفعله اليوم كثير من شراء الحجات و يقولون انه على مذهب المخالف هو انه انما يفعله والله اعلم في حق من تعذر عليه الوصول وقد فعله شيخنا الامام ابن عرفة عام حج فذكر انه

اشترى للخليفة سلطان افريقية الامير ابي العباس حجة . وقال ابن الشباط في الحاشية المذكورة قال لي يوما شيخنا ابن عرفة لولا خوف الحاجة في الكبر ما بت وعندي عشرة دنانير فلما كان قريبا من ءاخر حياته حبس من الربع ما يفرق من اكريته في كل شهر نحو العشرين دينارا ذهبا كبيرة والادخار لا ينافي التوكل . قال الابي وكان ابن زيتون من متاخري التونسيين يرى ادخار عامين بتونس لا ينافي التوكل لفساد اعرابها وعدم امن المطر بها . وذكر عياض في المدارك ان القاضي ابا بكر الابهري اخرج في ءاخر حياته الف مثقال وكتب اسماء تلامذته وكانوا جماعة وافرة وكان من جملتهم ابو بكر الباقلاني وفرقها عليهم وءاثر ابن الباقلاني فاعطاه منها مائة مثقال فقيل له لما ادخرتها الى اليوم وهلا فرقتها قبل فقال عهدي بابي بكر الصيرفي وقد طلب لقضاء بغداد فامتنع فلما كثرت بناته رايته يكتب الرقاع يستعطي اصحابه فادخرتها خوف الوقوع في مثل ذلك واما اليوم فلا حاجة لي بها * وفي حدود سنة ثمان واربعين وستمائة بنى السقاية التي هي شرقي الجامع ابو عبد الله محمد المستنصر ابن الامير ابي زكرياء يحيى بن ابي محمد عبد الواحد بن ابي حفص * وفي شهر رمضان من سنة ست وعشرين وسبعمائة توفي الشيخ الصالح العالم المفتي امام جامع الزيتونة وخطيبه ابو موسى هارون الجديدي وكان استخلف في مرضه ابن عبد السلام خطيبا فبلغ ذلك قاضي الجماعة حينئذ ابن عبد الرفيع فقدم الشيخ ابا عبد الله محمد بن محمد بن عبد الستار واخر ابن عبد السلام عن الخطبة فقال له اتجرحه هذا فقال لا ولكن اهل تونس ما يولون جامعهم الا من هو من بلدهم * وقال ابن الشباط في حاشيته على مسلم ناقلا عن الابي عند نقله حديث كان لا يدع قوله تعالى ـ يا ايها الذين ءامنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا ـ الى ان قال وكان عمر بن عبد الرفيع قاضي الجماعة بتونس خطيبا بجامعها الاعظم لا يقرا بها في الخطبة لعذر يمنعه من طول الوقوف ويقرا عشرا غيرها فنقم عليه بعض من يتبعه عند حاجب

الخلافة

الخلافة القائم بامرها ابي محمد عبد الله بن تافراجين وكانت بين الحاجب والقاضي منافسة فارسل الى القاضي ان تقرا بها في خطبتك او يقدم غيرك فالتزم قراءتها بعد وكان الشيخ يقول لما جرى العرف بقراءتها صارت كالشرط المدخول عليه فلا ينبغي ترك قراءتها . ومما اتفق ان السنة التي جدد بها سقف جامع الزيتونة وخطيبه اذ ذاك ابو اسحاق بن عبد الرفيع غطيت المجنبة الاولى التي تحتها المنبر بالحصر فخطب فقام الشيخ الفقيه المشتهر بالصلاح ابو علي القروي فانكر عليه واغلظ القاضي عليه في الرد وافضت الحال الى ان امر القاضي بسجن ابي علي وكان الشيخ ابن عرفة يقول الصواب مع الشيخ ابي اسحاق ولا ينتهي الحال الى ان تمنع الجمعة لانه لو خطب دون تغطية بحصر جاز لانه ليس من شرط الخطبة ان تكون تحت سقف اذ لو خطب بالصحن جاز اذ ليس من شرط الجامع ان يكون كله مسقفا وانظر ما يتفق في بعض القرى ان يكون الجامع غير متصل البناء ببيوت القرية فكان الشيخ ابن عبد السلام والشيخ ابو الحسن المنتصر يتفق ان يكون احدهما يوم الجمعة بقرية صايغ وجامعها يبعد من دورها بنحو ثلاثمائة ذراع فكانا لا يصليان بها الجمعة ويذهبان الى غيرها فيصليان لكن لا ينهيان اهلها عن صلاة الجمعة . ولما مات ابو موسى استبد ابن عبد السلام بذلك وتولى القضاء بتونس . وابن عبد السلام هذا ذكره سيدي احمد بن بابا في كتابة كفاية المحتاج فقال ما نصه : محمد بن عبد السلام الهواري التونسي علامتها وقاضي الجماعة بها شيخ الاسلام الامام المحقق المشهور ذكره في الديباج وذكره الشيخ خالد البلوي في رحلته فقال البحر المتلاطم الامواج . والمنهل الذي تروى بعذبه بقاع الوهاد وتلاع الفجاج . المجموع الذي نزلت بساحته مفترقات العلوم نزول الماء الثجاج . قاضي القضاة . وامام الفقهاء والنحاة . ورب العقل الوافر وبحر الصلات . الشيخ العالم العلامة قطب الشورى وعماد الفتيا قدوة علماء الاسلام . ابو عبد الله بن عبد السلام . رجل نشا في العفة والصيانة . وبنى ذروة الطهارة

والديانة . وصعد من هضبة التقى على اعلى مكانة . فلم يعرف له قط صبوة . ولا حلت له الى غير الطاعة حبوة . على ان المسهب في اوصافه الكريمة . سكيت وقاصر - وهيهات يضرب في حديد بارد - صرف همته العلية وفكرته الوقادة الزكية في انتحال فنون العلم وافتتاح المغلوم منها والمختوم فملك اعنتها وقاد ازمتها واوضح اشكالها وحل اقفالها . وتلقى بالسهل والصعب انثيالها عليه واقبالها . فكان وحيد الاوان . وعلامة الزمان . والمشار اليه بالبنان في البيان . ما قرن به فاضل من العلماء إلّا رجحه . ولا القي اليه بمبهم من العلوم إلّا كشفه واوضحه . عدلا في احكامه . جزلا في اقدامه . مراقبا لله في فعله وكلامه . له صادقات عزائم . لا تاخذه في الله معها لومة لائم . له نزاهة عن الدنيا . وهمة نيطت بالثريا . وبهجة فيها ترقرق ماء البشر فاحيا وحيا —

يقابلني له خلق وضي · يصدق بشره خلق رضي

قال حضرت مغتنما وملتزما تدريسه الذي هو ضالة الناشي الناشد . وبغية القاصي القاصد . وحديقة الراعي الرائد . وحقيقة الفوائد الفرائد . فسمعت وانتفعت واخذت عنه شرحه لكتاب ابن الحاجب الفروعي فقرات وكتبت واجاز لي غير ما مرة وكتب لي بخطه ومولده سنة ست وسبعين وستمائة قال وسمعت عليه بمنزله من تونس جميع كتاب موطا الامام مالك بن انس رضي الله عنه في مجالس كثيرة ءاخرها ضحوة يوم الجمعة الثالث عشر لصفر من عام سبعة واربعين وسبعمائة واذن لي في روايته عنه انه قراه اجمع بلفظه على الاستاذ المقري ابي العباس المشتهر بالبطرني المتقدم الذكر بسنده فيه وقراه كذلك ايضا على الشيخ المحدث الراوية المعمر ابي محمد عبد الله بن محمد بن هارون وحدثه به عن القاضي ابي القاسم احمد بن يزيد بن عبد الرحمن ابن بقي قراءة لبعضه وسماعا لسائره بمدينة قرطبة اعادها الله دار اسلام عن ابي عبد الله محمد بن عبد الحق الخزرجي قراءة عليه عن ابي عبد الله محمد بن فرج الفقيه مولى الطالب

سماعا

سماعا عليه قـال وقـال سمعته عن القـاضي ابي الوليد يونس بن عبد الله ابن يحيى عن عمه عن ابيه عن عبيد الله بن يحيى عن ابيه يحيى بن يحيى عن مالك بن انس رضي الله تعالى عنهم ورحمهم اجمعين . قـال وهـذا السند لا يوجد بالمغرب مثله علوا واتصالا بالقراءة والسماع . قـال وقرانه ايضا عام ثلاثين وسبعمائة على والدي واخبرني انه قرا منه جميع كتاب الصلاة عرضا عن ظاهر القلب عن والده قال واخذه والده جدي عن جماعة اجلة منهم والده الخطيب الصالح ابو اسحاق وغيره قـال وقرانه بالمسجد الجامع من مدينة مالقة المحروسة عام ثلاثة وعشرين وسبعمائة على الشيخ الخطيب الزاهد الولي لله تعالى ابي عبد الله محمد بن احمد الهاشمي الطنجالي بسنده فيه قال وقد قرانه وسمعته بالاندلس وبقرب العدوة على من ذكرته رضي الله عنهم اجمعين . وتوفي ابن عبد السلام المذكور سنـة تسع واربعين وسبعمائة . اه . قلت كان المورخ ذا مدد وان شئت قلت في تاريخه « نعوا محمد بن عبد السلام » . قـال ابن الشباط في حاشيته على مسلم واتفق ان طالبا يدعى بابن عمرين قـال لا يزاد في الصلاة لفظ سيدنا لانه لم يرد وانما يقال على محمد فنقمها عليه الطلبة وبلغ الامر الى القاضي ابن عبد السلام فارسل وراءه الاعوان فاختفى مدة ولم يخرج حتى شفع فيه صاحب الخليفة فحينئذ خلى عنه وكانه راى ان اختفاءه تلك المدة هو عقوبته . قـال الابي وما يستعمل من لفظ السيد والمولى حسن وان لم يرد المستند فيه لما صح من قوله عليه الصلاة والسلام « انا سيد ولد ءادم » . واتفق في قضاء ابن عبد السلام ان نزلت بتونس قضية وهي ان عثر بيهودي يسرق صغار المسلمين ويبيعهم للحربيين فاستشار الامير ابو يحيى قاضي الجماعة ابن قداح وقاضي الانكحة ابن عبد السلام فقال ابن قداح يقتل بالسيف وقـال ابن عبد السلام يصلب ويقتل واحتج بصلب عبد الملك بن مروان الحارثي الذي تنبا قـال في المدونة وطعنه بحربة بيده ففعل بالذمي ذلك . وكان ابن عرفة يقول في احتجاج ابن عبد السلام

نظر لان قضية الحارثي اقرب الى الحرابة من فعل هذا الذمي لعظم مفسدته وانما حكم القاضيان فيه بالقتل وان كان انما في سرقة الصبيان القطع لانه بفعله ذلك ناقض للعهد مع عظم مفسدة فعله بما ينشا عنه من تمليك الحر ونصره . وقد وقع ابن عبد السلام في ضيقة حين كان الامير ابو يحيى سلطان افريقية عهد لولده احمد بقفصة ثم توفي الامير ابو يحيى وكان حاجبه عبد الله بن تافراجين فلما حضر قاضي الجماعة ابو عبد الله بن عبد السلام وقاضي الانكحة الاجمي امرهما ان يبايعا عمر ولد الامير ابي يحيى المذكور فاعتذرا وقالا كيف نبايعه ونحن شهدنا في بيعة اخيه احمد والتزمناها وكان الحاجب المذكور نبيلا فقال للقاضيين حين راى امتناعهما ادخلا دار السلطان واشتغلا بغسله وتكفينه فلما دخلا موضع غسله احضر الحاجب المذكور الناس واهل الحل والعقد وامرهم ان يبايعوا عمر فبايعوه فلما خرج القاضيان وجدا البيعة قد حصلت فبايعا حينئذ وكان ابن عرفة يستصوب فطنة الحاجب المذكور ونبله في فعله ذلك لانه جار على ما ذكره القاضي ويستصوب ايضا امتناع القاضيين اولا لما ذكراه من سبق التزامهما وبيعتهما بعد لانعقاد البيعة بغيرهما . اه * ومن اجل مدرسي الجامع المذكور محمد بن هارون الكناني التونسي ذكره سيدي احمد بن بابا فقال الامام العلامة الحافظ وصفه ابن عرفة ببلوغ درجة الاجتهاد المذهبي وقع له مع ابن عبد السلام نزاع في مسائل تولى القضاء بغير تونس واخذ عنه الايمة كالمقري والخطيب ابن مرزوق وابن عرفة وخالد البلوي وذكره في رحلته وبالغ في ثنائه فقال الشيخ الفقيه الامام ابو عبد الله محمد بن هارون ابقى الله بركاته امام في الفقه واصوله . وعلم الكلام وفصوله . متوصل بالكد والجد الى حصوله . علم من اعلام المعارف . ومعلم الاعلام الحلل الدينية والطارف . نفع بما وعى من العلم الاصيلي المغرق . وشفع ما استفاده من علماء تونس بما حصله من علماء المشرق . واظفرته رحلته بمبرزي العلماء . والمدرسين القدماء . وءاب من رحلته وقد قضى

عنه

عنه فرعه . واشتاقت اليه ارعه . وكمل فضله . واشتمل على الكمال الانساني عقله ونقله . فانبسط في العلم بنباهته . وانقبض عن العالم بنزاهته . ولزم مطالعة دواوينه . وحدق الى متونها حدقة فهمه ودينه . فنفع الله بعلمه بشرا كثيرا . واودع له في قلوب عباده من القبول حظا كبيرا . ولولا ما رزق من الزهد والقناعة . لاعلق به قضاء الجماعة . فنيط به احسن تلك المدارس . وغبطت منه بالفارس واي فارس . فقام العباد بحقه . وصدقوا فيه الخبر النبوي فلم يتماروا في صدقه . وعلموا انه السابق في هذا المضمار الذي لا يترشح احد لسبقه . فازدحم لافادته افواج من الناس . واقتبسوا من علمه وهو النور الذي لا ينقص بكثرة الاقتباس . حتى اقرت له السادات بالتسويد . واحيا الله به سنة الاجتهاد حين وقف غيره على سنن التقليد . فبرز في ميدان تدريسه بما برز . واحرز من قصب السبق ما احرز . مع جلالة قدر . وسعة صدر . وحسن خلق . واعتدال خلق . وسهولة العبارة . وصناعة صياغة الكلام للبداوة والحضارة . وقمع الباحث الملد . ومزج الهزل بالجد . كامتزاج الماء والنار في الخد . الف تآليف قد اختص فيها بفصاحة اليراعة . واقتفى لها اوضح طرق البراعة . فاحكم اصولها . واتقن فصولها . وركب على عواملها المثقفة حصولها . واحسن فيها ترتيب الايراد والاعتراض . والقصد الى توفية الاغراض . هذا مع الاختصار والايجاز . والماخذ الذي يكاد ينسب الى الاعجاز . يستوفي الابداع في ذلك كله مع ملاحظة الغايات البعيدة والقريبة . ببديهة الادراك واللمحة السريعة الغريبة . في حسن القاء . وملاحة اشارة وايماء . ونبل تنبيه . ولطف توجيه . واصابة تنظير . واجادة تنقير . فلما رات العين او سمعت الاذن باصل في الاصول . وافرع للفروع والفصول . وابرع في نقد الكلام وسبكه . واعرف بحل المشكلات لابن الحاجب وحنكه . قال وقرات عليه نصف مختصري ابن الحاجب الاصلي والفرعي قراءة تفقه وبحث وسمعت عليه كثيرا من التهذيب وغيره من كتب الفقه والاصول والعربية . ومن تآليفه

شرح مختصري ابن الحاجب وشرح المعالم الفقهية ومختصر التهذيب وشرح التهذيب في اسفار عديدة وشرح الحاصل وغيرها ولد سنة ثمانين وستمائة . اه . وله مختصر المتيطية في قدر ثلثها اسقط وثائقها وتكرارها وتوفي رحمه الله في الوباء العام سنة خمسين وسبعمائة ذكره ابن الخطيب والعجب من صاحب الديباج حيث لم يذكره اصلا مع كثرة نقله عنه في تبصرته وشرحه * ومنهم الشيخ الفقيه العالم الصالح العابد ابو عبد الله محمد بن محمد بن سلامة الانصاري تونسي اخذ عنه الامام المقري والشيخ ابن عرفة وغيرهما قال ابن بابا قال بعض اصحابنا توفي سنة ست واربعين وسبعمائة رحمة الله عليه * ومن اجل مدرسي الجامع المذكور من برز في ميدان التسجيل . وتميز بين عتاق تلك الحلبة بالغرة والتحجيل . واحرز بنصل السبق الموجب للتعظيم والتبجيل . الشيخ العالم المتصوف ابو عبد الله محمد بن عمر ارضاه الله تعالى . علم الجماعة . وقلم التاييد والاستطاعة . ورب الفكرة الطواعة . والامرة المطاعة . ومن له في النظم والنثر القلم الاعلى . والقدم الاولى . واللفظ الاجلى . والمورد الاحلى . والقدح المعلى . والبدائع التي تستفاد وتستعلى او تستملى . وله في الطريقة الصوفية مقام عال . واشتات مقال . وخاطر يجول في اوسع مجال . فيبرز نفائس لآل . وعرائس جمال . وياتي بسحر حلال . وبحر زلال . بين بديهة وارتجال . ووخد وارقال . واحتفاز واستعجال —

مكارم مثل الحصى كثرة وخاطر يغرف من بحر

رحل الى المغرب والمشرق فعلت رواياته . وعظمت ءاياته . وكثرت مبالاته بالعلم وعناياته . فبدا في سماء المعارف شمسا تتجلى بزهر هدايته مشكلاتها . ولاح في جيد العوارف سلكا يتحلى بدر كفايته لباتها . واقام مشتغلا بالعلم سنين . وانعقد النكاح بينه وبين عقائل الاداب بالرفاء والبنين . فيلد من مخدرات فكره خرائد تتهاداها الملوك . وفرائد تزدان بها التيجان والسلوك . تحلت به الحضرة التونسية . كما تحلت بازاهير

الرياض الانسية . فهو الان متولي ديوان انشائها . ومدلي اشطان رشائها . قد استقر عند من عرف شانه . وعلى بعده وشانه . واقتنى عقد نظمه وزانه . وادخر مرجان نظمه وجمانه . قال دخلت الحضرة التونسية على حين اخذ مني البين اخذته . وفلذ من فوادي فلذته . فتفرست في ادبه الرائق . ومذهبه الواضح الطرائق . ان جنابه العالي مطمح لنفسي ومسرح انسي . ومصلح ما قضى من لبسي وانضى من عنسي . فكانت فراسته لاح صدقها . واومض برقها . وسح سحابها وهمل ودقها . ولما عجبت اليه . وقصدت منزله للسلام عليه . انشدت بيتين اثنين استاذن بهما وهما —

بـبابك يا مولى الكتابة كاتب اتاك بقلب من اسى البين مفجوع
وحاجته تقبيل يمناك انها تومن من خوف وتسمن من جوع

فارتاح اليهما ارتياح الصادي لبليل القبول . ومد بهما يمين اليمن والقبول . ودارت بيني وبينه المخاطبات نظما ونثرا . وتكررت بيننا المراسلات والمراجعات قلا وكثرا . ولم ازل مدة اقامتي بتلك الحضرة تحت ظله الوارف . وفضله المحمود المطارف . خرج مستريحا في بعض الازمنة الطيبة الى بعض جناته التي هي منى النواظر . وملعب القصور النواضر . ومهف الانفاس العواطر . وراحة الابدان والخواطر . وجلال الحال التي توشيها ايدي الغمائم المواطر . قال فما الم بها حتى وجه الي مع بعض خدمه مركوبا من عتاق الخيل . جامعا لضياء الصباح وغسق الليل . نقلني اليه . واحلني لديه . فوافيت والربيع قد اهدى نوافحه . واشدى لواقحه . وارسل اوافحه . واسدل ملاحفه . واسبل مطارفه . والان معاطفه . وافاض معارفه . وامد بروده . وامال قدوده . واخجل خدوده . وحشد جنوده . وحشر بيضه وسوده . ونشر الويته وبنوده . وملا نهاياته وجنوده . ونظم جواهره ونقوده . ورقم صحائفه وعقوده . واعطى مواثقه وعهوده . والغمام قد بكى على ميت الارض فاحيا نوره . واضحك ثغره . وحدق

احداقه . وارخى أوراقه . واصفى ملبسه . ووشى سندسه . والنسيم قد جرى على بساط البسيط ذيوله . واجال بملعبه خيوله . واستنطق اطياره . وشق ازراره . وافشى اسراره . واذاع شيحه وعراره . وقصص انواره . وذهب ازهاره . ونثر درهمه وديناره . وحيا ورده وبهاره . وصافح آسه وجلناره . واطاب ثناءه واخباره . والمذانب تسل السيوف . وترى لنفسها على الانهار الشفوف . وتخترق من مكللات الثمار الصفوف . وتدور على سوق الغصون كالخلاخل . وتلتوي بها التواء النسا من المجادل . وتلك السواقي تحن كحنين الحوار . وتضرم في القلب المشوق حر الاوار . وتهيج لوعة الصب المغترب النازح الدار . وتفجر من بين اضلاعه امثال الشفار . وفيها يقول الرئيس ابو عبد الله بن ابي الحسين —

وحانية الاضلاع تحنو على الثرى ... وتسقي بنات الترب در الترائب

تعد من الافلاك ان مياهها ... نجوم لرجم المحل ذات الذوائب

واطرافها رقص الغصون ذوابلا ... فدارت بامثال السيوف القواضب

وما خلتها تشكو بتحنانها الصدى ... ومن بين متنيها اطواد المذانب

فخذ من مجاريها ودهمة لونها ... بياض العطايا في سواد المطالب

فحللت منها شرفا . وتبوات غرفا . واجتنيت تحفا وطربا . واقمنا بها ليالي واياما آمنين . تغازلنا اعين النرجس وتقابلنا خدود الورد وتصافحنا اكف الياسمين —

في رياض من الشقائق اضحت ... يتهادى بها نسيم الرياح

زرتها والغمام يلحد منها ... زهرات تفوق لون الرياح

قلت ما ذنبها فقال مجيبا ... سرقت حمرة الخدود الملاح

قال الشيخ خالد ومما انشدني هنالك لنفسه —

حسن المرية ريح ... جرى عليها فعم

فكل وجه تراه ... تراه بدرا اتم

ولقد ذكرني قوله في الياسمين ما وصفه به بدر الدين الحلبي رحمه الله حيث

حيث قال ـ ياسمين يجلو البصر . كانه اقراط من الدرر . يحفظ الذمام . ولا يمل من طول القيام . ثغوره ضاحكة . وحسنه غامن من المشاركة .

والطرق الحمر في جوانبه كخد عذراء مسه عض

وقال خالد البلوي وانشدني ابو عبد الله بن عمر قال وانشدني صاحبنا الحاج الفاضل ابو زكرياء بن واش الفاسي وقال انشدني بعض الشيوخ المجاورين البغداديين وقد مر به بحرم مكة شرفها الله تعالى الفقيه ابو جعفر ابن شيخنا الامام رضي الدين الطبري وهو اذ ذاك فتى فقال له الشيخ ما الذي تقرا وبما تشتغل من الكتب فقال له الفتى بالتنبيه فانشد الشيخ بديها —

ومهفهف الاطراف ساج طرفه يغدو على الفقهاء للتعليم

شغلوه بالتنبيه جهلا منهم لو انصفوا شغلوه بالتنويم

قال وقال لي دخل الاديب الشهير ابو بكر بن قزمان رحمه الله تعالى بعض البلاد فاعطى نعله ليصلح له وهو مستوفق قد نفد جميع ما عنده فخاطب في الحال بعض الناس من ذلك البلد بقوله —

دفعت قرقي للفراق يصلحه وقد تعذر قيراط من الثمن

فامنن على شاعر خفت مئونته قدر السوال بحسب الناس والزمن

قال خالد البلوي وانشدني لبعضهم —

خبت نار العلا بعد اشتعال ونادى الجود حيّ على الزوال

فقدت الجود إلّا في حديث وإلّا في الدفاتر والامالي

ولو اني ملكت الامر يوما لما حاربت إلّا بالسوال

لان الناس ينهزمون منه وقد ثبتوا لاطراف العوالي

وقال وقرات عليه جميع صحيح الامام مسلم بن الحجاج رحمه الله تعالى فكمل لي جميعه عليه ما بين قراءة وسماع بنحو قراءته لجميعه بالحرم الشريف تجاه الكعبة المعظمة سنة ثلاث عشرة وسبعمائة على الشيخ امام مقام الخليل عليه السلام رضي الدين ابي احمد بن مقيم بن محمد الطبري

المكي الشافعي قال وقال قرأته اجمع بالحرم الشريف تجاه الكعبة المعظمة سنة خمس وسبعين وستمائة على الشيخ الاوحد شمس الدين ابي عبد الله محمد بن النعمان بنحو قراءته له على الشيخ ابي الفضل محمد بن المعالي ابن الحباب بن السعدي عن الشيخ الشريف ابي المفاخر سعيد بن الحسين الماسري عن الشيخ ابي عبد الله محمد بن الفضل الصاعدي الفراوي عن الشيخ ابي الحسن عبد الغفار بن محمد الفارسي عن الشيخ ابي احمد بن عيسى الجلودي عن ابي اسحاق ابراهيم بن محمد سفيان النيسابوري عن الامام ابي الحسن مسلم بن الحجاج القشيري . وقال الشيخ خالد البلوي وكانت وفاة الشيخ عبد الله بن عمر في غرة المحرم مفتتح عام اربعين وسبعمائة رحمه الله تعالى . قال قال رضي الدين الطبري واخبرني به اعلى من هذا الشيخ المحدث امين الدين بن عبد الصمد بن عبد الوهاب ابن عساكر الدمشقي قراءة عليه وانا اسمع بالحرم الشريف تجاه الكعبة المعظمة سنة تسع وخمسين وستمائة . اه . وفي التاسع والعشرين لجمادى الاخرى سنة سبع وثلاثين وسبعمائة توفي بتونس الفقيه المورخ ابو محمد عبد الله بن محمد بن ابي القاسم بن علي بن عبد البر التنوخي امام جامع الزيتونة وخطيب جامع القصبة عدلا ذا سمت حسن له عناية بالتاريخ والرواية اختصر ذيل السمعاني وتاريخ الغرناطي والف تاريخا على طريقة الطبري مرتبا على السنين من سنة البعثة المحمدية على صاحبها افضل الصلاة وازكى التحية الى زمنه وقد اجاد فيه وتجزيته في ستة اسفار . وكان يجلس لرواية مقامات الحريري بدويرية جامع الزيتونة وبه استدل الشيخ ابن عرفة على فعل مثل ذلك في مختصر الفقه وجعله حجة مع ما في المقامات من المثالب . قال ابن الشباط في حاشيته على مسلم وكان ابن عبد البر امام الجامع الاعظم بتونس لا يرويها الّا بالدويرية منه اذ ليس للدويرية حكم الجامع . اه . وابن عبد البر المترجم له رحمه الله ذكره الشيخ خالد البلوي في رحلته ووصفه بالشيخ الفقيه الخطيب ابي محمد

عبد

عبد الله ابن الشيخ الفقيه الجليل ابي عبد الله محمد ابن الشيخ الفقيه القاضي العالم المصنف ابي القاسم بن علي بن عبد البر التنوخي — هــذا بيت غذي بالعلم والادب . وبني على المجد والحسب . ورقي في اعلى الخطط واسمى الرتب . فاليهم ينتهي في حسن النقائب . وبفواضلهم تنطق السنة الحقائب —

قطفوا ثمار المجد من غرس العلا باكفهم فلنعم غرس الغـارس
فهم لباب المجد عزة انفس وذكاء الباب وطيب مغـارس

ما منهم إلّا عالم اوحد . لا ينعت ولا يحد . ولهم بالدولة الحفصية سبق يذكر . وحق لا ينكر . والقاضي ابو القاسم جدهم . به سفر مجدهم . وهو الذي عمر ربع الملك . وامر بالحياة والهلك . ودبج القرطاس وفوف . ودون العلم وصنف . قـال البلوي وشيخنا الخطيب ابو محمد هذا بديع الاحسان . بليغ القلم واللسان . قد اتاه الله مقاليد هذا الشان . وملك بنان فضله اعنة المعاني وازمة البيان . واقام من البراعة على منابر انامله اظهارا لمعجز البلاغة خطيبا مشقوق اللسان . فهو ذو الفضل والكرم . والسيف والقلم . والعلم الذي يخفق لنشره العلم . تاوي وفود السعود الى حرمه . وتروي اخبار الندا عن كرمه . وتحلى المسامع بما تمنحه لآلي كلمه . وتنتقل الى رياض الامال الظامئة ما شاهدته من دوام ديمه . فلا برحت مكارم الاخلاق واخلاق المكارم تشام من برق شيمه . واحرار المحامد ومحامد الاحرار تعد من امائه وخدمه . بمن الله تعالى وفضله وكرمه . قـال البلوي رحمه الله تعالى لقيته بمنزله المبارك من حضرة تونس فقرات وسمعت عليه به وبالجامع الاعظم المشهور بجامع الزيتونة تصانيف واجزاء فانه لما خيرته المحاسن في انفسها . فاختص بانفعها وانفسها . وحكمته السيادة في معاليها . فحكم من الاوامر والامور اعاليها . كان مما اقام به من الدين متونه . اقامة الفرائض المكتوبة اماما بجامع الزيتونة . الى غير ذلك من الخطابة بالحضرة العلية . والمراتب السامية

السنية . قـال البلوي فكنت كثيرا ما اقرا عليه بالدويرية التي يخرج منها الخطيب وهي بازاء المحراب من جهة اليسار ومما قرات بها عليه بلفظي جميع ثلاثيات الامام ابي عبد الله البخاري رضي الله تعالى عنه وحدثني بها بسنده فيها في برنامج روايتي وجميع المجالس الخمسة التي املاها الحافظ ابو طاهر احمد بن محمد بن احمد السلفي الاصبهاني . قـال البلوي وحدثني بها عن جده ابي القاسم المذكور اجازة قـال قرات جميعها على الشيخ الامام المحدث الزاهد ابي الفضل جعفر بن ابي الحسن الهمداني بمسجده بالاسكندرية وحدثني بها سماعا على الحافظ مليها ابي طاهر السلفي المذكور . وقرات عليه جملة من برنامجه الذي جمع فيه اشياخه واسانيده وتناولته من يده المباركة واجازني جميع ما يحمله ويرويه اجازة تامة مطلقة عامة . وكتب لي بخطه وحدثني رضي الله عنه قـال حدثني جدي ابو القاسم المذكور قـال انشدني بالقدس الشريف عند محراب زكرياء النبي عليه السلام الشيخ الصالح ابو علي الحسن بن احمد الاوقي قال انشدنا الفقيه الامام العالم ابو الجيوش عساكر بن علي بن نصر المقري قـال انشدني الشيخ ابو الحسن عبد الكريم التككي قـال انشدني الصقلي بالاسكندرية من شعره لنفسه —

مزرفن الصدغ يسطو لحظه عبثا بالخلق جذلان ان يشكو الهوى ضحكا

لا تعجبن لورد فوق وجنته فانما نصبته عينه شركا

قـال البلوي وحدثني ايضا قـال وحدثني جدي المذكور عنه عن الحافظ ابي طاهر السلفي انشدهم محمد بن علي السجلماسي المجاور بمكة شرفها الله تعالى بدار العجلة قـال انشدني ابراهيم النحوي بسجلماسة لنفسه —

زعموا ان من تباعد يسلو ولقد زادني التباعد وجدا

ان وجدي بكم وان طال عهدي وجد يعقوب حين اصبح فردا

قـال البلوي وحدثني قـال وحدثني جدي عن الشيخ المقري الصوفي الواعظ ابي عبد الله محمد بن الجنان قال كنت مع جماعة من اهل التصوف

باصبهان

باصبهان في رباط هناك واجتمع اصحابنا ليلة في سماع فلما كان في اثناء ذلك بعد مضي جزء من الليل والوقت قد طاب اذ ضرب الباب ضارب فخرج اليه من سمع ذلك فوجد شيخا طويل القامة عظيم الهامة على راسه كرزية وعليه فرجية وبيده ابريق وعكازة فقال ما هذا قلنا سماع اجتمع فيه الاصحاب فقال ندخل قلنا له ادخل فدخل فوجد القائل يقول ـ

خليلي لا والله ما القلب سالم　وان ظهرت مني شمائل صاحي
والّا فما بالي ولم اشهد الوغى　ابيت كاني مثخن بجراح

فرمى للمنشد ما كان على راسه ثم قال له قل فقال ـ

يا نباة الجزع لولا رنة الحادي　لما تنقلت من واد الى وادي
ولا سلكت بنعمان الاراك ولا　شربت ماءً به يا نهلة الصادي

وقال ـ

كرر علي حديثهم يا حادي　فحديثهم يطفي لهيب فوادي
كرر علي حديثهم فاربما　لان الحديد لضربة الحداد

فنزع الشيخ فرجيته وبقي عريانا وقال قل فقال ـ

غرام ووجد واشتياق ولوعة　وما ذاق انسان من الحب ما ذقت
نحلت فلو علقت في جفن ذرة　لطارت ولم تشعر باني علقت
ولو نمت في جفن الذباب معرضا　من السقم لم تشعر باني قد نمت
ولو نفس من انفها قد اصابني　من الشوق او من حر انفاسها ذبت

قال الشيخ ابو عبد الله بن الجنان فصاح الشيخ صيحة عظيمة وشهق شهقة قوية وخرجت روحه رحمة الله عليه ولما اصبح الصباح وطلع النهار غسلناه وجهزناه الى حفرته . وتركناه في عظيم تربته . قال الشيخ احمد البلوي وحدثني قال وحدثني جدي عن الشيخ ابي الفضل الهمداني عن الشيخ الشريف القاضي ابي محمد العثماني قال انشدني الشيخ ابو بكر المبارك بن كامل بمكة حرسها الله تعالى قال انشدني احمد بن عبد السلام المدني قال انشدني ابو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري

قـــال انشدنا ابو عبد الرحمن محمد بن الحسين السلمي —

قف بالديار فهـــذه ءاثارهم تبكي الاحبة حسرة وتشوقـا
كم ذا وقفت بهـا اسائل مخبرا عن اهلها او صادقا او مشفـــقا
فاجابني داعي الهوى في رسمهـا فارقت من تهوى فعز الملتقى

ومـــــن اصحاب ابن عرفة الشيخ احمد بن العباس المعروف بالمريض شارح رجز الضرير في العقائد ذكره سيدي احمد بن بابا رحمه الله قـال ولم اقف له على ترجمة * وممن اخذ عن ابن عرفة الشيخ احمد بن محمد الهنتاتي ابو العباس شهر الشماع قاضي محلة السلطان ابي فارس له نزاع مع البرزلي في مسالة العقوبة بالمال رد فيها على البرزلي وشنع عليه غاية في قوله بجوازهـا والف فيهـا تاليفا في كراريس سماه مطالع التمام ومنجـاة الخواص والعوام في رد القول باباحة غرم ذوي الاجرام وذكر فيه انه تواتر عنده عن شيخه ابن عرفة انه كان يقول في سجوده « اللهم احفظ دين محمد صلى الله عليه وسلم من البرزلي » . وكان في السابق اذا اراد الامـام امر المؤذن باقامة الصـلاة تضرب نـقارة بين يديه في الدويرية فتقـام الصلاة . قـــــال الشيخ ابو محمد عبد الواحد الغرياني لمـا ولي شيخنا القاضي عيسى الغبريني امامة جامع الزيتونة بعد شيخنا ابن عرفة سالني هل عندك علم في مستنـد النقارة التي تنقر بدويرية الجامع اعلاما باقامة الصلاة فاخبرته ان ابي حدثني عن شيخه عبد الله بن عبد البر انه كان اذا اتى للجامع اكثر ما يجلس على اصطبل بازاء باب الجنائز فاذا رءاه المؤذن هناك اقام الصـلاة وقليل جلوسه في الدويرية إلّا لعذر او لرواية كتاب فربما لا يعرف المؤذن هل هو هناك ام لا فتجد خدمة الجامع يهزون تلك النقارة اعلاما بحضوره على وجه الندرة لا على وجه الكثرة فاستحسن اخباري له بهذا والتزم طرح نقرها وقـال اني لم ادرك وجها للخلاص في فعلها وبقي كذلك الى ان مات . قـــال ولمـا ولي بعده الشيخ ابو القاسم البرزلي امامة الجامع اعـاد النقارة اقتداءً بشيخه ابن عرفة الى ان مات رحمه الله

رحمه الله تعالى . قـــال ومن بعده من الايمة من لم يستعملها قط كالشيخ ابي الحسن بن محمد اللحياني وبعضهم من استعملها . قال جامعه عفا الله عنه وهذا والحمد لله لم اره في هذا العصر وان صدر عن اجلة فان النفس تابى نفس استماعه * وفي سـنة تسع وخمسين وسبعمائة توفي امام جامع الزيتونة الشيخ ابو اسحاق البسيلي * وفي عام ثلاثة عشر وثمانمائة توفي الشيخ قاضي الجماعة بتونس وخطيب جامع الزيتونة وامامه ومدرسه ابو مهدي عيسى الغبريني ودفن بالجلاز قـــال القرافي في ذيل الديباج وحلية الابتهاج في طبقات المالكية وذكر كمالاتهم البهية فمن ذلك ما ذكر في وصف الامام المذكور قـــال هو ابو مهدي عيسى بن يحيى بن احمد الغبريني قاضي الجماعة حافظ المذهب . قـال السخاوي في الضوء اللامع قاضي تونس وعالمها وممن اخذ عنه احمد بن محمد القلشاني وغيره كالعجيسي بل نقل عنه البرزلي في فتاويه ووصفه بصاحبنا مات سنة عشر وثمانمائة ثم قال القرافي ايضا وممن اخذ عنه ابن ناجي واثنى عليه بحفظ المذهب دون مطالعة حكى ذلك في شرحه لتهذيب البراذعي في كتاب الظهار عند قولها وجائز ان ينظر الى شعر المراة ووجهها بعد ان حكى عن المغربي يريد ابا الحسن الصغير قولين بالجواز والمنع في نظر المراة بغير لذة من غير عذر فقال ما نصه : والقول بالمنع لا اعرفه وقد سالت عن ذلك من يظن به حفظ المذهب دون مطالعة فكل لم يعرفه كشيخنا ابي مهدي عيسى الغبريني رحمه الله تعالى . انتهى من القرافي . وزاد سيدي احمد بن بابا قـــال هو عيسى بن احمد بن محمد الغبريني ابو مهدي التونسي عالمها وصالحها وقاضي الجماعة بها . قـال ابو زيد الثعالبي شيخنا اوحد زمانه علما ودينا . وقـــال ابن ناجي ممن يظن به حفظ المذهب بلا مطالعة ما رايت اصح منه نقلا ولا احسن ذهنا ولا انصف منه مع كمال الرئاسة سجد بين يديه يوما بعض جهلة المودبيين مشتكيا بشخص فصاح عليه وانتهره وهرب منه وغضب لمخالفته السنة وحلف لا يسمع منه الان كلمة واحدة . وقـال تلميذه الامير

ابو عبد الله محمد المدعو حسينا ابن السلطان ابي العباس الحفصي كان شيخنا
ابن عرفة وشيخنا الغبريني ممن يجتهد في المذهب ولا يحتاج الى دليل اذ
العيان شاهد بذلك . ونقل عنه معاصره البرزلي في ديوانه مواضع . قـال
السخاوي هو قاضي تونس وعالمها اخذ عنه احمد القلشاني والشريف
العجيسي وغيرهما مات سنة ست عشرة وثمانمائة . قـال سيدي احمد
ابن بابا قلت بل اخذ عنه غالب متاخري اصحاب ابن عرفة وغيرهم
كالبسيلي وابي يحيى بن عقيبة وابي القاسم القسنطيني وابن ناجي وعمر القلشاني
وابي الحسن بن عصفور والزنديوي في خلق كثير وولاه ابن عرفة امامة
جامع الزيتونة وهو حينئذ قاضي الجماعة ثم استقل بعده بالامامة حتى
توفي ليلة السبت السابع والعشرين من ربيع الاول عـام خمسة عشر
وثمانمائة قاله احمد القلشاني . وقدم في محله ابو يوسف يعقوب بن
يحيى للقضاء خاصة وقدم في خطط الامامة والخطبة والفتيا بالجامع المذكور
الشيخ الفقيه الحافظ ابو القاسم البرزلي * وفي الخامس والعشرين من ذي
القعدة سنة احدى واربعين وثمانمائة توفي الشيخ الفقيه امام جامع الزيتونة
وخطيبه ومفتيه ابو القاسم البرزلي ودفن بجبل الجلاز وتولى امامة الجامع
وخطابته والفتيا به قاضي الجماعة اذ ذاك الفقيه ابو القاسم القسنطيني
وتولى بعده التدريس بمدرسة ابن تافراجين الفقيه ابو البركات محمد بن
محمد بن عصفور وولي الخطابة بجامع التوفيق والفتيا بعد قاضي الجماعة
قاضي الانكحة الشيخ ابو حفص عمر القلشاني * وفي سنة ست واربعين
وثمانمائة ضُرب قاضي الجماعة الامام المذكور بالجامع المذكور ابو القاسم
القسنطيني بمغروس عند سلامه من صلاة الصبح وهو جالس على سجادته
عند باب البهور فقُتل ضاربه في الحين تحت الصومعة والقي خارج
المسجد ورفع القاضي الى داره وكتب وصيته ومات من الليلة القابلة
وصلي عليه من الغد ودفن بالجلاز وقدم لقضاء الجماعة والخطبة بجامع
الزيتونة والفتيا به بعد صلاة الجمعة الشيخ القاضي ابو حفص عمر القلشاني

وقدم

وقدم للامامة بالجامع المذكور الفقيه ابو عبد الله محمد بن عمر المسراتي خطيب القصبة وقدم للخطابة والفتيا بجامع التوفيق بعد صلاة الجمعة الشيخ الفقيه ابو عبد الله محمد بن عقاب وقدم لقضاء الانكحة والتدريس بمدرسة الشماعين الفقيه ابو عبد الله محمد البحيري * ومن افاضل افريقية من ذكره سيدي ابن بابا ابو محمد عبد الله بن احمد بن محمد بن يوسف عرف بالعشاب الغساني الاندلسي نزيل درعة كان من اهل العلم يعتني بجمع الكتب قيد بيده كثيرا مع حسن خطه ورحل وحج ولقي اعلاما واجازوه كابن عرفة وسعيد العقباني وابن خلدون والعز بن جماعة وكتبوا خطوطهم له الف تحفة الناسك في علم المناسك وآخر سماه المقنع في مناسك المتمتع قال كذا كتبه لي صاحبنا محمد بن يعقوب الاديب المورخ رحمه الله . اه * ومن علماء افريقية وافاضلها محمد بن محمد بن الصباغ الخزرجي المكناسي قال ابن بابا قال ابن خلدون كان مبرزا في المنقول والمعقول عارفا بالحديث ورجاله اماما في معرفة كتاب الموطا واقرائه اخذ العلوم عن مشيخة مكناسة ولقي شيخنا ابا عبد الله الابلي ولازمه واخذ عنه العلوم العقلية واستنقد بقية طلبه عليه فبرز آخرا واستدعاه السلطان ابو الحسن المريني وكان معه حتى غرق في الاسطول قال يعني آخر سنة خمسين وسبعمائة كما تقدم . قال الشيخ ابن غازي في الروض الهتون في مكناسة الزيتون كان ابن الصباغ فقيها شهيرا عالما علامة حاز قصب السبق في المعقول والمنقول ذكره ابن مرزوق الجد في كتابه في مناقب ابي الحسن وابن الخطيب السلماني في بعض فهارسه وابن خلدون وكان من كبار العلماء الذين استصحبهم السلطان ابو الحسن المريني في حركته افريقية واجتمع هناك بالايمة ابن عبد السلام وابن هارون وابي زيد وابي موسى ابني الامام واخذ معهم في العلم واعطى . قال ابن بابا وحدثني شيخنا ابو الحسن بن منون الحسني انه بلغه انه املى في مجلس درسه بمكناسة على حديث « يا ابا عمير ما فعل النغير » اربعمائة فائدة وكان ذلك

ءاخر ما اقرا بها فلم ينشب ان استدعاه السلطان ابو الحسن لصحبته في وجهته لافريقية فلم يكن له مندوحة عن الذهاب وكان احد من غرق من العلماء ببحر تدلس . وذكر بعض الاعيان انه بلغه عنه انه سُمع بمقصورة تلمسان ينشد كالمعاتب لنفسه —

يا قلب كيف وقعت في اشراكهم   ولقد عهدتك تحـذر الاشراكا

ارضى بذل في هوى وصبابة   هـذا لعمر الله قد اشتاكا

ومات في ذلك الاسطول غير واحد من العلماء . وله نظم في علاقات الحجا قال الامام الغوري لم نزل نسمع من شيخنا محمد بن جابر حكاية طريفة وقعت لابن عبد السلام التونسي مع الفقيه ابن الصباغ وهي ان ابن الصباغ اعترض على ابن عبد السلام في اربع عشرة مسالة لم ينفصل عن واحدة منها بل اقر بالخطا فيها « اذ ليس ينبغي اتصاف بالكمال . إلّا لربي الكبير المتعال » * وممـــن تشرفت به افريقية حسبما ذكره ابن بابا محمد بن ابراهيم بن احمد العبدري التلمساني عرف بالابلي الامام العلامة المجمع على امامته العالم العامل بفنون المعقول قال تلميذه المقري كان اماما نسيج وحده ورحلة وقته قائما على جل العلوم النقلية والفنون العقلية وادراكه وصحة نظره مثل قـال ابن خلدون اصله من ابلة من جوفي الاندلس انتقل منها ابوه وعمه فخدما يغمراسن صاحب تلمسان وتزوج ابوه بنت القاضي محمد بن غلبون فولدت له شيخنا هذا ونشا في كفالة جده القاضي بتلمسان فانتحل العلم فسبق لذهنه محبة التعاليم فبرع فيها وعكف الناس عليه في تعلمها فلما اخذ يوسف بن يعقوب تلمسان استخدمه فكره ذلك وسار الى الحج قال فلما ركبت البحر من تونس للاسكندرية اشتدت علي الغلمة في البحر واستحييت من كثرة الغسل فاشير علي بشرب الكافور فشربت منه غرفة فاختلطت فقدمت مصر وبها ابن دقيق العيد وابن الرفعة والصفي الهندي والتبريزي وغيرهم من فرسان المعقول فكان قصاراي تمييز اشخاصهم فحججت ورجعت لتلمسان وقد

افقت

افقت من اختلاطي فقرات المنطق والاصلين على ابي موسى بن الامام ·
قـــال ابن خلدون ثم اراد ابو حمو صاحب تلمسان اكراهه على العمل
ففر لفاس واختفى هناك عند خلوف اليهودي شيخ التعاليم فاخذ عنه
فنونها وحذق · ثـــم دخل مراكش في حدود العشر والسبعمائة ونزل على
شيخ المنقول والمعقول المبرز في التصوف علما وحالا الامام ابن البناء فلازمه
وتضلع عليه في المعقول والتعاليم والحكمة ثم صعد الى الجبل عند علي بن
محمد شيخ الهساكرة فقرا عليه واجتمعت عليه الطلبة فكثرت افادته
واستفادته ثـــم رجع لفاس فانثال عليه طلبة العلم من كل ناحية فانتشر
علمه واشتهر ذكره · ولما لقي السلطان ابو الحسن المريني عند فتح تلمسان
ابا موسى بن الامام اثنى عليه ووصفه بتقدمه في العلوم وكان السلطان
يعتني بجمع العلماء لمجلسه فاستدعاه من فاس فنظمه في طبقة العلماء
فعكف على التدريس والتعليم مع ملازمته للسلطان وحضر معه وقعة
طريف والقيروان · قـــــال ابن خلدون لازمته واخذت عنه فنونا ·
ثـــم طلبه ابو عنان من صاحب تلمسان فاسلمه ونزل بجاية شهرا فقرا
عليه طلبتها اصول ابن الحاجب ثم قدم عليه فنظمه في طبقة اشياخه وكان
يقرا عليه حتى توفي بفاس سنة سبع وخمسين وسبعمائة واخبرني ان مولده
سنة احدى وثمانين وستمائة · قـــال تلميذه المقري اخذ بتلمسان عن
ابي الحسن التنسي وابن الامام ورحل في ءاخر المائة السابعة للمشرق
فدخل مصر والشام والحجاز والعراق ثم رجع لتلمسان ثم للغرب فاخذ عن
ابن البناء وساءل كثيرا من علمائه · قـــال لي قلت لابي الحسن الصغير
ما قولك في المهدي قال ــ عالم سلطان ــ ولقيته بعد فتح تلمسان واخذت
عنه · ولما قدم شيخنا ابن المسفر الباهلي رسولا لفاس عن صاحب بجاية
زاره الطلبة فحدثهم انهم كانوا في زمن ناصر الدين يستشكلون ما وقع في
تفسير الفخر في سورة الفاتحة ويستشكله الشيخ معهم ونصه « ثبت في
بعض العلوم العقلية ان المركب مثل البسيط في الجنس والبسيط مثل المركب

في الفصل وان الجنس اقوى من الفصل » فلما رجعوا الى الشيخ الابلي اخبروه بذلك فاستشكله ثم تامله فقال . فهمته وهو كلام مصحف واصله ان المركب قبل البسيط في الحس والبسيط قبل المركب في العقل وان الحس اقوى من العقل . فرجعوا الى ابن المسفر فاخبروه فلج فقال لهم الشيخ اطلبوا النسخ فوجدوا في بعضها كما قال الشيخ . قال المقري وسمعته يقول ما في الامة المحمدية اشعر من ابن الفارض . وقال له طالب يوما مفهوم اللقب صحيح فقال له الشيخ قل زيد موجود فقاله فقال له الشيخ اما انا فلا اقول شيئا فعرف الطالب ما وقع فيه فخجل . قال وسمعته يقول انما افسد العلم كثرة التآليف واذهبه بنيان المدارس فكان يستنصف من المولفين والبنائين وانه لكما قال بيد ان في شرحه طولا وذلك ان التاليف نسخ الرحلة التي هي اصل جمع العلم فينفق الرجل فيها مالا كثيرا وقد لا يحصل له من العلم الّا نزر يسير لان عنايته على قدر مشقته في طلبه ثم يشتري اكبر ديوان بابخس ثمن فلا يقنع منه اكثر من موقع غرضه فلم يزل الامر كذلك حتى نسي الاول بالاخر وافضى الامر الى ما يسخر منه الساخر واما البناء فاجتذبه الطلبة بما فيه من مرتب الجرايات فيقبل بهم على من يعينه اهل الرئاسة للاجراء والاقراء منهم او من يرضى لنفسه دخوله في حكمهم ويصرفهم عن اهل العلم حقيقة الذين لا يدعون الى ذلك وان دعوا لا يجيبون وان اجابوا لا يفون لهم بما يطلبون من غيرهم . اه . قال ابن بابا ولعمري لقد صدق في ذلك وبر فلقد ادى ذلك الى ذهاب العلم بهذه المدن الغربية التي هي من بلاد العلم من قديم الزمان حتى صار العلم والخطط بها بالتوارث ولا حول ولا قوة الّا بالله العلي العظيم . قال المقري ولقد استباح الناس النقل من المختصرات الغريبة اربابها ونسبوا ظواهر ما فيها لامهاتها وقد نبه عبد الحق في التعقيب على منع ذلك لو كان من يسمع وذيلت كتابه بمثل عدد مسائله اجمع ثم كثروا الرواية فكثر التصحيف وانقطعت سلسلة الاتصال فصارت الفتاوي تنقل من كتب لا يدرى ما زيد فيها مما نقص منها لعدم تصحيحها وقلة

الكشف

الكشف . وكان اهل المائة السادسة وصدر المائة السابعة لا يسوغون الفتيا من تبصرة اللخمي لعدم تصحيحها على مولفها ولان اكثر ما يعتمد هذا النمط ثم انضاف الى ذلك عدم اعتبار الناقلين فصار يوخذ من كتب المسخوطين كالاخذ من المرضيين بل لا نكاد نجد من يفرق بين الفريقين بخلاف من قبلنا حتى تركوا كتب البراذعي على نبلها ولم يستعمل منها على كره من كثير منهم غير التهذيب وهو المدونة اليوم لشهرة مسائله وموافقته في اكثر ما خالف فيه المدونة لابي محمد ثم كُلّ اهل هذه المائة عن حال من قبلهم من حفظ المختصرات وشق الشروح وكبار الاصول فاقتصروا على حفظ ما قل لفظه ونزر حظه فافنوا اعمارهم في حل لغوزه وفهم رموزه ولم يصلوا لرد ما فيه لاصوله بالتصحيح فضلا عن معرفة الضعيف والصحيح بل حل مقفل وفهم مجمل ومطالعة تقييدات زعموا انها تستنهض النفوس فبينما نستكبر العدول عن كتب الايمة الى كتب الشيوخ اتيحت لنا تقييدات للجهلة بل مسودات المسوخ فانا لله وانا اليه راجعون فهذه جملة تجذبك الى اصل العلم وتريك ما غفل الناس عنه . قال المقري وسمعت العلامة الابلي ايضا يقول لولا انقطاع الوحي لنزل فينا اكثر مما نزل في بني اسرائيل لانا اوتينا اكثر مما اوتوا يشير الى افتراق هذه الامة على اكثر مما افترقت عليه بنو اسرائيل واشتهار باسهم بينهم الى يوم القيامة حتى ضعفوا بذلك عن عدوهم وتعدد ملوكهم لاتساع اقطارهم واختلاف انسابهم وعوائدهم حتى غلبوا بذلك على الخلافة فنزعت من ايديهم وساروا في الملك سير من قبلهم مع غلبة الهوى واندراس معالم التقوى . لكننا ءاخر الامم اطلعنا الله من غيرنا على اقل مما ستر منا وهو المرجو ان يتم نعمته علينا ولا يرفع جميل ستره عنا . ومن اشد ذلك اتلافا لعرضنا تحريف الكلم عن مواضعه الصحيحة اذ ذلك لم يكن بتبديل اللفظ اذ لا يمكن ذلك في مشهورات كتب العلماء المستعملة فكيف في الكتب الالهية فضلا عن القرءان وانما هو بالتاويل كما قال ابن عباس وغيره وانت ترى ما اشتملت عليه كتب التفسير من

الخلاف وما حملت الآي والاخبار من ضعاف التاويلات . قيل لمالك لم اختلف الناس في تفسير القرءان فقال قالوا بآرائهم فاختلفوا . اين هذا من قول الصديق « اي سماء تظلني واي ارض تقلني اذا قلت في كتابه عزّ وجلّ برايي » كيف وبعض ذلك انحرف عن سبيل العدل الى بعض الميل واقرب ما يحمل عليه معظم خلافهم كون بعضهم علم فقصد الى تحقيق نزول الاية بسبب او حكم او غيرهما و بعضهم لم يعلموا ذلك تعيينا فلما طال بحثهم وظنوا عجزهم صوروا المسالة بما يسكن النفوس الى فهمها في الجملة ليخرجوا عن حد الابهام المطلق فذكروا ما ذكروه على وجه التمثيل لا القطع بالتعيين بل منه ما لا يعلم انه اريد لا عموما ولا خصوصا لكنه يجوز ان يكون المراد وقريبا منه وما يعلم انه مراد بحسب الشركة والخصوصية ثم اختلط الامران . والحق ان تفسير القرءان من اصعب الامور فالاقدام عليه جرءة . وقد قال الحسن لابن سيرين ـ تعبر الرويا كانك من ءال يعقوب فقال له ـ تفسر القرءان كانك شهدت التنزيل ـ وصح انه عليه الصلاة والسلام لم يفسر من القرءان إلّا آيات معدودة وكذا الصحابة والتابعون بعدهم . وتكلم اهل النقل في صحة ما نسب لابن عباس من التفسير الى غير ذلك ولا رخصة في تعيين الاسباب والناسخ والمنسوخ إلّا بتوقيف صحيح او برهان صريح وانما تفهيم ما تعرفه العرب من لغة واعراب و بلاغة لبيان اعجاز ونحوها . قال ابن بابا قلت واخذ عن صاحب الترجمة من لا يعد كثرة من الايمة كالشريف التلمساني وابن الصباغ المكناسي والشرف الرهوني وابن مرزوق الجد وابو عثمان العقباني وابن عرفة والولي ابن عباد وابن خلدون في خلق اجلاء * ومن اعيان تونس محمد ابن حيدرة قال ابن بابا محمد بن حيدرة ابو عبد الله التونسي قال ابن خلدون في رحلته امام المعارف وفرع الاصل العزيز . المعترف له في البلاغة والبراعة والفصاحة بالسبق والتبريز . برع في الادب والتصوف ونبغ في المعقول والمنقول مع نفس عصامية وفكرة اياسية انقبض في

منزله

منزله بعد وفاة اصحابه على العبادة ، إلّا عن طالبي مجلسه للاستفادة ، فتزاحم الخلق عليه حتى غدا مجلسه بتونس يجتمع اصناف اهل العلم اولي التقوى والفهم فهو اليوم كعبة العلوم حببه الله للانفس مع صدق مصاحبة وحسن مداعبة وكثرة خشية ومراقبة الى قريحة وقادة وفطنة نقادة وخوض في العلوم الشرعية والطبيعية والمشارب الذوقية والعطايا الحاتمية والزهد في الدنيا واجابة الدعوة والخلو من الزهو والنخوة لازمته لما رايت من نجاح دعواته وقلت له يوما سيدي علم الله اني احبك فقال لي ابشر فاني رايت رسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم فقال لي « يا محمد رزقك الله التقوى وحببك الى خلقه وجعل من يحبك من عباده المومنين قال فمن علمت انه احبني علمت انه من المومنين » مولده ثاني عشر ربيع الثاني عام اثنين وثمانين وستمائة ، اه * ومن فضلاء مدينة تونس محمد بن محمد البدوي الاندلسي قال ابن بابا هو خطيب بلش قال في الاحاطة كان ذا قدم في الفقه عارفا بالاصلين شاعرا مجيدا فصيحا بليغ الخطبة حسن الوعظ سريع الدمعة حج ولقي اجلة واقرا ببلده بلش وانتفع به ولقي شدائد من الحساد قرا على ابي جعفر بن الزبير وابن الكماد ولازم ابا عمر بن منظور في الاصلين والعربية وانتفع به واخذ الفقه عن ابن عبد السلام بتونس ومن شعره في التشبيب —

خال على خديك ام عنبر ... ولولو ثغرك ام جوهر

اضرمت نار الحب وسط الحشا ... فصارت النار به تسعر

لو جدت لي منك برشف اللما ... لقلت خمر عسل سكر

دعني في الحب اذب حسرة ... سفك دم العاشق لا ينكر

توفي سنة خمسين وسبعمائة * ومنهم محمد بن عبد الرزاق الجزولي قال ابن بابا قال ابن خلدون شيخنا شيخ وقته جلالة ونزاهة وتربية وعلما وخبرة اخذ عن شيوخ فاس وتفقه بتونس عن ابن عبد الرفيع وابي عبد الله النفزاوي وطبقتهما ولازم الاكابر ولي قضاء فاس ثم عزل عنها اخيرا ،

وقال غيره كان فقيها قاضيا معمرا راوية من الفضلاء روى عنه الخطيب ابن مرزوق توفي سنة ثمان وخمسين وسبعمائة بفاس * وفي اوائل عام سبعة واربعين وثمانمائة مرض قاضي الجماعة خطيب جامع الزيتونة ومفتيه الفقيه ابو حفص عمر القلشاني وطال مرضه واتصل الى ان توفي ليلة الاربعاء الرابع والعشرين من شهر رمضان المعظم وصلي عليه من الغد بجامع الزيتونة بعد صلاة الظهر ودفن بجبل الجلاز بازاء قبر والده وكانت ولادته ببجاية ليلة السبت الثانية من شوال عام ثلاثة وسبعين وسبعمائة فكان عمره اربعة وخمسين عاما غير سبعة ايام . وقدم بعده لقضاء الجماعة والفتيا بجامع الزيتونة بعد صلاة الجمعة به والخطابة بجامع القصبة الشيخ الفقيه ابو عبد الله محمد بن عقاب وتولى التدريس بمدرسة عنق الجمل ولده الشيخ ابو عبد الله محمد وتولى الخطابة بجامع الزيتونة الشيخ ابو عبد الله محمد المسراتي وقدم للخطابة بجامع التوفيق والفتيا بعد صلاة الجمعة الفقيه القاضي ابو العباس احمد القلشاني * وفي يوم الجمعة ثامن عشر شوال عام ثمانية واربعين وثمانمائة توفي امام جامع الزيتونة وخطيبه الشيخ ابو عبد الله محمد المسراتي ودفن من الغد بالجلاز . وقدم بعده للامامة والخطبة قاضي الجماعة اذ ذاك الفقيه ابو عبد الله محمد بن عقاب وتولى التدريس بعده بمدرسة التوفيق اخوه الفقيه ابو العباس احمد وتولى ايضا الخطابة بجامع القصبة * وفي ليلة الاثنين سابع عشر جمادى كذا وجدته بغير تقييد كونه الاولى او الاخرى عام احد وخمسين وثمانمائة توفي قاضي الجماعة بتونس ابو عبد الله محمد بن عقاب بعد صلاة العشاء وصلي عليه من الغد بجامع الزيتونة بعد صلاة الظهر ودفن بجبل المرسى بجبانة الشيخ ابي سعيد الباجي . وولي بعده قضاء الجماعة والتدريس بمدرسة سوق الفلقة الشيخ القاضي احمد القلشاني وقدم حفيده احمد ابن شقيقه عبد الله لقضاء الجزيرة والتدريس بالمدرسة المجاورة لسيدي محرز . وقدم الفقيه القاضي ابو عبد الله محمد بن ابي بكر الوانشريسي للامامة والخطابة بجامع

الزيتونة

الزيتونة في ثالث المحرم فاتح عام اثنين وخمسين وثمانمائة ، وقدم الشيخ الفقيه قاضي الانكحة بتونس ابو عبد الله محمد البحيري للفتيا بجامع الزيتونة بعد صلاة الجمعة في الثاني من المحرم المذكور فكان يخطب بجامع ابي محمد بربض باب السويقة وياتي للفتيا بجامع الزيتونة * وفي عصر يوم الاربعاء خامس ربيع الثاني من عام ثلاثة وخمسين وثمانمائة توفي امام جامع الزيتونة وخطيبه الشيخ ابو عبد الله محمد بن ابي بكر الوانشريسي ودفن من الغد بالجلاز وقدم بعده خطيبا الشيخ ابو عبد الله محمد البحيري في يوم الجمعة سابع الشهر المذكور ، وقدم اماما الفقيه ابو الحسن اللحياني وخطيبا بجامع ابي محمد * وفي عشية يوم الاثنين خامس ذي القعدة من عام ثمانية وخمسين وثمانمائة توفي بتونس الفقيه القاضي خطيب جامع الزيتونة الشيخ ابو عبد الله البحيري ودفن من الغد بالجلاز * وفي يوم السبت الخامس عشر من رجب العام المذكور بعث السلطان ام ولده لقاضي الجماعة بتونس ابي العباس احمد القلشاني يخيره ان يتولى خطابة جامع الزيتونة والفتيا به بعد صلاة الجمعة عوض الشيخ البحيري مع القضاء او يترك القضاء ويبقى على خطبته خاصة فاستخار الله في ذلك وكتب براءة بخطه في ذلك في سابع رجب باختيار الخطبة والفتيا واستعفائه عن قضاء الجماعة فاعفاه وكتب له بذلك اوائل شعبان واضاف له ايضا مدرسة الشماعين بعد ان بقي يحكم بين الناس في تونس في قضاء الانكحة مع قضاء الجماعة الى وقت استعفائه وكانت مدة نحو ثمانية اشهر * وفي الثاني عشر من المحرم سنة احدى وستين وثمانمائة توفي الشيخ ابو الحسن اللحياني امام جامع الزيتونة وقدم عوضه اماما الفقيه احمد المسراتي في اوائل صفر من العام المذكور وقدم عوضه خطيبا بجامع ابي محمد ومفتيا به قاضي الانكحة ابو العباس احمد القسنطيني * وفي يوم الاحد عند غروب الشمس منه ثامن شعبان سنة ثلاث وستين وثمانمائة توفي بتونس الشيخ الفقيه المفتي خطيب جامع الزيتونة ابو العباس احمد القلشاني وصلي عليه من الغد بجامع الزيتونة

بعد صلاة الظهر ودفن بجبل الجلاز وحضر لدفنه المولى السلطان ابو عمرو عثمان ووجوه اهل دولته وكان عمره اربعا وثمانين سنة * وفي تاسع عشر شعبان من السنة المذكورة خرج السلطان بمحلته ونزل الزعترية وامر ليلة حلوله بالمكان بتثقيف الفقيه احمد القسنطيني وعزله عن جميع خططه من قضاء الانكحة ومن الخطابة بجامع الزيتونة والفتيا به والدعاء عقب ختم البخاري بالضرب السعيد على عادة قضاة الانكحة وفي صبيحة تلك الليلة قدم الفقيه احمد المسراتي خطيبا بجامع الزيتونة وقدم قاضي الجماعة الفقيه محمد القلشاني خطيبا بجامع القصبة ومفتيا بجامع الزيتونة بعد صلاة الجمعة * وفي اوائل ذي الحجة من السنة المذكورة ورد الامر من المحلة لقاضي الانكحة برجوعه لقضاء الانكحة والخطابة بجامع الزيتونة والفتيا به والدعاء عقب ختم البخاري وبقي في خططه الى ان توفي ثاني عشر شوال سنة اربع وستين وثمانمائة وبلغ من السن اربعين سنة وقدم بعده لقضاء الانكحة الشيخ ابو عبد الله محمد الزواوي وقدم بعده خطيبا في جامع ابي محمد من ربض باب السويقة ومفتيا به بعد صلاة الجمعة ومدرسا بالمنتصرية وصاحب الاحباس الفقيه ابو عبد الله البيدموري * وفي شعبان سنة ثمان وستين وثمانمائة وردت الختمة العظيمة الشان هدية من الاندلس للجامع الاعظم جامع الزيتونة وهي التي يقرا فيها اليوم عند التوابيت قبل صلاة الصبح وقبل صلاة العصر وكنت سالت عنها الشيخ ابا عبد الله محمد حمودة العامري نائب الجامع اليوم بالخمس والخطبة فقال ليست هذه التي بكرسي وقتنا وقال اني وجدتها في بيت الحرم ملقاة تحت الحرم بالبكرية وعدت عليها الارض فهلك من قصار المفصل الى فاطر ودفة السفر اليمنى وباقيها طيب الى الان ولكن ما وقعت عين الناظر على مثلها ضخامة جرم وحسن خط وبذل ذهب واحكام سفر وصحة رسم واتقان حروف * وفي اواخر ذي القعدة من سنة ثمان وستين وثمانمائة امر الامير ابو عمرو عثمان بصنع القلاع على جامع الزيتونة يوم الجمعة ليقي الناس من حر الشمس

زمن

زمن المصيف * وفي اول سنة تسع وستين وثمانمائة امر الامير المذكور بالقراءة بجامع الزيتونة قبل صلاة الصبح وقبل صلاة الظهر وصلاة العصر بالختمة العظيمة المهداة المذكورة ورتب لها اربعة من القراء اصواتهم حسنة * ومن الخطباء الاجلة بمنبر جامع الزيتونة الشيخ ابن عبد الستار وقد ذكره الشيخ خالد البلوي في رحلته من الاندلس الى المشرق والحرمين الشريفين وقال الفاضل في الولاية . والعلم المتسع والدراية . الشيخ العالم العامل خطيب الجامع الاعظم . والراقي بقدم الصدق ذروة منبره المعظم . ابو عبد الله بن عبد الستار نفعنا الله به عامين امام من ايمة الفروع والتفسير . وسراج يهتدى به في ظلمة الدياجير . انتهى من الفضل الى اقصى امده . وكرع في بحره لا في ثمده . وحل منزلة منيعة من علم اللسان . ونظرت به عين التمييز كالانسان . اضاءت بانوار معارفه البلاد . وترادف على محله العلي العلمي القصاد . وعلا سنه وسناه . وبلغ من وعي المعارف الدينية والاحاديث الكريمة النبوية قصده ومناه . له جلالة السبق . ومهابة الولاية والصدق . ومكانة القبول عند الخالق والخلق . ذو زهد في الدنيا واعراض عن زهراتها . وعزوف عن طلابها . كان يدرس العلوم في مدرسة الكتبيين التي استوطنتها فسمعت عليه كثيرا من التفسير والحديث والفروع والاصول وغير ذلك ولازمته وانتفعت به وشاهدت له كرامات ومقامات لا تصدر الّا من مثله او من الولي الذي من قبله . قلت يعني به الشيخ المنتصر وهو المدفون غربي الامام ابن عرفة . قال رحل الى حج بيت الله الحرام . وزيارة قبر النبي عليه افضل الصلاة وازكى السلام . ففاز من ذلك بغاية سوله . ونهاية مطلبه ومامولة . وتواتر عنه انه لما رجع الى وطنه اعاد جميع صلواته التي كان صلاها في سفره . اذ لم ترتضها عبادته النزيهة ومعالي سيره . وها هو قد نطح في السنين . ونيف على التسعين . فما ضعفت له قط مواد العبادة . ولا تعطلت منه تلك المدرسة عن الدول المعتادة . قال ومما نقلت منها ان الواقدي رفع الى المامون قصة يشكو

فيها غلبة الدين وقلة الصبر فوقع عليها ـ انت رجل فيك خلتان السخاء والحياء فاما السخاء فهو الذي اطلق ما في يديك واما الحياء فهو الذي بلغ بك ما انت عليه وقد امرنا لك بمائتي الف درهم فان كنا اصبنا ارادتك فازدد في بسط يدك . وان كنا لم نصبها فبجنايتك على نفسك . فانت كنت حدثتني وانت على قضاء الرشيد ـ ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للزبير « يا زبير ان مفاتيح الارزاق بازاء العرش ينزل الله للعباد ارزاقهم على قدر نفقاتهم فمن كثر كثر له ومن قلل قلل له » قال الواقدي وكنت نسيت هذا الحديث فكانت مذاكرته اياي به اعجب الي من صلته * وممـــــن تشرفت بانسه تونس حسبما عرف به ابن بابا فقال ابو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي وبه عرف الجزائري الشيخ الامام العالم العامل الورع الزاهد الصالح الناصح ولي الله العارف به من الاولياء المعرضين عن الدنيا ومن خيار الصالحين قـــال السخاوي كان اماما علامة مصنفا اختصر تفسير ابن عطية في جزئين وشرح فرعي ابن الحاجب في جزئين ايضا وعمل في الوعظ والدقائق وغيرها . وقـال الشيخ احمد زروق شيخنا الفقيه الصالح ديانته اغلب عليه من العلم كان يتحرى في النقل اتم التحري ولا يستوفيه في بعض المواضع . وقـــال ابن سلامة كان رجلا صالحا زاهدا عالما عارفا وليا من اكابر العلماء له تآليف جمة اعطاني نسخة من تفسير الجواهر لا تشترى بثمن ولا تعوض عاوضه الله عنها بالجنة . وقـــال غيره وسيلتنا لربنا الولي الصالح العارف بالله . قـــال ابن بابا قلت وهو ممن اتفق الناس على صلاحه وامامته اثنى عليه جماعة من شيوخه بالعلم والدين والصلاح كالامام الابي والولي العراقي وكالامام ابن مرزوق رحل من جهة الجزائر آخر الثامنة ودخل بجاية عام اثنين وثمانمائة فلقي بها الايمة المقتدى بهم علما ودينا وورعا اصحاب احمد بن ادريس واصحاب عبد الرحمن الوغليسي متوافرين يومئذ اصحاب ورع ووقوف مع الحد لا يعرفون الامراء ولا يخالطونهم وسلك اتباعهم مسلكهم

كشيخنا

كشيخنا الامام الحافظ علي بن عثمان المكلاتي والفقيه الولي سليمان بن الحسن وعلي بن محمد البليليتي وعلي بن موسى والامام ابي العباس النقاوسي واخذ عنهم واعتمد على الاولين ثم دخل تونس عام تسعة او عشرة فاخذ عن اصحاب ابن عرفة كعيسى الغبريني وعالم المعقول والمنقول الابي وعليه عمدته والبرزلي ويعقوب الزغبي وغيرهم ثم رحل للمشرق فسمع بعض البخاري على اللالي وكثيرا من اختصار الاحياء له وحضر عند الشمس البساطي واخذ علوما جمة على الولي العراقي منها علم الحديث واجازه وفتح له فتحا عظيما ثم رجع لتونس فاذا ابو عبد الله القلشاني خلفه الغبريني في موضعه عند موته قال فلازمته واخذت عنه البخاري إلّا يسيرا عن البرزلي ولم يكن بتونس يومئذ من يفوقني في علم الحديث اذا تكلمت انصتوا وقبلوا ما ارويه تواضعا منهم وانصافا واعترافا بالحق وحضرت ايضا شيخنا الابي واجازني ثم قدم تونس شيخنا ابن مرزوق عام تسعة عشر فاقام بها نحو سنة فاخذت عنه كثيرا وسمعت عليه الموطا بقراءة الفقيه ابي حفص عمر القلشاني ابن شيخنا ابي عبد الله واجازني واذن لي هو والابي في الاقراء واخذت عن غيرهم . قال ابن بابا ومن شيوخه الشيخ المحدث عبد الواحد الغرياني والحافظ ابو القاسم العبدوسي وابن قريشة الف كثيرا كتفسيره الجواهر الحسان فيه زبدة ابن عطية مع فوائد وزوائد كثيرة وروضة الانوار ونزهة الاخيار وهو قدر المدونة فيه لباب نحو من ستين من امهات الدواوين المعتمدة بقي في جمعه سنين كثيرة وهو خزانة كتب لمن حصله وكتاب الانوار في معجزات النبي المختار صلى الله عليه وسلم والانوار المضيئة الجامع بين الشريعة والحقيقة في جزء ورياض الصالحين جزء وكتاب التقاط الدرر وكتاب الدر الفائق في الاذكار والدعوات والعلوم الفاخرة في امور الاخرة مجلد ضخم وشرح ابن الحاجب الفرعي في سفرين جمع فيه نخب كلام ابن راشد وابن عبد السلام وابن هارون وخليل وغرر ابن عرفة مع جواهر المدونة وعيون مسائلها في سفرين وفي آخره جامع كبير نحو عشر كراريس

من القالب الكبير فيه فوائد وارشاد السالك جزء صغير والاربعون حديثا مختارة والمختار من الجوامع في محاذاة الدرر اللوامع وكتاب جمع الفوائد وكتاب جامع الامهات في احكام العبادات وكتاب النصايح وكتاب تحفة الاخوان في اعراب بعض ءاي القرءان والذهب الابريز في غريب القرءان العزيز وكتاب الارشاد في مصالح العباد ذكر جميعها في فهرسته ولد عام ستة او سبعة وثمانين وسبعمائة وتوفي كما ذكره الشيخ زروق عن حفيده سنة خمس وسبعين وثمانمائة عن نحو تسعين سنة كما ذكره السخاوي اخذ عنه جماعة كالعالم الشيخ محمد بن مرزوق الكفيف والامام السنوسي واخيه لامه علي التالوتي والامام محمد بن عبد الكريم المغيلي . ومن فوائده ما ذكره في كثير من كتبه قال ومما جربته من الخواص ان من اراد ان يستيقظ اي وقت شاء من الليل فليقرا عند الرقاد حين يغلبه النعاس بحيث لا يتجدد عقبها خاطر آية « افحسب الذين كفروا » الى آخر السورة فانه يستيقظ في الوقت الذي نواه بلا شك وهو من العجائب المقطوع بها . قال وفي الصحيح ان في الليل ساعة لا يوافقها مسلم ويسال الله شيئا إلّا اعطاه الله اياه فاذا اردت معرفة هذه الساعة فاقرا عند نومك « ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم » الى آخر السورة فانك تستيقظ في الساعة بفضل الله تعالى وربما تكرر تيقظك لامر اراده الله وهذا مما الهمت وما كتبته إلّا بعد استخارة واياك ان تدعو فيه على مسلم وان ظالما وإلّا فالله حسيبك وبين يديه انا خصيمك وهي فائدة عظيمة . اه . قلت وذكر ابن بابا بعض كراماته نفعنا الله تعالى به * ومنهم العالم العلم قدوة الايمة واستاذ اساتيذ الامة ابو عبد الله محمد بن بدال ابقى الله بركته قال الشيخ خالد البلوي رجل اتاه الله كتابه . وفتح عليه فيه ابوابه . ووفقه في ءادابه الى الصواب فاصابه . فاجتمع الناس اليه . وتناغى المجودون من اهل القرءان في التلقف منه وانثالوا عليه . فقامت له سوق المحامد ببضائع تبجيله . وسيقت الى اعتاب اكرامه وتفضيله . قال وكان هذا

الشيخ

الشيخ قد اوتي من حسن اللفظ بالقراءة ما لم يوته احد ممن بقي على الارض في هذا الوقت باجماع . حضرت قيامه في ليالي شهر رمضان بالاشفاع . وانتدب الناس الى سماعه من النواحي والبقاع . فما قرع سمعي ولا وقع في اذن قلبي احسن منه صوتا ولا احلى تلاوة ولا اعذب ايرادا ولا اطيب مساقا ولا اعجب احكاما ولا اغرب ترتيلا ولا اجمل جملة وتفصيلا . قال ولقد كنت حين قراءتي عليه على قساوة قلبي وغباوة لبي انغاشى واتلاشى ويضج جامع الزيتونة باهله ويغص بجمعه فبين باك وداع وغاش وخاشع وساقط من القيام وعادم وجوده في ذلك المقام كلهم يفعل فيهم صدقه ويسكتهم نطقه ويسكرهم ذوقه . قال قرات عليه القرءان العظيم بالقراءات السبع جمعا في ختمة واحدة وبالادغام الكبير في رواية ابي عمرو بن العلاء وترك الهمزة من طريق اهل الرقة بطريق الامام ابي عمرو الداني رحمه الله قال وهو آخر من قرات عليه السبع من الايمة المقرئين الاساتيذ المبرزين وعددهم اثنا عشر شيخا ما منهم الّا من قرات عليه القرءان العظيم بالقراءات السبع افرادا وجمعا او افرادا او جمعا اولهم الاب المرحوم ناجلي الكفيل بتربيتي في نشاءتي . وناحلي اول موهبة من تدبيري في بداتي . والدي عيسى رضي الله عنه قاضي بلد قلورية وخطيبها ووالى كافة امورها مدة ازيد من اربعين سنة قرات عليه بالقراءات السبع على عود بعد بدء جمعا بعد افراد وقرا هو بالقراءات السبع على والده جدي الاستاذ الخطيب الحاج الزهيد ابي جعفر وقرا والده جدي الاستاذ القراءات السبع على جماعة منهم والده الخطيب الصالح ابو اسحاق ابراهيم وقرا والده جد والدي بالقراءات السبع كذلك على جماعة منهم والده الخطيب ابو جعفر احمد بن علي بن خالد رحمة الله على جميعهم وهكذا تتصل هذه السلسلة بالقراءات السبع الى سابع جد والحمد لله تعالى على ذلك وحدثني شيخي هذا انه قرا بالقراءات السبع افرادا مع الادغام الكبير في رواية ابي عمرو بن العلاء وترك الهمزة من طريق اهل الرقة ثم جمع السبع في ختمة كاملة وقرا قراءة ابي محمد يعقوب

الحضرمي على الشيخ الفقيه المقري الصالح الراوية ابي العباس احمد بن موسى بن عيسى بن ابي الفتح الانصاري المشتهر بالبطرني وحدثه انه قرا بالسبع على الشيخ الفقيه المقري الخطيب القاضي ابي محمد عبد الله بن يوسف بن ابي بكر بن عبد الاعلى المعافري الشبارتي بقراءة نافع افرادا وجمعا وباقي السبع ختمة جمعا لكل امام ثم جمع عليه السبع في ختمة كاملة مع الادغام الكبير وقال قرات على خاتمة المقرئين بشرق الاندلس ابي جعفر احمد بن يحيى بن عون الله الحصار بقراءة نافع افرادا وجمعا قال وجمعت عليه السبع بختمة كاملة قال وقرات السبع افرادا وجمعا مع الادغام الكبير فيهما على الشيخ الفقيه الزاهد ابي الحسن علي بن محمد بن علي بن هذيل البلنسي قال قرات جميع ذلك على الشيخ الفقيه المقري ابي داوود سليمان بن نجاح الاموي قال قرات جميع ذلك على الامام الحافظ ابي عمرو عثمان بن سعيد بن عثمان الداني بسنده في كتاب التيسير . قال البلوي وكل ذلك قراته عليه مع القصيدة اللامية المسماة بحرز الاماني التي من نظم الامام ابي القاسم بن فيره الشاطبي رحمه الله تعالى قراءة تثبت وتبيين لمعانيها واعراب لمشكلاتها وايضاح لاسرارها واستخراج لغوامضها وجميع عقيلة اتراب القصائد من نظم الشاطبي ايضا . قال وحدثني بجميع ذلك عن شيخه ابي العباس البطرني المذكور . قال ولشيخي هذا اسانيد غير هذه وسماع وتبتل وانقطاع ومواصلة للقرءان واعتناء بذلك الشان فجمع بين علو الاسناد والسلسلة الذهبية وتوسع كثيرا في اللغة والعربية وتتبع من هذه الطريقة الادبية يعمر بها مجالسه ويفيد منها مجالسه قال انشدني لبعض الشعراء —

اني غريب بدار لا كرام بها كغربة الشعرة السوداء في الشمط
لا اطلق العين في شيء اسر به ولا انال الرضى إلا على سخط

قال وانشدني لبعضهم —

تمتع بالرقاد على الشمال فسوف يطول نومك باليمين

ومتع

ومتع من يحبك باجتمـــاع   فانت من الفراق على يقــين

قـــال وانشدني لبعضهم —

ان الليالي للانام منـــاهل   تطوى وتنشر دونها الاعمـــار
فقصارهن مع الهموم طويلــة   وطوالهن مع السرور قصـــار

قـــال وكان رضي الله عنه رقيق الاشارة مليح العبارة حلو الحكايات عالي الروايات مع مروءة ظاهرة وتمام خلقة وهدى وسمت ووقار لا كفاء له الى حسن البيان وعذوبة اللسان —

مليح كالرياض غازلت الشمـــس رباها وافتر عنها الربيـــع
فهي العين منظر مونق الحســـن وفي النفس سودد مجموع

قـــال ذكر لي انه دخل بعض الملوك على جارية له وقد دهن شعره بدهن بيضه به فقال يخاطبها —

ان البياض مليـــح   لا شيء في الحسن بعده

فاجابته الجارية في الحين —

اهواه من كل شيء   الا من الشيب وحده

فاستحسن جوابها واحسن ثوابها . قـــال واخبرني ان بعض الشعراء دخل على بعض الاكابر مادحا له بشعر قاله فيه فوجد عنده حلاقا قد قصر من شعره واجزل له في العطاء ولم يعط الشاعر شيئا فقال مرتجلا —

ارى من جاء بالموسى مواسى   وراحة ذي القريض تروح صفرا
فهذا منجح ان قص شـــعرا   وهذا مخفق ان نص شـــعرا

قـــال واخبرني انه مدح ابا الحسن بن الفضل احد الوزراء بمراكش كان اقرع فلم يثبه فقـــال —

اهديت مدحا للوزير الذي   مانبه المجد فلم يسمـــع
فحامل الشعر اليه كمن   يهدي به مشطا الى اقرع

قـــال واخبرني ان سالم بن قاسم من بني مهنا الحسنيين اهدى لصلاح الدين بن ايوب مروحة بيضاء وفيها مكتوب بالاحمر —

انا من نحاس تجاور قبرا ساد من فيه سائر الخلق طرا
شملتني سعادة القبر حتى صرت في راحة ابن ايوب اقرا

وقد كان الرسول بها قال لصلاح الدين خذ هذه فما اهدي لك ولا لابيك مثلها فغضب السلطان من هذا الكلام فقال الرسول لا تعجل وانظر ما فيها من الكلام فلما نظرها وقرا البيتين قبلها ووضعها على راسه وقال صدق الشريف ما وصلتني قط هدية مثل هذه . قال وقرات عليه من كتب القراءات والحديث وغيرها تصانيف كثيرة استوفيتها باسانيدها في برنامج روايتي الشيخ واجازني اجازة تامة مطلقة عامة وكتب لي بخطه ومولده عام ثمانية وستين وستمائة * ومنهم احمد بن محمد بن عثمان الازدي ابو العباس المراكشي عرف بابن البناء لحرفة ابيه من ايمة العلم حتى قال الحافظ بن راشد ما رايت عالما بالمغرب الّا رجلين ابن البناء بمراكش وابن الشاط بسبتة وقال غيره كان اماما معظما عند الملوك له حظ وافر في علوم الشريعة مع الغاية القصوى في العلوم القديمة قال تلميذه البجاءي كان وقورا حسن السيرة قوي العقل فاضلا مهذبا حسن الهيئة معتدل القد رفيع الثياب طيب المآكل يسلم على من لقيه ينصرف عنه من كلمه راضيا محبا عند العلماء والصلحاء ذا اجادة مع قلة الكلام جدا لا يهذر ولا يتكلم بغير علم يسكت جميع الناس لكلامه محققا قليل الخطا قال ابن شاكر له حظ وافر في علوم الهيئة والتنجيم لازم الولي ابا زيد الهزميري فاعطاه ذكرا دخل به الخلوة نحو سنة ودعا له وقال له مكنك الله من علوم السماء كما مكنك من علوم الارض واطلعه ليلة على دائرة الفلك حتى شاهدها وعاين مجرى الشمس فهاله ذلك فسمع الشيخ ابا زيد يقول له اثبت حتى تستوفي ثم قال له قد فتح عليك في ما رايت فوصل من وقته الغاية في الهيئة والنجوم وكان يداوم الصوم والخلوة لتصحيح امر الفلك حتى راى مرة وهو مصل بين يديه قبة نحاس محبوسة في الهواء لا مثل لها وفي وسطها شخص متعبد فهاله ما راى ولم يثبت لذلك وسمع اصواتا هائلة تناديه « أن أدْنُ منا يا ابن البناء »